في

تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس



عزيز سالم

ضارة الإسلامية

الإسكندرية

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت: ٣٩٤٧٢ اسكندرية

١٩٨٥

في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس

تأليف
الدكتور السيد عبد العزيز سالم
أستاذ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية
كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية

١٩٨٥

الناشر
مؤسسة شباب الجامعة
للطباعة والنشر والتوزيع
ت ٣٩٤٧٢ إسكندرية

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة

تتعلق موضوعات هذا الكتاب بجوانب متفرقة من حضارة الاسلام فى الأندلس ، وكانت قد صدرت منذ ما يقرب من خمس وعشرين سنة مضت فى دائرة معارف الشعب التى كانت تصدرهـا جريدة الشعب ، تحت مادة « أندلس » ، وذلك فى محاولة أولية من القائمين بدار الشعب لجمع كل ما يتعلق بتاريخ وحضارة الأندلس تمهيدا لتنظيم مادتها فيما بعد وفقا لما هو متبع فى دوائر المعـارف الشعبية ، وقـد راعيت أنذاك البساطة التامة فى صياغة موضوعات هذه المادة لكى تؤدى الهدف منها، فيستوعبها القارىء العادى أو المثقف .

واستمر صدور مواد دائرة معارف الشعب فتـرة تقرب من أربع سنوات ثم توقفت فجأة ، ولم يقدر لها أن تستمر على الرغم من الاقبال الشديد على اقتناء الأعداد الصادرة منها ، والحق لقـد حققت الأعداد الأولى الصادرة من دائـرة معارف الشعب ، لاسيما مـا يتصل بمادة الأندلس التى صدرت فى أعداد ٦١ ، ٦٤ ، ٦٧ ، نجاحاً تجاوز كل تقدير، بحيث لم تمض سنوات حتى نفذت الأعداد الكبيرة التى صدرت منها .

وقد لاحظت أن عدداً كبيرا من طلاب الجامعات المصرية والباحثين فى مجال الدراسات الأندلسية وجمهور المثقفين كانوا يقبلون بشغف على هذه الموضوعات بل أن بعض الباحثين كانوا يعتمدون عليها فى بحوثهم، الى حد أن بعض الزملاء طلبوا منى ضرورة جمعها فى كتاب واحد تيسيرا للرجوع اليها والافادة منها ، بل ان نفرا من المبعوثين العرب فى اسبانيا كانوا يستخدمون ماصدر من هذه الدائرة فى مجال حضـارة الأندلس عند زياراتهم لمدن الأندلس للتعرف على ماضيها الزاهـر المجيد وآثارها الباقية من العصر الاسلامى .

كان ذلك هو فى الحقيقة الدافع الرئيسى من وراء اعادة نشر هذه المقالات فى هذا الكتاب . وقد مهدت موضوعات الكتاب بدراسة تاريخية

مقتضبة للغاية عن تاريخ الأندلس ولكنها تكفى للقارىء العادى المثقف أن يطلع على مجريات هذا التاريخ وأبرز وقائعة ، ثم خصصت القسم الأولى لدراسة أشهر مدن الأندلس وأكثرها ارتباطا بالتاريخ الاسلامى، وقد بلغ عدد هذه المدن ١٥ مدينة ، وراعيت أن يلم القارىء المامة كافية بتاريخ كل مدينة والدور السياسى والحضارى الذى لعبته طوال عهدها الاسلامى وأهم الآثار الباقية من هذا العهد بالاضافة الى عرض سريع لنطاقها العمرانى وأهم معالمها وزودت المادة العلمية بخرائط وصور ورسوم توضيحية ، ثم انتقلت الى عرض واف للفنون الاسلامية بالأندلس ، وبدأت بالحديث عن فنون الغناء والموسيقى وعن العمارة الدينية على مدى التاريخ الاسلامى • والعمارة المدنية من قصور وحمامات وفنادق وقيساريات ودور صناعة للسفن وجسور للمياه وقناطر ، ثم انتقلت الى دراسة العمارة الحربية من أسوار وقلاع وقصاب ، واختتمت موضوعات العمارة فى الأندلس بذكر التأثيرات المعمارية فى الفن الاسلامى والفن المسيحى باسبانيا وفرنسا وانتقلت بعد ذلك الى الحديث عن الفنون والصناعات فى الأندلس ، وأتبعتها بدراسة الحياة العلمية والأدبية وتأثير الثقافة الأندلسية فى اسبانيا وأوربا ، وأخيرا تناولت بالدراسة النظم السياسيةفى الأندلس ، واختتمت الكتاب بتراجم لبعض الشخصيات التاريخية الهامة فى تاريخ الأندلس •

وبعد ، فأرجو أن أكون قد حققت الهدف من اعادة طبع هذه المادة الأندلسية فى هذا الكتاب ويسرت على القارىء مهمة الاطلاع على تراثنا العظيم فى أرض الأندلس •

والله الموفق

دكتور السيد عبد العزيز سالم

الاسكندرية فى ٩ يونيو ١٩٨٤ م

٩ رمضان ١٤٠٤ هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

الأندلس

الأندلس اسم أطلقه المسلمون على شبه جزيرة أيبيريا (ابارية) (١) تعريبا لكلمة « فنداليشيا » التى كانت تطلق على الاقليم الرومانى ، المعروف باقليم « باطقة » (Baetica) ، الذى احتلته قبائل الفندال الجرمانية ما يقرب من عشرين عاما ، ويسميهم الحميرى بالأندليش .

وكان نصارى اسبانيا الشمالية يطلقون على هذا الاقليم اسم اشبانية أو شبانية ، نسبة الى مدينة اشبيلية التى كانت تعرف فى العصر الرومانى باسم « اشباليش » (Hispalis) وكان العرب يطلقون أول الأمر اسم الأندلس على هذا الاقليم الجنوبى بالذات ، ثم أطلقوه عامة على شبه الجزيزة كلها . وعندما بدأت رقعة الاسلام فى اسبانيا تتقلص تدريجا ، أخذ هذا الاسم يطلق على الأراضى التى بقيت فى أيدى المسلمين حتى اقتصرت تسمية الأندلس على مملكة غرناطة ، آخر معقل للاسلام فى شبه الجزيرة .

وقد ذكر أحمد بن محمد الرازى مؤرخ الأندلس أن الأندلس شكلها مثلث يعتمد على ثلاثة أركان : الأول عند قادس ، والثانى بشرقى الأندلس ما بين مدينة أربونه (Narbonne) وبرديل (Bordeau) ، والثالث ما بين الشمال والغرب من أقليم جليقية (Galicia)

---

(١) هكذا وردت فى كتاب «الروض المعطار» لعبد المنعم الحميرى

ويذكر أبو بكر بن عبد الحكم ، المعروف بابن النظام ، أن الأندلس عند علماء أهله أندلسان : فالأندلس الشرقى ما صبت أوديته الى البحر الرومى (١) ، وذلك ما بين مرسية الى سرقسطة . والأندلس الغربى ما صبت أوديته الى البحر الكبير المعروف بالبحر المحيط (٢) .

ويضيف بعض المؤرخين الى هذا التقسيم قسما ثالثا ، هو وسط الاندلس ، وكان يضم من المدن العظمى مدن قرطبة وطليطلة وجيان وغرناطة والمرية ومالقة . أما شرق الأندلس ففيه من المدن الكبرى مرسية وبلنسية ودانية والسهلة وسرقسطة . أما غرب الأندلس فيشتمل على اشبيلية وماردة وأشبونة وشلب .

ويفصل بين شمال الأندلس وبلاد الفرنجة (١) سلسلة جبال البرتات، المعروفة اليوم بجبال البرانس ، وكانت تسمى بالجبل الحاجز أو باب الأندلس .وفى أقصى الشمال الغربى تمتد سلسلة جبال كنتبريان.ويرفتع فى وسط الأندلس وشمالها هضبة كانت تسمى لدى المسلمين بجبل الشارات ، تحريفا لكلمة « سيرا » (Sierra) ، أى سلسلة جبلية باللغة الأسبانية ، وينبع منها نهر دويرة ، ونهر تاجة الذى تقع عليه مدن طليطلة وشنترين وأشبونة ويصب هذا النهر فى المحيط الأطلسى . وينبع نهر الوادى الكبير ونهر مرسية من جبل شقورة (Segura) ويصب نهر الوادى الكبير فى المحيط ، ونهر مرسية فى البحر المتوسط .

ويفصل الجنوب والجنوب الشرقى عن وسط الأندلس وشماله

---

(١) كان يسمى ايضا ببحر الشام ، وهو البحر الابيض المتوسط .
(٢) هو المحيط الاطلسى ، وكان يعرف أيضا لدى العرب ببحر الظلمات والاقيانوس .
(٣) هى بلاد فرنسا ، وكانت تعرف كذلك بالارض الكبيرة .

سلسلة جبال نفادا (Sierra Nevada) وكانت تعرف فى العصر الإسلامى بجبال الثلج أو جبل شلير ، لأن الثلج لا يفارق قممها صيفا ولا شتاء • ويطل هذا الجبل على مدينة غرناطة ، وتسمى جبال قرطبة بسيرا مورينا (Sierra Morena) وينبع من جبال الثلج نهرا حدرة (Darro) وشنيل اللذان تقع عليهما غرناطة •

وتاريخ الأندلس قديم للغاية ، وأصل السكان القدامى مزيج من الكلت والأيبيريين • وقد أسس الفينيقيون فى القرن العاشر قبل الميلاد ، واليونانيون فى القرن الخامس قبل الميلاد — وعلى سواحل الأندلس — عدة مستعمرات • وأطلق اليونانيون على هذه السواحل اسم أيبيريا ، ثم أطلق هذا الاسم على شبه الجزيرة كلها •

ومنذ القرن الخامس ق•م ، خضعت الأندلس للقرطاجنيين ، وأزدهرت مدينة قرطاجنة الجديدة فى عهدهم ، واتخذوها حاضرة لهم • وهكذا تلقت الأندلس ، منذ سنة ٥٣٥ ق•م حتى ٢٠٥ ق•م ، تأثيرين هامين : أحدهما أوربى وهو التأثير الكلتى واليونانى ، والآخر أسيوى أفريقى أو سامى ، وهو تأثير القرطاجنيين • ثم تحول هذا التأثير الى تأثير لاتينى أوربى عند مجىء الرومان عام ٢٠٥ قبل الميلاد •

وفى عام ٢١٨ ق•م رسا القائد الرومانى استبيون فى ميناء أمبورياس ، وأخذت جيوشه تكتسح الاقليم المجاور لهذا الميناء ما بين البرانس ونهر ابرة ، وأرسلت رومة الى اسبانيا سنة ٢١٠ ق•م قوات كبيرة للقضاء على نفوذ القرطاجنيين • وبعد عام ٢٠٩ ق•م عاما حاسما فى تاريخ اسبانيا القديم ، اذ تحركت قوات استبيون من طركونة ، يعاونها أسطول بحرى اتجه الى قرطاجنة ، وسقطت العاصمة القرطاجنية أمام الحصار البرى والبحرى الذى فرضه الرومان ، وتبعتها سائر المدن

الأندلسية ، وسقطت قادس أخيرا عام ٢٠٦ ق٠م ٠ وأسس الرومان مدينة طالقة (Italica) وهو اسم مشتق من كلمة ايطاليا اشارة بالموطن الأصلى للرومان ٠

أصبحت الأندلس اقليما رومانيا ، نشروا فيه الحضارة الرومانية والقانون الرومانى ٠ وهكذا سادت نظم الرومان ، وخضع الاسبان لسطانهم بادىء ذى بدء ، ثم ساروا على نهج نظمهم ، وأقبلوا عليها اقبالا شديدا ، وانتهى بهم الأمر الى تعلمها ، واصطبغت اسبانيا من الوجهة الاجتماعية بالصبغة الرومانية ٠٠ الا أن اندماج اسبانيا فى الجسم الرومانى لم يتم الا بفضل المسيحية على نحو لم يكن فى الحسبان ٠

ثم ضعفت الدولة الرومانية ، واجتاحتها قبائل جرمانية فى موجات متتالية ، حتى استقر بها القوط الغربيون (Visigoths) واضمحلت الأندلس فى السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادى ، اذ أن ملوكها القوط استنفدوا كل موارد البلاد ٠ أما الشعب فقد كان يحيا حياة الفقر الشنيع ، على نقيض ما كان يتمتع به النبلاء ٠

ومع أن الملكية القوطية كانت تجمع بين الوحدة السياسية والدينية، فقد ظهر المجتمع الاسبانى اذ ذاك مفككا ، وانقسم الى طبقتين تفصل بينهما هوة سحيقة : الأولى تؤلفها الأرستقراطية القوطية ، وهى الطبقة الحاكمة المتمتعة بجميع الامتيازات الاجتماعية ٠ والثانية قوامها العناصر الشعبية التى تأصلت فيها الصبغة الرومانية ٠ وكانت هذه الطبقة الأخيرة محرومة من الحقوق التى كانت تتمتع بها الطبقة الأولى ٠

وساد العنصر الجرمانى من حيث نظامه السياسى فحسب ، فى حين تفوق العنصر الرومانى من حيث نظامه الفكرى والفنى ٠ وما لبث القوط أن نسوا لغتهم أمام قوة اللاتينية ، ونبذوا المذهب الآرى ، ومثلوا صاغرين أمام المحافل الكنسية لقاء القوة المعنوية التى كانت تعوزهم ٠

ولم تجد محاولات الملك غيطشة اليائسة فى نشر السلام والرخاء لاصلاح المجتمع الأسبانى ، وأنما أصبح تفكك البلاد أمرا محتوما لابد من وقوعه أمام انعدام القيادة السياسية وانهيار البناء الاجتماعى •

وانتهى الأمر بوثوب أحد قواد الجيش ، ويعرف بلذريق (رودريجو) على العرش وتودده لمجلس البلاط الذى أفتى بخلع الملك الشرعى غيطشة وتولية لذريق أمر الملك • وأدى ذلك الى اثارة نفوس النبلاء الذين أخذوا يترقبون الفرصة المواتية للقضاء عى لذريق المغتصب • وقدر العرب فى الجانب الآخر من الزقاق أن يفتحوا الأندلس ، ويقضوا على دولة القوط الغربيين •

الفتح الاسلامى للأندلس

عندما تقدمت جيوش العرب لغزو المغرب لم تقف أمامها قوى مناوئة ، ولم تلق جيوش المسلمين مقاومة عنيفة ، ولم تقاتل العدو فى معارك حاسمة • واستطاعت أن تستولى ، دون كبير عناء ، على معظم مدن المغرب رغم طول المدة التى استغرقها الفتح •

وكان الفتح العربى للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا فى آن واحد • وكان من نتائجه انتقال أمة البربر الى الاسلام ، واخلاصها له ، وتحمسها للجهاد فى صفوف العرب ، فأصبحت لهم قوة صادقة اعتمدوا عليها فى فتحهم للأندلس •

وما لبث المغرب ، بعد أن تم فتحه على يدى موسى بن نصير ٨٦ — ٩٢ هـ (٧٠٥ — ٧١١ م) ، أن أصبح جسرا عبره المسلمون فى عام ٩١ هـ (٧١٠ م) ، تحت أمرة القائد البربرى طارق بن زياد ، الى شواطىء اسبانيا الجنوبية ، والتقت جيوشهم فى وادى لكة بجيوش لذريق آخر

ملوك القوط ، وانتصر المسلمون انتصارا حاسما ، وارتفعت راياتهم فى أنحاء شبه الجزيرة ، وسقطت أمامهم مدن الأندلس تباعـا الواحدة تلو الأخرى • ويذكر المؤرخون أن المند ورملة وأرطباش ، أبناء الملك القوطى المخلوع ، انضموا هم وأتباعهم الى جيوش طارق بن زياد فى موقعة وادى لكة فى رمضان عام ٩٢ هـ (يوليو ٧١١ م) ، مما أحدث الهزيمة فى صفوف جيش لذريق •

وانتهى تقدم طارق الى استرقة • ثم جاز موسى الى الأندلس عام ٩٣ هـ فى عسكر ضخم من وجوه العرب وعرفاء البربر ، ومضى يفتـح بدوره مدن الغرب ، ويقضى على كل أثر للمقاومة ••• مضى الى الجزيرة الخضراء ، ومنها الى شذونة فاشبيلية فلقنت فماردة ، حتى أدرك طارقا فى استرقة ، والتقى به فى بلدة طلبيرة • وتعاون القائدان المسلمان على فتح شمال شبه الجزيرة ، فافتتحا سرقسطة وبرشلونة وأربونة ، وغنما غنائم كبيرة ، وانتهى بهما الأمر حتى جبال البرتات وسواحل جليقية — مثل حصن لك — المطلة على البحـر المحيط ، وأشرفا منها عـلى الأرض الكبـيرة •

وخطر لموسى — وهو يشرف على فرنسا — أن يمضى فى فتوحـه شرقا مقتحما بلاد أفرنجه حتى يصل الى دار الخلافة بدمشق بـرا • ونمى الخبر الى الوليد بن عبد الملك ، فاشتد قلقه عـلى المسلمـين من خوضهم الحروب ، ورأى أن ما هم به موسى تغرير بالمسلمـين ، فبعث الى موسى وطارق يستقدمهما اليه ، فقفلا عائدين الى المشرق بعـد أن استخلف موسى على ولاية الأندلس ابنه عبد العزيز ، واختار له اشبيلية قاعـدة للملك •

الأندلس فى عصر الــولاة

٩٥ ـ ١٣٨ هـ (٧١٤ ـ ٧٥٥ م)

تولى الأندلس ، بعد عودة موسى الى دمشق ، ابنه عبد العزيز : فضبط سلطانها ، وسد ثغورها ، وافتتح فى ولايته بعض المدن التى لم يتم فتحها فى عهد أبيه • وكان متسامحا فى الدين ، فشجع مصاهرة الاسبان بتزوجه أم عاصم زوجة لذريق • ويعد عبد العزيز بن موسى من خـيرة ولاة المسلمين ، ألا أن مدة حكمة لم تطل ، اذ وثب بــه الجند وقتلــوه سنة ٩٨ هـ (٧١٦ م) ، بايعاز من الخليفة سليمان بن عبـد الملك تنكيلا بموسى ابن نصير • وتعاقب على ولاية الأندلس بعد عبـد العزيز سبعة عشر واليا من قبل صاحب افريقية ، وذلك فى ستة وأربعين عامـا ، أولهم أيوب بن حبيب اللخمى الذى نقل حاضرة الأندلس من اشبيلية الى قرطبة

ويدلنا هذا العدد الكبير من الولاة ، فى هذا الأمد القليل ، على أن البلاد أصبحت مسرحا للفتن والاضطرابـات التى يذكى نيرانها انبعاث العصبيات القبلية التى حملها الفاتحون معهم الى الأندلس • والواقع نأ هذا العهد كان عهد انتقال من الحكم القوطى البائد الى الحكـم الأموى المستقر •

وعلى الرغم من الصراع القبلى الذى انبعث بين الولاة ، فقد عمد بعض هؤلاء الى غزو فرنسا ، ومنهم السمح بن مالك الخولانى ١٠٠ ــ ١٠٢ هـ (٧١٨ ــ ٧٢٠ م) ، واستشهد غازيا بأرض الفرنجة سنة ١٠٢ هـ بعد أن هزمه دوق أكيتانيا فى طولوشه (تولوز) • ثم تولى الأندلس بعده عنبسة بن سحيم الكلبى سنة ١٠٣ هـ (٧٢١ م) ، وغزا الفرنجة ، وتوغل فى بلادهم ، وفتح اقليم بروفانس ، واستمر فى تقدمه حتى فتــح مدينة ليون بفرنسا ••• الا أن الفرنجة قطعــوا عليه خط الرجعــة ، وهزموه

هزيمة نكراء استشهد فيها عنبسة سنة ١٠٧ هـ (٧٢٥ م) ٠

وتتابع الولاة فى الأندلس من قبل أمراء أفريقية ، حتى تولى عبد الرحمن بن عبد الله الغافقى ، الأندلس سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) ، وغـزا الفرنجة ،وكانتله معهم وقائع انتصر فيها عليهم فى أربونة وبرديل عند مصب نهر الجارون ٠٠٠ فاستنجد دوق أكيتانيا بأمير القصر فى الدولـة الميروفنجية ـ ويسمـى « شارل مـارتل » ـ فلبى نـداءه ليتعـاونا عـلى وقف تقـدم العرب داخل الأراضى الفرنسية ، وهـزما المسلمين هزيمة شنيعـة سنة ١١٤ هـ (٧٣٢ م) فى منطقـة تقـع بين مدينتى تور (Tour) وبواتييه (Poitiers) ، وعرفت الموقعة ببلاط الشهداء لكثرة من استشهد فيها من المسلمين ٠ وقد فتت هذه الهزيمة فى عضد المسلمين، وأوقفتهم عند البرتات التى أصبحت ، منذ ذلك الحين ، حدا لم يتجاوزوه بعـد ذلك ٠

قيـام الدولـة الامويـة فى الأندلس
١٣٨ ـ ٤٢٠ هـ (٧٥٥ ـ ١٠٢٩ م)

سقطت الخلافة الأموية فى دمشق عام ١٣٢ هـ (٧٤٩ م) ، وقضى العباسيون على دولة بنى أمية ، وأخذوا يتتبعون بنى مـروان بالقتل ٠ واستطاع أحد هؤلاء الأمراء ، واسمه عبد الرحمن بن معاوية بن هشام، أن يفلت من أيديهم وينجو بنفسه من فتك العباسيين ٠ ونجح فى اجتياز مصر ، ملتمسا النجاة فى الأطراف الغربية للدولة الاسلامية ، حتى وصل الى أفريقية ، وعبر منها سنة ١٣٨ هـ (٧٥٥ م) الى المنكب (Almunecar) ودخل الأندلس ٠٠٠ فسمى بالداخل ، لأنه أول من دخلها من بنى مروان٠ واستطاع بفضل ألمعيته وذكائه أن يقتحم وحـده هذه البـلاد فى وقت نشبت فيه الاحن بين العصبيتين اليمنية والمضرية ٠ فأصفقت اليمنية على أمره وآزرته ، وبايعه كثير من جند الأندلس ، وتوافت اليه جنود الأمصار

واجتمعت له المضرية ، وتضخم عدد أنصاره . واستمال قلــوب الرعية بحسن سياسته ، حتى انقاد له كل أبى ، وأطاعه كل عصى . واستطاع أن يهزم والى الأندلس اذ ذاك ، يوسف بن عبد الرحمن الفهــرى ، فى واقعة المصارة بقرطبة سنة ١٣٨ هـ ، ويكــون فى الأندلس امارة جعــل قاعدتها قرطبة ، وأثل بها الملك العظيم لبنى مروان ، وجدد ما طمس لهم بالمشرق من معالم الخلافة ، وما انقرض من آثارها : فشيد الدور ، واقام القصور ، وبنى المسجد الجامــع بقرطبــة ، وأدار حولهــا سورا من « الطابية » (أى التراب) مازالت أجزاء منه قائمة الى وقتنا هذا .

استطاع عبد الرحمن الداخل أن يقوم بكل هذه الأعمال الجليلة ، رغم المعارضة القوية التى أثارهــا ضده خصومة فى كل مكــان ، وعلى الأخص أبو جعفر المنصور الذى حاول أن يجعل الأندلس ولاية عباسية. وقدم العلاء بن مغيث ، والى افريقية من قبل المنصــور العباسى ، الى الأندلس سنة ١٤٦ هـ (٧٦٣ م) عــلى رأس جيش كثيف . ولكــن عبد الرحمن استطاع أن يسحق هذا الجيش ، ويهزم العلاء هزيمة نكــراء . فارتاع المنصور لذلك وقال : « ما هذا الا شيطان ، الحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر » . وشهد بقوته وبعد مرقى همته ، ومضــاء عزيمته حين قال : « ان ذلك لهو الفتى كل الفتى لا يكذب مادحه ! » .

ثم تولى بعد عبد الرحمن الداخل عدة أمــراء كان لهــم الفضل فى توطيد أركان الدولة الأموية بالأندلس سياسيا وحضريا . وأهــم هؤلاء الأمراء عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل ٢٠٦ — ٢٣٨ هـ (٨٢١ — ٨٥٢ م) الذى نجــح فى تبادل العلاقات الودية مــع امبراطور بيزنطة تيوفلس ، فى نفس الوقت الذى أخذ يعمل فيه على نقل الأندلس من مرحلة الركود والجمود الى مرحلة الــرقى والاستقرار : فاهتم بالبناء والتشييد ، وأقام المساجــد فى جميع أنحــاء الأندلس . وعرفت الأندلس فى عهده ، لاول مرة ، فنا جديــدا هــو فن الموسيقى

والغناء • ذلك أنه استقدم الحسن ابن نافع المعروف بزرياب ، وكان موسيقيا مطربا ومجددا اجتماعيا ، كما برزت فى عهده شخصية علمية جديرة بالذكر هى شخصية عباس بن فرناس ، الكيميائى الفلكى ، الذى اشتهر بتجاربه العلمية فى الكيمياء ومحاولته الطيران •

ويمتيز عصره بانشاء دور الصناعة فى موانىء الأندلس : بلقنة والمرية وشلب واشبيلية والجزيرة الخضراء وأشبونة • وقد اهتم عبد الرحمن بدعم الأسطول الأندلسى بعد ما عاينه من غارات النورمانديين على اشبيلية وأشبونة وغيرهما من سواحل الأندلس وتدميرهم لهذه المدن

وكان الأمويون يخطبون لأنفسهم بالامارة • حتى اذا ما تولى عبد الرحمن بن محمد — المعروف بالناصر لدين الله — ٣٠٠ — ٣٥٠ هـ (٩١٢ — ٩٦٢ م) ، واستقامت له الأندلس ، وأظل البلاد عهد من الاستقرار السياسى ، تلقب بألقاب الخلافة سنة ٣١٦ هـ (٩٢٨م) حين لمس مبلغ الضعف الذى تردت فيه الدولة العباسية •

والناصر هذا هو الذروة العليا فى ملوك بنى أمية : اشتهرت أيامه، وبعد صيته ، وانتشرت بالعدوة (١) طاعته ، وعلت على منابر الأندلس كلمته • وتوحدت البلاد بعد انقسامها ، وقضى على الثوار والمتمردين ، واستنزلهم بعد أن استفحل خطرهم فى عهد المنذر بن محمد : ومنهم بنو حفصون فى ببشتر ، وبنو حجاج فى اشبيلية • وهكذا تمهد ملك الناصر ، وعظم أمره ، فهادنته ملوك أوربا ، وهادته طمعا فى خطب وده وسلمه ، وقدمت عليه رسل الملوك من الغرب والشرق • وبلغت الأندلس فى ظله ذروة التقدم والرقى : فارتفع فيها مستوى الحياة ، ونمت ثروات البلاد • وأصبحت قرطبة مهد الحياة الرفيعة ، ومصدر الحضارة السامية ، وموطن الفلاسفة والشعراء ، ومركز الفنون والآداب، وشهدت عصرا من الرخاء والثراء لم تشهده حاضرة من قبل •

---

(١) مراكش .

وكان الناصر مولعا بالبناء محبا له ، فرأى أن يبنى لـــه قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها • فبنى مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) ، على بعد خمسة أميال تقريبا غربى قرطبة ، على سفح جبـــل العروس ، وشيد فيها القصور الرائعة ، وكسا جدرانها بلوحات الرخـــام المذهبة والفسيفساء (الموزايكو) ، وسقفها بقراميد الذهب ••• مما يدلنا على ما وصل اليه الذوق الفنى فى قرطبة الخلافية •

وخلف الحكم المستنصر أباه عـــلى الخلافة بقرطبة ٣٥٠ ــ ٣٦٦ هـ (٩٦٢ ــ ٩٧٦ م) ، فى الوقت الـــذى بلـــغ فيه الازدهـــار السياسى والاقتصادى فى الأندلس ذروته • وفى عهده بلغت الحضارة الاسلامية أوجها ، ووصلت قرطبة الى قمة المجد والبهاء ، وأخذت تنافس بغـــداد والقسطنطينيـــة •

وكان المستنصر محبا للعلوم ، جامعـــا للكتب فى أنواعها • وكـــان يستجلب المصنفات من شتى الأقاليم ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه • كما كان جامعا للتحف المتخلفة من الفنون الكلاسيكية (قضى عليها بعد ذلك أيام حركة التطهير التى تزعمهـــا المنصور بن أبى عامر) • ويتجلى ذلك فى بقايا ناووسين كبيرين يمكن نسبة زخارفهما الى الفن اليونانى الرومانى ، عثر عليهما فى خزان صغير بقصـــره فى مدينة الزهراء •

وظلت قرطبة تتمتع بهذه الحياة الرفيعة زمنا طويـــلا ، حتى توفى الحكم المستنصر ، وخلفه ابنه هشام المؤيـــد ٣٦٦ ــ ٣٩٩ هـ (٩٧٦ ــ ١٠٠٨ م) ، وكان طفلا ، فقامت أمه السيدة « صبح » بالوصاية عليه ، واتخذت محمد بن أبى عامر حاجبا للدولة • وقد نجح ابن أبى عامـــر فى كسب محبة الناس ، كما نجح فى حجب الخليفـــة عن الشعب والاستئثار

بالسطلة دونه ، فلم يعد للخليفة من النفوذ سوى اثبات اسمه فى السكة وذكره فى الخطبة .

وعمد ابن أبى عامر الى الاتجاه بالبلاد اتجاها عسكريا ، لاعتماده على الجيش فى حروبه وغزواته ، فصار يغزو فى كل عام غزوتين فى الربيع والخريف . وقيل انه غزا بنفسه ستا وخمسين غزوة طوال سنى حكمه : ام تنتكس له فيها راية ، ولا فل له جيش . وتلقب ابن أبى عامر بالمنصور وفى عهده عرفتقرطبة للمرة الأخيرة مجدا يشبه الوهج المتألق الذى يغمر الأفق عند الغروب ، ولكنه ما يلبث أن يختفى سريعا . وقد احتفظت قرطبة بهذا المجد فى عهد ابنه عبد الملك ٣٩٢ ــ ٣٩٩ ﻫ (١٠٠١ ــ ١٠٠٨م) الذى ورث عن أبيه صفات القوة والشجاعة .

ثم خلفه أخوه عبد الرحمن ــ وكان خسيسا مستهترا ماجنا ــ فطمع فى الخلافة ، وكتب له هشام عهدا بولاية العهد ، وتلقب بالناصر لدين الله ــ وقيل بالمأمون ــ فكان ذلك سببا فى نهاية العامريين وانقراض دولتهم ... اذ نقم عليه الناس ، وقتلوا صاحب شرطته ، وخلعوا هشام المؤيد ، وبايعوا محمدا بن هشام بن عبد الجبار ، ولقبوه بالمهدى . فلما بلغ هذا النبأ عبد الرحمن ، وهو بالثغر يحارب الأعداء ، قفل عائدا الى قرطبة . وعند اقترابه من العاصمة تخلى عنه جنده ، وانفض عنه جمعه ، وقبض عليه المهدى وقتله .

وتبع ذلك عصر من الفوضى عانت فيه البلاد فتنا واضطرابات ما بين ٣٩٩ ــ ٤٢٢ ﻫ (١٠٠٨ ــ ١٠٣٠ م) ، وتولى أمر الأندلس فيها عدد من الخلفاء الأمويين الضعاف يزيد عددهم على عدد من تولى الأندلس قبلهم من بنى مروان طوال ثلاثة قرون . وانقسمت البلاد ، وتفككت وحدتها ، واستحكمت الفوضى ، واشتد الصراع العنصرى فى البلاد بين البربر والصقالبة والعرب . وكان كل فريق منهم يستعين على خصومه

بنصارى الشمال . وظل الأمر كذلك حتى وفاة المعتد بالله . وبموته أعلن الوزير أبو الحزم بن جهور محو خلافة بنى مروان بالأندلس .

ملوك الطوائف

٤٢٢ ـ ٤٨٤ هـ (١٠٣١ ـ ١٠٩١ م)

وهكذا تفككت الوحدة السياسية عقب سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، وانتزى الأمراء والرؤساء من البربر والعرب والصقالبة بسائر المدن ، و قسموا خطتها ، وتغلب بعضهم على بعض ، وقامت فى البلاد على أنقاض الخلافة عدة دويلات صغيرة . واستقل كل أمير بدويلته ، واستبد بأمورها ... لذا أطلق عليهم المؤرخون اسم ملوك الطوائف . وكان من أعظم هؤلاء الملوك بنو عباد باشبيلية ، وبنو ذى النون بطليطلة، وبنو جهور بقرطبة ، وبنو حمود بغرناطة ومالقة والجزيرة الخضراء ، وبنو صمادح بالمرية ، وبنو الأفطس ببطليوس ، وبنو هود بسرقسطة ، وبنو عامر والصقالبة بشرق الأندلس . وانتحل هؤلاء الملوك الألقاب الخلافية ، من معتمد ومعتضد وموفق ومستكف ومستظهر ومنصور وناصر ، كما قال الشاعر :

مما يزهدنى فى أرض أندلس
سماع معتضد فيها ومعتمد
ألقاب مملكة فى غير موضعها
كالهر يحكى انتفاخا صولة الأسد

وكان طبيعيا ـ وقد أنهار سلطان الخلافة بقرطبة ـ أن تلتمس العناصر الثقافية والفنية التى كانت تزخر مجالا أنسب لها فى ظل هؤلاء الملوك . فتألفت نتيجة لذلك ، فى حاضرة كل دويلة منها ، مراكز فنية

وثقافية شملها الملوك برعايتهم ، منافسين بعضهم بعضا فى ضم رجـال الفن والفكر الى حواضرهم ، بحيث يمكننا أن نعد هـذا العصـر أزهى عصور الفن الأندلسى ، بالرغم من الانحلال والتفكك السياسى الـذى منيت به دولة الاسلام فى الأندلس • وبالرغم من عوامل الضعف والوهن التى أخذت تدب فى جسم هذه الدولة •

وكان أغلب هؤلاء الملوك شعراء يقرضون الشعر : منهم المقتدر بن هود ، والمعتمد بن عباد ، والمعتصم ابن صمادح ، وأبو الحزم بن جهور• وارتقى فنا الموسيقى والغناء اللذان توارثتهما الأندلس فى عصـر ملوك الطوائف عن زرياب • وتقدم فن العمارة والزخرفة ، وبالغ الفنانون فى الحشد الزخرفى ، وأسرفوا فى التعقيد الجنونى ، مما تشهد به آثار قصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر بنى حمود بمالقة •

أخذ خطر الاسترداد الاسبانى يزحف زحفا حثيثا فى الوقت الدى استغرق فيه ملوك الطوائف فى ملاذهم ، وعكفوا على حياة اللهو والترف ومظاهر الرقة التى كانت تنعم بها الأندلس ، ولاذوا بالجزيات لألفونسو السادس ملك قشتالة : اتقاء لشره ، ودرءا لتهديداته ، ورغبـة فى خطب سلمه ومرضاته • وكان سقوط طليطلة ، سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) ، نذيرا بما يترصد الاسلام فى الأندلس من أخطار جسام •• وملـوك الأندلس لاهون بما انغمسوا فيه من النعيم ، مستغرقون فيما يتمتعون به من ترف وفى سقوط طليطلة يقول عبـد الله بن فـرج اليحصبى المشهور بـابن الغسال الشاعـر :

يا أهـل أندلس حثوا مطيـكم
فمـا المقام بهـا الا من الغلط

الثوب ينسل من أطرافه ، وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

من جاور الشر لا يأمن عواقبه
كيف الحياة مع الحيات فى سفط !

وكانت قد ظهرت فى الجانب الآخر من الزقاق دولة فتية جديدة ، هى دولة المرابطين ، مؤسسها يوسف بن تاشفين اللمتونى . وتمهدت له الأقطار فى المغرب ، وتاقت نفسه الى ضم الأندلس لدولته . وكره ملوك الطوائف أن يكونوا بين عدوين : النصارى فى الشمال ، والمرابطين فى الجنوب . واشتدت وطأة النصارى عليهم ، وتوالت اغاراتهم على مدنهم. وارتاع ملوك الأندلس ، والتمسوا النصح عند كبيرهم المعتمد بن عباد ملك اشبيلية — وكان يهم بطلب معونة المرابطين — فحذروه من ذلك قائلين : « السيفان لا يجتمعان فى غمد واحد » . فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلا : « رعى الجمال خير من رعى الخنازير » . فاقتنعوا بقوله ، وتعلقت آمالهم بنجدة ابن تاشفين ، بعد أن اشتد عليهم ألفونسو السادس ملك قشتالة ، وغالى فى اذلالهم ، وأمعن فى طلب الجزية .

ولم يتردد ابن عباد فى دعوة ابن تاشفين اليه . فعبر المرابطون الزقاق الى الأندلس ، والتقت جيوشهم مع جيوش ألفونسو فى واقعة الزلاقة (Sagrajas) بالقرب من بطليوس سنة ٤٧٩ هـ (١٠٨٦ م) ، وانتصرت جيوش المسلمين انتصارا ساحقا ، وسحقت جيوش قشتالة . ومضى جيش ابن تاشفين ، وعلى رأسه سير بن أبى بكر ، يطارد بقايا جيش ألفونسو ، ويفتتح الحصون والمعاقل ، حتى خلص الأندلس من طغيانه . وعاد يوسف بن تاشفين الى عاصمته مراكش وهو ناقم على ما أصاب الأندلس على أيدى ملوك الطوائف الماجنين ، وتأثر بقول الشاعر ابو الحسن بن الحد :

أرى الملوك أصابتهم بأندلس
دوائر السوء لا تبقى ولا تذر

نامو وأسرى لهم تحت الدجى قدر
هوى بأنجمهم خسفا وما شعروا
وكيف يشعر من فى كفه قدح
يحدو به ملهياه : الناى والوتر !

فحقد على ملوك الأندلس ، واتهمهم بالاغماض فى أمره ، فجاز للأندلس سنة ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) ، وشرع فى خلعهم الواحد أثر الآخر ، وأزالهم عن عروشهم ، فأسلموا اليه البلاد ، ولحقوا بمراكش حيث قضوا البقية من حياتهم .

ودخل يوسف غرناطة سنة ٤٨٣ هـ . ولم تأت سنة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) حتى تمت للمرابطين السيطرة على الأندلس ، وضموها لدولتهم .

فلما توفى يوسف بن تاشفين ، قام بالأمر بعده ابنه على بن يوسف ٥٠٠ — ٥٣٣ هـ (١١٠٦ — ١١٣٨ م) . فجرى على سنن أبيه فى الجهاد ومدافعة النصارى وحماية البلاد . وكان ورعا زاهدا ، حاط نفسه بالفقهاء ورجال الدين ، فعظم شأنهم فى عهده ... الا أن اقبال على على الدين وعلومه جعله يهمل شئون دولته ، ويتراخى فى ادارتها : فاختل حالها ، وفقد المرابطون فى الناحية الحربية صفاتهم التى جعلت منهم جنودا محاربين ، وتراجعت جيوشهم أمام جيوش القشتاليين والبرتغاليين والأرغونيين ، كما أصابهم انهيار خلقى نتيجة لاستغراقهم فى الترف ، واستنامتهم الى اللذة واللهو ، ونسيانهم مظاهر الغلظة والجفاء التى فطروا عليها فى الصحراء بحثا وراء شهوات النفس . ففقدوا خصالهم ، وانحطت هممهم . فثار عليهم أهل الأندلس وطردوا عمالهم . ففى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) شق أهل اشبيلية عصا الطاعة على المرابطين ، وبايعوا عبد المؤمن بن على خليفة المهدى ابن تومرت ، مؤسس دولة الموحدين بالمغرب التى أطاحت بدولة المرابطين .

وعادت الأندلس الى مثل حالتها فى عهد ملوك الطوائف ، وتعـددد الثوار فى أعقاب دولـة المرابطين : مثل أبى محمـد سدراى ، ويوسف البطروجى الثائر بمدينة لبلة ، ولبيد بن عبد الله صاحب شنترين ، وعلى بن عيسى بن ميمون صاحب قادس ، ومحمد بن على بن الحجام صاحب بطليوس ، وأبى القاسم بن قسى الصوفى بشلب ومرتلة ، والقاضى أحمد بن حمدين بقرطبة ، والقاضى أبى الحكم بن حسن بمالقة ، وأبى عبد الله بن محمد بن سعد ، المعروف بابن مردنيش ، بشرق الأندلس .

وعاد الاسبان يجددون هجماتهم على المـدن الاسلامية ، وعـاد الأندلسيون يلتمسون النجدة من الموحدين ... فجاز عبد المؤمن بن على الى الأندلس سنة ٥٥٥ هـ (١١٦٠ م) ، وضمت جيوشه الجزيرة الخضراء واشبيلية وقرطبة وغرناطة ومالقة الى سلطانه . ولم تمض سنوات حتى ضم الأندلس الى حوزته . وولى اشبيلية ابنه أبا يعقوب يوسف ، بعـد أن اختارها حاضرة لدولته فى الأندلس ، فظلت اشبيلية عاصمة لدولـة الموحدين حتى سقوطها فى أيدى المسيحين سنة ٦٤٦ هـ (١٢٤٨ م) .

وكان موقعها المتطرف ، بالنسبة لموقع قرطبة ، يتناسب والأحوال السياسية فى ذلك الوقت . فقد كان الاسلام يتراجع أمام دفع الاسترداد الأسبانى مما حمل الموحدين الى اختيار عاصمة بعيدة عن الخطر المتزايد الغارات القشتالية والبرتغاليـة .

وولى أبو يعقوب يوسف الخلافة بعد وفاة أبيه عام ٥٥٨ هـ (١١٦٤م) فجاز الى الأندلس ، واستولى على أملاك سعد بن مردنيش . وكان أبو يعقوب ، فوق ميوله الحربية ، محبا للفنون والآداب والفلسفة ، وكـان يؤثر اشبيلية على مراكش : فجملها بالقصور ، وأقام بها مسجدا رائعـا أتمه ابنه أبو يوسف يعقوب من بعده عام ٥٩٣ هـ (١١٩٦ م) .

وقد قام أبو يعقوب فى أواخر أيامه بحملة على البرتغال ، وحاصر شنترين دون جدوى • وعند عودته الى اشبيلية هاجمته قوات دون انريكى ملك البرتغال — ويعرف عند المسلمين باسم « ابن الريق » — فأصيب بسهم مسموم ، وقتل فى عام ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) •

وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب ٥٨٠ — ٥٩٥ هـ (١١٨٤ — ١١٩٨ م) وفى عهده اشتد خطر الولايات المسيحية فى الشمال ، فتقدم أبو يوسف بجيوشه لينقذ ما تبقى من الأندلس فى أيدى المسلمين ، وانتصرت جيوشه على جيوش ألفونسو الثامن ملك قشتالة وألفونسو الثانى ملك أرغون ، فى موقعة الأرك (Alarcos) سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) بالقرب من بطليوس•

وفى عهده بلغت اشبيلية ذروة مجدها وبهائها•وكان أبو يوسف يحب البناء والتشييد ، فما كاد يظفر بالبيعة حتى أكمل بناء جامع اشبيلية ، وأتم بناء صومعته (١) المعروفة بالخيرالدا بعد انتصاره فى موقعة الأرك •
الا أن ملوك اسبانيا المسيحية لم يسكتوا على هزيمتهم فى الأرك ، فأخذوا يدعون لحرب صليبية فى اسبانيا ، وتقوت جيوشهم بمن تطوع من الممالك الأوربية • وفى بداية عهد محمد الناصر بن أبى يوسف يعقوب ٥٩٥ — ٦١٠ هـ (١١٩٨ — ١٢١٣ م) ، انهزمت جيوش الموحدين فى واقعة العقاب ، المعروفة بلاس نافاس دى تولوزا (Las Navas de Tolosa) عام ٦٠٩ هـ (١٢١٢) هزيمة لم تقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد ، وبها بدأت عوامل الضعف تسرى فى كيان دولة الموحدين •

ومع ذلك فقد نجد من بين خلفاء الموحدين الضعاف شخصيات لامعة: مثل أبى العلاء ادريس ٦١٥ — ٦٢٨ هـ (١٢١٨ — ١٢٣٠ م) ، الذى حاول أن يعيد لاشبيلية ازدهارها فى عهد أبيه المنصور ، فعمد الى تحصينها أمام الخطر الجاثم حولها ، فأقام بها عام ٦١٨ هـ (١٢٢٠ م)

برجا ضخما يعرف ببرج الذهب ، ويعد من أهم آثار الموحدين الحربية . وقد قصد من بنائه أن يغلق الميناء ، ويحصن هـذا الجانب من المدينة . وفى سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢١ م) جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامهـا الحزام البرانى ـ وهو نوع من الأسوار الأمامية ـ وحفر أمامه خندقا .

وبموت أبى العلاء ادريس ، تلاشى كل أمل فى انقاذ اشبيلية . فقد استولت جيوش فرناندو الثالث (القديس) علـى قرطبـة ، الحاضرة القديمة للأندلس ، فى ٢٩ من يونيو سنة ١٢٣٦ (٢٣ من شوال ٦٣٦ هـ). وأثار سقوطها فى أيدى المسيحيين الحزن والهلـع فى نفوس المسلمين . وتحطمت أعواد اسبانيا الاسلامية بعد هذه الصدمة الكبرى ، وانكمشت رقعتها سريعا أمام الزحف السريع للاسترداد الأسبانى على أثر سقوط بلنسية ومرسية عام ٦٣٧ هـ (١٢٣٩ م) . واجتاحت الأندلس موجـات عاتية من الاضطرابات والفوضى . وفى ٢٢ من ديسمبر سنة ١٢٤٨ ، وبعد حصار دام نحوا من ١٧ شهرا ، دخلت جيوش قشتالة مدينـة اشبيلية حاضرة الموحدين ، وانتهت بذلك دولتهم فى الأندلس .

بنـو نصر بغرناطـة

ونهايـة دولة الاسلام فى الاندلس

كان الأمر قد آل الى ملك بنى الأحمر بعد أن نجح محمد بن يوسف بن نصر ملك أرجونة ـ سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) ، فى ضم المدن الأخرى الى مملكته ، مثل مدينة بسطة ووادى آش وشريش ومالقة وجيان . وفى سنة ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) استولى على غرناطة ، وجعلها حاضرة لدولته .

وكان محمد بن يوسف معقدا آمال أهل الأندلس فى انقاذ مـا بقى

---

(١) الصومعة : هى المئذنة باللهجة المغربية .

من دولة الاسلام من الخطر الذىكان محدقا بها.وكانت الأحوال السياسية وقتئذ تحتم تأليف جبهة قوية أمام الخطر المسيحى الجاثم ... فما كاد ابن يوسف يستولى على غرناطة حتى عمد الى توسيع رقعة مملكته ، فاستولى على المرية . وقامت مملكة غرناطة بين مظاهر الاضطراب التى كانت تجتاح ما بقى من ملك المسلمين فى شبه جزيرة أيبيريا . ومع ذلك فقد قدر لها أن تدوم نحو قرنين من الزمان : بالرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام ، وبالرغم مما عانته مملكة غرناطة من حروب داخلية .

ويرجع الفضل فى بقاء غرناطة ، رغم الأنواء والعواصف ، الى أنه احتشد فيها خلاصة العرب الموتورين ، ممن تشردوا من بلادهم والتجأوا الى ما بقى من مدن الاسلام فى الأندلس . وكان توسل بنى الأحمر بسلاطين بنى مرين فى الجانب الآخر من الزقاق (شمال افريقيا) حينا ، ثم عقدهم المحالفات السياسية مع ملوك قشتالة حينا آخر ، عاملا قويا فى اطالة أمد هذا الصراع .

وترك محمد بن يوسف عام ١٢٧٢ م ملكا قويا يستطيع الثبات أمام الأعداء ، فى الوقت الذى نشأت فيه بينهم الفتن والانقسامات الداخلية . وكان تقلص الاسلام فى شبه الجزيرة قد أدى بها الى تركز أهل الفنون والعلوم والآداب فى غرناطة ، فأقاموا فيها ، واستغلوا كل شبر من أراضيها .

وخلف محمد الثانى (١٢٧٢ — ١٣٠٢ م) أباه . وكان سياسيا بارعا ، استطاع أن يوطد سطانه فى البلاد . وكان لا يتردد فى الاستنجاد ببنى مرين كلماأحس بشبح الاسترداد يهم بمملكته . وقد نصره سلطان بنى مرين عام ١٢٧٤ ، حين استنجد به ضد ملك قشتالة ، وقدم هذا السطان بنفسه الى الأندلس ، وتوغل فى أراضى الأعداء مدمرا كل ما

قابله فى طريقه ، وأغار على المدن الاسلامية التى استولى عليها القشتاليون ، وحاصر مدينة المدور ، وقاتل دون لونبو دى لارا فى استجة وهزمه وقتله • ومنذ ذلك الحين توثقت عرى الصداقة بين غرناطة وفاس• وفى سنة ١١٧٦ عادت جيوش المغرب تنثر الدمار حول اشبيلية وقرطبة •

ولما مات محمد الثانى خلفه محمد الثالث • وكان عالما مولعا بالفنون والآداب ، رغم كونه ضريرا ، فبنى قصرا بالحمراء ، وبنى المسجد الجامع بالقصر • ثم عزل محمد الثالث عام ١٣٠٩ م ، وخلفه أخوه نصر بن محمد ، الذى تنازل عن الحكم عام ١٣١٣ م لأبى الوليد اسماعيل بن فرج بن نصر •

وكان عهد اسماعيل عهد سلم واستقرار • واستطاع أن ينتصر على جيوش قشتالة قرب البيرة • واستولى على بياسة سنة ١٣٢٤ ، ولكنه قتل فى يونيو عام ١٣٢٥ فى أثناء عودته من أحدى حملاته •

وتولى الأمر من بعده ابنه محمد الرابع الذى نجح ، رغم حداثته ، فى استرداد جبل طارق سنة ١٣٣٣ بفضل بنى مرين • ولكنه قتل فى أثناء عودته الى غرناطة منتصرا ، بالقرب من الجزيرة الخضراء سنة ١٣٣٣ •

وتولى أخوه أبو الحجاج يوسف الأول السلطنة • وكان يوسف هذا حاميا للآداب والفنون ، فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج قمارش والحمام الملكى وباب الشريعة ومصلى البرطل • وظل يوسف الأول يحكم سنين كلها رخاء ، وفى عهده تملك الأعداء قلعة يحصب والجزيرة الخضراء • وقتل سنة ١٣٥٤ م وهو يؤدى صلاة العيد فى جامع الحمراء •

وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله ، الذى أكمل فى قصر الحمراء ما كان أبوه قد بدأه فيه • ودام عهده حتى عام ١٣٩١ م • ثم تولى بعده

عدة سلاطين ضعاف • وتوالت الأحداث فى العهـد الأخير الـذى سبق مباشرة سقوط غرناطة ، آخر معقـل للاسلام فى الأندلس ، فى أيـدى النصارى • وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكـة ، وقامت الثورات تأييدا لأحدهم على الآخر • وكان آخر حلقة فى سلسلة هذه الفتن الصراع الرهيب بين أبى عبد الله محمد بن سعد ، المعروف بالزغـل ، وابن أخيه السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن ••• ذلك الصراع الذى أدى الى تسليم مدينة غرناطة فى ٢ من يناير عام ١٤٩٢ •

ودخت جيوش قشتالة الظافرة قصر الحمراء ، بعد أن خرج منهـا السلطان المقهور ، وقدم لفرناندو الرابع (الكاثوليكى) مفاتيح الحمراء •

وسار أبو عبد الله فى شعب تل البذول ، وألقى نظـرة أخيرة على قصره الذى كتب عليه الخروج منه ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، ومـا لبثت أن انهمرت على خديه فى صمت ، فصاحت به أمـه عائشة الحرة : « أجل ، فلتبك كالنساء ملكا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال ! » • وأطلق الاسبان على هذا الموضع اسم زفرة العربى الأخيرة
(el ultimo suspiro del mo ١

وهكـذا انطوى بسقوط غرناطة آخر صفحة من تاريـخ الاسلام فى الأندلس •

البـــاب الأول

اشهر قواعـــد الأندلس فى العصر الاسلامى

١ ــ قرطبة

تقع مدينة قرطبة على سفوح جبال قرطبة المتفرعة من سلسلة جبال سيرا مورينا ، الممتدة شمالى المدينة • وتمتد قرطبة على الضفة اليمنى انهر الوادى الكبير ، الذى ينحنى طفيفا فى مجراه نحو الغرب مؤلفا أهم طريق طبيعى فى اسبانيا الجنوبية • وتعتمد قرطبة فى ثروتها على الزراعة خاصة فى سهلها الجنوبى ، المعروف بالكنبانية (Campina) بالاسبانية على حد تسمية الشريف الادريسى فى كتابه « نزهة المشتاق » • وأهم محاصيلها الزراعية الزيتون ، وعليه يقوم كثير من الصناعات المختلفة • كما تشتهر قرطبة بمعادنها الكثيرة ، وعلى الأخص الفضة والزئبق ، وبجبالها نوع من الحجر يسميه المقرى فى كتابة « نفح الطيب من غصن أندلس الرطيب » بحجر الشادنة ويستعمل فى التذهيب ، كما تكثر بها مقاطع الرخام الأبيض الناصع اللون والخمرى •

وقرطبة مدينة قديمة البناء ، وليس من المستبعد أن تكون أيبيرية الأصل ، اذ أنه قد عثر فى بعض الحفائر الاثرية التى أجريت فى نطاقها على بعض تماثيل برونزية أيبيرية • ويمكننا أن نستدل على أصلها الايبيرى من اسمها (Corduba) الذى عربه المسلمون الى قرطبة ، وهو اسم أيبيرى بحت يتشابه فى مقاطعه مع أسماء بعض مدن أخرى مثل (Salduba) الاسم القديم لمدينة سرقسطة (Zaragoza) • وليس لهذا الاسم أصل فينيقى كما يزعم بعض المؤرخين أمثال رافييل راميريث دى آريانو ، اذ يعتقدون أنه مشتق من الكلمة الفينيقية (Kartuba) التى تعنى بالعبرية المدينة الحسنة •

وذاعت شهرة قرطبة بادىء ذى بدء منذ الصراع بين قرطاجنة وروما ، عندما اصطحب هانيبال معه نفرا من أهل قرطبة فى حملته على

رومة • وفى سنة ٢٠٦ ق•م استولى عليها القنصل الرومانى لوثيو مارثيو، ثم اتخذها الرومان منذ سنة ١٦٩ ق•م عاصمة لاسبانيا السفلى • واتسع نطاقها فى عهد الحاكم الرومانى ماركوس كلوديوس مرثيلوس ، وأمهرها بالأبنية الرائعة والأسوار المنيعة التى اشتهرت بهـا العمـارة الحربية الرومانية • وهكذا انخرطت قرطبة فى سلك الامبراطوريـة الرومانية ، وعمرت وازدحمت بالأسرات الرومانية النبيلة •

وفى القرن الأول الميلادى ، انحازت قرطبة مع بومبى ، واستطاع قائد الامبراطور يوليوس قيصر أن يستولى عليها بعد موقعة مندا سنة ٤٥م ، ويقضى نهائيا على ثورتها • ومنذ أن شرع الامبراطور أغسطس قيصر فى اصلاحه الادارى انقسمت اسبانيا السفلى الى اقليمين لوزيتانية وباطقة • واتخذت قرطبة عاصمة لاقليم باطقة ، ثم أصبحت بعـد ذلك بقليل أحد مراكز قضائية أربعة فى اسبانيا الجنوبية ، والثلاثـة الأخرى هى قادس واشبيلية واستجة •

وعندما غزا الفندال والسواف والألان شبه جزيـرة أيبيريـا سنة ٤٠٩ م ، استولى الفندال على اقليم باطقة ، واستولوا علـى اشبيلية ، وجعلوها عاصمة الاقليم • أما قرطبة فقد ظلت خاضعة للبيزنطيين حتى نجح ملك القوط الغربيين ليوفخلدو (Leovigildo) أخيرا فى الاستيلاء عليها سنة ٥٦٨ م ، وأقام بها أسقفية • ثم أخذت قرطبة تفقـد شيئا فشيئاً أهميتها أمام طليطلة،التى تفوقت عليها منذ أواخر القرن السابع الميلادى•

وكان الفتح الاسلامى لقرطبة أمرا هيناً ميسورا • ويـذكر مؤرخو العرب أن طارق بن زياد بعث قائده مغيث الرومى الى قرطبة فى سبعمائة فارس ، فأقبلوا نحو المدينة ليلا يسترهم الظلام — وقد أغفـل حرسها حراسة سورها — ونجح بعض رجال مغيث فى ارتقـاء ممشى السور ، ووثبوا داخل المدينة ، وفاجأوا حراس بابها الجنوبى ، فقتلوا منهم نفرا

وفتحوا الباب ، فتدفقت منه جيوش المسلمين ، وفتحوا المدينة عنــوة • وأصبحت قرطبة ، بعد فتح المسلمين لها ، حــاضرة اسبانيا الاسلامية ، واستعادت مكانتها القديمة التى سلبتها أياها طليطلة • واستقر بها ولاة الأندلس منذ عهد أيوب بن حبيب اللخمى ، حتى سقوط الخلافة الأموية بالأندلس (أى نحو ثلاثة قرون) ، واحتفظ أهلها من النصارى بحريتهم الدينية والمدنية مقابل ما كانــوا يدفعونه من جزية وفقا للعهــد الذى صولحوا عليـــه •

الا أن تاريخ قرطبة الاسلامى يبدأ حقيقة منذ عهد السمح بن مالك الخولانى الذى ولى الأندلس سنة ١٠٠ هـ (٧١٩ م) ، وهو الذى رفعها الى مصاف الحواضر الكبرى • وكان السور الرومانى الذى يحيط بقرطبة قد تثلم فى بعض أجزائه ، وتفتحت العاصمة للداخلين اليهــا والخارجين منها ، فأعاد السمح بناء هذه الأجزاء المهدمة من اللبن ••• اذ أن المسلمين كانوا حديثى عهد بالأندلس لا يعرفون بعد مقاطع أحجارها •

واستخدم السمح الأحجار الضخمة المتخلفة من الأجزاء المهدمة من السور الرومانى بعد ترميمه فى اعادة بناء قنطــرة قرطبة التى كانت تعد أحدى أعاجيب الدنيا ، وأعظم آثــار الأندلس وأعجبهــا • وكانت هذه القنطرة من بناء الرومان ، ثم سقطت عقودها ــ وكانت تبلغ نحو سبعة عشر عقدا ــ على مر الأيام ، ومحيت أعاليها ، وبقيت أرجلها وأسافلها •• فجددها السمح بأمر الخليفة الأموى عمر بن عبد العزيز •

ويذكر صاحب مناهج الفكر « أن طولها ثمانمائة ذراع ، وعرضهــا عشرون باعا ، وارتفاعها ستون ذراعا ، وعدد حناياها (أقواسها وعقودها) ثمانى عشرة حنية ، وعدد أبراجها تسعة عشر برجــا » • وفيها يقــول بعض الشعراء :

بأربع فاقت الأمصار قرطبة
منهن قنطرة الوادى وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثـة
والعلم أعظم شىء وهو رابعها

وكانت القنطرة تصل بين مدينة قرطبة نفسها (أى المركـز القديم للمجموع العمرانى فيها) ، وربضها (ضاحيتها) الواقـع جنوبى قرطبة على الضفة اليسرى لنهر الوادى الكبير ، وهو الربض المعروف بشقندة. وما تزال هذه القنطرة قائمة الى وقتنا هذ ، وان كانت قـد تغيرت عما كانت عليه لما طرأ عليها من اضافات واصلاحات على مر العصور . وأخذت قرطبة منذ ذلك الحين تنمو وتتسع شيئا فشيئا ، وتجاوزت أحياؤها نطاق المدينة القديم شرقا وغربـا .

وكانت قرطبة ، منذ أن اختارها المسلمون حاضرة لهم فى الأندلس — وعلى الأخص منذ أن اتخذها الأمير عبد الرحمن بن معاويـة ، المعروف بعبد الرحمن الداخل ، حاضرة له — مهد الحياة الرفيعة ، ومصدر الحضارة السامية ، وموطن الفلاسفة والشعراء ، ومركز الفنون والآداب . وكانت أكثر مدن أوربا سكانا ، فقد بلغت فى عهد الخلافة الأموية تطورا عمرانيا لا مثيل له فى دول الغرب المعاصرة ، التى كانت ترزح فى ظلمـات الجهل والانحطـاط .

وبلغت قرطبة أيام الخليفة عبـد الرحمن الناصر ، وابنه الحكـم المستنصر من بعده ، مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه حاضرة أخرى من قبل . وظلت تنعم بهذا التفوق على سائر مدن اسبانيا زمنـا ، حتى سقطت الخلافة الأموية ، فتركت بعدئذ لمصيرها التعس ، وفتحها البربر فى عام ١٠١٠ م ، وهدموا آثارها ، وسلبوا محاسنها .

ومنذ ذلك الحين انطفأت شعلة تفوقها ، وتخلت عن مكانتها السامية لاشبيليـــة •

ورغم هذه العواصف التى هزت كيانها استطاعت أن تحتفظ ببعض عظمتها وتفوقها فى المجال الفنى والصناعى والأدبى ، حتى فتحها فرناندو الثالث فى ٢٩ من يونية سنة ١٢٣٦ م •

وأثار سقوط قرطبة فى أيدى المسيحيين الحـــزن والأسى فى نفوس المسلمين ، وتحول مسجدها الجامع ، الذى كان يعتبر كعبـــة المسلمين فى الأندلس ، الى كنيسة كبرى ، وهجرها عدد كبير من سكانهـــا المسلمين ، فاستبدل فرناندو بهم سكانا آخرين من قشتالة وليون وقطالونية وغيرها من أقاليم اسبانيا المسيحية •

ومع أن اعادة تعمير قرطبة بعد سقوطها بالعناصر الاسبانية الجديدة قد أزال كثيرا من مظهرها القديم ، وأن التقاليد القشتالية التى حملهـــا الغالبون معهم قد غيرت كثيرا من مظهرها العمرانى الخلافى ••• فـــان قرطبة ظلت مدينة خلافية الطابع • ولـــم يتمكن الفن القوطى ، الـــذى أدخلوه فى الأندلس ، أن يتغلغل فى فنونها ، بل انه لم يقو هو نفسه على التخلص من تأثيرات الفن القرطبى الاسلامى الأصيل ، وظلت عمـــائر قرطبة الاسلامية مصـــدرا يستوحى منه معماريو النصـــارى كنائسهم ودورهم ومختلف أبنيتهم •

وكانت مدينة قرطبة ، فى عهد الخلافة الأموية ، أكبر مـــدن العالم بعد القسطنطينية • وقد وصفها مؤرخو العرب وجغرافيوهم أبدع وصف، وأشادوا بعظمتها وتفوقها على سائر مدن الاندلس ••• اذ كانت قاعدة الأندلس وقطبها وأم مدائنها ومستقر خلفائها ، ودار المملكة فى النصرانية والاسلام • ويشهد الرحالة ابن حوقل ـــ مع ما هو معروف عنه من عداء للأمويين ـــ بهذه العظمة فى قوله : « هى أعظم مدينة بالأندلس • وليس

بجميع المغرب لها عندى شبيه فى كثرة أهل ، وسعة محل ، وفسحة أسواق ونظافة محال ، وعمارة مساجد ، وكثرة حمامات وفنادق » •

وكانت قرطبة فى القرن العاشر تنقسم الى جانبين كبيرين : جانب شرقى كان يعرف بالشرقية ، ومازال يعرف بهذا الاسم الى اليوم (Ajarguia) وجانب غربى • ويغلب على الظن أن المدينة ، عند اتساعها فى القرن العاشر ، تجاوزت نطاقها القديم جنوبا فى الضفة اليسرى من نهر الوادى الكبير ، وشرقا فيما وراء باب رومية • وكانت المدينة نفسها ، أو المركز العمرانى القديم — باشتمالها على المسجد الجامع الذى وضع حنش الصنعانى التابعى أساسه الأول ، والقيسرية والفنادق والحمامات والأسواق — مركز الحياة الدينية والاجتماعية والاقتصادية ، كما كانت تنقسم الى أحياء تعرف فى الأندلس بالحومات • وكانت هذه الحومات تتسمى بأسماء الأبواب المجاورة لها أو بأهم الآثار القائمة فى مناطقها ، أو بأسماء حرف سكانها ، مثل حومة باب الفرج ، وحومة الرقاقين قرب باب العطارين ، وحومة النجارين ، وحومة عين فرقد شرقى قرطبة ، وحومة غدير بنى ثعلبة ، وحومة حير الزجالى خارج باب اليهود •

ويذكر ابن بشكوال أن عدد أرباض قرطبة (أى ضواحيها) — عند انتهائها فى التوسع والعمارة — بلغ واحدا وعشرين ربضا : فالمدينة القبلية بعدوة النهر بها ربض شقندة ، وربض منية عجب • وأما الغربية فتسعة هى : ربض حوانيت الريحان ، وربض الرقاقين ، وربض مسجد الكهف ، وربض بلاط مغيث ، وربض مسجد الشفاء ، وربض حمام الالبيرى ، وربض مسجد السرور ، وربض مسجد الروضة ، وربض السجن القديم • وأما الشمالية فثلاثة هى : ربض باب اليهود ، وربض مسجد أم سلمة ، وربض الرصافة • وأما الشرقية فسبعة هى : ربض شبلار ، وربض فرن بريل ، وربض البرج ، وربض منية عبد الله ، وربض منية المغيرة ، وربض الزاهرة ، وربض المدينة العتيقة •

ونلاحظ أن بعض الأرباض المحيطة بالمدينـــة الوسطى ، ألتى كانت تعرف بالقصبة ، كانت تبعد عنها كثيرا : كربض الزاهرة ، وربض الرصافة كما أن كثيرا من هذه الأرباض كان يقع على امتداد نهر الوادى الكبير ، حيث كانت تقام المنيات والقصور : فكان هناك ربض الروضة ، وربض الرصافة ، وربض منية عجب التى أقامتها زوجة الحكم الربضى جنوبى قرطبـــة •

وقد اختفت كل هذه الأرباض فى وقتنا الحاضر ، وحلت محلها حدائق وبساتين ، ولكن أسماءها تثبت اثباتا قاطعا أن اتساع مدينة قرطبة نحو الغرب بدأ منذ القرن التاسع فى عهد الحكم بن هشام ، المعروف بالحكم الربضى ، نسبة لواقعة الربض بقرطبـــة التى انتصر فيها عـــلى سكان الربض الجنوبى (ربض شقندة) •

ويذكر « ابن بشكوال » أن هذه الأرباض لم تكن محاطة بالأسوار ، فلما كانت أيام الفتنة ـــ وهو العهد المضطرب الذى تبع سقوط الخـــلافة بقرطبة ـــ حفر حولها خندق يدور بها جميعا ، كما أقيم حولها سور مانع • وذكر ابن غالب أن محيط هذا السور كان يبلغ أربعة وعشرين ميلا •

ولقد أجمعت المصادر العربية على أن الجزء الأوسط من قرطبـــة يتفق وموقع العاصمة القديمة للاقليم الرومانى المعروف بباطقـــة ، وهى مدينة قرطبة نفسها أو القصبة • وكان يحيط هذه المدينة فى جميع العصور سور من الحجر الجيرى •

وحدث فى السنوات الأولى من القرن الثامن الميلادى ، فى ولايـــة السمح بن مالك ، أن تهدمت قنطرة قرطبة ـــ كمـــا سبق أن أوضحنا ـــ فأعاد السمح بناءها من أحجار سور قرطبة ، ثم أعاد بناء السور من اللبن ثم أعاد الأمير عبد الرحمن الداخل بناء هذا السور فى عام ٧٧٦ م عـــلى أساس السور الرومانى القديم • ومازالت بقايا أعمال هذا الأمير ظاهرة

حتى اليوم فى قطاع أسوار قرطبة بالقرب من المستشفى العسكرى . وقد ظل هذا السور موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى جدده الموحدون . ولم يتبق اليوم من السور الاسلامى الا بقايا متناثرة ، ومع ذلك فقد تخلف من السور الرومانى ، رغم قدمه ، قطاع يمتد على جانبى باب اشبيلية .

وكان سور المدينة على شكل متوازى الأضلاع ، ومحيطه لا يتجاوز أربعة كيلو مترات . وهو ما يتفق وتقدير ابن حوقل الذى يقول : « ودرت بقرطبة فى غير يوم فى قدر ساعة » .

ويذكر المؤرخون أنه فتحت بهذا السور سبعة أبواب : أهمها الباب الجنوبى المؤدى الى القنطرة ، أو باب الوادى أو باب الصورة (١) .

وكان هذا الباب ينتهى بالرصيف الممتد على طول الضفة اليمنى للنهر ، وتمر به المحجة العظمى ، أو الطريق الأعظم (٢) الذى يمتد ، منذ عهد الرومان ، من مدينة قادس الى أربونة ، مارا بقرطبة واشبيلية وسرقسطة وطركونة ، ويخرج من باب رومية ، الذى سمى كذلك نسبة الى خروج هذا الطريق الرومانى منه .

وكان ينفتح فى السور بابان : الجنوبى منهما — وهو « الباب الجديد » — يقع قرب النهر ، ويعرف هذا الباب بباب سرقسطة ، لأنه يطل على الطريق المتجه الى هذه المدينة . والثانى يعرف بباب عبد الجبار نسبة لعبد الجبار بن الخطاب مولى الخليفة الأموى مروان بن الحكم .

---

(١) كان يقوم فوق هذا الباب تمثال رومانى يمثل الهة ، وينسبه المسلمون الى العذراء مريم . ويؤكد المؤرخ ابن عذارى المراكشى أن العذراء كانت صاحبة قرطبة ، اذ يقول : «وهى العذراء صاحبة قرطبة التى وضع اقدام حكامها صورتها فوق باب مدينتها القبلى ، وهو باب القنطرة » .

(٢) كان يسمى فى الكتب العربية السكة العظمى . (Via Augusta)

ويقع هذا الباب شمال السور الشرقى ، وكان يطلق عليه كذلك اسم باب طليطلة وباب روميـــة •

أما السور الشمالى فكان ينفتح فيه باب يعرف بباب ليون أو باب طلبيرة ، لاشرافه على الطريق المؤدى الى مدينة طلبيرة (Talavera) ، أو باب اليهود لقربه من حى اليهود • وقد استقبحوا قولهم باب اليهــود ، فقالوا باب الهدى • ويشرف هذا الباب على حير الزجالى ، وفيه يقول أبو عامر ابن شهيد :

لقد أطلعوا عند باب اليهود
شمسا أبى الحسن أن تكسفا
تــراه اليهــود على بابهــا
أمــيرا فتحســبه يوسـفا

وظل هذا الباب يعرف ، حتى سنة ١٩٠٣ ، باسم بــاب أوساريو (Ossario) نسبة الى مقبرة كان يؤدى اليها ، تعرف بمقبرة أم سلمة فى العهد الاسلامى ، ثم الى جبانة اليهود •

وأما الجانب الغربى من السور فكانت به ثلاثة أبــواب : واحــد شمالى يعرف بباب عامر القرشى ، وهو نفس باب الجلالقة (Gallegos) الذى هدم فى سنة ١٧١١ ، وينسب هذا الباب الى عامر ابن عمرو القرشى الذى لعب دورا هاما فى حوادث القرن الثامن • وكانت لـــه مقبرة خارج هذا الباب ، فأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر بفتح هذا الباب فى شعبان عام ٣٠٣ هـ (فبراير سنة ٩١٦ م) لتيسير الذهاب الى المقبرة المذكورة • والباب الثانى ،ويتوسط هذا السور الغربى ، يعرف بباب الجوز أو باب بطليوس • ولا شك أنه يتفق وموضع الباب الحالى المسمى بباب المدور (Almodovar) الذى أقيم على أساس البــاب الخلافى • والباب الثالث الأخير يقع جنوبى السور الغربى ، ويعرف باسم باب العطارين أو باب

اشبيلية . وما زال هذا الباب قائما حتى وقتنا هذا .

وكان يشق مدينة قرطبة طريق أعظم ، يعرف بالمحجة العظمى . يمتد من باب القنطرة شمالا ، مارا بين المسجد الجامع وقصر الخلافة ، ثم ينثنى شرقا خارجا من باب عبد الجبار الذى ذكر آنفا ، ثم يتابع سيره نحو الشمال الشرقى خارجا من باب عباس ، أحد الأبواب الثلاثة التى كانت تنفتح فى سور الربض الشرقى المعروف بالشرقية ، أما البابان الآخران فهما باب الفرج وباب الحديد .

وكان يلتقى مع هذا الطريق الأعظم طريقان : أحدهما غربى يمتد من باب عامر ، والثانى شمالى يمتد من باب اليهود ... بحيث يتألف من تقابل هذه الطرق الثلاثة شكل صليبى كان هو النظام الرئيسى فى تخطيط المدن الرومانية (١) . ونلاحظ مثل هذا التخطيط فى اشبيلية وغرناطة ومالقة وبلنسية وسرقسطة .

وكان يتفرع من هذه الطرق الرئيسية شبكة من الدروب والحارات والأزقة . وكانت هذه الدورب اما نافذة وأما مقفلة مسدودة بالمبانى . ويذكر ابن القوطية دربا بقرطبة ، زمن عبد الرحمن الأوسط ، سماه درب ابن شراحيل ، نسبة الى محمد بن شراحيل المعافرى قاضى قرطبة . ويذكر الخشنى أن جده عمر بن شراحيل المعافرى كان يعيش فى قرطبة فى درب الفضل بن كامل الواقع قبلى مسجد أبى عثمان ، وذلك فى عهد الأمير عبد الرحمن الداخل . ويذكر ابن الفرضى اسم دربين آخرين بقرطبة : أحدهما درب أبى الأشهب ، والآخر درب بنى فطيس .

وكان على كل درب من هذه الدورب دراب يسهر عليه ليلا ، ويحميه

---

(١) يسمى الشارعان الرئيسيان المتقاطعان على شكل الصليب
(Cardo Maximus) (Documanus)

من اللصوص • ويذكر ابن سعيد المغربى « أن بالأندلس عسسا يطوفون بالدروب ليلا ، ويعرفون بالدرابين •• لأن بـلاد الأندلس لهـا دروب بأغلاق تغلق بعد العتمة ، ولكل زقاق بائت فيه : له سراج معلق ، وكلب يسهر ، وسلاح معد • وذلك لشطارة عامتها وكثرة شرهـم واعيائهم فى أمور التلصص » • ومن هذا النص نستنتج أهمية الدروب ودورها الكبير فى حماية السكان ، فان من يسكن الدرب لا يخرج الا من منفذ واحد ، ومن ثم يسهل عليهم الدفاع عن أنفسهم • وما زالت نظـم الدورب العربية قائمة فى قرطبة حتى وقتنا هذا كما يتضح ذلك من بعض الصور •

وكان بعض هذه الحارات والدروب يتخذ أسواقا : من ذلك حارة القراقين ، وحارة الحصارين وكان بخارج المدينة سوق يعـرف بسوق الدواب (Zocodover) لم ينقرض اسمه الى اليوم من المـدن الأندلسية ، كاشبيلية وقرطبة وغرناطة • وما زالت أسماء بعض شوارع قرطبة تذكرنا بالتسميات العربية القديمة : مثل شارع الزنيقة (Alzonaicas) ، وشارع المونة (الصابون ، وشارع القيسارية (Alcaiceria) وشارع (Alfayates) الخياطين

وكان المسجد الجامع بقرطبة أساس التنظيـم العمرانى المدينة ، والمركز الدينى الذى تلتف حوله بقية مراكزها العمرانية ، والقلب الذى ينبض بحياتها ويهبها النشاط والحركة منـذ أن ركـز حنش الصنعانى التابعى قبلته • وكانت العادة تجرى وقتئذ على أن يكون المسجد قائما على أنقاض الكنائس الكبرى ، وهذا ما حدث بالفعل فى المسجد الجامع بقرطبة وغيره من المساجد الأندلسية الأخرى : مثل جوامع طليطلة ، واشبيلية ، والجزيرة الخضراء •

وكان لذلك رد فعل قوى تكشف عند الاسترداد القومى الاسبانى للمدن الأندلسية ••• اذ كانت المساجد الجامعة بها تتحـول الى كنائس

بمجرد سقوط المدينة ، وأصبح المسجد أو الكنيسة اللواء الذى يرمز الى الدين الغالب •

وكان المسجد هو الذى يسيطر على حياة المدينة الاجتماعية والاقتصادية • فكانت تقام حول ساحته الأسواق والحوانيت ، كما كانت للمسجد أهميته فى الحياة السياسية : ففيه كانت تعقد الاجتماعات ، وتوزع ألوية الجيش وبنوده ، وتقرأ المنشورات • وكذلك كانت له أهميته فى الحياة العلمية ، اذ كان يؤمه الطلبة لتحصيل العلوم الدينية • وكان يحيط بالمسجد الدور والقصور والفنادق والحمامات وغيرها • وكان قصر الامارة يقع غربى المسجد الجامع ، ويصله بالمسجد ساباط على أزج معقود يمر تحته الناس •

وكانت الدار بقرطبة تقوم حول فراغ مركزى هو الصحن الذى تتوزع حوله الغرف • وكان مظهرها الخارجى يتنافى مع مظهرها الداخلى حيث كانت تركز حياة الأسرة ••• فبينما كانت واجهتها الخارجية بسيطة عاطلة من الزخرفة ، كانت غرفها الداخلية تزخر بالزخارف الرائعة •

ويمكن تفسير ذلك بأن المرأة المسلمة كانت تقضى جل وقتها داخل البيت ، وكانت حياتها ترتبط ارتباطا وثيقا بداخل بيتها ، فكان من الطبيعى أن يتألق الناس فى تزيين جدران بيوتهم بالداخل وكسوة أزرها بنوع من الغضض المعروف فى الشرق بالفسيفساء ــ ويعرف فى الأندلس بالزليجى ــ وهو ذو ألوان عجيبة ، ويقوم مقام الرخام الملون الذى يتخذه أهل المشرق فى زخرفة بيوتهم • ولهذا الزليجى تأثير كبير فى ترطيب أبهاء المنازل وجدران القاعات زمن الصيف حين تشتد درجة الحرارة ــ هذا الى ما لألوانه المتعددة ، وخطوطه الهندسية المتشابكة ، من آثار طيبة فى النفس •

وكانت المرأة الأندلسية تجد فى ذلك كله تعويضا لها عن العزلة التى

تعانيها • ولعل هذا هو السبب فى أن أغلب دور المـدن الأندلسية تشتمل على غرف علوية أو مصارى (جمع مصرية) ، وهى غرف بارزة عن جدار البيت ، مزودة بشبكات من عيدان الخشب المتقاطعة فيما بينها ، وتسمى بالشراجيب ، وهى لا تختلف كثيرا عن المشربيات فى المنازل المصريـة • وهكذا كان يتاح للمرأة أن تشاهد ما كان يجرى فى الدروب والشوارع من أحداث دون أن يشاهدها أحـد •

وكان صحن البيت ، أو فناؤه ، عنصرا هاما لا غناء عنـه باعتباره المكان الذى تقضى فيه المرأة أوقات فراغها ، ومنه كان ينفذ الضوء والهواء الى غرف الدار • لهذ اهتـم الناس بتزيين الصحن ، وفرشـه بالحصى والرخام ، وغرسه بأكارم الأشجار ، كالبرتقال والليمون ، ومده بالميـاه الجارية مما يزيده روعة وسحرا ، ويخفف فى الوقت نفسه من حرارة الجو

أما قصور قرطبة فكانت تقام عادة فى الأرباض خارج المدينة ، ما عدا قصر الامارة ، وكان فيه البدائع الحسان والرياض الأنيقة • وأجرى فيه الأمراء المياه العذبة ، المجلوبة من جبال قرطبة فى قنوات الرصاص التى تصب فى البحيرات البديعة والصهاريج وأحواض الرخام العجيبة • ومن مجالسه وقاعاته : قصر الكامل ، والحائر ، والروضة ، والزاهر • ومن أبوابه : باب الجنان ، وباب السطـح المشرف ــ يطلان عـلى الرصيف الأعظم ــ وباب الوادى المؤدى الى النهر • وكان للقصر باب ، يدعى باب الجامع ، كان يدخل منه الخلفـاء يوم الجمعة الى المسجد الجامع عـلى الساباط المعلق بينهما ، ولم يتبق من هذا القصر الا بقعته ، وعليها يقوم اليوم القصر الأسقفى •

وقصر الرصافة ابتناه الأمير عبد الرحمن الداخل لنزهـه وسكناه شمالى قرطبة ، ودحا فيه جنانا واسعـة ، ونقل اليـه غرائب الغروس وأكارم الشجر من كل ناحية ، وأودعها ما كان استجلبه رسله الى الشام

من البذور الغريبة ، حتى نمت وأصبحت أشجارا أثمرت ، وسماه الأمير باسم رصافة جده هشام بأرض الشام الأثيرة لديه (١) .

ومن قصور قرطبة أيضا : قصر الزهراء ، وقصر شيده بنو أمية أبدع تشييد ، وحاكوا به قصرهم بالمشرق ، والقصر الفارسى بخارج قرطبة ، وقصر السيد أبى يحيى بن أبى يعقوب يوسف الموحدى ، وهو على متن النهر الأعظم تحمله أقواس . وما زالت آثار هذا القصر قائمة حتى يومنا هذا ، وفيه يقول الشاعر ناهض بن ادريس يصف أقواسه فوق مياه نهر الوادى الكبير :

ألا حبذا القصر الذى ارتفعت به
على الماء من تحت الحجارة أقواس
هو المصنع الأعلى الذى أنف الثرى
ورفعه عن لثمه المجد والباس
فأركب متن النهر عزا ورفعة
وفى موضع الأقدام لا يوجد الراس
فلا زال معمور الجناب وبابه
يغص ، وحلت أفقه الدهر أعراس

ومن قصور قرطبة أيضا : قصر الزهراء ، والزاهرة ، وقصر الحير الزجالى . ولم يبق من هذه القصور الا آثار قليلة تذكر بما بلغه فن البناء وللزخرفة فى العصر الاسلامى ، ومنها آثار قصور الزهراء التى بهرت العالم بما جلته من روائع فنية . وسنذكر كل هذه الآثار فى حينها .

ولكى نكمل صورة الحياة الاجتماعية بقرطبة ، لابد لنا أن نتحدث

---

(١) ما زالت آثار هذا القصر ظاهرة خارج قرطبة ، وتعرف هذه المنطقة بالاسبانية باسم (Aruzafa)

قليلا عن حماماتها التى تعد من أهم أبنيتها ، لأن الحمامات فى الواقع تلى المساجد أهمية ••• اذ أن عادة الاستحمام كانت متأصلـــة فى الاسلام ، وكانت قرطبة الخلافية تتمتع بكثرة حماماتهـــا •

وذكر ابن حيان أن عدد هذه الحمامات بلغ فى عهد ابن أبى عامـــر تسعمائة حمام ، وقيل ٩١١ حماما • وكان العدد الأعظم من هذه الحمامات يقع قرب المسجد حتى يسهل على المصلين الاستحمام والتوجه رأسا الى المسجد ، ولم يتبق من هذه الحمامات جميعها سوى بقايا حمامين : أحدهما فى شارع الحمام (Calle del Bano) والآخر فى شارع لاس كوميدياس (Las Comedias) ويتألف هذا الأخير من قاعة وسطى بها عقود مفلطحة ، وأخرى متجاوزة على شكل حدوة الفرس ، تحملها عشرة أعمدة • وكانت تعلو هذه العقود قبوة لم يبق لها وجود اليوم بعد أن تحولت هذه القاعة الى صحن ، واحتفظت الغرف المجاورة بقبواتها • وبهذا الحمـــام غرفة تعلوها قبوة كانت تتخللها مضاوى لانفاذ الضوء ، سدت جميعها اليوم •

أما المسجد الجامع بقرطبة فهو الأثر الرائع الوحيد الذى بقى الى اليوم فى حالة جيدة بفضل الكاتدرائية التى أقيمت بداخله • ويعـــد هذا المسجد الأثرى الوحيد فى اسبانيا لعصر من أرقى العصـــور التى مرت عليها فى وقت كانت دول أوربا تعانى فيه من الجهل والهمجية والانحطاط• وتتضمن عمارة هذا المسجد تاريخ أعظم عصر مرت به الأندلس • اذ أن بناءه ، الذى تم خلال قرنين من الزمـــان ، يحتضن فى عناصره الأسس الأولى التى قامت عليها العمارة الأندلسية المغربية فى العصور التالية •

وكان بقرطبة ــ عدا هذا المسجد الجامع ــ مساجد أخـــرى أقل أهمية بلغ عددها ــ على حد قـــول بعض المؤرخين ــ نحـــوا من ٣٨٧٧ مسجدا ، وقيل ١٦٠٠ مسجد • ولم يتبق اليوم من جميع هذه المساجـــد سوى ثلاث مآذن هى اليوم أبـــراج كنائس سان خـــوان وسانتا كلارا

وسانتياجو . ويغلب على الظن أنها ترجع الى عصر عبد الرحمن الأوسط، الذى أقام عددا كبيرا من المساجد فى قرطبة والأندلس ، والذى أغرمت جواريه ببناء المساجد وفعل الخير .

هذه هى قرطبة قاعدة الأندلس ، وقطبها وقطرها الأعظـم ، تقص لنا آثارها ما بلغته فى عهد المسلمين من بهاء وازدهار ، وتخلد لنا صفحة من أروع صفحات تاريخها الاسلامى المجيد .

مدينـــــة الزهـــــــراء

المدن الاسلامية فى الأندلس نوعان : الأول يشتمل عـلى المراكز العمرانية السابقة على الفتح الاسلامى ، مثل مدينة قرطبة التى سبق أن تحدثنا عنها • والثانى المدن التى أسسها المسلمون بعد الفتح • ولقـد شاهد المسلمون ، عند فتحهم الأندلس ، بـلادا غنية موفورة الرخـاء : ما ضيها مجيد ، وعمرانها متقدم مزدهر ••• فأحسوا عندئذ بالحاجة الى الاستقرار فيها • اذ وجدوا فى هذه المدن المأهولة من قبل نظاما ممتـاز ا من الطرق التجارية ، فاهتموا بها غاية الاهتمام ، وسرعان ما عربوها ، وانشأوا فيها المساجد الجامعة والمدن والقصور • وأصطبغت هذه المدن بالصبغة الاسلامية •

ثم أقام المسلمون بعد ذلك مدنا اسلامية بحتة :أما حربية رغبة فى دعم نظامهم الدفاعى أمام محاولات الاسبان المستمرة للتحـرر ، مثل : مدينة قلعة رباح (Calatrava) ومدينة قلعة أيوب (Calatayud) ومدينة حصن القصر (Aznalcazar) وحصن الفرج (Aznalfarache) ومدينة القليعة (Alcolea) ومدينة القلعة (Alcala) وغيرها وأما مدينة أميرية يقصدها الأمراء لطلب الراحة والتمتع بملذات الحياة بعيـدا عن أنظار رعيتهم بالعاصمة ، مثل : مدينة الزهـراء ، ومدينة الزاهـرة ، ومدينة العامريـــة •

ولقد أمدتنا المدونات التاريخية العربية بمعلومات قيمة عن بناء هذه المدينة الخلافية ، وعن الفترة التى ازدهرت فيها وعم بها الرخاء ، ثم عن الأسباب التى أدت بها الى الزوال ، فانحدرت سريعا الـى القبر وكانت لاتزال فى مقتبل عمرها ﴿ ويروى المؤرخون قصة بناء هذه المدينة فيمـا يشبه الأساطير ، فيذكرون أن عبـد الرحمن الناصر لدين الله ماتت لـه

محظية وتركت مالا كثيرا ، فأمر أن يفك بذلك المال أسرى المسلمين ، وطلب فى بلاد الافرنج أسيرا فلم يجد ، فطلبت منه جاريته الزهراء — وكان مغرما بها — أن يبتنى لها بهذا المال مدينة تسمى باسمها ، فحقق لها هذه الرغبة ، وشرع فى بناء مدينة الزهراء ، سنة ٣٢٥ هـ (٩٣٦ م) ، على بعد خمسة أميال غربى قرطبة ، وأتقن بناءها ، وأحكم الصنعة بها ، واتخذها مقرا للخلافة وسكنا للزهراء ، ورجال خاصته ، ونصب تمثال الزهراء على بابها الرئيسى ، وجلب لها الرخام الأبيض من المرية ، والمجزع من رية ، والوردى والأخضر من سفاقس وقرطاجنة،كما أحضر لها من القسطنطينية حوضا من الرخام منقوشا بالذهب عليه رسوم بارزة ، وأمر بنصبه فى وسط قصر المؤنس من قصور المدينة ، وأقام عليه اثنى عشر تمثالا .

ثم أقام قصر الخلافة ، وجعل قراميده ذهبا وفضة ، وأقام فى وسطه صهريجا مملوءا بالزئبق . وفتح فى كل جانب من جوانب هذا القصر ثمانية أبواب ،ملبسة كلها بالحديد والنحاس المموه ، انعقدت على حنايا من العاج والأبنوس المرصع بالذهب وأصناف الجوهر ، وقامت على عمد من الرخام الملون والبللور الصافى . وكانت أشعة الشمس تنعكس على مرآة الزئبق فتحدث بريقا يخطف الأبصار ويأخذ بمجامع القلوب .

وقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع تلك القصور وما احتوته من مظاهر الترف والثراء ، مما لا يمكن أن يصدقه العقل ولا يستسيغه المنطق . غير أن ما أسفرت عنه الحفائر الأثرية ، أثبت بصورة قاطعة صدق هذا الوصف ، فكشف عن قطع من أجمل ما أبدعه فن النحت فى الرخام والجص فى الأندلس فى العصور الوسطى ، كما كشف عن جزء كبير من تمثال رخامى يمثل جسم امرأة لعله تمثال « الزهرة » (Venus) الذى كان يقوم فوق باب المدينة .

كذلك أمر عبد الرحمن الناصر ببناء مسجد بالمدينة ، فتم بناؤه فى أقل من شهرين . وكان فناؤه مفروشا بالرخام ، كما كانت فى وسطه

نافورة تندفع منها المياه • وأمر الناصر أيضا باتخـاذ منبر بديع لهـذا المسجد ، فصنع فى نهاية الحسن والاتقان ، وأقيمت حولـه مقصورة من الخشب المنقوش من الظاهر والباطن •

واتخذ الناصر كذلك فى مدينة الزهراء دورا لصناعـة آلات الحرب والحلى وأدوات الزينة • وكانت الزهراء مركـزا هاما لصناعـة العلب العاجية : ففى كنيسة فتييرو ، بمنطقة نافارة ، علبة مستطيلة من العاج مزينة كلها بتوريقات ، ومنقوش عليهـا بالخط الكوفى العبـارة الآتية : « بسم الله : بركة من الله ويمن وسعادة وسرور ونعمة للاحب ولادة ، مما عمل بمدينة الزهراء سنة خمس وخمسين وثلاث ماية ، عمل خلف » •

وفى متحف بلنسية دى دون خوان بمدريد علبة عاجيـة مستطيلة الشكل أيضا عليها نقش يشبه النقش السابق ، وفيه ذكر لمدينة الزهراء التى عملت فيها العلبة •

ولم يتم بناء مدينة الزهراء فى عهد عبد الرحمن الناصر ، فأتمها ابنه الحكم المستنصر من بعده سنة ٩٧٦ م • وظلت الزهراء فى ازدهار حتى سقطت الخلافة الأموية بالأندلس ، فهاجمتها حشـود البربر فى ٤ من نوفمبر سنة ١٠١٠ م بقيادة سليمان المستعين ، واقتحموا المدينة عنوة ، وتبع ذلك مذبحة دامية قضوا فيها على حامية المدينة ، وقتلـوا رجالها ونساءها ، ونهبوا دورها وقصورها ، وأضرموا فيهـا النيران ، فأحرقت وخربت وأصبحت أثرا بعد عين • وفيها يقول الشاعر السميسر :

وقفت بالزهراء مستعبرا
معتبـرا أندب أشـتاتا

فقلت : يازهرا ، ألا فارجعى
قالت:وهل يرجع من ماتا ؟

فلم أزل أبكـــى وأبكى بهـــا
هيهات يغنى الدمع هيهاتا !

وصارت الزهراء أكوامـــا من الخرائب وتلالا من الأطلال ، وكانت جدرانها الخربة قائمة فى عهد المعتمد بن عباد .

ويذكر الفتح بن خاقان فى كتابه « قلائد العقيان » أن المعتمد قصدها هو ونفر من أصحابه ووزرائه « وما زالوا ينتقلون من قصر الـــى قصر ، ويبتذلون الغصون بجنى وهصر ، ويتوقلون فى تلك الغرفات ، ويتعاطون الكئوس بين تلك الشرفات ، حتى استقروا بالروض ... وآثار الديار قد أشرفت عليهم كثكالى ينحن على خرابها ، وانقراض أترابها وأطرابها . والوهى بمشيدهـــا لاعب ، وعلى كـــل جدار غراب ناعب . وقـــد محت الحوادث ضياءها ، وقلصت ظلالها وأفياءها . وطالما أشرقت بالخلائف ، وابتهجت وفاحت من شذاهم وتأرحب ... فأضحت ولها بالتداعى تلفع واعتجار ، ولم يبق من آثارها الا نؤدى وأحجار ... وقد وهت قبابها ، وهرم شبابها » .

ثم يقول الفتح بعد ذلك : « وغدت تلك المعاهد تصافحها أيدى الغير، وتناوحها نعبات الطير ، وراحت بعد الزينة سدى ، وأمست مسرحا للبوم وملعبا للصدى » .

وقد تنوقلت عن روائـــع هـــذه المدينة روايات ساقهـــا المؤرخون والجغرافيون العرب والاسبان ممن بهرتهم روائعها الفنيـــة . واجتذبت أكوام الخرائب والارتفاعات ، التى كانت تضم بين أحشائها بقايا قصور الزهراء ، اهتمام رجال الآثار فى العصر الحديث بعد أن ظلت ، حتى مطلع القرن الماضى ، محاجر غنية تستخرج منها الأحجار وتيجـــان الأعمـــدة لتزيين دور قرطبة واشبيلية .

وفى عام ١٩١٠ أجرى ألسنيور فيلاسكث بوسبكو فى خرائبهـا أول حفائر علمية كشفت عن كميات ضخمة من الخزف ذى البريق المعـدنى ، وقطع كثيرة من الرخام ، وأدت الى الاهتداء الى قصر الحكم المستنصر • وتتابعت الأبحاث الأثرية فى بطء شديد على أيدى كبار الاثريين الاسبان — أمثال السنيور فيليث هرناندث ، والسنيور كاستخون — فكشفوا عن آثار قصر من قصور الناصر سنة ١٩٤٣ ، وهى آثار غنية بالزخارف المحفورة فى الحجر والرخام • ووجد اسم عبد الرحمن الناصر منقوشا على تيجان من الرخام ، كما أمكن قراءة أسماء مهندسى القصور وعرفائها — أمثال أفلح ورشيق ونصر — من صقالبة عبد الرحمن الناصر وفتيانه • وما زالت الأبحاث الأثرية جارية فى وقتنا هذا ، وما زال السنيور فيليث هرناندث يواصل ترميماته لقصر الناصر فى أناة وصبر ، فاستطاع أخيرا أن يكسو جدرانه بالقطع الحجرية المبعثرة التى كانت مطمورة فى الأطلال ، بعد أن قام بلصق أجزائها بعضها ببعض ، مراعيـا فى ذلك تناسب الزخـارف وتناسقها ، ونجح فى اعادة تنظيم هذا القصر بمثل الصورة التى كان عليها أيام الخلافة الأموية فى الأندلس •

ويمكننا أن نستنتج من الاكتشافات الأثرية بالزهراء أن قصورهـا نوعان : الأول يتبع نظام الدار التى تقوم على فراغ مركزى هو الفناء ، وتتوزع حوله سائر الغرف • والثانى يتبع نظام القصـور الفارسية ، ويتألف من بلاطات متوازية ، يفصل بعضها عن بعض صفوف من الأعمدة تقوم عليها عقود وحنايا كما هو الحال فى المساجد •

وكانت أرضيات مجالس هـذه القصور وقاعاتهـا مكسوة جميعا بتراميد الآجر المرصعة بالأحجار البيضاء فى أشكـال هندسية غايـة فى الروعة والجمال • وتكشف لنا تيجان الأعمدة وطنوفها وقواعدها وبعض اللوحات عن فن رفيع فى الحفر الغائر • وينحو هذا الفن فى أسلوبه نحو التقاليد البيزنطية حين ينساب الحفر الى عمق كبـير ، مما يـؤدى الى

اكساب الزخرفة نوعا من التباين الحاد بين الظل والضوء . هذه التقاليد البيزنطية دليل مادى قوى على تغلغـــل التأثيرات البيزنطية والهلينية فى الفن الخلافى بالأندلس . ويؤيد ذلك ما رواه المؤرخون من أن امبراطور بيزنطة بعث صناعا جهابذة الى مدينة قرطبة ، وأن هؤلاء الصناع علموا الفنانين الأندلسيين أسرار صناعتهم فأربوا عليهم وفاقوهم .

طليطـــــــــلة

طليطـــلة تعريب لاسم « توليدوث » (Tholedoth) ، وتقع على نشز منيع عظيم الارتفاع ، تحيط به أودية عميقة وأجراف غائرة ، تتدفق فيها مياه نهر تاجه • ويحيط وادى تاجة بطليطلة من ثلاث جهات مساهما بذلك فى حصانتها ومنعتها • وكان العرب يسمون طليطلة مدينة الأملاك لأنهـــا كانت دار مملكة القوط ومقر ملوكهم •

وطليطلة مدينة قديمة للغاية ، يحيط بأصلها الغموض • ويغلب على الظن أنها بنيت زمن الاغريق • ومما لاشك فيه أن بناءها يسبق مقـــدم الرومان ، فقد حاصرها القائد الرومـــانى ماركوس فولفيوس نوبليور (Marcus Fulvius Nobilior) واستولى عليها سنة ١٩٠ ق•م • ولم يتحمل سكانها أول الأمر جفوة الرومان ، فسرعان ماثـــاروا عليهم ، وهزمـــوا حاكمها الرومانى كايـــوس كالبورنيوس بيزون (Caius Calpurnius Pison) الذى خلف فاتحها فولفيوس سنة ١٨٦ ق•م • ولكنهم ما لبثوا أن خضعوا أخيرا للرومان ، واستسلمت المدينة للفاتحين •

وازدهرت طليطلة فى عهد الرومان ، وازدادت أهميتها بالنسبة لهم ، فحصنوها بالأسوار ، وأقاموا فيها المسرح الكبير والجسر الأعظم ، وغير ذلك من الأبنية الرائعة التى اشتهرت بها العمارة الرومانية • ولما انتشرت المسيحية فى اسبانيا ، أقام سان أيوجينو (San Eugenio) بطليطلـــة مركزا أسقفيا • واستشهد من قديسيها عدد كثير ، نخص بالذكر منهم القديسة ايوكاديا (Santa Leocadia) العذراء التى ذبحهـــا سنة ٣٠٦ داثيانـــو المتوحش (Daciano el Feroz)

الا أن الامبراطورية الرومانية لم تلبث أن اجتاحتها القبائل المتبربرة التى تدفقت على أملاكها كالسيول المدمرة ، ولم تنج اسبانيا من ذلك على الرغم من أن طليطلة استطاعت أن تعتصم فى حصونهـــا وتحتفظ لنفسها

باستقلال داخلى • واستقر القوط الغربيون فى قطاع طركونــة وجنوب غالة ، وأخذوا يوجهون من هذه المراكز غاراتهم فى قلب اسبانيا • ونجح ايوريكو (Eurico) فى ضم طليطلة ، قاعدة اقليم كاربتانيا ، الى ملكه • وارتفعت طليطلة فى عهد الملك أتاناخيلدو (Santa Leocadia) الى الــذروة وزودها ملوك القوط من بعده بآثارهم الجليلة ،وسموها «المدينة الملكية» •

ولم يلبث تاريخ اسبانيا ، منذ أن نبذ الملك ريكاريدو (Recaredo) المذهب الآرى واعتنق المسيحية ، أن أصبح جــزءا لا يتجزأ من تاريــخ طليطلة عاصمة البلاد • وشهدت المدينة الملكية أحداث العهد القــوطى من خلافــات بين ليوفخلدو (Leovigildo) وهرمنخلدو (Hermenegildo) ومساوىء حكم فيتيريكو (Witerico) وغيطشة (Witza) وأقيم بها فى هذا العصر كثــير من البازيليكيــات والكنائس : مثــل كنيسة سانتا ماريــا (Santa Maria) وسانتا ليوكاديا (Santa Leocadia) وسان بدرو (San Pedro) وسان بابلو (San Pablo) ، وعمرت نواحيها بالأديــرة الشهيرة : مثل دير سان كوزمى (San Cosme) وسان داميان (San Damian) وازدهرت فيها العلوم والآداب •

وكان من أجل علمائها كوناثيو (Conancia) والقــديس الدفنسو (Ildefenso) وأيوخينو الثالث (Eugenio III) • واجتمعت فى طليطلــة المجالس العلمية الشهيرة ، وأثرت فى عهد القوط ثراء لم تشهده من قبل ، يدل على ذلك عظم ما غنمه المسلمون عند فتحهم لها •

وكان رودريجو (Rodrigo) آخر ملوك القــوط ، مشغولا باخمــاد ثورة قام بها أهالى مدينة بنبلونة ببــلاد البشكنس ، حين وصلته أنبــاء الفتح الاسلامى ، ونزول جيوش المسلمين بجبل طارق سنة ٧١٢ م فعظم عليه الأمر ، واتجه بجيوشه جنوبا لملاقاة المسلمين بقيادة القائد البربرى

طارق بن زياد • والتقى الجيشان فى واقعة وادى لكة ، وانتصر المسلمون انتصارا ساحقا على جيوش القوط ، وتقدم طارق بجيوشه نحو الشمال فاتحا مدن شذونة ومدور وقرمونة واستجة ، ولم يلق المسلمون بعدها مقاومة تذكر • وانتهى طارق الى طليطلة ، دار مملكة القوط ، فألفاها خالية قد فر عنها أهلها ، فاستولى عليها ، وغنم فيها غنائم طائلة أحصاها المؤرخون •

ويروى بعض مؤرخى العرب أن موسى بن نصير والى المغرب الذى اشترك مع طارق فى فتح الأندلس « كان يجر الدنيا مما احتمله من غنائم الأندلس من الأموال والامتعة حين عاد الى الشام » • وقيل انه حمل معه من الذخائر والجواهر ونفيس الأمتعة ما لا يقدر قدره • وقيل انه غل جوهرا عظيم القدر أصابه ، ولم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله • وقال ابن حيان أن مائدة سليمان التى غنمها طارق ، عقب فتحه لطليطلة ، كانت مصوغة من خالص الذهب ، مرصعة بفاخر الدر والياقوت والزمرد ، لم تر العين مثلها •

وورد فى تاريخ عبد الملك بن حبيب أن أبا شيبة الصدفى قال : « لقد نظرت الى رجلين يحملان طنفسة منسوجة بالذهب والفضة واللؤلؤ والياقوت ، فلما ثقلت عليهما أنزلاها ، وحملا عليها الفأس فقطعاها نصفين ، فأخذا نصفا وتركا نصفا • ولقد رأيت الناس يمرون عليها لا يلتفتون اليها اشتغالا بما فى أيديهم مما هو أرفع منها » • كل ذلك يدل دلالة واضحة على مدى ما كانت تتمتع به طليطلة فى العصر القوطى من رخاء وثراء •

وظلت طليطلة بعد الفتح الاسلامى تتمتع بتفوقها السياسى والكنسى على سائر مدن الأندلس ، ولكنها ما لبثت أن فقدت هذا التفوق ازاء السيادة التى فرضتها عليها قرطبة ، عاصمة الأندلس فى عهد بنى أمية • وكانت طليطلة تضم أكبر طائفة من المستعربين والمولدين واليهود ، ونعنى

بالمستعربين أفراد الشعب الاسبانى الخاضع للعرب مع احتفاظه بدينه ونظمه ، وكانت مزاجا لعناصر وتقاليد لاتينية وقوطية وأخرى عربية .

وساهم موقع طليطلة الاستراتيجى على نهر تاجه ، واحاطته لها من ثلاث جهات ، فى مناعتها ... فلم تسور الا فى جهة الشمال فقط . وفتح فى هذا السور الشمالى بابان : أحدهما شرقى ويعرف بباب القنطرة (Puerta Adabaquin) ، لأنه يفضى الى قنطرة وادى تاجة ، وباب غربى يسمى بباب شاقة (Peurta de Visagra) كان قائما زمن الخلافة الأموية ، وسمى باسم المنطقة الخصبة التى يشرف عليها .

وكانت قنطرة طليطلة من عجائب البنيان ، اذ تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب وفى نهايتها ناعورة ارتفاعها تسعون ذراعا تصعد الماء الى أعلى القنطرة ، ويجرى الماء على ظهرها فيدخل المدينة . وقد هدمت هذه القنطرة فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط حين ثار عليه أهلها ، ثم جددها خلف بن محمد العامرى ، قائد المنصور ابن ابى عامر ، سنة ٩٩٧م.

وقد عبر مؤرخو العرب عن عظمة موقع طليطلة . من ذلك ما ذكره الحميرى فى كتابه « الروض المعطار فى عجائب الأقطار » اذ يقول : « وهى على ضفة النهر الكبير، وقل ما يرى مثلها اتقانا وشماخة بنيان ، وهى عالية الذرى ، حسنة البقعة » . ثم يقول فى موضع آخر : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها ، فى جهة الشمال ، الجبل العظيم المعروف بالشارات » .

وقد كان لطبوغرافية المدينة وطبيعة سكانها أثر كبير فى حركاتهم الثورية المتعددة ، وميولهم الانفصالية عن سلطان قرطبة . ويروى المؤرخ الأندلسى ابن القوطية كيف أوقع الحكم الربضى عام ٧٩٧ م بأهل طليطلة ، واستذلهم عندما استخفوا بواليه عمروس الوشقى المولد ...

فقد اتخذ عمروس قصرا ، واستدعى فيه وجوه طليطلة ، وأوهمهم أنهم اذا طعم منهم قوم انصرفوا من باب غير الباب الذى دخلو منه ، وجعلو كلما دخلوا قتلوا . وقيل أن عدد القتلى يؤمئذ من وجوه طليطلة بلغ نحو خمسة آلاف وثلثمائه رجل ، فلانت بعد ذلك شوكه طليطلة .

وفى عهد محمد بن عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٣٣ هـ ، خرجت عليه طليطلة ، فبرز اليها بنفسه ، واستنجد أهلها بملكى جيلقية والبشكنس . وادى سليطة (Guadacelete) ، وقد أكمن لهم فأوقع بهم ، وهزمهم هزيمة نكراء .

ثم انضوت طليطلة تحت لواء الخلافة القرطبية منذ عام ٩٣٠ م بعد سنوات طويلة من الثورات ، وانتظمت أمورها فى ظل خلافة عبد الرحمن الناصر ، فازدهر فيها فن العمارة ، وانخرطت من الوجهة الفنية فى سلك الأسلوب المعمارى الشائع فى قرطبة بعد أن دخلت طليطلة فى فلك الخلافة الأموية . وازدهرت فى عهد الخلافة ازدهارا تدل عليه آثارها المعمارية الرائعة ، وأهمها المسجد المعروف بباب مردوم ، الذى بناه موسى بن على فى المحرم سنة ٣٩٠ هـ (يناير سنة ١٠٠٠ م) من مال أخد أعيانها أحمد بن حديدى .

ولما اشتعلت نيران الفتنة الكبرى عقب سقوط الخلافة بقرطبة ، وقامت دول ملوك الطوائف ... استقل بنو ذى النون بطليطلة ، وهم أسرة من البربر الذين كانوا فى خدمة المنصور بن أبى عامر ، وكان اسم جدهم الذى ينسبون اليه زنون ، فحرف الاسم الى ذى النون أو دنون. وارتفع شأنهم ، وذاع صيتهم فى عهد المنصور ، وقادوا جيوشه ، واستقروا بكورة شنتبرية .

ولما تولى عبد الملك بن متيوة أمر طليطلة ، وأساء الى أهلها ، خلعوه

واتفقوا فيما بينهم على تولية عبد الرحمن بن ذى النون ، فوجه اليها ابنه اسماعيل ، فاستولى عليها وعلى ما يحيط بها من مدن وقرى ، واستقام له الأمر فيها ، وترك شئون المدينة الى شيخها أبى بكر الحديدى ، وكان من أهل العلم والدهاء • ثم توفى اسماعيل وخلفه ابنه المأمون يحيى بن اسماعيل ، فجري على سنن أبيه فى اتباع العدل ، فتوطد سلطانه ، وعظم ملكه • وقام فى عهده نزاع بينه وبين ابن هود صاحب سرقسطة ، ودام هذا النزاع من عام ١٠٤٣ م الى عام ١٠٤٦ م ، وانتهى بموت سليمان بن هـــود •

ولما توفى المأمون يحيى سنة ١٠٧٤ م ، تولى حفيده القـــادر بالله يحيى • وفى عهده ثار عليه أهل طليطلة لقتلة ابن الحديدى ، وأرغموا ابن ذى النون على الرحيل منهـــا • فاستعان هـــذا بألفونسو السادس ملك قشتالة لاسترداد ملكه • وأقبل ألفونسو بجيوشه ، وحـــاصر المدينـــة ، ودخلها واغتصبها من القادر بالله ، فخرج له عنها فى سنة ١٠٨٥ م مقابل مظاهرة ألفونسو له عـــلى بلنسية • وفى سقوط طليطلة يقول الشاعـــر عبد الله بن فرج اليحصبى :

يا أهـــل أندلس حثوا مطيـــكم
فما المقـــام بهـــا إلا من الغلط
الثوب ينسبـــل من أطرافه وأرى
ثوب الجزيرة منسولا من الوسط

ولقد بلغت أسرة ذى النون فى البذخ والترف الغاية ، وأقام ملوكها القصور السامقة ، والآثار الجليلة الرائعة ومن بينها القصر الـــذى بناه المأمون يحيى ، وقد تأنق فى بنائه ، وأنفق فيه مالاً كثيراً ، وصنع فيـــه بحيرة ، بنى فى وسطها قبة ، وسيق الماء الى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون ، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حولها • وكانت من قاعات هذا

القصر قاعة تعرف بالمجلس المكرم ، كسيت جدرانها بأزر من المرمر الأبيض ، ونقشت جميعا بالتوريقات المحفورة فى الجص .

وكان للمأمون قصر آخر يعرف بمجلس الناعورة ، وهو قصر ريفى ينساب الماء حول قاعاته بين الأعشاب . وأمام احدى هذه القاعات بركة كالمرآة نصبت عليها تماثيل أسود تمج المياه من أفواهها .

وبطليطلة اليوم آثار قصر عربى يعرف بقصر جاليانا ، ويغلب على الظن أنه المنية أو قصر الناعورة الذى بناه المأمون ... وقد بلغت حضارة طليطلة الذروة فى عهد أسرة ذى النون ، واشتهرت بعلمائها فى الفلك والرياضة ، كما عرفت بصناعة الأسلحة وصناعة العلب العاجية وعمل الاصطرلابات .

وشرع ألفونسو السادس ، بعد عشرين عاما من سقوط طليطلة ، فى تغيير المسجد الجامع بها سنة ١١٠٤ م ، فنصب فى مئذنته ناقوسا تأنق فى ابداعه . وكانت التأثيرات الفنية الاسلامية على المجتمع المسيحى قد تأصلت منذ سقوط طليطلة فى أيدى النصارى . وقد أباحت معاهدة التسليم فى طليطلة للمسلمين الاقامة مع المسيحيين فى أحيائهم دون اتخاذ أحياء خاصة بهم ، كما حدث فى المدن الاسلامية الأخرى التى سقطت فى أيدى القشتاليين ، وضمنت اقامة المسلمين فى طليطلة ، تحت حكم المسيحيين ، استمرار النظم الاسلامية فى الزراعة والصناعة وفن البناء . وكان المسلمون يؤلفون اليد العاملة فى كل هذه الميادين ، فساد الأسلوب المدجن فى الفنون والعمارة ، وغلب على غيره من الفنون المسيحية .

ولا نعرف عن النظام الذى عليه طليطلة فى القرن العاشر الميلادى سوى معلومات ضئيلة لا تفى بمحاولتنا دراسة تخطيطها الاسلامى ... خاصة وقد تغيرت المدينة على مر العصور . وأغلب هذه المعلومات استقيناها من اشارات عابرة وردت فى كتب التراجم ، وما ذكره الحميرى

فى كتابة « الروض المعطار » • وقد سبق أن ذكرنا موقع المدينة وأثره فى تحصينها والأبواب التى تنفتح فى سورها الشمالى •

وكان يتوسط المدينة مسجدها الجامع الذى تقوم على بقتعه اليوم كاتدرائية طليطلة ، والى الشمال الشرقى للمسجد يقع سوق الدواب ، المعروف اليوم باسم (Zocodover) وكان يلى باب القنطرة غربا • وقد تبقى منه اليوم عقد كبير على شكل حدوة الفرس كان أحد عقود أربعة تنفتح فى جدران هذا السوق المربع • والى جانب البابين اللذين ذكرتهما فيما سبق ، واللذين ينفتحان فى السور الشمالى ، بابان جنوبيان آخران يشرفان على نهر تاجه ، هما بابا الحديد والدباغين • واسم هذا الباب الأخير محفوظ حتى يومنا هذا باللغة الاسبانية (Peurta Adabaquin) وقد ذكره المقرى فى كتابه نفح الطيب عند ذكره لحوضين أقامهما الخليفة عبد الرحمن الناصر فى بيت مشيد داخل النهر الأعظم •

وقد استطعنا — بفضل الوثائق العربية التى نشرها المستشرق الاسبانى آنخل جونثالث بلنسية — دراسة بعض حومات المدينة ودروبها فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر • وكانت أهم هذه الحومات : حومة الجامع ، وكانت تتوسط المدينة ، وبداخلها حارة الصباغين وحارة البئر المر ، التى كانت تسمى فى القرن الحادى عشر باسم رحبة القشالى • وكان بداخل هذه الحارة حمام يعرف بحمام « يعيش » ، ذكر اسمه فى وثيقة ترجع الى سنة ١١٩٧ •

ويقع حى العشابين بالقرب من المسجد الجامع ، اذ ورد ذكره فى وثيقة مؤرخة سنة ١١٧٠ • ويمتد ربض الافرنج من المسجد الجامع جنوبا • وكان بهذا الربض أسواق كثيرة ، منها : سوق العطارين ، والكمادين ، والصرافين ، والحصارين ، واللجامين •

ويقع مسجد المسلمين ــ وهو مسجد كان يؤدى فيه المدجنون شعائر دينهم ــ بالقرب من سوق الكمادين • وما زال هذا المسجد قائمــا حتى يومنا هذا • أما ربض اليهود فكان يقع غربى مدينة طليطلة ، وكان يعرف بالربض البرانى لأنه يتجاوز المدينة • ويذكر ابــن بشكوال اسم منطقة كانت تعرف بالحزام من طليطلة ، ومنطقة خارجها تعرف بالجبل البارد ، وأخرى بالدباغين •

وتذكر الوثائق العربية أن بشمال طليطلة ربضها الشهير ، ويقع فيما بين بابى مردوم (Val Mardam) وشاقرة • وكان بطليطلة مساجد كثيرة ، ذكر ابن بشكوال منها مسجد ابن ذنى القاضى ، وكان قائما بالحزام من طليطلة ، ومسجدين أقامهما فتــح بن ابراهيم الأمــوى المعروف بابن القشارى : أحدهما بالجبل البارد ، والثانى بحى الدباغين •

المريـــــــة

المرية مدينة اسلامية البناء ، محدثة الانشاء ، أمر ببنائهـا الخليفة عبد الرحمن بن محمد ، الملقب بالناصر لدين الله ، سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) واسمها مشتق من وظيفتها ، اذ كانت تتخذ مرأى ومرصدا بحريـا لمدينة بجانة القريبة منها ، والتى لا تبعد عنها سوى أربعة أميال غربـا . وكان يسكن بجانة منذ الفتح الاسلامى للأندلس بعض القبائل العربية اليمنية. فلما قامت دولة بنى أمية بالأندلس ، كان لا بد أن تظهر ، منـذ اللحظة الأولى ، كدولة بحرية : بسبب طبيعتها الجغرافية ، وعزلتها بالنسبة للعالم الاسلامى ... فأنزلوا بنى سراج القضاعيين فى هذا الاقليم ، وجعلـوا اليهم حراسة ما يليهم من البحر ، ومراقبة الساحل خشية نزول المجوس أو الأزدمانيين (النورمانديين الذين كانوا يغيرون على سواحل الأندلس) فسمى الاقليم « أرش اليمن » أى عطيتهم ، وكانوا يتمعتون مقابل ذلك باستغلال مياه نهرها المعروف بوادى أندرش ، أو وادى بجانة ، وكـان من أفرج الأدوية .

ويذكر الحميرى أنه لما نزل البحريون (١) بجانة ، وتغلبوا على مـا كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ... جمعوا الحارات المتفرقة بهذه المدينة وبنوا سورها . وما لبثت بجانة أن أصبحت ، منذ أن استقر بهـا البحريون سنة ٢٧١ هـ (٨٨٤ م) ، مدينة عظيمة ، فأمهـا الناس من كل مكان فرارا من الفتن التى اشتعلت نيرانهـا وقتئذ فى الأندلس . وكانت

---

(١) هم بحارة اندلسيون مولدون وستعربون ، كانـوا يجوبون البحر من سواحل افرقيا الشمالية وسواحل اسبانيا الجنوبية الغربية . ويذكر ليفى بروفنسال انهم أقاموا بمدينة تنس من موانىء الغرب ، واختاروا لهم فى المنطقة الواقعة شرقى بجانة ، والمعروفة بمرية بجانـة ، قاعدة لهم فى اسبانيا .

الميرة وضروب المرافق والتجارات تجلب اليها من العدوة (٢) • وكـــان ذلك سببا من الأسباب الداعية الى قصدها واستيطانها • ثم أصبـــح لبجانة أسطول يرسو على شاطىء المرية •

ولما قدم المجوس الى المرية ، وأغاروا على ساحلها ، ابتنيت فيهـــا المحارس ، وكان الناس ينتجعونها ويرابطون فيهـــا واتسعت المريـــة ، وازدهرت ، وأصبحت هى وبجانة — على حد قـــول ياقوت الحموى — بابى الشرق • منهما يركب التجـــار ، وفيهما تحل مراكبهـــم • وتمتعت المدينتان برعاية الأمير عبد الرحمن الأوسط • ثم أخـــذت بجانة تفقـــد أهميتها شيئا فشيئا منذ عام ٣١٠ هـ (٩٢٢ م) ، وأخذت تتنازل للمريـــة تدريجا عن مكانتها السامية • وتقدمت المرية ، وانتقلت اليها قاعدة الاقليم وأقيم بها — فى عهد عبد الرحمن الناصر — كثير من المنشـــآت العمرانية والمعمارية ••• حتى اتخذت فى أيامه طابع المدن وحاطها بسور منيـــع ، وأقام بها القلعة الحصينة المعروفة بقلعة خيران ، نسبة الى الفتى خيران العامرى الذى ولاه عليها المنصور بن أبى عامر فيما بعد ••• كذلك أقام بها عبد الرحمن الناصر دارا لصناعة قطع الأسطول •

وارتفعت المرية فى عهد الحكـــم المستنصر الى مصـــاف الحواضر الأندلسية الكبرى ، وأصبحت أهم موانىء اسبانيا الاسلامية فى القـــرن العاشر الميلادى • وكان يرسو فى خليجها العميق أغلب وحدات الأسطول الأندلسى فى العصر الاموى ، واتخذها قائد البحر فى الأندلس عبد الرحمن ابن الرماحس قاعدة له للارساء والاقلاع •

والواقع أن خلفاء بنى أمية اهتموا باصطناع سياسة بحرية ، وعملوا على اعداد أسطول قوى يدفع عن الأندلس الأخطار الناشئة من غارات

---

(٢) هى الجهة المقابلة لجبل طارق من ساحل افريقية ، ونعنى بها منطقة طنجة وسبتة .

المجوس والغزو الفاطمى المرتقب على السواء • وقد اهتــم عبد الرحمن الناصر خاصة بتجهيز هذا الأسطول • ويذكر ابن خلدون فى مقدمته « أن أسطول الأندلس انتهى فى أيامه الى مائتى مركب أو نحوها » • وأمــر عبد الرحمن سنة ٣٠٢ هـ (٩١٤ م) بانقاذ هذا الأسطول الى مضبق جبل طارق ليمنــع عن ابن حفصون الثــائر فى ببشتر (Babastro) تلقى الامدادات من الساحل الافريقى وكان لأسطول عبد الرحمن الفضل الأكبر فى استيلائه سنة ٣١٤ هـ (٩٢٧ م) على مليلة وسبتة • ومنذ ذلك الحين أخذ الأسطول الحربى الأموى يسدد ضرباته الى الممتلكات الفاطميــة فى بلاد المغرب •

وأمر الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ببناء مركب كبير للغاية فى دار الصناعة بالمرية ، وخصص هذا المركب لنقــل البضائع الى المشرق • وقد استطاع بحاره هذا المركب أن يستولوا على مركب آخر من صقلية كان يحمل بريدا للمعز الفاطمى ، مما اضطر المعز الى ارســال أسطول يقوده الحسن بن على حاكم صقليــة الى المرية ، فنزل شاطئها سنة ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) وأحرق ما كان راسيا به من مراكب • ونزل فريق من البحارة الفاطميين الى المدينة ، فأحرقوا ودمروا كل مــا صادفهم فى طريقهم ، وأسروا عددا كبيرا من الأهالى ، وحملوهم معهم الى صقلية • وقد عمد غالب ، قائد عبــد الرحمن الناصر ، الى الرد عــلى تلك الحملة الفاطمية ، فأغار فى ستين سفينة على مرسى الخرز ، ودمر كــل منطقة سوسة •

واحتفظت المرية ، فى عصر ابن أبى عامر ، بالمركز السامى فى السيادة البحرية • واستخدم المنصور بعض وحدات هذا الأسطول فى حملاته على ساحل قطلونية وجليقيــة سنة ٣٧٤ هـ (٩٨٥ م) وسنة ٣٨٧ (٩٩٧) • واشتهر من قواد البحر فى المرية القائد أبو عبد الله محمد بن ميمون •

وكانت المريـــة ، بالاضافـــة الى كونها قاعـــدة للأسطول الحربى الأندلسى ، مركزا للسفن القادمة من المشرق • وكانت تقصدهـــا السفن التجارية من جميع بلاد البحر الأبيض المتوسط من الاسكندرية والشام ذلك • ولم يكن بالأندلس كلها أيسر من أهلها ، ولا أتجر منهم فى الصناعات وأصناف التجارات تصريفا وادخارا • وكانت تشتهر بصناعات المنسوجات وكان بها ، على حد قول الادريسى : « من طرز الحرير ٨٠٠ طراز يعمل بها الحلل والديباج والسقلاطون والاصبهـــانى والجرجـــانى والستور المكللة والثياب المعنية والخمر العتابى والمعاجر ، وصنوف أنواع الحرير • وكان يصنع بها من صنوف آلات النحاس والحديـــد الى سائر الصناعات ما لا يحد ولا يكيف » •

ويذكر ياقوت « أنه كان يعمل بها الوشى والديباج فيجاد عمله ، ولم يتفق فى الأندلس من يجيد عمـــل الديباج اجادة أهـــل المرية » • كذلك انفردت المرية بصناعة الزجاج والفخار المذهب والمزجج • وهكـــذا يشهد مؤرخو العرب وجغرافيوهم بعظمتها الصناعية • وكان ميناؤهـــا يزخر بالأجفان (المراكب) الغزوية الخـــاصة بالحروب والغارات ، والمراكب التجارية المختلفة •

أما دار الصناعة بالمرية فقد ظلت فى أتم حـــالات نشاطهـــا حتى منتصف القرن الرابع عشر الميلادى على الأقل ، وهو الوقت الـــذى كتب فيه ابن فضل الله العمرى • فقد ذكر أن بالمرية داراً لصناعة الأسطول الذى يخرج منها لغزو الافرنج • ويغلب على الظن أنها استمرت فى انتاج السفن والأجفان الحربية فى عهد دولة بنى نصر ، حتى سقوطها فى أيدى القشتاليين فى فبراير سنة ١٤٩٠ م •

وكانت دار الصناعة بالمرية تقع ـــ وفقا لما ذكره أسقف نبيو ، واسمه « أجوستين خستنيانى » ـــ بالقرب من البحر • وكانت تتسع لعدد كبير

من السفن ، وكانت آثارها ما تزال قائمة فى أيامه • وما زال الشارع الذى كانت تقوم فيه دار الصناعة معروفا باسم شارع دار الصناعة • وكـــان هذا الشارع يحتفظ ، حتى طليعة القرن التاسع عشر ، ببلاطـة طولهـا يتجاوز مائة متر ، وعرضها ١٥ مترا ، وارتفاعها ثلاثون مترا •

ثم تفككت الوحدة السياسية بالأندلس على أثر سقوط الخلافـــة الأموية بقرطبة سنة ٤٢٢ هـ (١٠٣١) • واقتسم رؤساء الأندلس — من عرب وبربر وصقالبة — أم مدنها ، وانتحلوا الألقاب التى أخذوا يتباهون بها مقلدين فى ذلك الخلفاء العباسيين ، وتغلب بعضهم على بعض ، واشتد بينهم النزاع • وكان ذلك بداية لعصر ملوك الطوائف • واختص البربر بالأقاليم الجنوبية من الأندلس • واستأثر الصقاليـــة بشرق الأندلس : فكان فى بلنسية الصقلبيان مبارك والمظفر ، وفى دانية وجزائر البليار أبو الجيش مجاهد العامرى •

وتغلب على المرية وأعمالها خيران العامرى فتى المنصـــور بن أبى عامر • وكان قد نال الرئاسة على الصقالبة ، وحظى بالشهرة عـــلى سائر مماليك الأمويين والعامرين بعد انقراض الدولة العامرية • وكان ممن نجا من المذابح التى تلت خلع هشام المؤيد واستيلاء سليمان بن الحكـــم على قرطبة وقتل من قبض عليه منهم ••• هرب خـــيران من حضرة قرطبة ، وكان قد اتصل به انتزاء أصحابه بشرق الأندلس ، فاتجـــه اليهم ، وأبت له همته الانقياد لأحد من رؤسائهم • فاستقر بكورة تدمير ، وكتب الى رفاقه بشرق الأندلس يسألهم المعونة لقيامــه عنهم بمحـــاربة البربر ، ومدافعتهم عن كورة تدمير المجاورة لهم ••• ففعلوا •

واستقر خيران بقصر أريولة — وكانت مدينة حصينة تعـــد مثلا فى الحصانة والمنعة — وأقبل اليه كثير من العامة والصعاليك يؤيدونه • واقدم بفضلهم على كثير من خطير الشئون وعظيم الأمور ، فاشتهر أمره ، ووجه

اليه صاحب قرطبة ، موسى ابن مروان بن حدير ، حملة ••• فانتصر عايه خيران • ثم تغلب على مرسية ، واتجه بعـــد ذلك الى ضم المريـــة معقل الأندلس ، وكان يقوم عليها أفلح الصقلبى • وكان أفلح هذا يتصف، بأنعتو والجهالة : قد ذهب به العجب كل مذهب ، ورأى لنفسه الفضل على سائر جنسه بالشيخوخة •

وتقدمت جيوش خـــيران من مرسية فى غرة المحـــرم سنة ٤٠٥ هـ (١٠١٤ م) ، وتغلب عليها ودخل المرية ، واستولى على القصبة ، وقتـــل أملح وولده ، وظفر بما وجده فيها من مال وعتاد • واتخذ المريـــة حاضرة له وقاعدة لسلطانه ، واستوسع فيما يليها من الأعمال ، واستعان عـــلى تدبير أمور مملكته بأحد رجاله المعروفين بالدهاء والحكمة ورجاحة العقل، واسمه عباس بن أبى زكريا • ثم مرض خيران بالمرية وتوفى فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) •

ولما توفى خيران اجتمع ابن أبى زكريا بأهل العقد والحـــل ، وقدم زهير العامرى ، فرضى الناس به • وامتدت أطناب مملكة المرية الى قرطبة ونواحيها الى بياسة • ثم قتل زهير بقرية الفنت خارج غرناطة فى موقعة حدثت بينه وبين باديس ملك غرناطة فى شوال سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) • ولما علم أهل المرية بموته أسندوا أمورهم الى الشيخ أبى بكر الرميمى ، فضبط المدينة الى أن كاتبوا عبد العزيز بن المنصور بن أبى عامر ، فجاءها من بلنسية وضمها اليه •

وعلم بذلك مجاهد العامرى صاحب دانية ، فحسده على ذلك ، وأظلم الافق بينهما • فخرج مجاهد غازيا الى مملكة عبد العزيز بن المنصور • وكان عبد العزيز هذا يومئذ بالمرية مشتغلا بتركة زهير ، فترك المريـــة ليصالح مجاهد ، واستخلف عليها صهره ووزيره معن بن صمادح • ولم يكد عبد العزيز يغادر المدينة حتى خان معن الأمانة ، وأسقطه عن الامارة «وتنكب

التوفيق ابن أبى عامر لاسترعائـــه الذئب الأزل عـــلى ثلته • ومسترعى الذئب أظلم » •

أصبحت مملكة المرية تابعة لمعن بن صمادح • فلما مات قام بالأمر فيها بعده ولده أبو يحيى محمد بن معن • فارتقى ذروة الامارة ، وتلقب من الأسماء الخلافية بالمعتصم • ولم يكن المعتصم بن صمادح رجلا يحب الحروب ، فأخلد الى حياة السلم ، واكتفى بالضيق مـــن السعة ، وقنع بمملكته الصغيرة • وكان كريما ، جزل العطاء ، أعملت الى حضرته الرحال واتسع فى مدحه المقال ، ووفد الى قصره فحول الشعراء ، أمثال : أبى عبد الله ابن الحداد ، وابن عبادة ، وابن الشهيد • وكان محبا للفنون والبناء ، فاقام الكثير من المنشآت ، وابتنى قصرا سماه بالصمادحية ، واستغرق فى حياة الترف وملاذ الحياة — كما فعل غـــيره من ملوك الطوائف — حتى بدأ الضعف يـــدب فى جسم دولـــة الاسلام بالأندلس • وتقدم خطـــر الاسترداد الاسبانى فى قلب اسبانيا الاسلامية ، فاستنجد ملوك الطوائف بالمرابطين (١) ، فقدموا الى نجدتهم ، وانتصروا على جيوش قشتالـــة وليون فى واقعة الزلاقة فى ٢٣ من أكتوبر سنة ١٠٨٦ •

وشرع ابن تاشفين فى ضم الأندلس لنفسه ، ملتمسا الأعذار بـــأن هؤلاء الملوك الذين عكفوا على الترف ، قد استبدوا برعيتهم ، وعرضوا الاسلام للضياع •• فدخل غرناطة فى نوفمبر سنة ١٠٩٠ ، وأسقط عبد الله بن زيرى ، وأخذ يتأهب لالتهام بقية المدن الاسلامية بالأندلس •

جاهر ابن صمادح بعصيان ابن تاشفين حين رأى من طمعه وتوثبه

---

(١) اتباع يوسف بن تاشفين الذى قام ببلاد المغرب ، واستطاع أن يؤسس دولة بربرية عظيمة تغلبت على الدويلات القائمة بالمغرب • وقد تعلقت آمال أهل الاندلس بنجدته بعد أن ضايقهـــم الفونسو السادس ملك قشتالة وليون فى طلب الجزية • فعبر ابن تاشفين الزقـــاق ، والتقت جيوشه مع جيوش النصارى فى واقعة الزلاقة ، وكان الانتصار حليف المسلمين •

عليه ، وآل أمره مع ابن تاشفين الى مـــا آل اليه أمـــر ملوك الطوائف الآخرين • فقد اقتحمت جيوش المرابطين مملكته سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) بقيادة سير بن أبى بكر أحد قواد يوسف المشاهير والأمير يحيى بن واسنو وحاصرت المرية • ولما علم ابن صمادح بذلك ــ وكـــان معتلا مريضا ــ غلب عليه المرض ، ونزل به الموت فى أثناء حصـــار المرابطين لقصـــره ، وتنغصت عليه ساعاته الأخيرة ، وأوصى ولده وولى عهده معز الدولة أن يتمسك بقصبة المرية مـــا بقى المعتمد بن عبـــاد ملك اشبيلية متمسكـــا بمملكته ••• فاذا خلع المعتمد ، فليعبر معز الدولة البحر بأهله وولـــده الى الجزائـــر •

وتوفى المعتصم فى ربيع الآخر سنة ٤٨٤ هـ (١٠٩١ م) • وأقـــام معز الدولة على المرية وجيوش المرابطين تحاصره ، وامتثل وصية أبيه ، فلما علم بسقوط المعتمد بن عباد ، وخروجه أسيرا الى أغمات بالمغرب ، أمر رجاله بنقب السور خارج باب موسى الى دار الصناعة ، وركب مـــع بعض رجاله فى قطعة من أسطوله ، وحمل المال والمتاع فى مركبين ، وأحرق باقى الأجفان ، ونجا بنفسه وأهله • ودخل المرابطون القصبة واستولوا عليهـــا •

ظلت المرية تابعة للمرابطين حتى ضعف أمرهـــم وانحطت هممهم • فثار عليهم أهل المرية ، وطردوا من كان فيها منهم • ثم اختلفـــوا فيمن يقدمونه على أنفسهم ، فندبوا اليها القائد أبا عبد الله بن ميمون ، قائـــد الأسطول المشهور ، فأبى عليهم وقال : « انما أنا رجل منكم ، ووظيفتى البحر وبه عرفت ، فكل عدو جاءكم من جهة البحر فأنا لكم به • فقدموا على أنفسكم من شئتم غيرى » • فقدموا على أنفسهم رجلا منهم اسمه عبد الله بن محمد ، ويعرف بابن الرميمى ، فتولى شئون المدينـــة الى أن دخلها القشتاليون عنوة من البر والبحر فى عام ٥٤٢ هـ (١١٤٧ م) فقتلوا

أهلها ، وسبوا نساءها ، وانتهبوا أموالها . وحاول الموحدون [1] دخول المرية وانقاذها وحاصروها ، لكنهم لم ينجحوا فى تخليصها من العدو . ثم نجحوا أخيرا فى تخليصها من النصارى بعد أن خضعت زهاء عشر سنوات لحكم قشتالـــة .

وكان أول الولاة عليها ، من قبل عبد المؤمن ابن على خليفة الموحدين، رجلا يقال له يوسف ابن مخلوف . فثار عليه أهل المرية وقتلوه ، وقدموا على أنفسهم أبا يحيى بن الرميمى ، وأخذها النصارى منه عنوة .

ولما سقطت المرية أقبل اليها السيدان أبو حفص وأبو سعيد ، ابنـــا الخليفة عبد المؤمن ، فحاصرا النصارى بها . وزحف اليهما أبو عبد الله بن مردنيش ملك شرق الأندلس محاربا لهما ، فكانـــا يقاتلانه ويقاتلان النصارى معا . ورأى ابن مردنيش أن من العار حقا أن يحارب مسلمين مثله فرحل عن المرية . وظن النصارى أن بالأمر شيئا فاصطلحوا مع ابنى الخليفة عبد المؤمن . ودخل الموحدون المدينة وقد خربت وضعفت .

وفى أواخر أيام دولة الموحدين ، قام فى المرية أبـــو عبـــد الله بن الرميمى بدعوة محمد بن يوسف ابن هـــود الجذامى ملك مرسية ، سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) ، فولاه ابن هـــود وزارته بمرسيـــة . الا أن ابن الرميمى كان يطمع فى امتلاك المرية فأغرى ابن هود بتحصين قلعة المرية ، فولاه ابن هود حاكما عليها . ثم اعتزم ابن هود أن ينقـــل بعض قواته بحرا لانقاذ أمير بلنسية أبى جميل زيان ضد الملك جـــايم ملك أراجون . وكان ابن الرميمى يعد العدة للقضاء عليه ، فاستضافـــه ابن الرميمى فى قصره ، ودبر قتله غيلة ، واستبد هو بملك المرية .

---

(١) دولة بربرية اسسها المهدى بن تومرت فى مراكش والجزائر ، قضت على دولة المرابطين المنحلة ، ووحدت بلاد المغرب من تونس الى مريكش .

وفى ذلك الوقت كان محمد بن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر قد ضم الى مملكته بعض المدن الأندلسية الباقية فى أيدى المسلمين ليؤلف بذلك جبهة قوية أمام الخطـر المسيحى الجاثم . فما كـاد يستولى على غرناطة حتى سير جيوشه الى المرية ليضمها الى مملكته ، وحاصرها مدة . فلما اشتد عليها الحصار غادرها ابن الرميمى بحرا ، واتجـه الى تونس مستظلا بلواء أميرها أبى يحيى الحفصى . ودخل الغالب بالله محمد بن نصر المرية سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) .

واتسعت المرية بمن وفد اليها من مسلمى الأندلس الذين أبوا الحياة مع الاسبان عقب سقوط مدنهم . وظلت المرية المنفذ الوحيد الـذى تصل اليه الامدادات والمؤن من بلاد المغرب الى مملكة غرناطة حتى تقدمت اليها جيوش الملكين الكاثوليكيين فرناندو وايزابيلا وحاصرتها . ولم تطل مقاومة هذا الثغر المنعزل فسلمت المرية فى عام ٨٩٥ هـ (فبراير ١٤٩٠) .

النظـام العمرانى للمدينـــة

كانت المرية تنقسم الى ثلاثة مراكز عمرانية هامة : أولهـا المدينة القديمة . وكانت تتوسط هذه المراكز جميعا ، وكانت القلب الذى ينبض بحياة المدينة لاشتمالها على أهم المنشآت المعمارية : كالمسجـد الجامع ، ودار الامارة ، والفنادق ، والحمامات ، وغير ذلك . وكان يخترق المدينة طريق يمتد من باب بجانة حتى البحر مارا بالمسجد الجامع . وكان يحيط بالمدينة سور حصين منيع بناه الخليفة عبد الرحمن الناصر ، وكان ينفتح فى هذا السور باب يعرف بباب بجانـــة ، وتقع فى خارجـه مقبرة تعرف بمقبرة باب بجانـــة .

والى شرق المدينة كان ربض المصلى ، وكان أكثر مراكزها ازدحاما بالسكان ، وقد حاطه خيران العامرى بسور منيع بناه من الطابية (التراب) عام ١٠١٥ م ، وأوصل اليه المياه من جبل لاهم ، وأجراها فى ساقية حتى

المدينة • وكان ينفتح فى سور ربض المصلى باب يعرف بباب موسى (١) • وانى غرب المدينة كان الربض الثانى ، وهو ربض الحوض ، وكان ربضا كبيرا عامرا بالأسواق والديار والفنادق •

ويحمى المدينة ذاتها من الشمال نشز مرتفع تتوجـــه القصبة التى تشرف حتى اليوم على المجموع العمرانى للمدينة • وتتوزع القصبة اليوم فى ثلاثة مرتفعات غـــير متساوية : فالمرتفع الأعلى يقـــع غربى القصبة ، ويتصل بسور ربض الحوض فى خط يتفق وطريقا يسمى اليـــوم طريق شانكا •وكان هذا الجزء من القصبة هو معقلها الأمنع •ويغلب على الظن أنه القلعة المنسوبة الى خيران ، وقد أعيد بناؤه فى عهد الملكين الكاثوليكين • أما المرتفع الثانى فيكاد يكون منبسطا فى سطحه • وكـــان يشغله القصر وملحقاته ، ويتصل سوره شمالا بسور ربض المصلى مخترقـــا الطريق المعروف اليوم بطريق لاهويا ، وكان يصعد فى سيره حتى يصل الى جبل لاهم الذى ذكره الادريسى ، والذى يسميه أهل المرية اليوم « دن سان كريستوبال » • والمرتفع الثالث طويل للغاية • ويغلب على الظن أنه كان مكانا للحدائق التى أنشأها خيران بعد أن أوصل المياه الى القصبة •

وبناء أسوار القصبة قوامها ، فى سائر أجزائها ، خليـــط من الملاط ، وتسندها أبراج تتجاوز السور فى ارتفاعها • وبالجزء العلوى منها غرفات داخلية ، وتعلو الأبراج والأسوار شرفات رؤسها هرمية مدببة • وقـــد أسفر البحث الأثرى فى القصبة عن اكتشـــاف حمام يتـــألف من خمس حجرات تمتد فى صف واحد ، وبقايا مسجد جامع هو جامع القصبة الذى ذكره ابن الأبار • وفى الجزء الجنوبى من قصبة المرية خزان للمياه يتكون من ثلاثة أروقة •

---

(١) يذكر المقرى ان من أبواب المرية بابا يعرف بباب العقاب ، عليه صورة عقاب من حجر قديم عجيب المنظر (المقرى ج ١ ص ١٥٣ طبعة محيى الدين عبد الحميد) ويذكر ابن الابار بابا آخر يطلق عليه ابزياتين (ابن الأبار : كتاب التكملة لكتاب الصلة ج ١ ص ٢١٤) •

وتبقى فى المدينة آثار ضئيلة لمسجدها الكبير الذى تحول الى كنيسة سان خوان . وهذه الآثار لا تعدو المحراب وجدار القبلة . ويزين المحراب طبقة جصية تحتشد فيها زخرفة من التوريقات : يرجع بعضها الى عصر الخلافة ، والبعض الآخر الى عصر الموحدين الذين أصلحوا المسجد بعد أن خلصوا المرية من احتلال جيوش قشتالة .

كما تبقى بالمرية فى ربض الحوض ، وعلى مقربة من طريق شانكا ، بقايا جدران منزل مكسوة بطبقة جيرية عليها زخارف هندسية مخططـــة بخطوط حمراء تؤلف أربعة أنواع من التكوينات الهندسيـــة المتشابكة . ويغلب على الظن أن هذه الدار ترجع الى عصـــر المرابطين لتشابه هـــذه الزخارف بزخارف قصر منتقوط بمرسية .

ولم تعد المرية اليوم ذلك الثغر طالما رست به أساطيـــل المسلمين ، وانما أصبحت مدينة ثانوية أقرب ما تكـــون الى القريـــة بسبب صعوبة الاتصال برابينها وبين سائر مدن الأندلس .

مرســــــــــية

تقع مدينة مرسية على وادى شقورة (Segura) قرب مصبه ، وهو قسيم نهر الوادى الكبير ، اذ أن كليهما ينبع من جبال شقورة • ومدينة مرسية ، التى كانت حاضرة شرق الأندلس فى العصــر الاسلامى ، مدينة اسلامية محدثة : أسسها الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢١٦ هـ (٨٣١م) لتقوم مقام مدينة الــة (Ello) الحاضرة القديمة لكورة تدمير (١) • وقد قام عامله عليها ، جابر بن ملك بن لبيــد ، بتخطيطهــا وانشائها ، واتخذها منزلا للولايـــة ، وأصبحت قاعدة كورة تدمــير ، ودارا ومقرا للقواد •

ولما ضعفت السلطة المركزية بقرطبة فى عهد الأمير عبد الله بن محمد، وقامت الثورات فى سائر أنحاء الأندلس ، استقل ديسم بن اسحق المولد بمرسية ولورقة • ولم تدخل مرسية فى فلك الخلافة القرطبية الا بعد أن أرسل عبد الرحمن الناصر وزيره اسحق ابن محمد القرشى عــلى رأس جيش كبير فانتزعها من الثوار •

وازدهرت مرسية فى عصر الخلافة وعمرت ، وأصبحت من حواضر الأندلس الكبرى ••• حتى سقطت الخلافة الأموية بقرطبـــة ، وتمزقت وحدة الأندلس ، وقامت دويلات الطوائف ، فأصبحت مرسية من نصيب خيران ••• الفتى العامرى الذى استقل بها ، واستولى على قلعة أريولة، ونازع الموفق مجاهد العامرى صاحب دانية • ولما هزمه مجاهد استنجد خيران بمحمد ابن المظفر بن عبد الملك ابن أبى عامر وتنازل له خيران عن مرسية وأريولة •

---

(١) أمر عبد الرحمن الاوسط بتهديم مدينة الة سنة ٢١٦ هـ نتيجـــة للصراع الذى قام فى تلك الكورة المضرية واليمنية وذلك فى بداية عهـــد الامير عبد الرحمن الأوسط • وقد استمرت الحرب قائمة بين هاتين العصبيتين مدة سبع سنوات حتى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) •

غير أن العلاقات بينهما ما لبثت أن ساءت ، ففر خيران الى المرية فى ربيع الآخر سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) ، وتحرك منها الى مرسية محـاربا لحمد ابن المظفر ، فاحتال عليه حتى أخرجه عنها فى ربيع الأول سنة ٤١٣هـ (١٠٢٢ م) ٠

وهكذا خضعت مرسية لخيران وظل يحكمها من المرية ، حتى مات فى جمادى الأولى سنة ٤١٩ هـ (١٠٢٨ م) ، فخلفه الفتى زهير العامرى، وأصبحت مرسية خاضعة لزهير يحكمها من قصبته بالمرية ٠

فلما قتل زهير فى معركـــة قامت بينه وبـــين بـــاديس ابن حبوس الصنهاجى بقرية الفنت خارج غرناطة فى شوال سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) واتصل نبأ موته بأهل مرسية ، ضبطوا مدينتهم ، وأسندوا الرياسة فيها الى جماعة من أعيانها ، ومنهم الشيخ أبو بكر أحمد بن اسحق ، وأبو بكر احمد بن طاهر ٠ وكان بيت بنى طاهر بمرسية من أشرف البيوتات بهـــا وأرفعها ٠ واستطاع أبو عبد الرحمن محمد بن أحمد ابن طاهر أن يتغلب على الرياسة فيها : فأجرى أمور مرسية فى حزم ، واتبع العدل فى أحكامه ورضى الناس بحكمه الا فئة حسدته على ما ناله من مكانـــة ، وخاطبت المعتمد بن عباد ملك اشبيلية فى الايقاع به ٠ فوجه المعتمد اليهم وزيره ابن عمار الشاعر ، وقائد عسكره عبد الرحمن بن رشيق ٠ ووثب الثائرون فى المدينة على ابن طاهر فقبضوا عليه ٠

واستولى ابن عمار على مرسية ، وسولت له نفسه الاستقلال بها ، والخروج على المعتمد رغم معارضة ابن رشيق له ٠ وانتهـــز ابن رشيق فرصة خروج ابن عمار لتفقد بعض شئون مرسية وحصونها ، فوثب على مرسية ، واستولى عليها ، وامتنع بها ٠ وحدث بـــين ابن رشيق والمعتمد نزاع حول ملكية مرسية ، وشكا المعتمد ليوسف بن تاشفين ، فاصلـــح بينهما يوسف على أن يخرج ابن رشيق عن مرسية للمعتمد مقابل تعويض مالى له عنها ٠

ثم آلت مرسية بعد ذلك الى المرابطين • فلما ضعف أمرهم ، ثـار أهل الأندلس عليهم ، وطردوا ولاتهم،وضبطوا أمور بلادهم بأنفسهم•• فتقلد رياسة مرسية القاضى أبو عبد الله بن أبى جعفر ، وشارك معه فى امورها أحد قواد الجند ، واسمه عبد الرحمن بن عياض المعروف بالثغرى واستولى على أريولة وما يحيط بها من ضياع وحصون • وعندما عظم شأن القاضى أبى عبد الله قبض على الثغرى ، واستبد بشرق الأندلس حتى قتل فى واقعة حدثت بينه وبين جيوش المرابطين سنة ٥٤٠ھ (١١٤٥م) أما ابن عياض فقد أصبح له الأمر بمرسية • فلما حضرته الوفاة ، جمع جنده وأعيان المدينة ، وأشار عليهم بتولية محمد بن مردنيش •

وهكذا تولى مرسية الأمير أبو عبد الله محمد بن سعد الجذامى ، المعروف بابن مردنيش (١) ، سنة ٥٤٢ ھ (١١٤٧ م) • واستقل بشرق الأندلس ، وضم اليه الحصون المجاورة ، فعظم شأنه واشتهر ذكـره • ومال ابن مردنيش الى تقليد النصارى فى الزى ، واستعان بهم فى تدبير شئون دولته ، ورتب منهم أعوانا وجنودا ، وأفرد لهـم بمرسية منازل فيها الخانات والبيع • واضطر الى المال ، فتحيف الرعية بكل وجـه من وجوه البطش والجور ، واستكثر القبالات ، ورسم بدائع من المكوس •

وكان الموحدون قد اجتازوا الزقاق الى الأندلس ، واستولوا عـلى أغلب مدنها • وكان لا بد لمحمد بن مردنيش أن يحاربهم قبل أن يحاربوه ، فتحرك اليهم ، واستولى على جيان وأبدة واستجة وبياسة عـام ٥٥٤ ھ (١١٥٩ م) • وجهز اليه الموحدون جيشا ، وتبـادل الفريقـان النصر والهزيمة ا ثم انتهى أمر ابن مردنيش الى الادبار ، فهزموه فى ذى الحجة سنة ٥٦٠ ھ (١١٦٤ م) ، فى فحص الیندون ، وحاصروا مرسية ، ولكنهم أقلعوا عنها •

---

(١) ابن مردنيش من أصل اسبانى ، ويتجلى ذلك فى الاصل الاسبانى للاسم (Martinez)

ثم عاود الموحدون الهجوم عـــلى مملكـــة ابن مردنيش ، وزحفت جيوشهم نحو مرسية ، والتقت مع جيوش ابن مردنيش -- وأغلبها مـــن النصارى -- فى موقعة الجلاب ، فانهزم جيش ابن مردنيش ، وتقهقر الى المدينة ، واستعد للحصار ... وما زال الموحدون يحاصرون المدينة حتى مات فى رجب سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) . وكتم خبر وفاته حتى قدم أخوه يوسف بن سعد من بلنسية ، واجتمع مع أهل الرأى بالمدينة ، وآثر الجميع الاذعان بالطاعة لأبى يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الموحدى ، فوجه الأمير أبو يعقوب الى مرسية السيد أبا حفص أخاه ، وتلطف مع بنى مردنيش لالتزامهم الحكمة باستسلامهم اليه ، وتزوج الأمير أبو يعقوب الزرقـاء المردنيشية ابنة محمد بن سعد .

ولما ضعفت دولة الموحدين ، وتفرقت كلمتهـم على أثر وفـاة أبى يعقوب يوسف الثـــانى بن محمد النـــاصر سنة ٦٢٠ هـ (١٢٢٣ م) ... اضطرمت مطامعهم حول العرش الموحدى . فقام بالأندلس أبـــو محمد عبد الله ابن أبى يوسف يعقوب المنصور أمـــير شـــرق الأندلس ، وأعلن نفسه أميرا على مرسية وتلقب بالعادل . ولكن المغاربة فى مراكش ما لبثوا أن قتلوه سنة ٦٢٤ هـ (١٢٢٧ م) . فادعى أخوه ، أبو العلاء ادريس ابن المنصور ، الخلافة فى اشبيليـــة ، وتسمى بالمأمون . وبايـــع المغاربة فى مراكش أبا زكريا يحيى المعتصم من أولاد الناصر الموحدى . وبينما قامت الحرب بين المأمون والمعتصم ، كان النصـــارى بالأندلس يستولون على مدن الاسلام مدينة أثر مدينة وحصنا بعد حصن .

وفى هذه الأثناء قام أمير من سلالة بنى هود الجذاميين ، أصحـــاب سرقسطة فى عهد الطوائف ، اسمه أبو عبد الله محمد بن يوسف بن هود -- ويسميه الاسبان فى مدوناتهم التاريجية (Zafadola) (سيف الدولة) -- فاستولى على مرسية ، وأعلن نفسه أميرا بها ، وتلقب بالمتوكل على الله . ودانت له جيان وقرطبة وماردة وبطليوس ومالقة والمرية واشبيلية بالطاعة

وكان ملوك اسبانيا المسيحيـــة ينتهزون فرصة انقســـام المسلمين بالأندلس ويستولون على مدنها • وكان سقوط قرطبة ، حاضرة الخلافـــة الأموية بالأندلس ، فى سنة ٦٣٣ هـ (١٢٣٦ م) ، ضربة شديـــدة أصابت الاسلام فى الأندلس ، وتبع سقوطها سقوط غيرها من المدن الاسلامية • ومات ابن هود فى أوائل سنة ٦٣٥ هـ (١٢٣٧ م) • وعلى أثر وفاته وجد خايمى ملك أرغون الفرصة سانحة لغزو بلنسية ومرسية ، فسقطت بلنسية فى يده سنه ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) •

وفى أثناء هذه المحنة أسند أهل مرسية أمور مدينتهم الى قاضيهم أبى بكر عزيز بن أبى مروان ابن خطاب فى المحرم سنة ٦٣٦ • الا أن هذا الوالى الجديـــد لم يثبت كفايته للولاية ، فما كـــاد يلتحم مـــع جيوش النصارى فى احدى الوقائع ، حتى ولى الأدبار ، وانهـــزم جيشه انهزاما مخزيا نتيجته قتل عدد كبير من المسلمين • فكرهه أهل مرسية ، واستدعوا الأمير أبا جميل بن مردنيش فى رمضان سنة ٦٣٦ هـ ، فدخل المدينة طوعا ، وهاجت العامة ، ودخلت قصر ابن خطاب ، ونهبت ما فيه من فرش وثياب •

ولم يطل عهد أبى جميل هذا ، فان أهل مرسية آثروا ــ وقد احاط بهم الأعداء من كل جهة ــ الاستسلام لملك قشتالة • وبعث اليهم فرناندو الثالث ملك قشتالة ولده الأمير ألفونسو ، ودخل النصارى مرسية صلحا فى ٦٤١ هـ (١٢٤٣ م) •

كانت مرسية مدينة كبيرة فى العصـــر الاسلامى ، اشتهرت بصناعة الوشى والديباج ، واختصت ــ دون غيرها من مدن الأندلس ــ بصناعة البسط التنتلية التى كانت تصدر منها الى سائـــر بـــلاد المشرق • كذلك اشتهرت بصناعة الحصر المبهجة للبصر التى تغلف بها الجدران • وكـــان بها جامع جليل ، وحمامات عديدة ، وأسواق عامرة • كما كان لهـــا ربض تحيط به الأسوار المنيعة وتشقه مياه جدول • أما المدينة نفسها فتقع على

ضفة نهر شقورة ، ويجاز اليها على قنطرة تقوم على مراكب ، وكان لهــا آرحاء طاحنة فى السفن تنتقل من موضع الى موضع •

ولا نعرف من أبواب مرسية الاسلامية سوى باب واحــد ، يعرف باسم باب ابن أحمد ، ينفتح فى سورها الغربى • وكان بمرسية عدد كبير من المساجد منها : مسجد محمد بن سكرة ، ومسجد الجرف بجوار باب ابن أحمد ، ومسجد ابن أبى جعفر •

ولا تحتفظ مرسية اليوم بآثار كثيرة من العصر الاسلامى • ومن أشهر هذه الآثار بقايا قصر منتقوط (Monteagudo) لاتزال تشرف عن كثب على بساتين مرسية • ولعل هذا القصير كان احدى دور السرور التى بنيت فى عهد المرابطين • وقد بقيت منه جدرانه التى لا يتجاوز ارتفاعها ثلاثة أمتار • وكلها مشيدة بملاط شديد الصلابة • والأجزاء الدنيــا من هذه الجدران مدهونة بأشرطة هندسية متقاطعة •

وكانت مرسية بلد العلم والأدب • وقد وفد من علمائها عــدد كبير الى المشرق ، وعلى الأخص فى مصر ، من بينهم أبو عبد الله محمــد بن يوسف المرسى المتخصص فى الفقه والكلام • وقد زار الديــار المصرية ، ونزل الاسكندرية فى سنة ٥٢١ هـ (١١٢٧ م) • ومنهم الشيــخ الزاهد الكبير سيدى أبو العباس أحمد بن عمر الأنصارى المرسى • وكــان من أكابر الأولياء ، ووارث شيخه سيدى أبى الحسن الشاذلى تصوفا • وقدم أبو العباس المرسى الى الاسكندرية واستقر بها ، ومات فيها سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) • وقبره موجود الى يومنا هذا • ولأهل الثغر اعتقاد كبير فى علمه وكراماته • وكان من بين تلاميذه ابن غطاء الله صاحب كتاب «لطائف المنن فى مناقب الشيخ سيدى أبى العباس وشيخه سيدى أبى الحسن » •

مـــــــاردة

ماردة مدينة تقع على وادى أنه قرب بطليوس ، وكانت تسمى قبل الاسلام اميريتا (Colona Augusta Emerita) لأن الامبراطور أغسطس أسسها عام ٢٥ ق٠م على أطلال مدينة أيبيرية ، ومنحها للاميرتيين ٠ أو قدامى المحـــاربين الرومـــان بالفرقتين الخـــامسة والعاشرة ، وجعلهـــا الامبراطور عاصمة لولاية لوزيتانيا ٠ وقد ساهـــم القنصل الرومـــانى ماركوس أجريبا مستشار الامبراطور فى تأسيسها ، وجملها بأروع الأبنية، وجاء ترتيبها التاسعة بين أشهر مدن العالم فى قصيدة الشـــاعر أوسونيو (Ordo Nobilium îrbium) ٠ وهذه المدن هى : رومة ، القسطنطينية ، قرطاجنة ، أنطاكية ، الاسكندرية ، تريفليس ، ميلانو ، كابو ، مـــاردة ، أكيليا ، آرلس ، أثينـــا ٠

والحق لقد كانت اميريتا أو ماردة أعظـــم مدن اسبانيـــا فى العصر الرومانى ، وتحتفظ اليوم بتراث ضخم من آثار هـــذا العصر (١) منهـــا قنطرتان ، وثلاثة جسور للميـــاه ، وأســـوار حصينة ، ورصيف بحرى ، ومعابد ، ومسرح ، وملعب كبير ، وأقواس نصر كثيرة ، وحمامات لاحصر لها ، وأرضيات من الفسيفساء ، وتماثيل من الرخام وغيرها ممـــا يصعب عده وحصره ٠ وقد ساهم وقوعها فى سهول وادى أنة ـــ فى الطريق البرى الذى كان يمتد من سرقسطة (Caesaragusta) اليها ، مارا بمدينتى شلمنقة (Salamantica) وقاصرش (Norba) فى ازدهارها فى العصر الرومانى٠

ثم سقطت ماردة فى أيدى القوط الغربيين سنة ٤٦٨ م فى عهد الملك أيوريكو ٠ وكانت ماردة مقرا للملك أخيلا الذى التجأ اليها وفيهـــا قتل

---

(١) ذكر الرازى روائع الرومان بهذه المدينة بقوله : « هى احدى القواعد التى بنتها ملوك العجم للقرار ، وفيها من اظهار القدرة المـــاء المجتلب المحجوب عليه بأبنية (يقصد الجسور) أعجزت الصانعين صنعتها ».

سنة ٥٥٤ • وفيها قام النزاع بين هرمنخلدو وليوفخلدو ، وانتهى هـــذا النزاع بتغلب ليوفخلدو عليها • ثم دخلت المسيحية فى عهد الملك ريكاريدو ولا تحتفظ ماردة اليوم بآثار كثيرة من عهد القوط ، ومن هـــذه الآثـــار بازيليكية سانتا أيولاليا •

وافتتحها موسى بن نصير فى ٢٣ من أكتوبر سنة ٧١٥ م بعد مقاومة عنيفة • وفى فتحها يقول ابن حيان : « وكانت ماردة دار مملكة لبعض ملوك الأندلس فى سالف الدهر ، وهى ذات عز ومنعة ، وفيها آثـــار وقصـــور ومصانع وكنائس جليلة القدر فائقة الوصف ، فحاصرها أيضا • وكان فى أهلها منعة شديدة وبأس عظيم ، فنالوا من المسلمين دفعـــات وآذوهم ، وعمل موسى دبابة دب المسلمون تحتها الى برج من أبراج سورها جعلوا ينقبونه ، فلما قلعوا الصخر (١) أفضوا بعده الى العمل المدعـــو بلسان العجم ألاشة ماشة (٢) ، فنبت عنه معاولهم وعدتهم • وثار بهم العدو على غفلة ، فاستشهد بأيديهم قوم من المسلمين تحت تلك الدبابة ، فسمى ذلك الموضع برج الشهداء • ثم دعا القوم الى السلم فصالحوه » •

وقيل أن موسى عندما فتحها وجد فى كنيستها حجرا يضىء الموضع من نوره ، فأخذه بين ما غنمه منها • وقد ذهل المسلمون عنـــد مشاهدتهم لقنطرتها الرومانية المؤلفة من ٦٣ قوسا (١) مبنية من الجرانيت • وتأثر مهندسو جامع قرطبة ببنائها ، فأقاموا عقـــودا عـــلى طابقين ، وان كانت وظيفة عقود الجامع تختلف اختلافا بينا عن وظيفة أقواس القنطرة •

---

(١) كسوة حجرية .

(٢) تسمية لاتينية معربة لنوع من الملاط شديد الصلابة ، ويسميه الاسبان اليوم

(٣) ذكر الحميرى : هذه القنطرة ووصفها بقوله : وكان على بابها مما يلى الغرب حنايات يكون طولها خمسين ذراعا مثقلة البناء عددهـا ثلاث وستون حنية » .

وتولى ماردة ، فى عهد بنى أمية ، عظماء بيتهم . وكثيرا ما ثار عليهم سكانها ، وكان أغلبهم من المولدين والمستعربين . وقد شجع علــى قيام هذه الثورات قرب ماردة من الولايات المسيحية المجــاورة . ويغلب على أن ألفونسو الثانى كان يشجع المولدين والمستعربين بماردة على الخروج عن طاعة أمير قرطبة . ويذكر ليفى بروفنسال أن ملك فرنسا لويس التقى (Louis le pieux) بعث الى هؤلاء السكان برسالة يؤيدهم فيهــا ردا على وفد أرسلوه اليه .

وقد اجتمع سكان مــاردة حــول زعيمين ثوريين فى سنة ٢١٣ هـ (٨٢٨ م) : أحدهما بربرى ، اسمه محمود بن عبد الجبار ، والآخر مولد اسمه سليمان ابن مرتين ، ويطلق عليــه اسم قعنب . واستقل هــذان الثائران بالمدينة ، وشقا عصا الطاعة على الأمير الأموى ، وقتلا حاكــم المدينة مروان الجليقى . وقد اضطر الأمــير عبــد الرحمن الأوسط الى ارسال فرقة حاصرت ماردة فى سنة ٨٢٩ ، ودمرت سهولها ، وقطعت عن المدينة أقواتها . الا أن هذه الحملة لم تأت بالنتيجة المرجوة .

وفى سنة ٢١٥ هـ (٨٣٠ م) حاصر ماردة حصارا شديــدا أدى الى استسلام حاكمها حارث بن بزع . غير أن اخضاع ماردة لامــارة قرطبة لم يتم الا فى عام ٢١٩ هـ (٨٣٤ م) . وقد سجل عبــد الرحمن الأوسط اخضاعه لثورة ماردة ببنائه قصبتها (١) التى تعرف اليوم لدى العامــة بالدير ، وبها نقش عربى محفوظ اليوم بمتحف القصبة يحمل تاريخ سنة ٢٢٠ هـ (٨٣٥ م) . وكانت هذه القصبة مقرا لحاكم المدينة يقيــم فيها مشرفا على مدخلها المؤدى الى الجسر . وفى عهد الأمير محمد ثــار عبد الرحمن بن مروان الجليقى بماردة ، فأرسل اليهــا وزيره هاشم بن عبد العزيز الذى هدم أسوار قصبتها ، وجرد مــاردة من رخامهــا القديم ، ونقله الى قرطبة حيث استخدم فى بناء قصورها وحماماتها .

(١) بناها عبد الملك بن كليب بن ثعلبة .

على أن ماردة ما لبثت أن فقدت أهميتها تماما فى عهد خلافـــة عبد الرحمن الناصر ، وتخلت عن مكانتها السامية لمدينة بطليوس ، وظلت هكذا مدينة ثانوية حتى افتتحها ألفونسو التاسع ملك ليون سنة ١٢٢٩ •

ولم يتبق من آثار مـــاردة الاسلامية سوى قصبتهـــا • وتخطيطها يقوم على مربع طول ضلعه ١٣٠ مترا تقريبا ، وبنيت أسوارها من كتل من حجر الجرانيت اتخذت من بقايا الأبنية الرومانية ، ولها بابان : أحدهما يؤدى الى الجسر ، والآخر يفضى الى المـــدينة • ويتوسط القصبة من الداخل فناء فسيح بداخله جبها المشهور حيث كانت تخزن المياه الواردة من نهر وادى أنه •

سرقسطة

سرقسطة مدينة كبيرة فى شمال شرقى الأندلس على الضفة اليمنى من نهر ابرة (Ebro) • وكانت سرقسطة فى العصر الاسلامى قاعدة الثغر الأعلى بالأندلس ، وما زالت حتى اليوم حاضرة مقاطعة أرغون •

وسرقسطة تسمية عربية للاسم الرومانى قيصر أجسطا (Caesaraugnsta) لأن أغسطس قيصر هو الذى أسسها سنة ٢٣ ق•م وسماها باسمه • وأقيمت مدينة قيصر أجسطا على أطلال المدينة الأيبيرية القديمة التى كانت تعرف فى عهد الايبيريين باسم سلدوبا (Salduba) • ولم تفقد سرقسطة حتى اليوم نظامها القديم وتخطيطها الرومانى الأصيل ، وما زالت بعض أجزاء من أسوارها الرومانية باقية الى يومنا هذا ، خاصة ذلك الجزء من السور الموازى لنهر وادى ابرة • ويحتفظ متحف الفنون الجميلة بسرقسطة بكميات كبيرة من اللوحات الحجرية المنقوشة وقطع الخزف ولوحات الفسيفساء الرومانية •

وأصبحت مدينة سرقسطة ، فى عهد القوط الغربيين ، من أهم المدن الاسبانية • وكان أسقفها سان براوليو أحد الشخصيات البارزة فى عهده، وقد قام بتأسيس كثير من الأديرة •

وفى سنة ٧١٤ م حاصر موسى بن نصير سرقسطة واستولى عليها • ونتج عن ذلك استيلاؤه على الحوض الأوسط من نهر ابرة ، وبقى حنش الصنعانى التابعى بها بعد أن فتحها موسى ، وأسس مسجدها الجامع •

وكانت سرقسطة تزخر بعدد كبير من المولدين الذين كانوا يميلون بطبعهم الى الثورة على حكومة قرطبة : من ذلك الثورة التى قام بها عامر القرشى العامرى على عامل الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهرى ، وثورة بهلول بن مرزوق فى عهد الحكم ابن هشام • وفى عهد عبد الرحمن

الأوسط استقل موسى بن موسى بن فرتون بن قسى بالثغر الأعلى ، واتخذ تطيلة مقرا له • وقد قبل عبد الرحمن الأوسط هذا الوضع مقابل ما كان يقوم به موسى من تقديم خدماته اليه • وفى بداية عهد الأمير محمد استقل موسى بن موسى استقلالا كاملا بامارته فى الثغر الأعلى : بما فيه تطيلة وسرقسطة ووشقة وتوارث سرقسطة بعده ابنه محمد بن لب وأولاده من بعده •

ولما تولى الأمير المنذر الامارة بقرطبة ، عهد الى أحمد بن البرآ بن مالك القرشى بمحاربةبنى قسى وولاه سرقسطة • الا أن أحمد بن البرآ لم يطلل عهده بها ، اذ قتله أبو يحيى محمد التجيبى المعروف بالأنقر (الأعور) ، بأمر الأمير عبد الله بن محمد • واستقل أبو يحيى التجيبى بسرقسطة ، وظل يـ حكمها حتى توفى سنة ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) فى عهد خلافة عبد الرحمن الناصر • وخلفه ابنه هاشم الذى ينسب اليه بنو هاشم التجيبيون • واستمر التجيبيون يحكمون سرقسطة مخلصين للخلافة الأموية حتى انتهى أمرهم فى عهد الفتنة الكبرى فى أواخر عهد بنى عامر • وكان آخر حكامها المنذر بن يحيى التجيبى فى عهد سليمان المستعين •

وكان المنذر هذا فارسا لا يبارى • وكان أول من ساس الفرنج ، وهاداهم رغبة فى اتقاء شرهم وابعاد خطرهم عن سرقسطة • ولكنه قتل فى مجلسه بقصر سرقسطة فى أول ذى الحجة سنة ٤٣٠ هـ (١٠٣٨ م) ••• قتله عبد الله بن حكم • ولكن أهل سرقسطة ثاروا على عبد الله بن حكم لاستبداده بها ، واستنجدوا بسليمان بن محمد بن هود الجذامى صاحب لاردة • واستطاع سليمان بن هود أن يدخل سرقسطة ويستولى على القصر •

وجعل ابن هود مدينة سرقسطة حاضرة لدولته حتى مات سنة ٤٣٨هـ (١٠٤٦ م) • وتوزع ملكه بين أولاده : فتولى أحمد بن سليمان على

مدينة سرقسطة ، وتولى يوسف على لاردة ، وتولى محمد على قلعة أيوب، وتولى لب مدينة وشقة ، وتولى المنذر تطيلة . واستطاع أحمد أن يتغلب على اخوته واغتصب ما كانوا يملكونه من بلاد ، وتلقب بالمقتدر بالله ، واستوثقت له الطاعة بالثغر الجوفى ، وضم اليه مدينة طرطوشة ، وأضاف الى ملكه مدينة دانية فاتسعت مملكته . ومات سنة ٤٧٥ هـ (١٠٨٢) .

وولى الأمر بعده ابنه المؤتمن محمد الذى ورث مملكة أبيه بالثغر كله ، ولم يطل عهده اذ مات سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) . وتولى بعده ابنه المستعين أحمد . واستمر المستعين بالله أحمد يحكم مملكة سرقسطة : حتى بعد أن نزل المرابطون الأندلس وخلعوا ملوكها عن عروشهم ، اذ استبقوه على ملكه لولائه لهم .

ولما قتل المستعين بالله بظاهر سرقسطة سنة ٥٠١ هـ (١١٠٧ م) ، بايع الناس ابنه عماد الدولة عبد الملك بن أحمد ، فكان عهده قصيرا اذ تحالف مع ملك قشتالة ضد المرابطين . فأنكر أهل سرقسطة عليه ذلك ، واستدعوا قائد على بن يوسف بن تاشفين من بلنسية ، فأقبل اليهم ، وفتحت له المدينة . واستعان عبد الملك بجيوش ملك أرغون ألفونسو الأول ضد المرابطين ، وانتصرت جيوش أرغون على المرابطين ، واستشهد عدد كبير من المسلمين ... وكان ذلك فى منتصف ذى الحجة سنة ٥٠٣ هـ (١١٠٩ م) وظل عبد الملك ابن أحمد يحكم سرقسطة حتى اغتصبها منه النصارى فى رمضان سنة ٥١٢ هـ (١١١٨ م) .

* *

وكان المسلمون يطلقون على سرقسطة اسم المدينة البيضاء لكثرة جصها وجيارها ، وقيل لأن أسوارها القديمة كانت من الرخام الأبيض . وقد أصبحت سرقسطة فى القرن الحادى عشر حاضرة دولة بنى هود ، وسمت وازدهرت فى ذلك الحين . وكانت سرقسطة فى عهد المستعين أحمد

جنة الدنيا ، وفتنة المحيا ، ومنتهى الوصف ، وموقف السرور والقصف . وجده المقتدر بالله هو الذى بنى قصر الجعفرية ، المعروف اليوم باسم (Alajaferia) ، وسماه بذلك الاسم نسبة الى كنيته « أبى جعفر » .

وكانت المدينة تحتفظ فى العهد الاسلامى بتخطيطها الرومانى القديم ، اذ كانت تتخذ شكلا مستطيلا تحيط به أسوار ضخمة . وكانت هذه الأسوار تمتد الى ما يقرب من ٩٠٠ متر طولا ، و٦٠٠ متر عرضا . وكان يخترق المدينة طولا وعرضا طريقان مستقيمان يتقاطعان عموديا على شكل الصليب ، هذان الطريقان هما نفسهما Decumanus)و (Le cardo) المتبعان فى تخطيط المدن الرومانية . ويؤدى هذان الطريقان المتعامدان فى الجوانب الأربعة لسور المدينة الى أربعة أبواب ، كل باب يقع فى احدى الجهات الأصلية (١) .

وكان المسجد الجامع الذى ركز حنش الصنعانى محرابه ، يقع فى القطاع الشمالى الشرقى للمدينة ، فلما زاد فيه موسى بن موسى بن قسى اضافته المشهورة ، زمن الأمير عبد ارحمن الأوسط ، احتفظ بالمحراب القديم الذى أسسه حنش التابعى وذلك بأن نقله وألصقه على جدار القبلة الجديد (٢) .

وكان باب المدينة الجنوبى — ويعرف بباب القبلة — يؤدى الى

---

(١) يذكر الحميرى بهذه المناسبة أنها « بنيت على مثل الصليب ، وجعل لها أربعة : باب اذا طلعت الشمس من اقصى المطالع فى القيظ قابلته عند بزوغها ، فاذا غربت قابلت الباب الذى بازائه من الجانب الغربى ، وباب اذا طلعت الشمس من أقصى مطالعها فى الشتاء قابلته عند بزوغها وهو الباب القبلى ، واذا غربت الباب الذى بازائه ين الجانب الغربى .

(٢) يقول الحميرى فى ذلك « فلما زيد فيه هدم الحائط القبلى ، غير الحراب فانه احتفر من جوانبه حتى انتهى الى قواعده ، فأعملت الحيلة فى حمله على الخشب وجره الى الموضع الذى هو فيه » .

المقبرة التى دفن فيها حنش وصاحبه على بن رباح اللخمى • وكان ينفتح فى السور الغربى للمدينة ــ كما ذكر ابن الفرضى ــ باب يقال لــه باب اليهود ، وأن كانت الأبحاث الأخــيرة فى مدينة سرقسطــة أثبتت أن حى اليهود كان يشغل الجانب الجنوبى الشرقى للمدينة ، وأن حى المستعربين أو النصارى كان يقع فى جانبها الشمالى الغربى • وكــان الباب الشمالى يقابل مدخل الجسر القديم الذى كان مقاما عى نهر ابرة ، فى المكان الذى يشغله اليوم الجس الحجرى (٢) • أما الباب الشرقى فكان يعرف بباب بلنسية •

ومن أهم آثار سرقسطة الاسلامية : قصر الجعفرية الــذى ذكرناه فيما سبق ، وكان على نهر ابرة خارج الربض ، وقد تبقى منــه مصلاه بزخارفه الجصية الرائعة • وبسرقسطة نفسها برج ضخم مدجن تبقى من قصر آخر يعرف بقصر السدة (٣) • ويذكرنا هذا البرج بمعاهدة التسليم التى سلم بمقتضاها عماد الدولة ــ المعروف فى الوثائق الأرجونية باسم أمادولا (Amadola) ـ مدينة سرقسطة الى ألفونسو الأول المحارب ملك أرغون فى ١٨ ديسمبر سنة ١١١٨ •

---

(١) يذكر ابن حيان ان الامير عبد الرحمن الاوسط أمر بتجديد هذا الجسر سنة ٢١٢ هـ (٨٢٧ م) عندما تصدع بسبب فيضان نهر وادى ابرة فى ذلك الوقت ، كما أمر بتسيير اربع معاد العبور بين الضفتين ريثما يتم اصلاح الجسر •

(٢) كان هذا القصر قائما بالقرب من النهر فى الركن الشمــالى الغربى من المدينــة •

بلنســــــــــية

بلنسية قاعدة شرق الأندلس ، وأعظم مدائنه • وهى مدينة سهلية خصبة كثيرة الخيرات • وكانت تعرف بمدينة التراب لخصوبــة تربتها ، وبمطيب الأندلس لكثرة بساتينها • تقــع بلنسية على مصب الــوادى الأبيض ، أو وادى الأبيار ، فى بحر الشــام (البحر المتوسط) • وقــد دخلت فى فلك الدولة الاسلامية عندما افتتحها أحد قواد طــارق على أثر فتحه لمدينة تدمير •

وظلت بلنسية بعد فتحها خاضعة للخلافة الأمويــة بالمشرق ، حتى دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، وأسس له ملكا فيها • ثم استقل الأمير عبد الله بن عبد الرحمن الداخل ببلنسية احتجاجا على تولية الحكم بن هشام امارة قرطبة • وأقام عليها عبد الله مستقلا عن قرطبة ، حتى أنه عرف بعبد الله البلنسى ، وهو الذى أقــام ربض الرصافة ببلنسية التى قال عنها الرصافى الشاعر :

ولا كالرصـــــافة من منزل
سقته السحائب صوب الولى

أحن اليهـــا ومن لى بهـــا
وأين الســرى من الموصــلى

وما زال اسم الرصافة (Ruzafa) يطلق اليوم على أحدى ضواحى بلنسية • وظل عبد الله البلنسى قائما بمملكة بلنسية حتى مات سنة ٢٠٨هـ (٨٢٣ ــ ٨٢٤ م) ، فاسترجعها عبد الرحمن الأوسط ، وعين عليها واليا من قبلـــه •

وفى عهد الأمير عبد الله بن محمد ، استقل بمرسية وبلنسية ولورقة

ديسم بن اسحق المتوفى سنة ٢٩٣ هـ (٩٠٦ م) ، وتوارثهـــا أولاده من بعده • فلما تولى عبد الرحمن الناصر بعث سنة ٣٠٤ هـ (٩١٦ م) وزيره اسحق بن محمد القرشى على رأس جيش كثيف لاخضاع كورتى تدمـــير وبلنسية ، فوطىء الكورتين ، وذلل أعاديه وولى على بلنسية ، سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، عبد الله ابن محمد بن عقيل •

ولما سقطت الخلافة بقرطبة ، استقل ببلنسية عبد العزيـــز بن عبد الرحمن بن أبى عامر سنة ٤١٧ هـ (١٠٢٦ م) ، وظل يحكمها حتى مـــات سنة ٤٥٢ هـ (١٠٦٠ م) • وتولى بعده ابنه عبد الملك بن عبـــد العزيز ، وكان صبيا ، فقام له بالأمر كاتب أبيه المدبر لدولتـــه ، أبو بكر بن عبد العزيز • وكان أبو بكر هذا عين بلنسية التى بها تبصر • ثم أصبـــح أمر بلنسية الى الفقية القاضى أبى أحمد بن جحـــاف فى الوقت الذى كـــان يحكمها فيه القادر بن ذى النون ، الـــذى سلم طليطلـــة الى ألفونسو السادس ملك قشتالة • .

وكان يسند القادر ويؤازره ملك قشتالة ، وقائده السيد الكنبيطور(١) فأنف أهل بلنسية أن يحكمهم حليف للنصارى ، فاستدعوا بن جحاف محمد بن عائشة ، قائـــد يوسف بن تاشفين ، فوجـــه اليهم فرقـــة من جيوش المرابطين • ففر القادر من قصره ، وقبض عليه ، وقتل بأمر القاضى أبن جحاف فى رمضان سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢ م) • وتمت لابن جحاف ، بمقتل ابن ذى النون ، رياسة المدينة : فرتب الأجناد ، وحاط نفسه بأبهة الملك • نغصب السيد الكنبيطور لمقتل ابن ذى النون ، وحاصر بلنسية ، وضيق عليها الحصار ••• حتى نفـــدت الأقوات من المدينـــة • وقـــل الزاد ، واستصرخ ابن جحاف أمـــير المسلمين يوسف بن تاشفين ، فبعث اليـــه

---

(١) السيد لقب منحه المسلمـــون للكنبيطور ، والكنبيطور كلمـــة اسبانية معناها المبارز .

بجيش عظيم هزمه الكنبيطور . فأيقن النـــاس بالهلاك ، واضطر أهـل بلنسية الى طلب الأمان على أنفسهم من الكنبيطور ، وخرج اليـــه ابن جحاف للمفاوضه على الصلح .

ودخل الكنبيطور المدينة فى جمادى الأولى سنة ٤٨٧ هـ (١٠٩٤ م) بعد حصار دام عشرين شهرا ، فسام أهلها العذاب ، واستخلص أموالهم واعتقل القاضى ابن جحاف ، ونزلت النكبة بجميع أهله وذوى قربـاه ، اذ أن الكنبيطور طالبهم بمال القادر بن ذى النون .. فلما استصفى جميع ماله أمر باضرام نار ، وسيق القاضى ابن جحاف يرسف فى قيوده وأغلاله بين أهله وولده ، وأمر بحرقه فى هــذه النار ، فمات محروقــا . وجمع الكنبيطور ــ بعد احراقه لابن جحاف ــ جميع أعيان أهل بلنسية فقتـل عددا كبيرا ، وعاث فى بلنسية ، وأحرق المدينة حتـــى أصبحت خرائب . وفيها يقول الشاعر ابن خفاجة الأندلسى :

عاثت بســـاحتك الظبى يادار
ومحا محاســـنك البلى والنار

فاذا تردد فى جنـــابك ناظـــر
طال اعتبار فيك واســـتعبار

أرض تقـــاذفت الخطوب بأهلها
وتمخضت بخرابهـــا الأقدار

كتبت يد الحدثان فى عرصـــاتها
لا أنت أنت ، ولا الديار ديار

ولم يطل بقاء بلنسية فى أيدى المسيحيين ، فقـــد وجـــه يوسف بن تاشفين الأمير أبا محمد مزدلى ، ففتح بلنسية سنـــة ٤٩٥ هـ (١١٠١ م) وتولى عليها أمراء المرابطين . ثم استقل بها يحيى بن غانية الـــذى ولى جميع شرق الأندلس ، وولى على بلنسية أخاه عبد الله بن غانية .

ثم ثار أهل بلنسية على المرابطين ، واجتمعوا الى القاضى ابن عبد العزيز ، الذى قام بأمرها سنة ٥٣٩ هـ (١١٤٤ م) ، واستولى على شاطبة ولقنت ، واتسع ملكه ... الا أن جنده ثاروا عليه فى جمادى الأولى سنة ٥٤٠ هـ (١١٤٥ م) ، وحاصروه فى قصره ببلنسية فغافلهم أثناء الليل ، وتسلق الأسوار ، وفر الى مراكش .

وبايع الجند ابن عياض ملك شرق الأندلس . ثم خلفه على شرق الأندلس أبو عبد الله محمد بن سعيد الجذامى ابن مردنيش . وولى أبو عبد الله هذا أخاه أبا الحجاج يوسف على بلنسية ، وظل أبو الحجاج واليا عليها حتى مات سنة ٥٨٢ هـ (١١٨٦ م) . وظل الأمر بعده بين أولاده الى أن استقرت الرياسة فى أبى جميل زيان بن أبى الحملات مدافع بن يوسف بن سعد ، فدخلها فى صفر سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٨ م) ، وأقام بالقصر وأخذ البيعة لنفسه. ودخلت دانية فى بيعته فضخم ملكه ، واشتهر بجهاده فلما انهزم فى موقعة أنيشة ، من ظاهر بلنسية ، واستنجد بأبى زكريا صاحب تونس فى القصيدة الشهيرة التى نظمها أبو عبد الله بن الأبار ومطلعها :

أدرك بخيلك ، خيل الله ، أندلسا
ان السبيل الى منجاتها درسا

فبادر السلطان باعانتهم ، وشحن الأساطيل بالمدد والأقوات اليهم. ولكن خايمى ، ملك أرغون ، كان قد حاصر بلنسية منذ سنة ٦٤٥ هـ (١٢٣٧ م) ، ورماها بالمجانيق . ودافع أهل بلنسية عنها دفاعا مجيدا ، حتى نفدت أقواتهم ، وضعفت قوتهم ، وأكلوا الجلود ، فاضطروا الى مفاوضة الأعداء على التسليم . فتم ذلك فى صفر عام ٦٣٦ هـ (١٢٣٨ م) وخرج عنها الأمير أبو جميل زيان ، ودخلها جيش أرغون .

وقد رثا أبو المطرف بن عميرة المخزومى بلنسية فقال : « ... وبعد

ذاك أخذ من الأم بالمخنق ، وهى بلنسية ذات الحسن والبهجة والرونق . ومالبث أن أخرس من مسجدها لسان الأذان ، وأخرج من جسدها روح الايمان : فبرح الخفاء ، وقيل على آثـار من ذهب العفـاء . وانعطفت النوائب مفردة ومركبة كما تعطف الفاء : فأودت الجنة والحصانة . وذهب الجسر (١) والرصافة (٢) ، ومزقت الجلـة والشملـة ، وأوحشت الجرف والرملة (٣) . ونزلت بالحارة وقعة الحرة ، وحصلت الكنيسة من جآذرها وظبائها على طول الحسرة . فأين تلك الخمائـل ونضرتهـا ، والجداول وخضرتها ، والأندية وأرجها ، والأودية ومنعرجهـا ، والنواسم وهبوب مبتلها ، والأصائل وشحوب معتلها ؟! ... دار ضاحكت الشمس بحرهـا وبحيرتها ، وأزهار ترى من أدمع الطل فى أعينها ترددها وحيرتها » .

وتساءل ابن الأبار فى احدى رسائله : « أين بلنسية ومغانيهـا ، وأغاريد ورقها وأغانيها ؟ أين حلى رصافتها وجسرهـا ، ومنزلا عطائهـا ونصرها ؟ أين أفياؤها تندى غضارة ، وركاؤها تبدو من خضـارة ؟ أين جداولها الطفاحة وخمائلها ؟ اين جنائنها النفاحة وشمائلها ؟ » .

أجل . لقد كانت بلنسية مدينة عامرة القطر ، كثيرة التجـارات ـــ وعلى الأخص تجارة المنسوجات التى اشتهرت بها ـــ كمـا كانت زاخرة بالأسواق . وكان يحيط بها سور من الحجر والطوابى (مادة من التراب والرمل) ، تنفتح فيه خمسة أبواب رئيسيـة ، هى : باب القنطـرة فى الشمال الغربى ، ويشرف على منطقة تعرف بالرملة ، يقابلها ـــ على الضفة اليسرى من وادى الأبيض ـــ ربض الكدية وباب فى غرب المدينـة يعرف بباب الحنش ، وتقع خارج هذا الباب مقبرة تعرف بمقبرة باب الحنش .

---

(١) هو قنطرة بلنسية ، وينسب اليها باب القنطرة .

(٢) الرصافة منية اقامها الامير عبد الله البلنسى ، تقع جنوب شرقى المدينة .

(٣) اسم ربض بشمال بلنسية .

وباب ينفتح فى السور الجنوبى ، يعرف بباب بيطالة ، ويطلق عليه اليوم باب (Boatella) ويؤدى فى خارج المدينة الى مقبرة بهـذا الاسم • وباب شرقى يعرف بباب الشريعة ، ويـؤدى الى ربض المصلى خـارج بلنسية • وباب شمالى اسمه باب الفرج ، ويؤدى الى منية ابن عبد العزيز على الضفة اليسرى من النهر •

وكانت بداخل بلنسية أحياء منها : حومه ابن جحاف ، وحومة رحبة القاضى ، ورد ذكرهما بعد سقوط المدينة فى يد خايمى • وكـانت رحبة القاضى تتوسط المدينة بالتقريب •

ويتوسط بلنسية الاسلامية مسجدها الجامـع ، وبجواره النصـر والقيسارية • وكان ببلنسية ــ بخلاف مسجدها الجامع ــ عدة مساجد : منها مسجد عبد العزيز بن غلبون ، ومسجد أبى عبد الله بن نوح ، ومسجد الشراجيب ، ومسجد السيدة ، ومسجد باب القنطـرة ، ومسجـد ابن سرنباق •

ويحدثنا الشقندى عن بحيرة رائقة المياة كانت داخل مدينة بلنسية• وما زالت مدينة بلنسية تحتفظ اليوم بعطر من ماضيها المجيـد فى العصر الاسلامى ، وان كانت آثارها الاسلامية قد اندثرت على مرت الأزمان •

قاصرش

لم تكن قاصرش مدينة شهيرة ذات شأن فى العصر الاسلامى ، ولم تحظ بعناية الرحالة والمؤرخين المسلمين فى الأندلس الا منذ القرن العاشر الى القرن الثالث عشر الميلادى : اذ كانت حصنا أماميا يحمى وادى تاجة الأوسط ، ويعرقل تقدم القوات الليونية من هذا الوادى الى وادى آنة ، حيث تقع مدينتا بطليوس وماردة •

وكانت تقوم فى الموقع الذى تحتلــه قاصرش الاسلامية ، مدينــة رومانية اسمها (Caesarina Norba) أى أنه مشتق من اسم قيصر ، ويرجعه ابنر (Hubner) خطأ الى الكلمة العربية « قصور » ، وقد أخذ السنيور ميريدا والسنيور فليريانو بهذا التعليل • والحق أن ارجاع اسم هذه المدينة الى الكلمة العربية من حيث النطق بعيد الاقناع ، وان كــان احتمال اشتقاقها من كلمة « قصر » يبدو أكثر اقناعا • وقد وضع الرحالة الأندلسى الادريسى حدا لهذه المناقشات ، حين أطلق على هذه المدينة اسم قاصرش ، وهذا الاسم ــ الذى كان شائعا فى الأندلس وقتئذ ــ مشتق من كلمة (Caesarina)

وكانت هذه المدينة ــ وفقا لما ذكره بلنيوس ــ احدى مــدن حربية خمس اشتهر بها اقليم لوزيتانيا • وقد عثر فيها على لوحين : أحدهما به نقش ذكر فيه اسم الامبراطور تراجان ، والآخر ذكر فيه الامبراطــور سبتميوس سفروس سنة ١٩٤ م •

ولا ندرى ما كانت عليه مدينة قاصرش فى عهد القوط ، وان كــان السنيور فرناندث جرا يعتقد أن الملك القوطى « ليوفخلدو » استولى عليها سنة ٥٨٢ م •

ومرت سنوات طويلة على قاصرش فى ظل القوط الغربيين ، الى أن امتتحها موسى بن نصير بين ما افتتحه من مدن غرب الأندلس • ولكنها فقدت أهميتها فى العصر الاسلامى ، وأصبحت حصنا حربيا ذكره الادريسى بقوله : « هى حصن منيع ، ومحرس رفيع : فيه خيل ورجال يغاورون فى بلاد الروم » •

والحق لقد كانت مدينة قاصرش — فى القرن السابق على سقوطها فى أيدى المسيحيين — مدينة حصينة ، كما كانت مسرحا لوقائع شهيرة : فطالما دافعت النصارى ، وردت عنها وعن المدن الكبرى فى اقليم الغرب (Algarbe) ، خطر الغارات التى كان يقوم بها ألفونسو انريكى ملك البرتغال (أو ابن الريق حسب تسمية المدونات العربية) • الا أن ألفونسو انريكى تمكن أخيرا من وضع يده على قاصرش فى صفر سنة ٥٦١ هـ (١١٦٥ م) ، بفضل قائده المغوار خير الدو سميافور • ولكنها لم تبق طويلا فى أيدى البرتغاليين ، اذ سرعان ما استردها الموحدون •

وفى سنة ١١٧٠ سقطت فى يدى فرناندو الثانى ملك ليون ، وأقام بها فرقة من القساوسة المحاربين للدفاع عنها ، سموا فيما بعد باسم فرسان سانتياجو ، ومنحهم مسجدا فى داخل المدينة لاقامتهم • وقد اتبع فى ذلك ما كان يفعله المجاهدون المسلمون فى الاقامة بالأربطة استعدادا للجهاد والحرب فى سبيل اللله •

ولم تحتفظ فرقة القساوسة المحاربين طويلا بمدينة قاصرش ، اذ سرعان ما اجتاحت جيوش الخليفة الموحدى أبى يعقوب يوسف (سنة ١١٧٣ م) الأراضى الأندلسية من طليطلة الى القنطرة ، واستردت المدينة وأصبحت قاصرش بذلك حدا بين مملكة الموحدين فى الأندلس ومملكة ليون والبرتغال ••• حتى دهمتها جيوش فرناندو الثانى فى يناير سنة ١١٨٤ • ومع ذلك فقد عز على الموحدين أن يفقدوا هذا الحصن المنيع ، الذى كان

يحمى بلادهم ومدنهم فى غرب الأندلس ، فسيروا الى قاصرش جيوشهم، وضربوا عليها الحصار • ولما طال عليهم الأمر ، رحل الخليفة أبو يعقوب يوسف عن قاصرش الى شنترين لمحاربة البرتغاليين ، بعد أن ترك لحصارها فرقة من جنوده ، ولكنه قتل فى هذا الحصار فى رجب سنة ٥٨٠هـ (١١٨٤ م) ، وتفرق جنوده عن قاصرش عندما بلغهم نبأ موته •

فلما كان عهد أبى يوسف يعقوب ، وانتصاره على جيوش المسيحيين فى موقعة الأرك سنة ١١٩٦ م ، استرجع الموحدون مدينة قاصرش بعد أن انتسفوا أراضى شلمنقة ومدينة البلاط وترجالة وطلبيرة • وحاول ألفونسو التاسع ملك ليون ، افتتاح قاصرش مرتين : الأولى سنة ١٢١٨م والثانية سنة ١٢٢٢ م ولكنه فشل فى كلتا المرتين • وأخيرا سقطت المدينة نهائيا فى أيدى المسيحيين أمام هجمات جيوش ليون وفرسان قلعة رباح فى سنة ١١٢٧ م •

وتقوم مدينة قاصرش الاسلامية على نشز من الأرض به قمم صغيرة تمتد من الشرق الى المغرب على الضفة اليسرى من وادى تاجة • وأكثر أجزاء المدينة ارتفاعا هضبة صغيرة ترتفع الى ما يقرب من٤٥٨ مترا فوق مستوى سطح البحر • وتتخذ الأسوار شكلا رباعيا يقرب من المستطيل : محوره الاكبر ، الممتد من الشمال الى الجنوب ، يبلغ نحو ٣٨٥ مترا • ويبلغ المحور الأصغر الممتد من الشرق الى الغرب نحو ١٨٧ مترا •

وسهول قاصرش جرداء نادرة المياه ، وتحيط بالمدينة مرتفعات تكسوها أشجار الزيتون • وتمثل المدينة الرومانية (Norba) فى باب يعرف اليوم بباب المسيح (Peurta del Cristo) ، اذ أن أجزاءه الدنيا رومانية البناء ، وتتوزع فى المنطقة المحيطة به تماثيل رومانية ولوحات ونقوش •

أما قاصرش الاسلامية ـ التى كانت الحصن الأمامى فى الثغر الجوفى بغرب الأندلس ، فى السنوات الأخيرة من القرن الثانى عشر ، وطليعة القرن الثالث عشر ـ فتتمثل فى بقية السور بأبراجه البرانية ، وفى جب مقام تحت قصر المدينة ... وهذه الآثار تعبر عن الصفة الحربية التى كانت تتسم بها قاصرش التى وصفها الادريسى ، وتفسر عدم اهتمام القوم وقتئذ باقامة العمائر المدنية التى كانت تبنى فى أغلب الظن من الطابية ، وهى مادة أقل تماسكا وصلابة من بلاط الأسوار . ولذلك فان هذه العمائر المدنية اختفت ، وحلت محلها مبان قوية أقامها الفاتحون الجدد .

على أن أسوار قاصرش تدل دلالة واضحة على عناية خلفاء الموحدين بتحصين هذه المدينة ، لوقوعها فى منطقة تتنافس عليها ممالك قشتالة وليون والبرتغال ... اذ أنها كانت تعد باب الأندلس من جهة الغرب ، ثم أن القوة التى تسيطر عليها كان فى مقدورها السيطرة بعد ذلك على منطقة الوادى الكبير . وتقوم بعض أجزاء من أسوار قاصرش على أسس الأسوار الرومانية المبنية من كتل الجرانيت الضخمة ، وما تزال بقايا هذه الأسوار الرومانية ترى اليوم فى القطاع الواقع فى الركن الشمالى الشرقى من المدينة .

أما الأسوار الاسلامية فتتميز بوضوح عن الأسوار الرومانية : ببنائها من الطابية والملاط ، وباتخاذها اللون الأحمر ، وبأبراجها البرانية التى تتصل بالسور الأساسى عن طريق جدار واصل يطلق عليه اسم قورجة (Coracha) . وبعض هذه الأبراج مربع الشكل ، وبعضها مثمن . وكلها مصمتة فى أجزائها السفلى ، ولكنها تشتمل على غرف فى أجزائها العليا ، المتصلة بدرب السور أو ممشاه ، كما هو الحال فى البرج المعروف باسم ردندا (Redonda) ، والبرج المشطوف .

ويحتفظ السور الغربى اليوم بمظهره الاسلامى القديم ، فقد وصل

البنا سليما رغم ما عانته المدينة من تغيرات عميقة فى نظامها العمرانى ٠ وهذا السور مزود بأبراج برانية خمسة : بعضها مربع ، وبعضها مستطيل وكلها ترتفع عن ممشى السور ، وتتصل به عن طريق قورجات ٠

ومن هذه الأبراج الخمسة : برج تبدو عليه الضخامة ، جزؤه الأدنى من الجرانيت ، ولكنه تعرض لاصلاحات كثيرة ٠ ويبلغ طول هـذا البرج ٨٣ر١٠ م ، وعرضه ٢٠ر١٠ م ، وارتفاعه ٢٥ مترا ٠ وتمتد قورجة هـذا البرج البرانى ــ أى سوره الذى يصله بسور المدينـة الرئيسى ــ الى مسافة تبلغ نحو ١٢ مترا ٠ ويعرف هذا البرج اليوم باسم برج بوخاكـو (Bujaco) ، وهو اسم محرف من اسم خليفـة الموحديـن أبى يعقوب يوسف ٥٥٨ ــ ٥٨٠ هـ (١١٦٣ ــ ١١٨٤ م) ٠ مما يدل على أن أبا يعقوب هذا هو الذى قام بتحصين قاصرش ٠ ويغلب على الظن أن أسوار هـذه المدينة أقيمت فى الوقت نفسه الذى أقيمت فيه أسوار مدينـة بطلبوس لتشابههما الكبير ٠

وكان قصر قاصرش يقع فى جنوب شرقى المدينة وفى أكثر مواضعها ارتفاعا ٠ وقد ذكر هذا القصر فى الوثائق القاصرشية فى القرن الخامس عشر ،و لم يتبق منه اليوم سوى جبه الذى يشغل اليوم بهو منزل لاس فيليتاس (Las Veletas) والجب المذكور بناء فى جوف الأرض مستطيل الشكل ٠ طوله ٥٠ر١٥ مترا ، وعرضه ٢٠ر١٣ مترا ، وجدرانه من الحجارة وعقوده وقبواته من الآجر ٠ ويتألف الجب من خمسة أروقة سعة كل منها ٢٠ر٢ متر ٠ أما طوله فيبلغ عشرة أمتار ٠ وتعلو أروقتـه قبوات نصف اسطوانية تفصلها فيما بينها أربعة صفوف من العقود المتجاوزة التى تشبه حدوة الفرس ، وتتكىء هذه العقود على أعمدة ضخمة من الجرانيت ٠

بطليوس

بطليوس مدينة كبيرة على وادى أنة أو يانة (Guadiana) ، قبل اتجاهه نحو المصب بنحو ستين كليو مترا • وكانت بطليوس حاضرة بلاد الجوف ، بغرب الأندلس (Algarbe) ، فى عهد ملوك الطوائف •

وكان موضع بطليوس قرية رومانية يرى الأستاذ أو بنر أن اسمها (Pax Augusta) ويسميها الأستاذ ماركيس دى مونسانود بوطوا (Butoa) . ولا نعرف شيئا عن تاريخ بطليوس فى عهد القوط ، فقد كانت قرية قليلة الأهمية ، تابعة لمدينة ماردة دار ملك الرومان • وكانت تعرف فى العهد الاسلامى الأول باسم البشرنل•

ولم يظهر اسم بطليوس الا فى عهد الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، حين خرج عليه عبد الرحمن بن مروان ، المعروف بالجليقى المولد ، سنة ٢٦١ هـ (٨٧٧ م) ، واستقل بهذه المنطقة ، وأسس تجاهها مدينة بطليوس الجديدة وعمرها • وازدهرت بطليوس فى عهده ، وأصبحت حاضرة الاقليم بعد أن كانت ماردة تتمتع بذلك منذ الفتح الاسلامى • وحاطها عبد الرحمن الجيلقى بالأسوار المنيعة (١) • وعظم أمر عبد الرحمن بن مروان ، وأصبح رئيس المولدين فى الغرب ، وغنم حصن طلياطة من اشبيلية ، واقتحم كورة لبلة ، ودخل اكشنوبة • وكان لابد من اعتراف الحكومة المركزية به • وبالفعل اضطر الأمير المنذر الى الاعتراف بسيادته على غرب الأندلس •

---

(١) يذكر الحميرى انه شرع فى بناء جامع بطليوس فبناه باللبن والطابية ، وبنى له صمعة خاصة بالحجر . وكان سور بطليوس مبنيا فى عهده بالتراب ، ولكنه بنى سنة ٤٢١ هـ بالكلس والجندل •

وآل أمر مملكة بطليوس بالغرب ، بعد وفاة عبد الرحمن الجليقى ، الى ابنه محمد بن عبد الرحمن ، وتوراثها بعده ابنه عبـد الله بن محمد الذي ترفى سنة ٣١١ هـ (٩٢٣ م) ، ثم عبد الرحمن بن عبد الله . فلمـا ولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الامارة بقرطبة عمـل على ضم هـذه الأقاليم المستقلة الى سلطان قرطبة . ففى سنة ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) توجه عبد الرحمن الناصر الى مدينة بطليوس لمحاربة عبد الرحمن بن عبد اللـه الجليقى ، وحاصرها عبد الرحمن الناصر ، وضيق عليها الخناق ، وأرسل جيوشه الى الحصون التى تكتنفها حتى افتتحها فى السنة نفسهـا ، وولى عليها وعلى ماردة عاملة محمد ابن اسحق . ومنذ ذلك العهد نمت بطليوس، وعمرت بالأبنية ، وأصبحت مدينة كبيرة .

ولما انقرضت دولة بنى أمية من الأندلس ، وانتزى كل على ما بيده، استقل بالاقليم الغربى من الأندلس — ويشتمل على بطليوس وشنترين وجميع مدن الثغر الجوفى — فتى من عبيد الحكـم المستنصر غفـلا من المعرفة اسمه سابور . وكان يدبر أمره رجل من صنائعه يعرف بأبى محمد عبد الله بن محمد بن مسلمة ، ويلقب بابن الأفطس ، أصلـه من قبـائل مكناسة بالمغرب . فلما مات سابور استبد بالأمر بعده عبد الله بن محمد، واستأثر بملك غرب الأندلس ، وضم اليـه يابرة (Evora) وشنترين (Sentarien) وأشبونة (Lison) ، وتلقب بالمنصور .

فلما مات فى عام ٤٣٧ هـ (١٠٥٤ م) تولى بعده ابنه المظفر أبو بكر محمد . وكان فاضلا عالما وشجاعا فارسا . وهو الذى صنف كتاب المظفرى فى الأدب والتاريخ ، وكان يقع فى نحو خمسين مجلدا . وأقـام المظفر بذلك الثغر ملكا عظيما ، وكانت بينه وبين جاره ابن عبـاد حروب . وفى عهده استولى ملك البرتغال على مدينة قلمرية (Coimbra) سنة ٤٥٦ هـ (١٠٦٣ م) بعد حصار طويل . ولما توفى المظفر ولى بعده ولـداه عمر ويحيى . وفى سنة ٤٦١ هـ (١٠٦٨ م) دب بين الأخوين النزاع ، وانتهز

البرتغاليون هذه الفرصة وأغاروا على بلاده . واشتد الخلاف بين الأخوين وألهاهما ذلك عن مدافعة النصارى . وما زالت السعايات تقدح بينهما حتى مات يحيى ، وانفرد أخوه عمر بالملك فتلقب بالمتوكل .

وكان المتوكل ملكا عالى الهمة ، مشهور الفضل . وكانت له قدم راسخة فى صناعة الشعر والنثر ، وكان فى حضرة بطليوس كالمعتمد بن عباد . وقد بنى المتوكل المبانى الطيبة والمصانع الجليلة ، كما أقام منية البديع خارج بطليوس على نهرها الأعظم ، وهو روض كان المتوكل يؤلف بموافاته ، ويبتهج بحسن صفاته . وكانت بطليوس فى عهده دار أدب وشعر ونحو وعلم . وقد قال الفتح ابن خاقان عند ذكره فى كتابه قلائد العقيان : « ملك جند الكتائب والجنود ، وعقد الألوية والبنود ، وأمر الأيام فائتمرت ، وطافت الآمال بكعبته واعتمرت ... الى لسن وفصاحة، ورحب جناب للوافدين وسماحة ، ونظم شعر يزرى بالدر النظيم ، ونثر تسرى رقته سرى النسيم ، وأيام كأنها من حسنها جمع ، وليال كان فيها على الأنس حضور ومجتمع » .

واستمرت أيامه حتى حاصره المرابطون ، وضيق عليه الأمير سير بن أبى بكر ببطليوس بسراياه وغاراته ... والمتوكل يطمع بالتمسك بها لقربها من حدود البرتغال . فلما عيل صبره ، وعجز عن مقاومتهم ، راسل ألفونسو السادس ملك قشتالة وأطعمه ، وتنازل له عن مدينة شنترين . فسخط عليه أهل بطليوس ، وراسلوا المرابطين ، فوصلتها جيوشهم ، وفتح الناس لها الأبواب ، فتدفقت اليها ، وقبض على المتوكل وعلى ولديه الفضل والعباس ، وقتلوا فى آخر سنة ٤٨٨ هـ (١٠٩٥ م) (١) .

---

(١) رثاهم ذو الوزارتين ابو محمد عبد المجيد بن عبدون اليابرى فى قصيدة
وبب السماح وويب البأس لو سلما
وحسرة الدين والدنيا على عمر

وأصبحت بطليوس خاضعة للمرابطين ••• حتى كانت آخر أيامهم، وقيام الثورات عليهم فى جميع أنحاء الأندلس ، فاستقل ببطليوس محمد بن على ابن الحجام • وقدم الموحدون الى الأندلس واستولوا عليهـا • فلما كانت آخر دولتهم ، استقل محمد بن يوسف بن هـود بمرسية ، وأطاعته جيان (Jaen) وشريش (Jerez) واشبيليه (Sevilla) وماردة (Merida) وبطليوس (Badajoz) ولكن لم يطل بقاء بطليوس فى يده، اذ حاصرها ألفونسو التاسع ملك ليون ، واستولى عليهـا فى ١٩ مارس سنة ١٢٢٨ •

ولقد خطت بطليوس فى بسيط من الأرض ، مخضر الأبراد ، منفسح المراد • ولذلك اهتم ملوكها المسلمون بتحصينهـا بالأسوار والأبراج ، وأقاموا بها قصبة منيعة • وكانت بطليوس فى القرن الثانى عشر الميلادى — على حد قول الادريسى — مدينة عامرة بالأسواق تحيط ، بها الأسوار الحصينة • وكان بجهتها الشرقية ربض ، أكبر اتساعا من المدينة نفسها ، يقع فى فحص بطليوس ، ولكنه خرب بعد سقوط الخلافة بقرطبة ، وخلا من سكانه • ولا نعرف من مساجدها سوى مسجد كان يعرف باسم ابن شبوقـة •

وقد تبقى من آثار بطليوس الاسلامية : القصبة ، وترتفع نحو ستين

شقت ثرى الفضـل والعبـاس هامية
تعـزى اليهم سـماحا لا الى المطر
ثـلاثة ما رأى السـعدان مثلهم
وأخبر ولو عـززا فى الحـوت بالقمر
ثلاثة ما ارتقا النسـران حيث رقوا
وكل ما طـار من نسر ولم يطـر
ثلاثة كذوات الدهـر منـذ نأوا
عنى مضى الدهـر لم يربع ولم يجر
كانوا رواسى أرض الله منـذ مضـوا
عنهـا اسـتطارت بمن فيها ولم تقر

مترا فوق مستوى نهرها آنة •وأسوار القصبة من طابع أسوار اشبيلية — أى أنها ترجع الى عصر الموحدين — وتتقدمها أسوار أمامية ، وتقوم بها أبراج مربعة • وللمدينة باب ذو مرفق يعرف اليوم باسم بـــاب التاج ، وآخر يعرف بباب الزائدة • ويمتد من سورها الرئيسى قرب باب التاج جدار ينتهى ببرج متعدد الأضلاع أسمه برج اسباتتنا بروس •

أشبونة

أشبونة مدينة فى غرب الأندلس تقع على البحر المحيط (المحيط الأطلسى) ، وتشرف على مصب نهر وادى تاجة . وكانت مدينة رومانية قديمة تعرف باسم (Olisipo) ، ومنه اشتق المسلمون اسم المعرب « الأشبونة » أو « أشبونة » . وقد افتتحها موسى بن نصير فيما يقرب من عام ٧١٤ ،وأصبحت قاعدة من قواعد الأندلس .

ونزلها المجوس (النورمانديون) فى عهد الأمير عبد الرحمن الأوسط، واستولوا على بسيطها ، وجعلوها مركزا لغاراتهم على قرمونة وفيريش واشبيلية ومورور . واستنجد الأمير عبد الرحمن بوالى الثغر الأعلى موسى بن قسى ، فقدم الى نجدته ، وكان له الفضل الأكبر فى التغلب على المجوس ، وطردهم من هذا الاقليم .

ولما سقطت الخلافة القرطبية ، وقامت دويلات الطوائف ، أصبحت أشبونة من ممتلكات المتوكل ابن الأقطس ،الذى ولى عليها أبا محمد بن هود المهاجر اليه من سرقسطة . وسقطت أشبونة فى أيدى البرتغاليين فى أواخر أيام المرابطين بالأندلس .

وكانت أشبونة ، فى العصر الاسلامى ، مدينة شديدة الحصانة منيعة، وكان يحيط بها سور ، وبداخلها قصبة . وينفتح فى سورها خمسة أبواب: بابها الغربى قد عقدت عليه حنايا فوق حنايا على عمد من رخام مثبتة على حجارة من رخام ، وكان أكبر أبوابها وأهمها جميعا . كما كان لها باب غربى أيضا ، يعرف بباب الخوخة ، يشرف على مسرح فسيح يشقه جدولا ماء يصبان فى البحر . ولها كذلك باب قبلى ، يسمى باب البحر ، تدخل فيه أمواج البحر عند المد وترتفع ثلاث قامات . وكان ينفتح فى سورها الشرقى بابان : أحدهما باب الحمة ، نسبة الى عين ماء للاستحمام

والاستشفاء ، وكان يؤدى الى حى يعرف اليــوم باسم (Alfana) أما الباب الآخر فيعرف بباب المقبرة .

ويمكننا اليوم أن نتتبع بسهولة تخطيط السور الاسلامى بأشبونة . وقد أوضح ذلك الأستاذ لامبير فى دراسة عن الأحياء الاسلامية القديمة فى تخطيط مدينة أشبونة (١) .

وقد طالعنا الادريسى والحميرى بمعلومات هامة عن نشــاط هذه المدينة فى العصر الاسلامى .. ذلك أن بعض سكانها من المغامرين كانوا يخرجون لاستكشاف المحيط . وفى ذلك يقول الادريسى : « ومن مدينة أشبونة كان خروج المغرورين فى ركوب بحر الظلمات ليعرفوا ما فيه والى أين انتهاؤه ، ولهم بأشبونة موضع بقرب الحمة منسوب اليهــم يعرف بدرب المغرورين . وذلك أن ثمانية رجال اجتمعوا فاتبنوا مركبا ، وأدخلوا فيه من الماء ما يكفيهم أشهرا ، ثم دخلوا البحر فى أول طاروس الريــح الشرقية ، فجروا بها نحوا من أحد عشر يوما ... » .

وهذا دليل قاطع على أن المغامرين المسلمين كانــوا أول من كشف المحيط الأطلسى ، وأول من ركبوا هذا البحر المظلم للبحث واستكتشــاف قبل أن يظهر ماجلان أو كرستوف كولومبس.

(1))lie Lambert, (Les anciens quortiers muslmans dans le plan de la ville de Lisbonne), dans Gomptes rendus du congrès international de géographie, Lisbone, 1949, T. III, 1951.

اشـــــــبيليـــة

تقع مدينة اشبيلية على الضفة اليمنى لنهر الوادى الكبـير ، قرب مصبه ، فى خليج عميق بحيث تصلح لأن تكون ميناء بحريا فى جنـوب اسبانيا (١) • وتتوسط اشبيلية سهلا فسيحا يعرف بالفحص (La Vega) وكانت زمن المسلمين مدينة عامرة بها أسواق قائمة وتجارات رائجـة • وأكثر تجارة أهلها الزيت ، وذلك لأن فى محصها تلا مرتفعا يعرف بالشرف دائم الخضرة ، لا تكاد تشمس فيه بقعة لالتفاف زيتونه • وزيتونها هذا يخزن فى جوف الأرض أكثر من ثلاثين سنة ثم يعتصر •

وقد أثبت الباحثون أن الاسم القديم لمدينة اشبيلية ــ وهو اشبالى (Hispali) ــ من أصل أيبيرى ، ثم تحول هذا الاسم الى أسم لاتينى (Hispalis) بعد أن افتتحها الرومان سنة ٢٠٥ ق•م وعـرب المسلمون هذا الاسم الى اشبيلية • ومن هذا الاسم المتعرّب اشتق الاسبان الاسم الحالى (Sevilla)

وليس من شك فى أن اشبيلية كانت من بين المدن الأولى التى أسسها الأيبيريون ، ثم تطورت المدينة فى عهد الفينيقيين والاغريق والقرطاجنيين، وأصبحت المركز التجارى للأندلس • وكانت اشبالى أو اشبيلية ، وقت الفتح الرومانى ، مدينة صغيرة المساحة ، مسورة بسيطة البناء ، وكان يطلق عليها اسم (Oppidum) ، أى المكان الحصين وفقا لما ذكره المؤرخ الرومانى كايوس بلينوس (Caius Plinius) (٢٣ ق•م ــ ٧٩ م) • ويغلب على الظن أن هذه المدينة الأولى كانت تقع فى مكان مرتفـع بعض الشىء بالقرب من النهر ، أى أنها كانت تشغل جزءا داخليا من مدينة اشبيليـة الحاليـة •

---

(١) هذا النهر الكبير يصعد فيه المد ما يقرب من اثنين وسبعين ميلا ثم ينحسر

وورد اسم اشبالى لأول مرة بمناسبة اقامة يوليوس قيصر بهـــا ، بعد موقعة مندا فيما بين شهرى مارس وأبريل سنة ٤٥ ق٠م ، فى كتاب (Bellum Hispaliense) ٠ اذ يروى صاحبه أن بسورها أبوابا ، وأنة كان يتوسطها مجلس الشعب (Forum) ، وبجوراره كان يقع المسرح ٠ وكان لها ميناء ترسو فيه السفن ٠

وذكر مؤلف هذا الكتاب أن يوليوس قيصر أعاد بناء أسوارها بعـــد أن اتسع نطاقها نحو النهر (١) ٠ وأصبحت أشباليس مدينة بكـل مدلول هذه الكلمة (Civitas) ٠ كما أصبحت مركزا للقانون الرومانى ، وأطلق عليها اسم (Colonia Julia; Romula) ، خوليا نسبة الى يوليوس قيصر الذى بنى أسوارها بالأحجـــار ٠ ورومولا تصغيرا لروما ٠ ولمـّا ظهرت المسيحية فى اسبانيا وانتشرت فى اشبيلية ، بدأ عهد من الاضطهاد الدينى والتعذيب ، واستشهدت فى ذلك الـــوقت قديستان هما رمـــز اشبيلية : احداهما تدعى خوستا (Justa) ، والثانية روفينا (Rufina)

وفى سنة ٤٠٩ م غزت قبائـــل الوندال اسبانيا ، وتبعهـــم القوط الغربيون ٠ واستقر فيها ملوك القوط ، وجعلوها حاضرة لهم ا حتى نقل الملك ليوفخلدو العاصمة الى طليطلة سنة ٥٦٧ م ٠

وقد ازدهرت المدينة فى عهـــد سان هرمنخلدو الذى اعتنق فيهـــا المسيحية ٠ وأسس سان ايزيدرو مدرسته المشهورة فى اشبيلية ٠

ثم بدأ عصر جديد بنزول المسلمين فى شبه الجزيرة وافتتاحهم لها ٠

---

(٢) ذكر الحميرى فى كتابه « الروض المعطار » ان يوليوس قيصر احدق علها بأسوار من صـخر صلد ، وبنى فى وسطها قصـبتين بديعتى الشأن تعرفان بالاخوين ، وجعلها أم قواعد الاندلس ، واشتق لها اسما من رومية ومن اسمه ، فسماها رومية يوليوس ٠

وارتفعت أعلام الاسلام على الأندلس ، وتقدمت جيوش طارق بن زيــاد تفتتح المعاقل والحصون عقب انتصارها على جيوش القــوط الغربيين فى موقعة وادى لكة سنة ٧١٢م • وقدمت موجة أخرى من الفاتحين بقيادة موسى ابن نصير ، فأتم فتح المدن التى لم يفتحها طارق،وسقطت اشبيلية فى أيدى المسلمين بعد حصار دام عدة شهور لحصانة أسوارها ومناعتها• واختارها موسى بن نصير حاضرة للأنــدلس : لوقوعهــا على البحــر ، وارتباطها فى يسر بسائر المدن الأندلسية الأخرى ، وسهولة اتصالها ببلاد المغرب قاعدة الجيوش الاسلامية فى حالة قيام الأندلس بالثورات • ولكن اشبيلية لم تتمتع بهذا التفوق ، اذ تحولت العاصمة الى قرطبة عقب مقتل عبد العزيز ابن موسى سنة ٩٨ هـ (٧١٧) م •

وتولى على الأندلس عدة ولاة من قبل خلفاء بنى أمية • وفى عهدهم انبعث بين العرب الصراع القبلى الذى حملوه معهم من المشرق ، وأصبحت البلاد مسرحا للفتن والفوضى ، ومرتعا خصبا للاضطراب ••• حتى دخل الأمير عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، وأنقذها من الفتن التى شملتها : فقضى على مظاهر الفوضى المستحكمة بها ، وكون دولة عربية اسلاميــة تعد امتدادا للدولة الأموية •

وظلت الحياة فى اشبيلية بعد الفتح الاسلامى على مــا كانت عليه زمن القوط ، الا من تغيير طفيف أحــدثه الغالبون فى المجــال الــدينى والاجتماعى • وسكن اشبيلية عدد قليل من العــرب ، اذ آثر أكثرهــم النزوح الى العاصمة قرطبة • وزخرت المدينة بعــدد كبير من النصارى باعتبارها المركز الدينى المسيحى الأول فى اسبانيا منذ عهده القــوط ، ثم ازداد عدد سكانها العرب فجأة بعد أن استقر فيها جند حمص سنة ٧٤٢ م ونزلت باشبيلية عدة قبائل عربية : مثل بنى موسى من بيت غافق ، وبنى زهرة ، وبنى حجاج ، وبنى الجد ، وبنى خلدون • وكانت هــذه القبائل تؤلف الأرستقراطية العربية باشبيلية •

واتبع المسلمون منذ الفتح سياسة من التسامح فى معاملتهم نصارى اشبيلية ، وأتاحوا بذلك تحول كثير من النصارى الى الاســلام ، وعرف هؤلاء المتحولون بالمسالمة • وكان النصارى يتمتعون ــ خاصة فى عهد عبد العزيز بن موسى ــ بحرية فى أداء شعائر دينهم • وكان م نأثر سياسة التسامح هذه أن قامت روابط وثيقة بين المسلمين والمسيحيين ، تقوم على مصاهرة المسلمين للاسبان • فكثر زواج الفاتحين من الاسبانيات ، ونشأ من هذا الزواج جيل من الاسبان المسلمين عرفوا بالمولدين • وازداد عدد المولدين شيئا فشيئا حتى أصبحوا فى نهاية القرن التاسع الميلادى غالبية سكان اشبيلية ، واحتفظ كثير منهم بأسمائهم الاسبانية : مثل بنى أنجلين، وبنى شبرقة (Sabarico)

أما اليهود فكانوا يشغلون فى اشبيلية مكانة سامية بين سكانها ، فقد انضموا للمسلمين وآزروهم منذ الفتح الاسلامى ، وسهلوا بذلك دخولهم المدينـــة •

واعتلى عبد الرحمن بن معاوية سرير الملك بقرطبة سنة ٧٧٥ م ، ولم يزعزع استقرار الامارة فى قرطبة المركز السامى الــذى كانت تحتلـــه اشبيلية : فقد تمتعت اشبيلية فى عهد بنى أمية بازدهار شامل فى حياتها ، وأقام فيها أمراء بنى أمية المنشآت العظيمة الخالدة • وكان عصـــر عبد الرحمن الأوسط العصر الذى اتصلت فيه اسبانيـــا الاسلامية بالمشـــرق العباسى ــ لأول مرة ــ اتصالا مباشرا ••• ذلك أن اسبانيا فى عهدهـــا الاسلامى الأول ــ وخاصة فى عهد عبد الرحمن الداخل ــ كانت تحافظ على مثلها وتقاليدها الشامية •

وأقام الأمير عبد الرحمن الأوسط فى اشبيلية مسجدا جامعـــا سنة ٨٢٩ م • فلما أغار النورمانديون على اشبيلية سنــــة ٨٤٤ م ودخلوها ، أحرقوا أسقف مسجدها ، وعاثوا فى قصورها • ثم أخرجهم الأمير عنها ،

وأشار عليه الوزراء ببناء سور لمدينة اشبيلية لحمايتها ، فعهــد بذلك الى عبد الله بن سنان ــ أحد موالى بنى أمية ــ فبناه • وأمــر عبد الرحمن باقامة دار صناعة باشبيلية لانشاء السفن الحربية لأن الأندلس لم يكن لها أسطول فى ذلك الوقت يستطيع أن يرد غارات النورمانديين •

وذكر ابن حيان أن عبد الملك بن حبيب كتب الى الأمير عبد الرحمن أثر محنة أهل اشبيلية واثارة موضوع تحصينها ــ وكان الأمير اذ ذاك مشغولا بعمل زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة ــ فذكر له عبد الملك فى كتابه أن بنيان سور مدينة اشبيلية أوكد عليــه من بنيان الزيــادة فى المسجد الجامع • فعمل برأية فى بنيان هذا السور ، وبناه بالحجارة سنة ٨٤٠ م •

وفى عهد الأمير عبد الله بن محمد رفعت اشبيلية راية الاستقلال ، وخرجت عن فلك الامارة القرطبية • واستبد باشبيلية ابراهيم بن حجاج أحد زعماء المدينة وأشرافها ، وارتقى فى درج الجلال • وكان زعيما قويا، بعيد الهمة ، جميل الذكر • واستمر بنو حجاج يحكمون اشبيلية حتى تولى عبد الرحمن بن محمد امارة قرطبة ، وعزم على اخضاع الثائرين ، وتوحيد الأندلس ، وضم مدنها المستقلة الى السلطة المركزية ••• ونجــح عبد الرحمن الناصر فى القضاء على أولاد عمر بن حفصون الثائرين بقلعــة ببشتر ، واستسلم له أحمد بن مسلمة ابن حجاج ،وبذلك انضمت اشبيلية الى فلك قرطبة ، وأقام فيها قصبة حصينة •

ولما قام ملوك الطوائف فى الأندلس ، بعد سقوط الخلافة بقرطبة ، استولى ابن عباد على مقاليد الأمور باشبيلية سنة ١٠٤٢ ، وجعلهــا بنو عباد حاضرة لمملكتهم الصغيرة • وشهدت اشبيلية فى عصرهم ازدهارا لم تشهده من قبل : لا فى عصر الرومان ، ولا فى عهد القوط • ووصل بها الأمر أن اصبحت أعظم مدن اسبانيا الاسلامية بعد أن تخلت لها قرطبــة عن الزعامة • وكان المعتمد بن عباد خير مثل للشاعر الأندلسى الرقيق • وكان أندى ملوك الأندلس راحة ، وأرحبهم ساحة ، وأعظمهم ثمادا ، وأرفعهم

عمادا ... ولذلك كانت اشبيلية فى عهده بؤرة الرحال ، وقبلة الآمـــال ، ومركز الشعراء ، ومجتمع الأدباء . وبينما كان شعراؤه يعبرون بقصائدهم الرقيقة عن حياة الترف التى كان ينعم بها ملوك بنى عباد ، كان البنـــاة والمهندسون يعبرون بمنشآتهم عن الازدهار العمرانى باشبيلية : فشيدوا العمائر الفخمة ، وأقاموا القصور السامقة .

ولم يتح لاشبيلية أن تنعم طويلا فى ظل بنى عباد ، اذ سرعان مـــا عبر المرابطون الزقاق بحجة انقاذ الأندلس من براثن ألفونسو السادس ملك قشتالة ، ثم أخـــذوا فى القضاء عـــلى دول الطوائف واستولوا على اشبيلية سنة ١٠٩١ ، وتم لهم بذلك السيطرة على الأندلس .

وفى أواخر عهدهم اختلت أمور دولتهم : ذلك أنهم تأثروا بمظاهر الرقة فى العواصم الأندلسية ، ونسوا مظاهر الغلظة والجفاء التى فطروا عليها فى الصحراء ، بحثا وراء شهـــوات النفس ، ففقدوا خصالهـــم ، وانحطت هممهم ، مما هيأ المجال لدخول عناصر جديدة فى الأندلس وفدت من المغرب . واجتاز الموحدون بدورهم الزقاق الى اسبانيا ، وبايع أهل اشبيلية عبد المؤمن بن على ، خليفـــة الموحدين سنة ١١٥٦ ، فاختـــارها حاضرة له فى الأندلس .

ثم تولى أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الخلافة بعد أبيه سنة ١١٦٤ . وكان محبا للفنون والآدب والفلسفة رغم ميوله الحربية ، وكانت اشبيلية أقرب الى قلبه من مراكش حاضرته فى المغرب : اذ ولد فى قرطبة ، وقضى فى اشبيلية شطرا كبيرا من طفولته ، وتأثر برقة الأندلس ، وفتن بسحرها ، وراقته مظاهر الثراء التى كان يستنيم لها الأندلسيون ... فتخـــلى منذ طفولته عن خشونة الموحدين وتقشفهم ، وأقبل عـــلى الترف ، وانغمس فيه ، فشيد القصور والمساجد ، وحرص على تجميـــل حاضرة ملكـــه فى الأندلس بكل ما من شأنه التعمير والتمصير . وكان من نتائـــج ذلك أن انطلقت حركة البناء فى تلك المدينة ، واتسمت الأبنية الجديـــدة بطابـــع

الأصالة و الجمال ، و اجتمعت فيها البساطة التى تميزت بها عمائر الموحدين مع التعقيد و الغلو فى الحشد الزخرفى ۰ وتلك احدى خصائص عمـارة الأندلس منذ خلافة الأمويين فى قرطبة حتى عهد ملوك الطوائف ۰

وفى عهد ابنه أبى يوسف يعقـوب المنصور بلغت اشبيليـة ذروة مجدها وعظمتها ، وأصبحت بحق حاضرة الأندلس فى عهـد الموحدين : فعمرت بالأسواق و المتاجر و القصور و العمائر ، وازدهرت فيها الحضارة۰ ولم يتردد أبو يوسف يعقوب فى تجميلها ، فأقام لمسجدها الجامع الذى بناه أبوه مئذنة ارتفعت فى رشاقة مشرفة على فحص اشبيلية وما يحيط بها من المنطقة المعروفة بالشرف ، وتضم القرى والضياع ۰

ولما عاد الخليفة الى اشبيلية ــ بعد انتصاره الرائع عـلى جيوش قشتالة فى موقعة الأرك (١٠ يوليو سنة ١١٩٥) ،واستحق لقب المنصور ــ أمر بصنع تفاحات أربع مذهبة لتكلل المئذنة ، ورفعت فى حضرته ، وركبت بالسفود البارز بأعلى القبة ، وأزيحت عنها الأغشية التى كانت تكسوها فبهرت ببريقها ولألائها عيون الحاضرين ۰ وظلت المئذنة ، بسموقها ودقة زخارفها وتناسق بنيانها ، تثير اعجاب المسلمين و المسيحيين على السواء ۰ وكانت تمثل للمسلمين تفوق دينهم ودوام حكمهم فى هذه البلاد ۰۰۰ حتى ضعفت دولة الموحدين ، وتقلصت دولة الاسلام فى الأندلس بتقديم حركة الاسترداد المسيحية بعد هزيمة الاسبان للمسلمين فى موقعة العقاب سنة ١٢١٢ التى لم يقم للمسلمين بعدها قائمة تحمد ، وبها بدأت عوامل الضعف تسرى فى كيان دولة الموحدين ۰

الا أننا يمكن أن نميز من بين خلفاء الموحدين الضعاف ملكا كان له فضل كبير فى تجميل اشبيلية و العناية بها : هو أبو العلاء ادريس بن أبى يوسف يعقوب المنصـور (١٢١٨ ــ ١٢٣٠) ، الـذى حـاول أن يعيد لاشبيلية بهاءها أيام أبيه المنصور ،فعمد الى تحصينها أمام الخطر المحدق بها ، فاقام بها سنة ١٢٢١ برجا ضخما ، هو برج الذهب المشهور الذى

لا يزال قائما حتى اليوم ، ثم جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها سـوراً أماميا يحيط بها جميعا ، وحفر حولها خندقا يدور بهذه الأسوار ، مبالغة فى تحصين المدينة أمام الخطر الاسبانى • وبمـوت أبى العلاء ادريس تلاشى كل أمل فى انقاذ اشبيلية ، فقد سقطت المدن التى كانت تؤلف خط دفاعها الأمامى ، كقرطبة وقرمونة وحصن القصر والقلعة وحصن الفرج وقلعة جابر • وفى ٢٢ ديسمبر سنة ١٢٤٨ دخلت جيوش قشتالـة مدينة اشبيلية بعد حصار دام ما يقرب من ١٧ شهرا •

ولقد بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع اشبيلية ، وما كانت تتفرد به دون غيرها من الحواضر الأندلسية•وكانت — على حد قولهم — عروس بلاد الأندلس وقاعدتها ، مدينة الأدب واللهو والطرب ، عظيمـة الشأن طيبة•••المكان،لها البر المديد والبحر الساكن ، والوادى العظيم•ووصفها الشقندى فقال : « أما اشبيلية فمن محاسنها : اعتدال الهـواء ، وحسن المبانى ، وتزيين الخارج والداخل ، وتمكن التمصر • وأما مبانيهـا فقد سمعت عن اتقانها واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لاتخلو من الماء الجارى والأشجار المتكاثفة ،كالنازنج والليـم والليمون والزنبوع وغير ذلك ••• وقد جعل الله اشبيلية أم قرى الأندلس ، ومركز فخرها وعلاها ، اذ هى أكبر مدنها وأعظم أمصارها » •

كذلك مدحها مؤرخو اسبانيا المسيحية وقارنوهـا بالقسطنطينية • وأصبحت اشبيلية عاصمة قشتالة بدلا من طليطلة • وكان هـذا الاختيار لاشبيلية موفقا كل التوفيق ، اذ أن ماضى اشبيلية كان يزخـر بالعظمة والمجد ، كما أن طليطلة أصبحت — بعد سقوط اشبيلية — بعيدة عن الثغر الأدنى ، حيث الصراع الحاسم بين المسيحية والاسلام فى الأندلس •

كذلك اتجه فرناندو الثالث — بعد فتحه لاشبيلية — نحو مراكش ، مصدر الخطر الذى يهدد بلاده • فكان لا بد له من عاصمة قريبة من موطن نزول المغاربة الى الأندلس لنجدة اخوانهم فى غرناطة • ويمكننا أن نضيف

الى ذلك سببا آخر هو أن اشبيلية كانت أحصن مدن الأندلس ، كما أنها كانت غنية بالمحصولات الزراعية ومنتجاتها الصناعية .

عمد فرناندو الثالث الى اعـادة تعمـير اشبيلية بعناصر مسيحية وفدت مع الاسترداد الاسبانى من اسبانيا الشمالية (قطالونية واشتورياش وليون وأرجون وقشتالة) ، وحلت محل العناصر الاسلامية التى هجرت المدينة بعد سقوطها فى أيدى المسيحيين . فوزع القصور والدور الاسلامية الكبرى على قواده وجنوده القشتاليين والقطلانيين والفرنج الذين أسهموا فى فتح اشبيلية . وأدى هذا التغيير الفجـائى فى العنـاصر التى تسكن المدينة الى تحول عميق فى نظام الحياة بهـا . فبينما أخـذت التقاليد القشتالية تمسخ تدريجا النظام الاسلامى فى حياة المدينة ، ظلت الممتلكات التى غنمها الاسبان فى اشبيلية تحتفظ ببنائها الاسلامى .

أجل ، لقد كان مظهر التجديد فى الأندلس — وخاصة فى اشبيلية : العاصمة الجديدة لملوك قشتالة — عميقا فى كافة أنواع الحياة ، ولكنه لم يكن كذلك من الناحية المادية . فمـع أن القشتاليين جعلـوا من اشبيلية امتدادا لمدنهم القشتالية — وذلك بدمهم ولغتهم ودينهـم واقتصادهم وقانونهم وأزيائهم وفنونهم وعاداتهم — فان الظروف المادية والجغرافية التى وجد فيها الفاتحون الجدد، وكذلك استمرار التأثيرات الاسلامية ... كل ذلك أتاح الفرصة لايجاد خصائص اقليمية يشبه بعضهـا الخصائص القديمة . وأخذت هذه الخصائص الجديدة تبرز منذ القرن الرابع عشر لتؤلف أسلوبا اشبيليا يذكر بالأسلوب الاشبيلى الاسلامى . وقد ساعد على خلق هذا الأسلوب عدم نقـاء الدم القشتالـى فى اشبيلية ، اذ أن السكان الجدد كانوا يختلفون فيما بينهم فى كل نواحى الحياة نظرا لتعدد أجناسهم .

وعاش هؤلاء السكان مع بقايا العنصر الاشبيلى الاسلامى الذى آثر البقاء فى مسقط رأسه . وساهم هؤلاء المسلمون الخاضعون لقشتالـة ،

والذين يعرفون بالمدجنين ، فى كل نواحى الحياة الاقتصادية بالمدينـــة • وأحدث ذلك تراجعا للفن القوطى الذى جلبه القشتالون معهم من الشمال، وانتصر الأسلوب المدجن فى العمارة ، وهو أسلـــوب ناشىء من امتزاج الأسلوب الاسلامى بالأسلوب المسيحى • فقد وجد بين المدجنين كثير من أصحاب المهن الفنية والصناعـــات ، كالبنائين والنجارين والفخـــارين ، واستخدمهم ملوك اسبانيا المسيحية فى بناء الكنائس والأديرة والحصون• ولا شك أن الفضل فى ازدهار الأسلوب المدجن يرجع الى تفوق المدجنين المسلمين فى الناحية الفنية ، والى مقدرتهم فى البنـــاء بالآجر بـــدلا من الحجارة التى كان يندر وجودهـــا •

وعلى الرغم من ضياع كثير من معالم اشبيلية الاسلامية ، فما زالت تحتفظ حتى اليوم بطابعها الذى اتسمت به منذ عصر الموحدين ، وما زالت تحتفظ بتخطيطها الاسلامى القديم رغم التغييرات العميقة التى أحدثها الاسبان فى النظام الاجتماعى باشبيلية : فان كنائس المدينة الحالية قامت على أسس مساجدها القديمة ، بل أن أبراج هذه الكنائس تذكرنا بالمآذن الاشبيلية ، لما كسيت به من توريقات عربية وعقود اسلامية • كذلك تشهد دور اشبيلية اليوم ــ بأفنيتها الداخلية المغروسة بالأشجار ، ونوافذها المكسوة بشبكات من الحديد ، وجدرانها الخارجية العارية من الزخرفة ، وواجهاتها البيضاء ــ بمدى تغلغل الأثر الاسلامى فى النظـــام المعمارى بالمدينة •

وكانت اشبيلية ، فى عهد الموحدين ، تنقسم الى حى أساسى هـــو المدينة ، وأحياء أخرى تحيط بها • وكان يحيط بالمدينة وأحيائهـــا أسوار قوية تحمى المدينة من غارات الأعداء • وكان يقع خارج الأسوار أرباض، كما كان الشأن فى أغلب مدن الأندلس •

أما المدينة ذاتها فكانت تشتمل على مسجدين جامعين : الأول مسجد ابن عدبس الذى بناه القاضى عمر بن عدبس بأمر الأمـــير عبد الرحمن

الأوسط سنة ٨٢٩ ، وما زالت بقاياه ظاهرة حتى اليوم ، وان كانت تقوم عليها كنيسة سان سلفادور • والثانى المسجد الجامع بالقصبة الذى أسسه أبو يعقوب يوسف ، وعليه تقوم اليوم كاتدرائية اشبيلية • ومن ساحة هذا المسجد الأخير كانت تتشعع كل طرق المدينة مؤدية الى الأبواب المفتوحة بالأسوار • ومن العجيب حقا أن نرى اليوم بعض الطرق تحتفظ بتخطيطها القديم ، اذ تمتد من طرف الى آخر بالمدينة مارة بالمركز الدينى الذى تؤلفه اليوم كاتدرائية اشبيلية ، والذى كان يؤلفه فيما مضى جامع القصبة الكبير •

أما المركز الاقتصادى والصناعى باشبيلية فيتبع فى أهمية المركز الدينى مباشرة • فقد كان لموقع اشبيلية الجغرافى على مصب نهر الوادى الكبير ، وسط اقليم غنى بمنتجاته الزراعية ، أثر كبير فى اعتبار اشبيلية أعظم مدن الأندلس فى التجارة • وكانت الحياة الاقتصادية مزدهرة على الأخص حول المسجد الجامع الذى كانت تحوطه الأسواق والقيساريات• ومن هذه الأسواق : سوق الصباغين والخياطين ، وسوق باعة الأثواب ، وسوق القراقين والعطارين ، والزجاجين ، والفخارين ، والنجارين والقصابين ، وسوق الصاغة • وما زالت بعض أسماء هذه الأسواق معروفة حتى اليوم بأسمائها العربية ، من ذلك شارع القيسارية (Alcaiceria) وشارع الخياطين (Alfayates)

ومن أهم المؤسسات الاقتصادية ، فى مدينة اشبيلية الاسلامية ، الفندق : اذ كان يقصده التجار الغرباء ، وكانت تحفظ فيه البضائع قبل توزيعها على التجار • واستعمل القشتاليون لفظة (Alfondiga) التى تحولت اليوم الى كمة (Fonda) تحريفا عن كلمة فندق العربية •

وتعد دار الصناعة من أهم الأبنية الاقتصادية فى اشبيلية فى العصر الاسلامى • وكانت دار صناعة اشبيلية تقوم ببناء القطائع الحربية والسفن وما يختص بآلات الملاحة • وكانت هذه الدار تقع على نهر

الوادى الكبير قرب برج الذهب خارج الأسوار • وفى هذا الموضع باب كان يعرف بباب القطائع نسبة الى قطائع الأسطـول الاشبيلى • الا أن هذه الدار أحرقت عند حصار الاسبان للمدينة قبل سقوطها سنة ١٢٤٨ ، وأقام ألفونسو العاشر دارا أخرى مكانها بقيت منها اليوم بقايا كثيرة •

وكانت المياه ترد الى اشبيلية من طريق جسر كبير يبدأ من عين ماء بالقرب من قلعة جابر أو قلعة وادى أيره (Alcala de Guadaira) وينتهى عند باب قرمونة من أبواب اشبيلية • وهذا الجسر من عمل الخليفة أبى يعقوب يوسف الموحدى سنة ١١٧٢ • وقد بقى منه اليوم قطـاع صغير خارج باب قرمونة •وكانت المياه تتوزع فى شبكات مائية فى جوف الأرض الى القصور والدور للسقاية ورى الحدائق والمزارع • وقد عثر منذ عهد قريب ، عند حفر أساس منزل بالقرب من الكاتدرائية ، على بعض قنوات فخارية خاصة بالمياه من العهد الاسلامى •

وكان يحيط بمدينة اشبيلية وأحيائها سور حصين يعوض المدينة ما تفقده من الوجهة الاستراتيجية لوقوعها فى أرض سهلـة لاجبـال فيها تحميها ، كالمرية ومالقة وغرناطة •

وقد ابتكر المرابطون نظاما جديدا فى تخطيط أسـوار اشبيلية ، اذ عمدوا الى الاكثار من الزوايا الداخلية والخارجية بالسور ، بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة متكسرة • وميزة هذا النظام أن يترك الجند أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ، ثم يندفعون عليهم من أعلى الأسوار على الدروب فيفتكون بهم فتكا ذريعا • ويشبه هذا النظام « الزمبرك » : اذا ضغط عليه ثم ترك اندفع بقوة فيصيب ما يقابله • وما زال قطاع من هذه الأسوار باشبيلية قائما حتى اليوم ، ويعرف باسم سور مقارنة ، ويمتد من باب مقارنة حتى باب قرطبة ، وتتناثر بعض بقاياه بعد ذلك فى حديقة معهد الوادى (El Jardin del colegis edl valle)

ويحيط بهذه الأسوار أسوار أمامية أقل ارتفاعاً كانت تعرف بالبربخ خانة ، ومنها احتفظت اللغة الاسبانية بالاصطلاح (Barbacana) ، ويمنع هذا السور الأمامى ــ أو الحزام البرانى حسب تسمية ابن ابى زرع ــ العدو المهاجم من شن هجومه مباشرة على الأسور الرئيسية ، ويعطل من تقدمه لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ منها داخل المدينة .

وسور اشبيلية الأمامى شيــدة الخليفة أبو العــلاء ادريس سنة ١٢٢٣ ، وحفر حوله خندقا ما زالت آثاره باقية الى اليوم . وهــو الذى مد من سور اشبيلية سورا قليل الارتفاع يعرف فى اللهجة المغربية باسم قورجة ، وبالاسبانية باسم (Coracha) ينتهى الى نهر الوادى الكبير ببرج ضخم كثير الأضلاع هو برج الذهب القائم حتى وقتنا هذا .

ومع أن اشبيلية فقدت كثيرا من معالمها الاسلامية ، فما زالت تزخر حتى اليوم بكثير من آثار الموحدين . وأهم هــذه الآثار بقايــا القصر الاسلامى (Alcazar) ، وتشتمل على بقايا بهــو الجص ، وقبــوة من المقرنصات والضلوع المتشابكة فى دار تقع ببهو البنود . ونضيف الى هذه الآثار الهامة بقايا المسجد الجامع باشبيلية ، الذى أمر أبو يعقوب يوسف ببنائه سنة ١١٧٢ . ومن هذه البقايا نستدل عــلى أن هذا الجــامع كان يجمع بين صور أنشائية وفنية ظهرت فى مساجد الموحدين بمراكش وصور أخرى مستوحاه من المسجد الجامع بقرطبة.وأهم ما تبقى من هذا الجامع الجليل مئذنتة الرائعة المعروفة بالجيرالدا . وقد تم بناؤها سنة ١١٩٥ ، وارتفعت فى رشاقة وجلال تشق عنان السماء . ويكفى لاظهار روعتها أن يلمس الزائر بها اليوم عمارتها الصاعدة فى ايقاع ، وزخارفها المحفورة فى الآجر كالمخرمات ، والموزعة فى تعادل واتزان مع رقة وبساطة .

الجـــــزر الشرقيـــــــة

هى ثلاث جزر فى البحر الشـــامى (البحر الأبيض) تقــع شرقى بلنسية : أكبرها جزيزة ميورقة (Mallorca) ، وأوسطها منورقة (Minorca) وأصغرها يابسة (Ibiza) • ولا تتجــاوز المسافة بين جزيــرة ميورقة ومنورقة خمسين ميلا •

وجزيرة ميورقة كانت من أخصب بقاع الأندلس وآكثرها زرعـــا • وكان فيها من الحضارة والتمكن والتمصر وعظم البادية ما يغنيها • وجزيرة ميورقة صغيرة فى مساحتها ، وعاصمتها بلمة مدينة مزدهرة عامرة ، تتوزع حولها القرى مثل قرية قطينة •

ويبدأ التاريخ الاسلامى لهذه الجزر الشرقية سنة ٧٩٨ م ، وهـــو العام الذى افتتحها فيه عبد اللـــه بن موسى بن نصـــير ، وأصبحت من أملاك المسلمين فى الأندلس • وقد ثار المعاهدة من أهل ميورقة على الأمير عبد الرحمن بن الحكم ، فغزاهم فى ثلثمائة مركب وافتتحها ثانية •

وظلت هذه الجزائر خاضعة للخلافة القرطبية حتى سقطت الخلافة الأموية ••• فاستقل بها أبو الجيش مجـــاهد العـــامرى صاحب دانية ، وتسمى ـــ أول استقلاله بالجزائر الشرقية ـــ بذى الوزارتين • وكـــان شديد الوطأة على رعيته ، سام أهـــل هذه الجزائـــر الخسف : فسطـــا بوجوههم ورؤسائهم ، وبعث فى نفوسهم الرهبة والرعب لخوفه منهم على دولته • وهو الذى أغار على جزيـــرة سردانية ، اذ اقتحمهـــا فى مائـــة وعشرين مركبا ، ثم عاد الى دار ملكه بدانية وميورقة • ولما توفى مجاهد، تولى بعده ابنه على بن مجاهد المسمى باقبال الدولة وظلت ميورقة تابعة لعلى حتى استولى ابن هود على دانية ، وحاصر عليا بها • وأخرجه منها سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٥ م) •

ولما استولى المرابطون على الأندلس ، أرسل أمير المسلمين على بن يوسف رجلين الى الأندلس هما يحيى ومحمد ابنا غانية • وتولى يحيى على مدينة قرطبة ، وتولى أخوه محمد على بعض أعمال هذه المدينة • فلما مات يحيى اضطرب أمر محمد بن غانية ، وأخذ يجول فى بلاد الأندلس•• والفتنة تتزايد ، ودعوة الموحدين تنتشر • فلما اشتد خوف محمد هذا أتى مدينة دانية ، فعبر منها الى جزيرة ميورقة فى أهله وخاصته ، فملكها وتملك الجزيرتين المجاورتين لها ، وهما منورقة ويابسة • وقيل ان على بن يوسف نفاه اليها •

استقل محمد بن غانية بهذه الجزر ، وضبطها لنفسه ، وأقام فيها حتى مات • وتولى بعده ابنه أبو ابراهيم اسحق بن محمد بن غانية • وفى عهده كثر الداخلون عليه بجزيرة ميورقة من فلول المرابطين وبقاياهم ، فكان يحسن اليهم ، ويجزل لهم العطاء • وأقبل على الغزو ، وصرف عنايته له ، فلم يكن له هم غيره • فكان له فى كل سنة غزوتان الى بلاد الروم يغنم ويسبى الى أن امتلأت أيدى أصحابه من الغنائم ، فقوى أمره ، وتشبه بالملوك • ولم تزل هذه حاله حتى توفى سنة ٥٧٩ هـ (١١٨٣ م) بعد أن أصيب فى احدى غزواته •

ثم قام بالأمر بعده ابنه على • وخرج على بأسطول ميورقة الى العدوة ، وقصد مدينة بجاية ، واستولى عليها بعد قتال عنيف ، ودخلها ودعا فيها لبنى العباس • ولكن أبو يوسف يعقوب استطاع أن يسترد بجاية من الميورقيين بعد انتصاره عليهم فى موقعة الحمامة • وقد لقى على مصرعه فى هذه الواقعة ، وتولى بعده أخوه يحيى • أما أخوه عبد الله فقد عاد الى ميورقة ، فألفاها قد انتقضت عليه ودعى فيها للموحدين • واستطاع بفضل من تجمع حوله من أنصار ابيه بوادى الجزيرة أن يدخلها واستقر بها ، وجرى على سنن أبيه فى الغزو فلم يزل أمره كذلك حتى دخلها الموحدون سنة ٥٩٩ هـ (١٢٠٢ م) • وكان قائد أسطول الموحدين

فى هذه الغزوة أبو العلاء ادريس بن يوسف • وكان قائد الجيش أبو سعيد عثمان بن أبى حفص • فقصدا جزيرة ميورقة ، وفتحاها عنوة ، وقتلا عبد الله بن اسحق • وكان يحكم ميورقة فى ذلك الوقت أحد أتباع بنى غانية ، وهو الزبير بن نجاح ، فدخل الموحدون الجزيرة وقتلوه •

ولما اختل أمر الموحدين فى الأندلس ، وثار أهلها عليهم ، استقل بها محمد بن على بن موسى وكان هو السبب فى استيلاء النصارى على الجزيرة • ويذكر المخزومى فى تاريخ ميورقة أن سبب استيلاء النصارى عليها أن أميرها محمد بن على بن موسى أحد أعيانها وليها سنة ٦٠٦ هـ (١٢٠٩ م) ،واحتاج الى الخشب المجلوب من غابات يابسة ، فأنفذ طريدة بحرية وقطعة حربية ، فعلم بذلك حاكم طرطوشه فجهز اليها من أخذها، فعظم ذلك على والى ميورقة ، وحدث نفسه بغزو بلاد الروم •

وحدث فى آخر ذى الحجة سنة ٦٢٣ هـ (١٢٢٦ م) ، فى عهد أبى يحيى بن أبى عمر ان التينملى ، أن احتك المسلمون بالنصارى ، واستولوا على أحد مراكبهم الحربية • فلما بلغ ذلك ملك أرغون ، خايمى الأول ، عزم على محاربة المسلمين : فجمع جيشا كبيرا سيره الى جزيرة ميورقة فى سنة ٦٢٦ هـ (١٢٢٩ م) — وكانت ميورقة اذ ذاك تابعة لامارة بلنسية التى يسيطر عليها الأمير أبو جميل زيان بن مدافع ، ويحكمها من قبله أبو يحيى بن أبى عمران التينملى — فنزل النصارى الى الجزيرة من منطقة تعرف بالحربية الحزينة من جهة باب الكحل • وقد دافع المسلمون عن جزيرتهم بمنتهى الشدة والبسالة ، ولكنهم اضطروا الى التسليم فى النهاية فى ١٤ من صفر سنة ٦٢٧ هـ (١٢٢٩ م) • وقتل حاكم ميورقة ، وتحصن ابن‌سيرى وجماعة من فرسان ميورقة بأعلى الجبل ، وأخذوا يقاومون الأعداء حتى قتل ابن سيرى سنة ٦٢٨ هـ (١٢٣٠ م) •

ولما استولى النصارى على ميورقة ثار بجزيرة منورقة أبو عثمان

سعيد ابن حكم الأموى ــ وكان قد وليها من قبل الوالى أبى يحيى بن أبى عمران ــ وعقد صلحا مع النصارى مقابل أن يدفع لهم ضريبـــة معلومة ، ثم تولى بعده ابنه أبو عمر حكم بن سعيد سنة ٦٨٠ هـ (١٢٨٠ م) ٠ وفى عهده استولى ملك أرغون على الجزيرة ، وأجلى عنهـــا المسلمين فى سنة ٦٨٦ هـ (١٢٨٧ م) ٠

وهكذا ينتهى التاريخ الاسلامى لجـــزر البليار ٠ وتحتفظ ميورقة اليوم ببعض آثار المسلمين ٠ وأهم هذه الآثار باب عقده مزود بكوابيل بها شواكل ، فى شارع يعرف بشارع المدينة ، وكان هذا الباب ينفتح على القصبة ، ويطلق عليه قديما باب الكحل ، وأما اليوم فيعرف بباب سانتا مرجريتا ٠ كما تبقى بالقرب من هذا المكان آثار حمام ، ولا تعـــدو هذه الآثار غرفة مربعة الشكل تعلوها قبوة تنفذ فيها مضاوى ، ويحيط بالغرفة ممرات أربعة على عقود متجاوزة ٠

ولما كانت ميورقة جزيرة مسطحة تخلو من الارتفاعات ، فقد اهتم ملوكها المسلمون بتحصينهـــا ٠ وكانت تشتمل عـــلى حى أساسى يعرف بالمدينة ، تحيطه أسوار قصبتها التى تحمى الميـنـــاء ٠ ويحيـــط بالمدينة مركزان عمرانيان آخران ينتشران فى نصف دائرة حول المدينة : أحدهما يعرف بربض الباب الجديد ، أقيم فى النصف الأول من القرن الحـــادى عشر ، فى عهد أبى الجيش مجاهد (١٠٤٤ م) ٠ أما الآخر فيعرف بالربض الجديد ، أضيف الى المدينة فى السنوات الأخيرة من القرن الحادى عشر فى عهد مجاهد ، مباشر بن سليمان ، المشهور فى المدونات المسيحية بناصر لدولـــة ٠

وكان يحيط بميورقة سور مرتفع يتقدمه سور أمامى أقـــل ارتفاعا يفصل بينهما خندق ٠ ويتوسط المدينة مسجدها الجامع ، وبجواره قيسارية العطارين ٠ وكانت دار الصناعة تقع قريبـــا من البحر ، وأطلـــق عليها المسيحيون بعد فتح ميورقة اسم (Darazana)

مالقة

تتمتع مالقة ـ قاعدة كورة رية (اقليم Regio الرومانى) والثغر الأعظم بجنوب شرقى الأندلس ، بموقع رائع على البحر الابيض المتوسط وتشرف عليها من الشرق المنحدرات الوعرة بجبل فارو (1) الذى يبلغ ارتفاع قمته ١٧٠ متر . والى جنوب غربى هذا الجبل ، وفى مستوى أدنى منه ، ترتفع قصبة مالقة المنيعة على منحدر شديد الميل . وقد جددت هذه القصبة تجديدا شاملا فى وقتنا هذا . وكانت تشتمل على مسجد جامع أمر الأمير عبد الرحمن الداخل ببنائه على يدى معاوية بن صالح الحمصى، وكان ممن حضر وقعة مروان بن محمد ، فأنجاه الفرار ولجأ الى الأندلس

وكلمة مالقة العربية(Malaga بالأسبانية) مشتقة من الفعل العبرى (Malac' ، ويعنى التملك ، وان كان بعض الباحثين يرجحون اشتقاقها من الكلمة الفينيقية (Malaca) ، أو من الكلمة اليونانية (Malacos، وتعنى الرقة التى تذكرنا برقة مناخ مالقة .

ومدينة مالقة من تأسيس الفينيقيين الذين جاءوا من مدينة صور . ويغلب على الظن أن بناءها تم فى القرن الثانى عشر قبل الميلاد ، على أنقاض موضع أيبيرى . واستقر بمالقة جماعة من الفينيقيين المستعمرين الذين اشتغلوا بالتجارة مع أهل البلاد . وقد أقام هؤلاء المستعمرون لهم مرسى بحريا أدنى الجبل المطل على البحر . وأخذت مالقة فى النمو ، وأصبحت بالتدريج مركزا تجاريا وصناعيا هاما . ثم استولى الاغريق

---

(1) يعرف هذا الجبل اليوم باسم (Gibralfaro) وفى اعلاه حصن يغلب على الظن انه يونانى البناء ، ثم أعيد بناؤه فى العهد الاسلامى ، واحيط بالاسوار والابراج القوية . ويشرف هذا الجبل على خليج مالقة . وقد سمى بجبل فارو بسبب منار بناه الاغريق لهداية السفن .

عليها ، ومدوا نفوذهم على سائر المدن المجاورة • وخضعت مالقة بعد ذلك للقرطاجنيين الذين حصنوا المدينة القديمة ، وحسنوا ميناءها • ثم تمكن الرومان من قهر القرطاجنيين ، وازدهرت مالقة فى عهدهم ، وتفوقت على سواها من مدن الأندلس وثغوره •

ولما دخلت المسيحية شبه الجزيرة فى عهـــد الامبراطور كلوديو ، تعرض كثير من معتنقيها بمالقة للاضطهاد ، خاصة فى عهد دقلديانوس ، واستشهد كثيرون منهم أمثال سيرياكو والقديسة باولا • ولمـــا تعرضت اسبانيا الرومانية لغزوات السواف والآلان والوندال ، بقيت مالقة وفية لروما • ولكذها لم تصمد طويلا أمام القوط الغربيين ، واستسلمت للملك سسبوتو رغم ما كانت تتلقاه من معونة البيزنطيين •

وفى سنة ٧١٣ م تم فتح المسلمين لمالقة على يدى عبـــد الأعلى بن موسى بن نصير • وقيل انه لما حاصر مالقة،وكان ملكها ضعيف الرأى قليل التحفظ ، يخرج الى جنان له بجانب المدينة طلبا للراحة من غمة الحصار، نصب عين وتقديم طليعة ••• وعرف عبد الأعلى بأمره فأكمن لـــه ، فى جنبات الجنة التى كان يرتادها ، قوما من وجوه فرسانة ذوى رأى وحزم، أرصدوا له ليلا فظفروا به وأسروه،فاستولى المسلمون على المدينة عنوة•

ولسنا ندرى ما كانت عليه مالقة بعد الفتح الاسلامى • وكـــل ما نعرفه عنها أنها لم تتألق أو تزدهر فى عهد بنى أمية • فلما سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، وقامت دول الطوائف ، استقل بنو حمود بها ، وجعلوها مقرا لحكمهم •

وبنو حمود هؤلاء من عقب أدريس بن الحسن الذى أسس دولـــة الأدارسة فى فاس • وقد جاز منهم أخوان : هما على بن حمـــود وأخوه قاسم ، مع نفر من البربر ، العدوة الى الأندلس • فدعـــوا لنفسيهما ، وتجمع حولهما البربر بالأندلس ، وملكا قرطبة سنة ٤٠٧ هـ (١٠١٦ م) ،

بلكين ، مدينة غرناطة • وظلت مالقة خاضعة لتميم بن بلكين وكان شديد الجرأة ، بعيد الاعتدال ، وهو الذى أمر بصنع ثريــا من الفضة بمسجد مالقة • فلما جاز يوسف بن تاشفـــين الى الأندلس ، بعـد انتصاره على ألفونسو السادس ملك قشتالة فى واقعة الزلاقة ، وشرع فى خلع رؤساء الأندلس ، وبدأ منهم بعبد الله ملك غرناطة عام ٤٨٣ هـ (١٠٩٠ م) • ـــ بلغه استبداد تميم بأهل مالقة ، ووشى به الأمير أبو المطـرف الشعبى • فاضطر يوسف بن تاشفين الى خلع تميم عن حكم مالقة ونفـــاه فى بلاد السوس من المغرب ، ثم عفا عنه وأسكنه مراكش •

ظلت مالقة تدين بالـــولاء للمرابطين حتى ضعف أمرهـــم ، واتفق الناس على خلع دعوتهم • واستبد بالأمير القاضى أبو الحكم بن حسون الذى حاصر المرابطين بقصبة مالقة حتى أنزلهم منها بعـــد ستة أشهر ، وملك القصبة وانتقل اليها ، وتسمى بالأمـــير ، واستقل بهـــا • وكـــان المرابطون فى اتنقيرة يغيرون عليه فى مالقة ، فاضطر الى التماس عون ملك قشتالة مقابل اتاوة يدفعها له : فضيق على أهل مالقـــة حتى كرهـــوه ، واتفقوا مع أحد قواده ـــ ويعرف باللوشى ـــ على شق عصا الطاعة عليه• وتغلب اللوشى على أبواب المدينة ، واستولى على القصبة ، وقتله فى عام ٥٤٧ هـ (١١٥٢ م) ، وسلمها للموحدين •

ولما انقرضت دولة الموحدين ، ضم محمد بن يوسف بن هود مالقة الى مملكته بمرسية سنة ٦٢٥ هـ (١٢٢٧ م) • وأخيرا استولى محمد بن يوسف بن نصر ملك غرناطة على مالقة ، وندب صهره أبا محمد بن اشقيلولة لحكمها • وظل أبو محمد يحكم مالقة حتى توفى سنة ٦٧٦ هـ (١٢٧٧ م)• فتملكها أبو عبد الله محمد بن محمد ابن يوسف الملقب بالفقيه • وقـــد حاول ملك قشتالة سنة ١٣٤١ م أن يستولى على المدينة من البحر ولكنه فشل فى حملته • وتكررت المحاولة برا فى بسائط مالقة سنة ١٤٣٥ ، ١٤٣٧م فى عهد انريكى ملك قشتالة دون جدوى •

وفى عام ٨٨٧ هـ (١٤٨٢ م) تقـدمت جيوش قشتالة نحو مالقة — أعظم الثغور الأندلسية التى تبقت فى أيدى المسلمين ، والثغر الوحيد الذى تصل منه الامدادات من المغرب الى غرناطة — ودافعتها جيوش الأمير أبى عبد الله محمد بن سعد المعروف بالزغل • وفى هذا الوقت لجأ الى مالقة السلطان أبو الحسن بن سعد ملك غرناطة ، بعد أن ثار عليه أهلها ، وبايعوا بالسطة ابنه أبا عبد الله محمد• وكان النصارى يمنون أنفسهم بالقضاء على هذا الثغر المنيع ، فسيروا جيوشهم مرة أخرى فى صفر سنة ٨٨٨هـ (١٤٨٣) ، ولكنهم هزموا فى موقعة الشرقية هزيمة نكراء بفضل استبسال الزغل الذى تولى الحكم فيها بدلا من أخيه •

ولم تسكت قشتالة على هذه الهزيمة ، فسيرت جيوشها تجتاح أرض مالقة : فاستولت على رندة فى جمادى الأولى سنة ٨٩٠ هـ (ابريل ١٤٨٥م) ثم استولت على لوشة سنة ٨٩١ هـ (مايو ١٤٨٦ م) • وفى مارس عام ١٤٨٧ م سيرفرناندو الرابع ملك قشتالة قواته الى مدينة بلش التى تعد خط الدفاع الأمامى لمالقة وحصنها الأمنع ، فى الوقت الذى اشتغل فيه المسلمون بانقساماتهم الداخلية • وسقطت بلش فى أيدى الملكين الكاثوليكيين فى مايو سنة ١٤٨٧ ، بعد دفاع مجيد • وأصبح القشتاليون يهددون مالقة ، ثم عمدوا الى تجريدها من حصونها المجاورة ، فسقطت الواحد تلو الآخر ، ووصل بهم الأمر الى تطويقها من كل مكان • وفى يونيو سنة ١٤٨٧ اضطر المحاربون المالقيون الى الامتناع داخل أسوار المدينة • وكان حاكمها محمد بن سعد ، المعروف بالزغل ، غائبا عنها اذ ذلك • وكان يتولى الدفاع عنها قائدها الشهير حامد الثغرى الذى استبسل فى الدفاع عنها ، وتجالد وأبدى من ضروب الشجاعة ما شهد له به المسيحيون • وأبى المسلمون المحاصرون داخل المدينة وفوق قصبتها أن يستسلموا لأعدائهم ، وآثروا الموت على ذلك واستمر النصارى يشدون الحصار على المدينة من البر والبحر ، حتى انقطعت الأقوات ، وفتك بالناس الجوع والمرض ••• فلم يجد أهلها بدا من التسليم • فسلمت

وقتلا الخليفة سليمان المستعين ، وأزالا ملك بنى أمية . ثم ولى الخلافة على بن حمود الذى تلقب بالناصر ، وظل قائما بالخلافة حتى قتله بعض الصقالبة سنة ٤٠٨ هـ (١٠١٧ م) . فولى أخوه القاسم ، وتلقب بالمأمون. ونازعه الأمر ابن أخيه يحيى بعد أربع سنوات من خلافته .

وكان يحيى حاكما على مدينة سبتة ، فجاز الى الأندلس فى عـــام ٤١٠ هـ (١٠١٩ م) ، واحتل مالقة التى أصبحت منذ ذلك العهــد حاضرة دولة بنى حمود (١) . وكان ادريس أخوه يحكمها منذ عهد أبيهما ، فبعثه يحيى الى سبتة ، وزحف من مالقة الى قرطبة فاستولى عليها سنة ٤١٢ هـ (١٠٢١ م) وتلقب بالمعتلى . ثم عاد المعتلى الى مالقة بعد أن تملك عمه المأمون قرطبة عـــام ٤١٣ هـ (١٠٢٢ م) . ثم تغلب المعتلى على مناوئه ، واشتد أمره بعد أن أسلمت له الحصون والمدن ، ثم قتـــل سنة ٤٢٩ هـ (١٠٣٧ م) .

واستمر أمر بنى حمود بين صراع ونزاع وانقسام ، حتى انقرضت دولتهم ، واستولى على مالقة أبو مناد باديس بن حبوس بن ماكسن بن زيرى ملك غرناطة ٤٢٩ ــ ٤٦٦ هـ (١٠٣٧ ــ ١٠٧٣ م) ، بعد أن أخرج منها القاسم بن محمد الملقب بالمستعلى . واستولى المعتمد بن عباد ملك اشبيلية على الجزيرة الخضراء ، وفر منها حاكمهـــا الحمودى . وأعـــاد باديس بناء قصبة مالقة فيما بين عامى ١٠٥٧ ــ ١٠٦٣ م ، وأقام فيهـــا قصرا (١) ما زالت آثاره باقية الى يومنا هذا .

وعندما مات باديس تولى الحكم على مالقة من بعده حفيده أبو معد تميم بن بلكين بن باديس ، وحكم حفيده الآخر ، أبو محمــد عبد الله بن

---

(١) عثر فى مالقة على عدة عملات سكت بمالقة عليها نقش باسم يحيى .
(٢) يبدو أن باديس توسع فى بناء القصر الذى كان قد بناه على بن حمود . وآثار هذا القصر ترتبط ارتباطا وثيقـــا بالاسلوب الشائـــع فى عصر ملوك الطوائف .

مالقة بعد دفاع رائع استمر نحوا من ثلاثـــة شهـــور ونصف • واعتصم حامد الثغرى ورجاله البواسل بأعلى جبل فارو ، ولكنهـــم اضطروا فى النهاية الى التسليم • ودخلت جيوش قشتالة المدينة فى ١٨ من أغسطس سنة ١٤٨٧ ، ورفعوا الصليب المقدس بأعلى برج التكريـــم ، وحـــولوا المسجد الجامع بالمدينة الى كنيسة سانتا ماريـــا •

وكانت مالقة فى العهد الاسلامى أحدى القواعد الكبرى بالأندلس• وكانت مدينتها تمتد ما بين القصبة ورملة وادى المدينة (Guadalmedina) الذى ينبع من المرتفعات المجـــاوزة زمن الشتـــاء ويجف زمن الصيف • ويتوسط المدينة مسجدها الجامع بالقرب من البحر ، وتقوم عليـــه اليوم الكاتدرائية الحالية • ويرجع بناء هذا المسجد الى عهد الأمـــير محمد بن عبد الرحمن الأوسط ، وكان بيت الصلاة فيه يحتوى على خمس بلاطات• وكان بالمدينة مساجد كثيرة : منها مسجد العطارين ، ومسجد الغبـــار • ويذكر الحميرى أن للمدينة ربعا يعرف باسم فنتنالة ،كان يقع خارج باب، يقال له باب فتنالة ،ذكره ابن الأبار •

وقصبة المدينة تقع شرقيها ، ويحيط بها سور من الحجر ، وهى فى غاية الحصانة والمناعة • ويحيط بالمدينة سور فتحت فيه خمسة أبواب : منها باب يعرف بباب البحر ، وباب شرقى يعرف بباب الوادى ، وبـــاب جوفى يعرف بباب الخوخـــة • وكانت المدينة تزخـــر بالمبانى الفخمـــة والحمامات الحسنة والأسواق الجامعة الكثيرة •

وقد وصف ابن بطوطة مسجد مدينة مالقة بقوله : « ومسجدها كبير الساحة شهير البركة ، وصحنه لانظير له فى الحسن ، فيه أشجار النارنج البديعة » •

وكان يصنع بمالقة الفخار المذهب العجيب ، ويجلب منها الى أقاصى البلاد • وكان يصنع بها كذلك ــ كما ذكر ابن سعيد ــ الزجاج الغريب •

وقد وصفها الشقندى أبدع وصف حين قال : « وأما مالقــة فانها جمعت بين منظر البحر والبر بالكروم المتصلة التى لا تكاد ترى فيها فرجة لموضع غامر ، والبروج التى شابهت نجوم السماء ، كثرة عدد وضيــاء ، وتخلل الوادى الزائر لها فى فصلى الشتاء والربيــع فى سرور بطحائها ، وتوشيحه حضور أرجائها • ومما اختصت به من بين سائر البــلاد التين الريى المنسوب اليها لأن اسمها فى القديم رية ••• وفيهــا تنسج الحلل الموشاه التى تجاوز أثمانها الآلاف ، ذات الصور العجيبة المنتخبة برسم الخلفاء • وساحلها محط تجارة لمراكب المسلمين والنصارى » •

ومن أهم آثارها الاسلامية : القصبة التى ذكرناها آنفا ، وبداخلها قصر باديس ، وبقايا دار الصناعة من عهد بنى الأحمر •

غرناطـــــــــــة

لم تكن غرناطة مدينة ايبيرية قديمة ولا رومانية البناء ، وانما كانت مدينة اسلامية الانشاء • ولم تكن ، زمن التفتح الاسلامى سنة ٧١٢ م ، سوى قرية صغيرة افتتحها المسلمون عنوة ، وضمـــوا اليهود فيهـــا الى قصبتها ، ولعل ذلك كان سببا فى تسميتها بعد ذلك « باغرناطة اليهود » • ومنذ الفتح لم يعرها المسلمون اهتماما ، اذ استقر جند دمشق فى مدينة البيرة (١) ، التى أصبحت حاضرة كورة البيرة زمن أمية • وكانت غرناطة من مدن البيرة ، ولكنها أخذت تنمو شيئا فشيئا منـــذ القرن العـــاشر • وأصبحت فى أيام الفتنة التى تبعت سقوط الخلافة القرطبية مدينة كبيرة، اذ استولى البربر على البيرة وأحرقوها ، فخربت وخلت ، وانتقل أهلها منها الى غرناطة •

وبزعت شمس غرناطة ، وأصبحت حاضرة كورة البيرة ، ثم أخـــذ اسم غرناطة يسيطر تدريجا على الكورة أو الاقليم ، وأخيرا حـــل محل اسم البيرة •

وكان لموقع غرناطة ، على الضفة اليمنى لنهر شنيل ، واختراق نهر حدرة لها ، أثر كبير فى احاطة الجنان والبساتين بها • وكانت تشرف من

---

(١) البيرة مدينة تقع شمال غربى من غرناطة ، على سفح الجبل المعروف اليوم بسيرا البيرة ، وهى مدينة قديمة ايبيرية الأصل ، واسمها القديم الييرى (Eli berri) . وكانت البيرة عاصمة اقليم البيرة ، ونزلهـــا جند دمشق من العرب ، وكثير من موالى بنى امية زمن عبد الرحمن الداخل الذى عمرها بالابنية واسكنها مواليه . وجامع البيرة بنـــاه الأمير محمد على أساس حنش الصنعانى . وكانت البيرة من قواعد الأندلس الجليلة ولكنها ضربت فى عهد الفتنة ، وأحرقت وهجرها أهلها الى غرناطة التى حلت محلها ، ونالت ما كانت تتمتع به البيرة من مكانة سامية .

الناحية الجنوبية الغربية على سهل فسيح ، ويطل عليها من الشرق والغرب جبل شلير الذى يغطيه الثلج شتاء وصيفا ، فسمى بجبل سيرا نفادا : أى الجبل المكسو بالثلج . ونهر حدرة يشقها من أعلاهـا ، وينبع من جبل شلير ، وتلتقط مياهه — فى أثناء جريانها فى واديه شديد الانحدار — برادة من الذهب الخالص ، يجرفها النهر من الصخور التى تفتتها مياهه ، ولذلك سمى نهر حدرة تعريبا لكلمة « دى أورو » الاسبانية ، ومعناها «الذهبى» . وكان للمرتفعين اللذين يفصل بينهما نهر حدرة ، واللذين تقـوم عليهما مدينة السلاطين وحى البيازين ، أهمية استراتيجية عظيمة ، كان لها أثر كبير فى مناعة المدينـة .

ولما سقطت غرناطة فى أيدى البربر جعلهـا زاوى بن زيرى (سنة ١٠١٣ م) عاصمته ، ومدنها حبوس الصنهاجى وحصن أسوارهـا وبنى قصبتها العظيمة . وخلفه ابنه باديس فكملت فى أيامـه وعمرت . وكان لحكمه الطويل أثر كبير فى ازدهار المدينة واتساعها . وظلت غرناطة عاصمة بربر صنهاجة حتى استولى عليها المرابطون سنة ١٠٨٩ . وفى عهد هؤلاء الصنهاجيين أقيم القصر الملكى على المرتفع المشرف عـلى حى البيازين . وتروى بعض الروايات أن هذا القصر كان يعرف ببيت الديك ، نسبة الى دوارة هواء على شكل ديك كانت تتوجه من أعلاه .

ولم يتبق من غرناطة فى القـرن الحـادى عشر — أى فى عصر بنى زيرى — الا بقايا عقد كانت تقوم عليه قنطرة نهر حدرة ، تعـرف اليوم بقنطرة القاضى . ويقوم بجوار هذا العقد برج سداسى الشكل .

ويغلب على الظن أن المرابطين جعلوا غرناطة حاضرة لهم فى الأندلس ثم فتحها الموحدون سنة ١١٤٦ . وفى نهاية عهدهم نجح ابن هود ، ملك مرسية (سنة ١٢٣١) ، فى ضم غرناطة الى ملكه . وبعد وفاته سنة ١٢٣٧ ضمها اليه محمد بن يوسف بن نصر سيد حصن أرجونة وبسطة ووادى آش وشريش وجيان ومالقة ، وجعلها عاصمة مملكته . واختـار القصبة

الحمراء القائمة فوق المرتفع الأيمن لنهر حدرة .

وكانت اسبانيا الاسلامية اذ ذاك قد انكمشت رقعتها أمام الزحف الاسبانى لاسترداد المدن الاسلامية : فسقطت قرطبة سنة ١٢٣٦ ، ومرسية سنة ١٢٣٩ ، وأشبيلية سنة ١٢٤٨ ، فى أيدى النصارى . وكانت الأحوال السياسية تقتضى تأليف جبهة قومية تقف أمام الخطر الاسبانى المسيحى . فقامت مملكة غرناطة ، وعقد عليها أهل الأندلس آمالهم لانقاذ ما بقى من دولة الاسلام . ودامت مملكة غرناطة ما يقرب من قرنين ونصف من الزمان : بالرغم من الصراع غير المتكافىء بين النصرانية والاسلام ، وبالرغم مما عانته مملكة غرناطة من حروب داخلية . وكان توسل بنى الأحمر بسلاطين بنى مرين فى الجانب الآخر من الزقاق حينا ، ثم عقدهم محالفات سياسية مع ملوك قشتالة حينا آخر ، عاملا قويا فى اطالة أمد هذا الصراع .

وتوفى محمد بن يوسف عام ١٢٧٢ بعد أن ترك ملكا قويا يستطيع الصمود أمام الأعداء فى الوقت الذى اشتعلت فيه بينهم الفتن والانقسامات الداخلية .

وكان تقدم حركة الاسترداد الاسبانية فى قلب الأندلس ، وتقلص رقعة اسبانيا الاسلامية نتيجة لذلك ، قد أدى الى هجرة الأندلسيين من مدنهم التى استردها الاسبان الى مملكة غرناطة . وكان من بين هؤلاء اللاجئين المسلمين عدد كبير من الفنائين والصناع وأرباب الحرف ، ممن شردوا بعد سقوط مدنهم فى أيدى أعدائهم ، وأقاموا فى غرناطة ،واستغلوا كل بقعة من أرضها . فنهض فن الزخرفة . وأقام محمد بن يوسف قصبة الحمراء ، وبنى فيها برجى الطليعة والتكريم ، كما شرع فى بناء بعض الأسوار الضخمة .

وحرص خلفاء محمد بن يوسف على اتباع سياسة انتهاز الفرص

واحدا بعد واحد • وكانوا لا يترددون فى الاستنجاد ببنى مرين كلما احسوا شبح الاسترداد يهم بمملكتهم ••• وهكذا عبرت الزقاق الى الأندلس جيوش مراكش وفاس أكثر من مرة • ولكن سرعان ما يعود بعض سلاطين بنى نصر الى مخاصمة بنى مرين اذا وجدوا من هؤلاء خطرا على مملكتهم : فيتحالفون مع ملوك قشتالة ، ويقبلون دفع الاتاوة اليهم مقابل اسكاتهم عنهم •

وكان من أعظم سلاطين أسرة بنى نصر السلطان أبو الوليد اسماعيل الذى تولى سلطنة غرناطة فى عام ١٣١٣ م • وكان عهد اسماعيل عهد سلم واستقرار ، واستطاع أن يبلغ بمملكته درجة من القوة لم تبلغها من قبل• وانتصرت جيوشه على جيوش قشتالة قرب البيرة سنة ١٣١٩ ، واستولى على بياسة سنة ١٣٢٤ • ولكن خاتمته كانت أليمة ، اذ قتل فى يونيو عام ١٣٢٤ بخنجر قاتل مأجور •

ولم تسكت قشتالة على هزيمتها فى البيرة وبياسة ، وانتصرت جيوشها عام ١٣٤٠ على جيوش فاس وغرناطة مجتمعة فى واقعة نهر سلادو • وأراد سلطان غرناطة أن يتفادى الكارثة ، فعقد مع ملك قشتالة معاهدة صلح ، تقوم بمقتضاها هدنة بين الفريقين لمدة عشر سنوات مقابل اتاوة يدفعها السلطان •

على أن العصر الذهبى لدولة بنى نصر يبدأ بعهد أبى الحجاج يوسف الأول • فقد كان حاميا للآداب والفنون فأقام أول نواة لقصر الحمراء بما فيه برج قمارش ، والبرج المعروف بقصر متشوكة ، والحمام الملكى ، وباب الأسيرة ، ومصلى البرطل • وظل يوسف يحكم سنين كلها رخاء ، حتى قتل عام ١٣٥٤ ، وهو يؤدى الصلاة فى جامع الحمراء • وخلفه ابنه محمد الخامس الغنى بالله ، الذى أكمل فى الحمراء ما كان أبوه قد بدأه فيها • ثم تولى بعده ملوك ضعاف •

وكانت هذه الفترة الأخيرة للحكم الاسلامى فترة كلها نزاع وانقسام

بين أفراد أسرة بنى نصر وفى هذه الفترة تحددت أهداف سياسة قشتالة للقضاء على الاسلام فى الأندلس وتوحيد اسبانيا المسيحيـة ، وأخذت الحصون تسقط تباعا فى أيدى القشتاليين والمسلمون لاهون بمنازعاتهم الداخلية التى فتنت وحدتهم ، ومزقت قوتهم ٠ وانبعثت الفتن بين أفراد الأسرة المالكة ، وقامت الثورات تأييدا لأحدهم على الآخر .

وكان آخر حلقة فى سلسلة هذه الفتن ، ذلك الصراع بين أبى عبد الله محمد بن سعد ، المعروف بالزغل ، وابن أخيه السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن ، المعروف لدى الأسبان ببو أبديل (Boabdit) — أى أبو عبد الله — أو الملك الصغير (el rey chico) ٠ وفى هذا الوقت اكتسحت جيوش الملكين الكاثوليكيين ، فرناند الرابع وايزابلا ، بسائط غرناطة ، بعد أن استوليا على جبل طارق وأرشذونة والمرية ولوشة ومالقا، وضيقا الحصار على غرناطة نفسها ٠ وطال حصارهما علـى غرناطة فلم يبق لها الا التسليم ٠

وفى ٢ من يناير سنة ١٤٩٢ دخلت جيوش قشتالة الظافـرة مدينة غرناطة ، ورفعت راية القديس ياقب الى جانب صليب الجهاد الفضى على برج الطليعة من أبراج قصر الحمراء ٠ وسار أبو عبد الله المقهـور ، فى كوكبة من رجاله وأفرادأسرته ، فى شعب تل البـذول فى صمت حزين ٠ وألقى نظرة أخيرة على قصره الذى كتب عليه الخروج منـه ، وترقرقت الدموع فى عينيه ، ولم تلبث أن سالت على خديه ٠ فصاحت به أمه عائشة الحرة : « أجل فلتبك كالنساء ملكا لم تدافع عنه كالرجال ! » ٠ وأطلـق الاسبان على هذا الموضع اسم « زفرة العربى الأخيرة » ٠

كانت غرناطة تنقسم الى حى مركـزى منبسط فى اتساع يعـرف بالمدينة ٠ وكانت المدينة تشتمل على المسجد الجامع الذى تتفرع حـوله شبكة الطرق والدروب ٠ والى جوار الجامع تقع القيسارية التى ماتزال

قائمة الى وقتنا هذا (١) • وكان يباع فى هذه القيسارية الأقمشة والمنسوجات الحريرية وأدوات الزينة • وكان يحيط بالمدينة سور فتحت فيه أبواب : منها باب الرملة الذى كان لا يبعد كثيرا عن القيسارية ، ويعرف مكانة اليوم ببيب رملا (Bibramla) • وبداخل المدينة ، وبالقرب من المسجد الجامع ، كانت مدرسة غرناطة التى لا تختلف كثيرا عن مدارس فاس فى عهد بنى مرين ، وما زالت بقايا منها قائمة الى وقتنا هذا • وبالقرب من المدرسة كان الفندق القديم الذى لا يزال يعرف حتى اليوم بالكورال دى كاربون لأنه كان يباع فيه الفحم بكميات كبيرة •

ويحيط بالمدينة أحياء أخرى منها : حى السقاطين ، وحى أنتقيرة (٢)، وحى مورو ••• وهى أحياء ما زالت تحمل أسماءها العربية نفسها • والى خارج المدينة يقع ربضان مشهوران : ربض البيازين (١) ، وربض القصبة التى تضم قصر الحمراء وقصر جنة العريف • ويشرف ربض البيازين على وادى حدرة ، وتقابله من المرتفع الآخر قصبة الحمراء •

وتخلفت من عصر المسلمين بغرناطة آثار هامة : منها قصر الحمراء الشهير ، وقصر جنة العريف • ومنها القيسارية والمدرسة وفندق الفحم ، أحد فنادق مدينة غرناطة ، بواجهته البديعة التى تزخر بالزخارف والنقوش • ومنها مسجد البيازين ، ومئذنة جامع التوابين ، وأسوار البيازين ، والحمام المعروف بحمام اليهود ، وقصر عائشة الحرة ••• وغير ذلك من الآثار الجليلة •

---

(١) تهدمت القيسارية بغرناطة اثر حريق حدث سنة ١٨٤٣ وكانت تضم شوارع ضيقة مسقوفة فى اعلاها ، فتحت ابواب الحوانيت والمتاجر تحت اقواس مفصصة ومقصوصية ومكسوة بالفسيفساء والزليج والزخارف الجصية التى تشبه زخارف قصر الحمراء • وتقوم هذه الاقواس على أعمدة رخامية رشيقة •

(٢) هم اللاجئون المسلمون من مدينة انتقيره

ويشهد قصر الحمراء بغرناطة الأحداث التى مرت بـه ، وتروى قاعاته وأبراجه قصة هذا الصراع الأليم الذى انتهى بضياع الأندلس • وتعد حمراء غرناطة متحف الحضارة الأندلسية : ففيها وضع رجال الفن، من مسلمى الأندلس ، خلاصة فنهم وعصارة ما وصلت اليه عبقريتهم •

ومن أهم مزايا الفن الغرناطى أنـه فن دنيوى ، عـلى نقيض فن المرابطين • ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيـدى النصارى • وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته ، وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية شبح فى زخارفها وتنميقها الأبصار دون كلل أو ملل ••• بل أن هـذه الزخارف كانت تغطى جدرانـا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة •

وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية : هى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره ، والشك فى غده • وهكـذا كانت الأبنية التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لا مثيل لجماله • وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب مع هذه المتعة • ونجح عرفاء بنى نصر فى احداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة : فهذه النسمات المنعشة التى تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة ، والماء الذى ينساب بين الصخور ، والطيور التى تغرد على الأشجار وبين الأغصان ••• كل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا ، أو جنـة الله فى أرضـه ، ويحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لا يفكر فيه الا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات • وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شىء اعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقـة التى لا سبيل الى التغافل عنها ، وهى انتهاء دولة الاسلام فى الأندلس !

البـــاب الثـــانى

الفنون الاسلاميــة بالأندلســـــــــس

ما كاد العرب المحاربون فى اسبانيا يتمون فتح هـذه البلاد ، حتى أخذوا يلتمسون الراحة بعد المعركة ، ويجنون ثمار انتصارهم على دولة القوط الغربيين ... فاستقروا فى السهول ، وامتلكوا الاقطاعيات الواسعة واستعانوا بأهل البلاد فى الزراعة والصناعة : اذ كان المسالمة والمسيحيون الذين اكتظت بهم المدن يتقلدون المناصب الكبرى فى الادارة والدواوين ، ويحاكون العرب أنفسهم فى السهر على ما لديهم من تراث . وكان طبيعيا أن يؤلفوا العنصر الحضرى التقدمى المثقف ، كما كانوا يؤلفـون العنصر العامل المنتج ، عصب الحياة الاجتماعية . فلم يكن هنـاك فن اسلامى بمعنى الكلمة فى الفترة التى تبعت الفتح ، لأن العرب لم يحملـوا معهم سوى الدين واللغة ، فتوسلوا بالعنـاصر المحليـة فى بنـاء قصورهم ومساجدهم ، وصناعة ما يحتاجون اليه .

وكانت اسبانيا الاسلامية ، فى عصر الولاة ، استمرار لاسبانيـا القوطية ... فيما عدا تغييرها غازيا بغاز . فقد ظل الصناع ، وأصحاب الحرف ، يسيرون فى طريقهم الذى كانوا يسيرون فيه من قبل ، مع تغيير طفيف ، هو تكييف منتجاتهم الفنية وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد ومـا يستلزمه الدين الاسلامى . وما لبث أن وجد هؤلاء الصناع وأصحـاب الحرف أنفسهم مضطرين الى مشاركة المسلمين فى حياتهم ، وافتتنوا بكل ما هو شرقى ، وأقبلوا يعملون على بث مظاهر الرقة للثقافـة المستعربة السامية على الثقافة اللاتينية ، وتحققت بذلك النقلة .

ثم أتت الفترة التى انصهرت فيها جميع هذه المظاهـر الفنية تحت سلطان الخلافة القرطبية فى القرن العاشر . وصيغ من ذلك أسلوب فنى جديد ، يختلف كثيرا عن الأساليب المعروفة فى الشام ومصر والعـراق ، وان كان من اليسير الاحساس برابطة قوية تدل عليها جميعا .

ومنذ ذلك الحين نبتت بذور الفن الاسلامى بالأندلس . وما لبث أن

ترعرع فى العصور التالية حتى وصل ذروة نضارته فى عصـــر بنى نصر ، بفضل ما تلقاه من تأثيرات بيزنطية وشرقية لم تنقطع عن اثرائه منذ عصر الخلافة • ثم هاجر هذا الفن الى المغرب ، بعد أن طرد من بلاده التى ولد فيها على أثر الاسترداد المسيحى ، وقدر لـــه أن يقضى فيـــه الباقية من حياته •

أولا : فن الغنـــاء والموسيقى بالأندلس

فن الغناء ـــ على حد تعريف ابن خلدون ـــ تلحين الأشعار الموزونة، بتقطيع الأصوات على نسب منتظمة معروفة ، يوقع على كـل صوت منها توقيعا عند قطعه فيكون نغمة ، ثم تؤلف تلك النغم بعضها الى بعض على نسب متعارفة ، فيلذ سماعها لأجل ذلك التناسب • وقـد يصحب هـذا التلحين فى النغمات الغنائية تقطيع أصوات أخرى ، اما بالقرع واما بالنفخ فى الآلات المتخذة لذلك ، فيحدث من ذلك لذة عند السماع •

ويرى ابن خلدون أن الغناء يحدث فى العمران اذا تجـاوز حـد الضرورة ، فانه لا يرغب فى هذه الصناعة الا من فرغ من جميع حاجاته الضرورية ، ولا يطلبها الا الفارغون عن سائر أحوالهم ، تفننا فى مذاهب اللـــذة •

وكان فن الغناء مقصورا عند العرب ـــ فى جاهليتهم ـــ على حدائهم للابل • وكانوا يسمون الترنم غناء اذا كان بالشعر • فلما ظهر الاسلام ، وفتح المسلمون بلاد فارس والشام ومصر ، وغلبت على العـرب حياة الترف والرقة ، وتفرغوا لملاذ الحياة ونعيمها ••• استلهمـوا موسيقى الفرس والروم • واشتهر بفنون الغناء والموسيقى الموالى دون العرب ، وقدم المغنون الفرس والروم الى الحجاز « وغنوا بالعيـدان والطنابير والمعازف والمزامير » ، وظهر بالمدينة نشيط الفـارسى وطويس وسائب جاثر ••• ثم أخذ عنهم معبد المغنى وابن سريج وابن المسجح • وازدهر فن الغناء والموسيقى فى عصر الدولة العباسية ، وبلـغ ذروته فى عهـد الرشيد : فنبغ ابراهيم الموصلى وابنه اسحق وابنه حماد ، واتخذت آلات للموسيقى ، وأخرى للرقص تسمى بالكرج •

أما الأندلس فقـد كان أهلهـا بطبعهم يحبون اللهـو ، ويغرمون

بالغناء (١) • وقد نقل عنهم ابن غالب الأندلسى ، صاحب كتاب « فرحة الأنفس » : « وأهل الأندلس عرب فى الانساب والعزة والانفة وعلو الهمم ، وفصاحة الألسن ، وطيب النفوس ، واباء الضيم وقلة احتمال الذل ، والسماحة بما فى أيديهم ، والنزاهة عن الخضوع واتيان الدنية » • ثم عد من فضائلهم اختراعهم للموشحات التى استحسنها أهل المشرق ، وصاروا ينزعون منزعها • وقد ازدهر عندهم فن الغناء والموسيقى ، وألفوا فيه التواليف الكبرى • والى أبى بكر بن باجة الغرناطى تنسب الألحان المطربة بالأندلس • وليحيى الخدج المرسى كتاب الاغانى الأندلسية ، على نحو كتاب الاغانى لابى الفرج الأصفهانى •

الذهبى فى فن الغناء • فقد كان شاعرا اديباً ، بعيد الهمة والغايات • وهو
الذهبى فى فن الغناء • فقد كان شاعرا أديباً ، بعيد الهمة والغايات • وهو
أول من اتخذ رسوم الخلافة وأبهتها ، ورتب الدواوين ، وجمل القصور ، وأنشأ دار الطراز ، ورفع من شأن مملكته ، وجعل من قرطبة عاصمة

---

(١) يروى المقرى فى كتابه « نفح الطيب بن غصن اندلس الرطيب » أن أبا الاصبغ عبد العزيز بن الخليفة عبد الرحمن الناصر ، كان مغرما بالخمر كلفا بالغناء . وحدث أن انقطع عن الخمر ، فسر أخوه المستنصر بالله الحكم لما بلغه تركه للخمر ، وتمنى أن يترك الغناء لاهل الغناء . فلما سمع بذلك ابو الاصبغ قال : «والله لا تركته حتى تترك الطيور تغريدها»

ومما يثبت شغف أهل الأندلس بالغناء والموسيقى ، النقوش المحفورة فى علب العاج الأندلسية ، وهى نقوش تمثل مجالس الطرب والموسيقى وتصور بعض الآلات الموسيقية — مثل المزمار والعود — فى أيدى موسيقيين . ويتجلى فى أحد هذه النقوش خليفة من خلفاء بنى امية ، وقد طرب طربا شديداً عند سماعه غناء تصحبه الموسيقى . وتعبر هذه الصورة وتنطق فى جلاء عن ولع الخلفاء الأندلسيين بفنى الغناء والموسيقى .

جديرة بالخلافة ، واستقدم المغنين والمغنيات الى الأندلس ، وأجزل لهم العطاء ، وأجرى عليهم الرواتب . فتطعم فن الغناء بالأندلس بالتقاليد البيزنطية المحلية الموجودة أصلا فى اسبانيا ، بالاضافة الى التقاليد المشرقية التى أخذت تفد فى موجات من المشرق العباسى منذ عهد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل (٧٥٥ — ٧٨٩ م) .

وقد وفد من المغنيات فى عصره المغنية « فضل » المدنية ، وكانت حاذقة بالغناء كاملة الخصال . وأصلها لاحدى بنات هارون الرشيد ، ونشأت وتعلمت ببغداد ، ودرجت من هناك الى المدينة حيث أتقنت فن الغناء ، واشتريت من هنالك للأمير عبد الرحمن الداخل مع زميلتها «علم» المدنية . وقد أسس الأمير الأموى لهؤلاء المغنيات دارا بقصره تعرف بدار المدنيات . وكان يؤثرهن لجودة غنائهن ، ونصاعة ظرفن ، ورقة أدبهن .

كذلك اشتهرت احدى جوارى هذا الأمير بالغناء ، وتعرف « بلقم » المغنية . وكانت أندلسية الأصل ، رومية من سبى البشكنس ، وحملت صبية الى المشرق ، وبيعت بالمدينة . وهناك تعلمت فن الغناء ، وحذقته . وكانت — الى كونها مغنية — أديبة ذاكرة ، حسنة الحفظ ، راوية للشعر ، حافظة للأخبار ، عالمة بضروب الآداب . وكان بقرطبة ، فى عهد عبد الرحمن الداخل ، مغنية شهيرة اسمها « العجفاء » المغنية ، كانت جارية مسلم بن يحيى ، مولى بنى زهرة ، فاشتراها الأمير وضمها الى مغنياته .

وكان أول من دخل الأندلس من المغنين : علون وزرقون ، فى عهد الأمير الحكم بن هشام (٧٩٦ — ٨٢١ م) . واشتهر فى عهده منصور اليهودى المغنى .

وسما فن الغناء والموسيقى ، وارتقى فى عهد الأمير عبد الرحمن بن الحكم المعروف بالأوسط) ٨٢١ — ٨٥٢ م (، بوفود المغنى أبى الحسن على بن نافع ، الملقب بزرياب ، الى الأندلس . وقد عقد المقرى فى كتابه

« نفح الطيب » فصلا طويلا عنه ، وذكر رواية ابن حيان فى المقتبس فيما يختص بهذا المغنى ، وقال أن زرياب لقب غلب عليه ببلاده من أجل سواد لونه مع فصاحه لسانه وحلاوة شمائله ، وشبه بطائر أسود غرد عندهم ، وكان شاعرا مطبوعا • وأصل زرياب عراقى ، وكان مولى المهدى العباسى، كما كان تلميذا للمغنى والموسيقى العظيم اسحق الموصلى ، رئيس الموسيقيين المغنين فى بلاط الرشيد ببغداد •

وقد نبغ زرياب فى فن الألحان على يد أستاذه اسحق الموصلى ، وتميز بفهم هذا الفن وصدق العقل مع طيب الصوت ، فتفوق على أستاذه اسحق دون أن يدرى هذا الى أى درجة من اجادة وصل تليمذه •

فلما سأل الرشيد اسحق أن يأتيه بمغن جديد ، مجيد للصنعة لم يشتهر اسمه ، ذكر له اسحق اسم زرياب ، وأثنى عليه أمام الخليفة ، وذكر له أنه من اكتشافه ، وأحضره أمام الرشيد • فطلب منه الرشيد أن يتناول عود أستاذه ويغنى على نغماته ، فامتنع زرياب ، وأصر على أن يعزف على عوده الخاص • فلما سأله الرشيد عن الفارق بين عوده وعود أستاذه ، أجابه زرياب : « عودى وأن كان فى قدر جسم عوده ، ومن جنس خشبه ، فهو يقع من وزنه فى الثلث أو نحوه ، وأوتارى من حرير لم يغزل بماء ساخن يكسبها اناثة ورخاوة ، وبمها ومثلثها اتخذتهما من مصران شبل أسد ، فلها فى الترنم والصفاء والجهارة والجدة أضعاف ما لغيرها من مصران سائر الحيوان ، ولها من قوة الصبر على تأثير وقع المضارب المتعاورة بها ما ليس لغيرها » • عندئذ أمره الرشيد بالغناء فغناه :

يا أيها الملك الميمون طائره
هارون راح اليك الناس وابتكروا

وطرب الرشيد طربا شديدا ، وأوصى اسحق به حتى يفرغ من

مشاكله له . فسقط فى يد أسحق ، وثارت به الغـيرة والحسد من زرياب وخلا بزرياب بعد انتهاء المجلس ، وهدده بالموت أو مغادرته البلاد فورا. وقال له بين ما قاله : « عن قليل تسقط منزلتى وترتقى أنت فوقى ، وهذا ما أصاحبك عليه . ولولا أنك ولدى ، ولولا رعيى لذمة تربيتك ، لما قدمت شيئا على أن أذهب نفسك ، فتخير فى اثنتين لابد لك منهما : أما أن تذهب عنى فى الأرض العريضة ، لا أسمع لك خبرا بعد أن تعطينى عـلى ذلك الأيمان الموثقة ، وأنهضك لذلك بمـا أردت من مـال وغيره . وامـا أن تقيم على كرهى وغمى مستهدفا الى . فخذ الآن حذرك منى فلست والله أبقى عليك ، ولا أدع اغتيالك باذلا فى ذلك بدنى ومالى ، فاقض قضاءك». وكان زرياب ذكيا فأدرك فى الحال أنه لن يقف أمام اسحق ، فآثر أن يفر بنفسه وأولاده ، ورحل الى المغرب .

وكان الحكم بن هشام قائما بأمـر الأندلس اذ ذاك ، فكتب اليـه زرياب ذاكرا مكانته فى الغناء ، واختياره لبلاطه . فاستدعاه الحكم مرحبا به . وسار اليه زرياب بأولاده ، وعبر الزقـاق الى الجزيرة الخضراء . وأوفد اليه الحكم مغنيه منصور اليهودى لاستقباله ..فلم يزل زرياب بالجزيرة الخضراء حتى بلغه وفاة الحكم ، فهم بالعودة الى العدوة ، لولا أن ثناه عن ذلك رسول الحكم اليه ، ونصحه بالكتابة الى عبد الرحمن بن الحكم ... ففعل . وجاءه كتاب عبد الرحمن يرحب بمقدمـه . وخرج الأمير بشخصه لاستقبال زرياب ، وأكرم وفادته ، وأنزله فى دار من أعظم الدور بقرطبة ، وحمل اليها جميع ما يحتاج اليه ، وأجزل عليه العطـاء ، ورتب له ولأفراد أسرته الرواتب والاقطاعات . وبدأ بمجالسته على النبيذ وسماع غنائه ، فما ان سمعه حتى كره كل غناء سواه ، وقدمه على جميع المغنين فى بلاطه ،وأدنى منزلته ، وفتح له بابا خاصا فى قصـره يستدعيه منه متى شاء .

وقد أثبت زرياب حذقا كبيرا فى الموسيقى ، وجدد فى الألحان تجديدا

لم يعرفه أحد من معاصريه . وذكر أنه ادعى أن الجن كانت تعلمه الألحان . وكان يهب من نومه سريعا فيدعو جاريتيه غزلان وهنيدة فتأخذان عوديهما ويأخذ هو عوده ، ويطارحهما ليلته ، ثم يكتب الشعر ويعود الى مضجعه .

وأسس زرياب مدرسة فى الغناء والموسيقى بقرطبة ، ووضع الأسس القوية التى قامت عليها الموسيقى الأندلسية ، والتى فاقت كل ما عداها فى الشرق والغرب . وكان له تلاميذ استطاعوا أن ينهجوا سبيله فى هذا الفن . وكان اذا تناول الالقاء على تلميذ يعلمه ، أمره بالقعود على الوساد المدور ، وأن يشد صوته جدا اذا ما كان قوى الصوت . فان كان لينه أمره أن يشد على بطنه عمامة ، فان ذلك مما يقوى الصوت ، ولا يجد متسعا فى الجوف عند خروجه من الفم . فان كان ألصق الأضراس لا يقدر على فتح فمه ، أو كانت عادته زم أسنانه عند النطق ، راضه بأن يدخل فى فمه قطعة خشب عرضها ثلاث أصابع يبيتها فى فمه ليالى حتى ينفرج فكاه . وكان اذا أراد أن يختبر المطبوع الصوت المراد تعليمه من غير المطبوع ، أمره أن يصيح بأقوى صوته : ياحجام ، أو يصيح : آه ، ويمد بها صوته ، فان سمع صوته بهما صافيا نديا قويا لا تعتريه غنة ولاحبسة ولا ضيق نفس ، عرف أنه سوف ينجب ، وأشار بتعليمه ، وان وجده خلاف ذلك أبعده .

ونبغ من تلاميذه أولاده الثمانية الذكور وبنتاه عليه وحمدونة ، وكلهم مارس الغناء . كما أجاد من جواريه « متعة » التى أدبها وعلمها أحسن أغانيه حتى شبت ، وكلف بها الأمير عبد الرحمن ابن الحكم ، فأهداها ليه زرياب . وكذلك أخذت عنه الغناء جارية الكاتب أبى حفص عمر بن قلهيل ، وكانت غاية فى طيب الصوت .

وقد أورث زرياب صناعة الغناء بالأندلس . ويذكر ابن خلدون « أنه طما من صناعة الغناء باشبيلية (١) بحر زاخر ، وتناقل منها بعد

(١) اشتهر بالغناء فى اشبيلية : أبو بكر الاشبيلى والمغنى السوسى .

ذهاب غضارتها الى بلاد العدوة بافريقية والمغرب ، وانقسم على أمصارها وبها الآن (القرن ١٤ م) منه صبابة على تراجع عمرانها وتناقص دولها » وما زالت آثار الموسيقى الأندلسية موجودة اليوم بمراكش ، وتعرف « بموسيقى الأندلس » .

وكان أهل الأندلس يغنون القصائد الشعرية الى أن ابتكرت الموشحات ، وهى شعر عربى بنى على أغنية شعبية شائعة بالرومانسية (أى اللاتينية الحديثة) . وكان الموشح ينظم أسماطا أسماطا وأغصاناً يكثرون منها ومن أعاريضها المختلفة . وكان الجزء الأخير من الموشحة — وهو الذى يتضمن ألفاظا رومانسية — يعرف بالخرجة .

وقد شرح ابن بسام فى الذخيرة معنى الموشحة فقال : « وهى أوزان كثر استعمال أهل الأندلس لها فى الغزل والنسيب ، تشق على سماعها مصونات الجيوب ، بل القلوب . وأول من صنع أوزان هذه الموشحات بأفقنا واخترع طريقتها — فيما بلغنى — محمد بن حمود القبرى الضرير (١) . وكان يصنعها على أشطار الأشعار ،غير أن أكثرها على الأعاريض المهملة غير المستعملة : يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمين فيها ولا أغصان . وقيل ان ابن عبد ربه صاحب كتاب « العقد » أول من سبق الى هذا النوع من الموشحات عندنا . ثم نشأ يوسف بن هارون الرمادى ، فكان أول من أكثر فيها من التضمين فى المراكيز ، يضمن كل موقف عليه فى المركز خاصة . فاستمر على ذلك شعراء عصرنا : ككرم بن سعيد ، وابنى أبى الحسن . ثم نشأ عبادة القزاز (٢) فأحدث التغيير ، وذلك أنه اعتمد مواضع الوقف

---

(١) هو مقدم بن معافى القبرى (وفقا لابن خلدون) ، وكان شاعرا من شعراء الامير عبد الله بن محمد المروانى . وقد أخذ عنه أحمد بن عبد ربه صاحب كتاب العقد الفريد .

(٢) هو عبادة بن ماء السماء شاعر المعتصم بن صمادح ملك المرية .

فى الأغصان فيضمنها ، كما اعتمد الرمادى مواضع الوقف فى المركز » •

وقد أعجب أهل الأندلس بالموشحات ، وأخذوا بها ، واستظرفوها : لسهولة تناولها ، وسرعة حفظها ، وسلاستها ، وتنميق كلامها • وكانت الموشحات تغنى مع نغمات الموسيقى •

وقد ازدهر فن الموشحات فى عصر ملوك الطوائف ، واشتهر من الوشاحين فى ذلك الوقت أبو عبد الله بن أرفع رأسه شاعر المأمون بن ذى النون ملك طليطلة • ونبغ من الوشاحين فى عهد المرابطين : أبو العباس الأعمى التطيلى ، ويحيى بن بقى ، وأبو بكر بن الأبيض ، والحكيم أبو بكر بن باجة صاحب التلاحين •

ثم استحدث أبو بكر بن قزمان القرطبى فنا جديدا فىالشعر الشعبى هو الزجل ، وخلفه فى صناعة الزجل عبد الله بن الحاج ، المعروف بمدغليس •

وكثر عدد المغنين والمغنيات فى بلاط ملوك الطوائف • واشتهرت اشبيلية بالخلاعة واللهو وحب الموسيقى والغناء ••• حتى أنه قيل : « اذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه حملت الى قرطبة حتى تباع فيها • وان مات مطرب بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت الى اشبيلية » • وكانت طريانة من اشبيلية موطنا للطرب واللهو ، يقصده الشعراء والمغنون فيشربون ويطربون •

ويصف الفتح بن خاقان ما كان يفعله المستعين بالله ملك سرقسطة فى نزهه « حين يقصد المتنزهات راكبا النهر ، يريد طراد لذاته وارتياد نزهته، ويجتمع مع أصحابه ••• وقد أحضر من آلات ايناسه ، وأظهر أنواع ذلك أجناسه ، ما راق من حضر ، وفاق حسنه الروض الأنضر • والزوارق قد حفت به والتفت بجوانبه ، ونغمات الأوتار تحبس السائر عن عدوه ،

وتخرس الطائر المفصح بشدوه ، والراح لا يطمس لها لمع ، ولا يبخس منها بصر ولا سمع » •

أما أدوات الطرب وآلاته بالأندلس فكثيرة ويذكـر ابن خلدون أن منها ما يسمونه الشبابة ، وهى قصبة جوفاء مزودة بأبخاش (فتحات) فى جوانبها معدودة ، وينفخ فيها فتصوت ، ويخرج الصوت من جوفها على سدادة من تلك الأبخاش ، ويقطـع الصوت بوضع الأصـابع على تلك الأبخاش وضعا متعارفا ، حتى تحدث النسب بـ ين الأصوات فيه •

والمزمار من نوع هذه الآلة نفسها ، ويسمى أحيانا الزلامى ، وهو شكل القصبة منحوتة الجانبين من الخشب ، جوفاء من غير تدوير لأجل ائتلافها من قطعتين منفردتين • والمزمار مزود كذلك بأبخاش ينفخ فيها بقصبة صغيرة •

ومن آلات الـزمر بالأندلس الشفرة والنورة ، وهمـا مزمازان : أحدهما غليظ الصوت ، والآخر رقيقه • ويعد البوق بالاسبانية Albogue) أفضل هذه الآلات ، وكان يتخذ من نحاس أجوف فى مقدار الذراع « يتسع الى أن يكون انفراج مخرجه فى مقدار دون الكف ، فى شكل برى القلم »• وينفخ فيه بقصبة صغيرة تؤدى الريح من الفم اليه ، فيخـرج الصوت قويا غليظا ، وفيه أبخاش كذلك •

ومن آلات الطـرب : الآلات الوتريـة ـــ أى المزودة بالأوتـار المشدودة ـــ وهى كثيرة متعددة : منها ما كان مستدير الشكل مثل الكريج (بالاسبانية Carrizo) • والعود (بالاسبانية Alaud) والروطة (بالاسبانية Rota)، والقتـار (بالاسبانية Guitarra)) ، والكثير (بالاسبانية Citara) والرباب (بالاسبانية Rabel) •
ومنها ما كان على شكل مربع : كالقانون والمؤنس •

وفى كل هذه الآلات الوترية تشد الأوتار على سطحهـا من جانبيها الى دساتر (مفاتيح) جائلـة ، حتى يتمكن الموسيقى من شد الأوتـار ورخوها عند الحاجة الى ذلك بادارتها • ثم تقرع الأوتار اما بعود آخر ، واما بوتر مشدود بين طرفى قوس ، يمر عليها بعـد أن يطلى بالشمع • ويقطع الصوت فيه بتخفيف اليد فى امراره أو نقله من وتر الى وتر • واليد اليسرى مع ذلك — فى جميع آلات الأتار — توقع بأصابعها على أطراف الأوتار فيما يقرع أو يحك بالوتر ، فتحدث الأصوات متناسبة متناسقة •

وقد استحدث زرياب بالأندلس مضرابا للعود صنعـه من قوادم النسر ، معتاضا بـه عن مرهف الخشب ، فأبـدع فى ذلك ، للطف قشر الريشة ، ونقائه وخفته على الأصابع ، وطول سلامـة الوتر على كثرة ملازمته •

وكانت بالأندلس آلات موسيقية أخرى : مثل الـدف (بالاسبانية Adufe) ، وأقوال ، وهى الطبول والطسوت التى تقـرع بالقضبان • وتصحب الموسيقى عادة آلة تصفق ، تعرف بالصنجات •

وقد ابتكر زرياب وتر جديدا أضافه الى أوتار عودة الأربعة ، وهى الزير والبم والمثنى والمثلث كل منها يرمز الى طبـع من طبائـع النفس البشرية • وكان هذا الوتر الخامس وسطا بين الهادىء والحاد ورمز لـه بالروح ، وسمى صول (Soul)

وقد استخدم زريـاب ، لأول مرة ، جماعـة من المغنين يعرفون بالمنشدين (كورس) ••• كانوا يرددون معه بعض المقاطع فى الأغنيات وما زالت آثار زرياب باقية الى يومنا هذا ،فى الموسيقى والغناء الأندلسى، فى غناء السجيريا التى يغنيها النوريون بالأندلس ، وهى أغـان حزينة تبعث على البكاء ، وكذلك فى السوليارس • وكانت عادة المغنين والمغنيات الأندلسيين أن يبدأوا الغناء بجس اللحن ، فيغنون لذلك جملة من الأغنية،

وهو ما يفعله الأندلسيون اليوم حين يبدأون أحيانا بالمقطع الآتى :

Ay, Ay, Ay, o jirio mio!

آه ، آه ، آه يا حبيبى

ويؤكد ريبيرا وأنطونيو آرفالو أن الغناء الأندلسى المعروف اليوم بالفلامنكو ، ليس الا أثرا من آثار الغناء الأندلسى الاسلامى .

ثانيا العمارة الدينيــة بالأندلـــس

ما كاد الفاتحون المسلومن يلفون عن كواهلهم عدد الحرب وآلاته ، حتى أخذوا يلتمسون الراحة بعد المعركة ، ويجنون ثمرات انتصاراتهم •• فحرصوا على الاستمتاع بحياة الترف ، واحاطة أنفسهم بكــل مظاهر الأبهة • وبهرتهم تلك الأبنية السامقة التى بناها الرومان فى أسبانيا بماردة وشقوبية وطالقة • وكان لا بد لهم أن يقيموا لأنفسهم أبنية تضارع تلك الأبنية بهاء وروعة : فشملوا رجال الفن والبنـــاء من الاسبان برعايتهم ، واستخدموهم فى تشييد عمائرهم وزخرفتها بعـــد أن كيفوها وفقا لمـــا يقتضيه دينهم وتقاليدهم •

وكان المسلمون حديثى عهد ببلاد الأندلس • وكان من الطبيعى أن يجهلوا مصادر استيراد الرخام والحجر وغيرها من مواد البناء ، فاضطروا الى استغلال العمائر القديمة المهدمة فى أبنيتهم الخاصة • وهكـــذا جدد والى الأندلس ، السمح بن مالك الخولانى ، بناء قرطبة سنة ١٠١ هـ (٧١٩) من أحجار سور المدينة الرومانى • وقيل « انه كانت فى هذا المكان قنطرة من بناء الأعاجم ، قبل دخول العرب بنحـــو مائتى سنة ، وأثرت فيهـــا الأزمان بمكابدة المدود ، حتى سقطت حناياها ، ومحيت أعاليهـــا ، وبقيت أرجلها وأسافلها • وعليها بنى السمح فى سنة احدى ومائة » •

وما كاد عبد الرحمن بن معاوية يظفر بامارة الأندلس ، ويستقيـــم أمره بها ، حتى شرع فى تجديد ما طمس لبنى أمية بالمشرق من بهاء الخلافة وعظمتها ، فبنى المسجد الجامع وقصر الامارة بقرطبة •وكان يحن دائما الى دمشق مسقط رأسه (١) ، فأقام منية الرصافة شمال غـــربى قرطبة ،

---

(١) كان عبد الرحمن الداخل ينظم ابياتا من الشعر فيهـــا حنين متواصل لارض الشام وفيها احساس بالغربة عن وطنه وبعد قط رأسه منها قوله:

أقام بقرطبة قصرا سماه بالدمشق ، وأبدع بناءه ، وقلد به قصر أجداده وبنى بها قصرا رائعا حاطه بالجنان والبساتين ، واتخذه لنزهه ، وكذلك بالمشرق .

وبدأ فن العمارة بالأندلس ينمو منذ ذلك العهد مع نمو المجتمع ، تغذيه تقاليد مشرقية وفدت اليه مع الوافدين من الشام ، وتقاليد مغربية ومحلية وما لبث أن ترعرع هذا الفن فى عصر الخلافة بقرطبة ، وأخذ يتسع تأثيراته فى مجالات بعيده . فقد أدركت تأثيرات العمارة الأندلسية شمالى اسبانيا وجنوبى فرنسا ، وانطلقت نحو المشرق ، فتغلغلت فى نظم العمارة السائدة ببلاد المغرب ومصر . ثم استكمل نضارته ونضوجه فى عصر ملوك الطوائف ، ثم تطورت هذه العمارة وتحولت — فى عصر بنى نصر — الى عمارة زخرفية بحته كما نشهدها فى قصر الحمراء .

ومازال فن العمارة الأندلسى هو الفن السائد فى عمائر بلاد المغرب الى وقتنا هذا ، اذ هاجر — بعد سقوط غرناطة — من مسقط رأسه ، واستقر ببلاد المغرب . ومع ذلك فقد ترك فى أرض الأندلس آثارا عميقة

= أيها الراكب الميمم ارضى
اقر منى بعض السلام لبعضى
أن جسمى كما تراه بأرض
وفؤادى ومالكيه بأرض

ومن قوله فى وصف نخلة وحيدة تبدت له فى منية الرصافة ، فأثارت فيه آلام الابعاد عن وطنه فقال :

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت : شبيهى فى التغرب والنوى
وطول ابتعادى عن بنى وعن أهلى
نشأت بأرض انت فيها غريبة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثلى

فى أسلوب البناء ... فان الأسلوب الشائع فى أبنية الأندلس ، فى وقتنا هذا ، يحتفظ بالطابع الاسلامى الذى حاول ملوك اسبانيا المسيحية عبثا محوه وازالته ، بفرض أساليب قوطية ورومانية .

ولا شك أن الفضل فى بقاء هذا الطابع الاسلامى بأسبانيا ، فى الوقت الحاضر ، يرجع الى تأصيل الصبغة الاسلامية ما يقرب من ألف سنة فى كيان اسبانيا الاجتماعى والفكرى والاقتصادى . وكذلك يرجع الى تفوق فن العمارة الأندلسى على سائر فنون العمارة بأسبانيا ، وتوافقه مع حاجات سكان الأندلس .

* • *

وتشمل العمارة الدينية بالأندلس المساجد والكنائس والبيع اليهودية :

١ ـ المساجد :

المسجد الجامع بقرطبة

هو أعظم آثار المسلمين بالأندلس ، وأروع أمثلة العمارة الاسلامية والمسيحية على السواء فى العصور الوسطى . وقد حظى هذا المسجد وحده بعناية كبيرة من مؤرخى المغرب والأندلس ، لأنهم أدركوا أهميته الكبرى فعظموه ، ووصفوه وصفا دقيقا ... بل ان بعض هؤلاء المؤرخين خصص فصولا كاملة عن تاريخه ووصفه .

والحق أن تاريخ هذا المسجد الجامع يمتد من القرن الثامن الميلادى الى القرن الحادى عشر ، أى أن بناءه يحتضن فى عناصره ذلك المجد الذى بلغه الفن الاسبانى الأموى طوال قرنين ونصف قرن من الزمان : ففيه نبتت أصول هذا الفن ، وفيه أزهر وأثمر وامتدت جذوره شرقا وغربا .

وتاريخ بناء هذا المسجد يفسر سبب تعظيم المسلمين لــه وأجلالهم لبقعته وقبلته • فقد شارك المسلمون ، بعد فتحهم قرطبة ، نصارى هذه المدينة فى كنيستهم الكبرى ، المعروفة بشنت بنجنت (San Vicente) وأقاموا فى شطرهم مسجدا ركز قبلته حنش الصنعانى التابعى • فلمــا كثر المسلمون بقرطبة ، وضاق عنهم مسجدها ، علقوا فيه سقائف متتابعة، يقل ارتفاعها تدريجا تبعا لارتفاع مستوى سطــح الأرض كلمــا اتجهنا شمالا بعيدا عن نهر الوادى الكبير • وكان المصلون يجدون صعوبــة فى دخول بيت الصلاة لقصر ارتفاع السقائف •

وظل المسجد على هذه الصورة حتى دخل عبد الرحمن بن معاويــة أرض الأندلس ، واستولى على مقاليد الأمور ، وجعل قرطبة دار سلطانه• وأراد أن يجملها ، ويحيط نفسه بهالة من الأبهة والعزة ••• فنظر فى أمر المسجد الجامع ، وطلب من نصارى قرطبة بيع ما بقى بأيديهم من الكنيسة فأبوا أول الأمر ، ثم وافقوا بعد أن اشترطوا على الأمير ــ مقابل تخليهم عن شطرهم ــ بناء كنيستهم خارج الأسوار المعــروفة بشنت أجلــح (San Acisclo) وأوسع لهم عبد الرحمن البذل ، فمنحهم ثمــانين ألف دينار • ويتم الأمر على ذلك عام ١٦٩ هـ (٧٨٤ ــ ٧٨٥ م) ، وابتنى المسجد الجامع بعد أن هدم الكنيسة والمسجد القديم • وتم بناء الجامع الجديد، وكملت بلاطاته وأسواره عام ١٧٠ هـ (٧٨٦ م) •

وكان هذا الجامع ، فى عهد عبد الرحمن ، يتميز باشتماله على تسعة أروقة (تسمى فى بلاد المغرب بلاطات) عمودية على جدار القبلة الرواق الأوسط أكثرها اتساعا وارتفاعا • وتتألف الأروقة من صفوف متوازية من أحد عشر قوسا ، على شكل حدوة الفرس ، وظيفتها ربط الأعمدة فيمــا بينها • ويتناوب فى هذه الأقواس الآجر الأحمر وقطع الحجارة الصفراء، مما يكسب المسجد مظهرا زخرفيا بسيطا • وتقوم هــذه الأقواس على أعمدة رخامية تعلوها تيجان قديمة من الكنائس الخربة بقرطبة • وتعلو

الأقواس المذكورة صفوف أخرى من أقواس نصف دائرية ، قائمــة على دعائم مربعة ، ووظيفتها حمل الأسقف • ويسند جــدران المسجــد من الخارج ركائز قوية تضفى على المسجد مظهر القلاع •

وكان فناء المسجد مغروسا ــ زمن عبد الرحمن الداخل ــ بالأشجار شأنه فى ذلك شأن جميع المساجد الأندلسية الأخرى • ونلاحظ أن عناصر بناء جامع قرطبة فى مرحلته الأولى تشف عن أصالــة وابتكــار ، وذلك لابتداع النظام المزدوج للأقواس ، وتناوب قطع الآجر والحجارة بها •

وقنع الأمير عبد الرحمن الداخل بأحــد أبراج القصــر ، المجاور للمسجد من جهته الغربية ، ليقوم مقام المئذنة ، وترك أمر بناء المئذنة الى ابنه هشام من بعــده (٧٨٨ ــ ٧٩٦) ، فأقامهــا من خمس فىء حملته بأربونة • وقد اهتدى المهندس الأثرى دون فيلث هرنانــدث الى موضع المئذنة ، وأجرى فيه حفائر أسفرت عن كشف أساس قاعدتهــا المربعة •

ثم زيد فى المسجد الأول ، زمن الأمير عبد الرحمن الاوسط (٨٢٢ ــ ٨٥٢ م) ،زيادتان أساسيتان : الأولى تمت عام ٨٣٤ م ، ذلك باضافــة رواقين جانبيين الى الأروقة التسعة السابقة • والثانية عــام ٨٤٨ م بأن زيدت جميع أروقه المسجد طولا نحو القبلة الى عمق ٢٦ متــرا • وتتميز زيادة عبد الرحمن الأوسط بأن المساند الحجرية (الكوابيل) التى تتكىء عليها الأقواس ، محدبة وقد تطورت هذه المساند فى العهود التالية حتى بلغتأقصى مراحل تطورها زمن الحكم المستنصر • وحــال موت عبــد الرحمن الأوسط دون اتمام ماكان يزمع عمله بالمسجد من زخرفة ، فأتــم الزخرفة وجددها ابنه محمد عام ٢٤١ هـ (٨٥٦ م)

وعلى باب من أبواب المسجد الخارجية « باب الوزراء » ــ المعروف الآن بباب سان استيبان ــ نقش تاريخى يسجل هــذه الأعمــال نصه : « بسم الله ••• أمر الأمير ــ أكرمه الله ــ محمد بن عبد الرحمن ببنيان

ما حكم بهمن هذا المسجد واتقانه ، وجاء ثواب الله عليه وذخره به ، فتم ذلك في سنة احدى وأربعين ومائتين على بركة الله وعونه ... مسرور ونصر فتياه » .

وأضيفت الى المسجد عام ٢٥٠ هـ (٨٦٥ م) مقصورة . وزاد فيه الأمير المنذر بن محمد بيت المال ، وأمر بتجديد السقاية واصلاح السقائف أما أخوه عبد الله فقد أقام ممرا يصل بين القصر والجامع ، اسمه الساباط، ليخرج من قصره الى المسجد دون أن يراه أحد .

وفي سنة ٣٤٠ هـ (٩٥١ م) شرع عبد الرحمن الناصر في بناء مئذنة كبرى تتناسب ورواء الخلافة . وكانت مئذنة هشام قد تصدعت ، فهدمها وأتم بناء المئذنة الجديدة في ثلاثة عشر شهرا . وما زال جزء كبير من هذه المئذنة قائما حتى اليوم الى ارتفاع ٢٢ مترا ، بعد أن تهدم جزؤها العلوي على أثر زلزال حدث سنة ١٧٨٩ ، فكساها المهندس الاسباني هرنان رويث برداء حجري ، وملأ الفراغ الداخلي ، بين أدراج المئذنة في جزئها الأدنى ، بالبناء حتى يمكن للمئذنة أن تتحمل ثقل الطابق العلوي الذي بناه على أسلوب عصر الاحياء .

أما الحكم المستنصر (٩٦١ — ٩٦٧ م) فقد اهتم بتوسيع المسجد بعد أن ضاق بمصليه ، فزاد أقواسه اثنى عشر قوسا نحو الجنوب ، وأقام في مدخل الرواق الأوسط ، من هذه الزيادة ، قبة كبرى مخرمة ، كان الغرض منها ادخال الضوء الى مسطح بيت الصلاة . كما أقام قبة أخرى عليه في أسطوان المحراب ... كما هو الحال في المساجد التونسية (جامع القيروان وجامع الزيتونة بتونس) . ثم أحاط هذه القبة الأخيرة بقبتين جانبيتين تؤلفان معها ما يشبه المجاز في الكنائس . وزودت اضافة الحكم جامع قرطبة بتناسق أجزائه وتعادلها . وأنزل الفسيفساء بجوار المحراب، ونصب مقصورةمن الخشب منقوشة الظاهر والباطن ، وأجرى الماء الى سقايات الجامع ، وأقام منبرا مركبا من ٣٦ ألف وصلة .

وتلت هذه الزيادة زيادة المنصور بن أبى عامر التى تمتد طولا من أول المسجد الى آخره • ففى سنة ٣٧٧ هـ (٩٨٧ م) ، أضـاف المنصور ثمانية أروقة على المسجد كله من جهته الشرقية ، وذلك حين ضاقت قرطبة بمن وفد اليها من البربر • واهتم ابن أبى عامر فى زيادته باحكـام البناء دون المظهر الزخرفى ، ومع ذلك فان زيادتـه لا تقل عظمـة عن سائر الزيادات بالمسجد ، ما عدا زيادة الحكم المستنصر • ولكن المسجد فقـد تناسقه وتعادل أجزائه بتلك الزيادة الأخيرة ، اذ أصبح الرواق الأوسط ، الذى كان يؤلف محور بيت الصلاة ، متطرفا •

ولما سقطت قرطبة فى أيـدى القشتاليين سنة ١٢٣٦ م ، حولـوا المسجد الى كنيسة سموها « سانتا ماريا الكبرى » • ومنذ ذلك العهد أخذ مظهر الجامع يتحول شيئا فشيئا الى صورته الحاضـرة • وأضاف اليه ملوك قشتالة بعض الاضافات التى غيرت بعض الشىء من مظهره ، ولكنها لم تغير جوهر البناء • غير أن التغيير الأساسى حدث سنة ١٥٢٣ م ، حين هدم الأسقف انبيجو مانريكى جزءا كبيرا من زيادة عبد الرحمن الأوسط والمنصور لبناء كاتدرائية قوطية الطراز فى قلب الجامع •

وعارض المجلس البلدى بقرطبة وبعض أعيانها هذا المشروع ، الذى كان من شأنه هدم الوحدة المعمارية لأثر من أجل آثار العـالم ، وعرضوا الأمر على الامبراطور شارلكان (كارلوس الخامس) ، فوافق على الهدم دون أن يكلف نفسه عناء معاينة الأثر • ولكنه حين مر بقرطبة سنة ١٥٢٤، ورأى المسجد الجامع ، أخذ يمتع بصره بجمال عمارته وزخارفه ، وشاهد بيت الصلاة مغروسا بغابة من النخيل البنائى قوامها أعمـدة لا يدركها البصر ، تقوم عليها عقود مزدوجة مما يولد احساسا بالطبيعة الحيـة ، وعاين أعمال التخريب ••• تألم ، وقال موجها كلامه الى فراى خـوان أسقف طليطلة والى أعضاء المجلس الكنسى عبارته المشهورة : « لو كنت قد علمت ما وصل اليه ذلك لما كنت قد سمحت بأن يمس البناء القديم ، لأن ما بنيتموه موجود فى كل مكان ، وما هدمتموه فريد فى العالم » •

ويحتفظ مسجد قرطبة اليوم بصورته الاسلامية ، رغم ما أصابه من تغيير منذ سقوط قرطبة فى أيدى المسيحيين ، وتمتد فى بيت صلاته صفوف الأعمدة على أروقة طولية يبلغ عددها تسعة عشر ، تتميز أقواسها جميعا بتناوب اللون الأصفر والأحمر • وهذا المظهر الزخرفى أوضح من أن يوصف ، لأن زخارفه توزع النظر وتشتته بدلا من تركيزه فى بقعة واحدة : فالعين لا تقف عند نقطة معينة ، بل تنتقل من مكان الى مكان •

وتتمثل الأصالة المعمارية فى قباب المسجد ، وقوامها هيكل من الأقواس البارزة تتقاطع فيما بينها بحيث تترك فراغا تشغله قبيبة مفصصة ، وقد كسى ما بين تقاطع الأقواس بالزخارف الجميلة •

وقد انتشر نظام الأقواس المتقاطعة فى القباب باسبانيا المسيحية انتشارا كبيرا • ونرى منه أمثلة كثيرة فى قشتالة ونافارة ، وانتقل منها الى جنوبى فرنسا : فنراه ممثلا فى برج دير موساك ، وقبوة أولورون ، وأوسبتال سان بليز • وسنرى أنه تطور فى اسبانيا الاسلامية تطورا جوهريا ، وفقد خصائصه المعمارية ، وأصبح فنا زخرفيا بحتا ، فى حين استفاد منه الفرنسيون ، فابتدعوا منه نظام القبوات القوطية •

ـ جامع عمر بن عدبس باشبيلية

الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هو أول أمير من بنى أمية عمل على تفخيم السلطنة بالأندلس ، بما شيده من مساجد وقصور وحصون وأسوار ومدن وقلاع فى جميع أنحاء الأندلس • ومن بين المساجد التى أمر بتشييدها : المسجد الجامع باشبيلية ، بناه القاضى عمر بن عدبس سنة ٢١٤ هـ (٨٢٩ ــ ٨٣٠ م) • وقد سجل تاريخ انشاء الجامع فى نقش كوفى على بدن عمود من الرخام محفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلى باشبيلية نصه :

، يرحم الله عبد الرحمن بن الحكم ، الأمير العدل المهتدى ، الآمـر ببنيان هذا المسجد على يدى عمر بن عدبس قاضى اشبيلية ، فى سنة أربع عشرة ومائتين ، وكتب عبد البر بن هارون » •

ويختلف هذا المسجد عن جامع قرطبة فى أنه لم يتعرض منذ بنائه لأى زيادة أو اضافة ، حتى ضاق بعد مضى ثلاثة قرون من انشائـه عن المصلين • فأقام الموحدون جامع القصبة الكبير باشبيلية بالاضافـة الى جامع ابن عدبس •

وكان بيت الصلاة فى هذا المسجد ــ وفقـا لما ذكره الحمـيرى ــ يشتمل على أحد عشر بلاطا (رواق) عمودية على جدار القبلـة : البلاط الأوسط منها أكثر البلاطات ارتفاعا ، وكان طول جدار القبلـة ــ حسبما ذكره العالم الأثرى توريس بلباس ــ يتراوح مـا بين ٤٨ و ٥٠ مترا • وكانت المئذنة تستند على الجدار الشمالى للجامع ، وتبرز خـارج هذا الجدار قليلا • أما بهوه فقد كان مغروسا بأشجار البرتقـال والنارنج ، ويسمى اليوم : (Patio do los Naranjos) كما كايت تتوسطـه نافورة على شكل محارة •

وقد أصيب جامع ابن عدبس ببعض الأضرار ، اذ أحرقـت سقفه الخشبية ولما يمض على بنائه خمس عشـرة سنة : ذلك أن النورمانديين احتلوا اشبيلية سنة ٢٣٠ هـ (٨٤٤ م) ، وكانوا يقذفون أسقف المسجد بسهام ملتهبة محمية • ويذكر ابن القوطية القرطبى أن آثار السهام كانت ما تزال ترى فى زمنـه •

ثم أصيب المسجد عام ٤٧٢ هـ (١٠٧٩ م) بزلزال عنيف هدم الجزء الأعلى من المئذنة ، فجدد المعتمد بن عباد بناءها فى شهر واحد • وتاريخ البناء مسجل على لوحة اكتشفت فى الجدار القبلى بقاعدة المئذنة •

ويغلب على الظن أن بناء المسجد قد تأثر بهذا الزلزال ، فتصدعت جدرانه الغربية ومالت ، وتآكلت جوائز سقفه (الكتل الخشبية التى تسمر عليها لوحات السقفف) . فأمر الخليفـة الموحدى أبـو يوسف يعقوب المنصور ، فى جمادى الأولى سنة ٥٩٢ هـ (مايو سنة ١١٩٥ م) ، بترميمه. وأقام له ركائز قوية تسند جدرانه الغربية من الميل ، وأعاد اليه الصلاة بعد أن كانت قد انقطعت منه منذ سنة ٥٧٠ هـ (١١٧٤ م) .

ولما سقطت اشبيلية (سنة ١٢٤٦ م) فى أيدى القشتاليين ، تحول جامع ابن عدبس الى كنيسة سان سلفادور . وأصيبت المئذنة فى ٢٤ من أغسطس سنة ١٣٥٦ بأضرار جسيمة نتيجة لزلزال عنيف هـدم جزءها العلوى ، وأقيم مكانها طابق النواقيس الحالى . ثم هدم المسجد بأكمله سنة ١٦٧١ ، باستثناء المئذنة والبهو ، وبنيت مكانه الكنيسة الجديدة .

ونظام مئذنة الجامع — وهى الأثر الوحيد الذى حفظ لنا من المسجد — تشبه نظام المآذن الأندلسية التى ترجع الى عهد عبد الرحمن الأوسط بقرطبة ، مثل مئذنة سان خوان وسانتياجو ، ففى داخلهـا درج حلزونى عرضه ٨٠ سم ، يدور حول دعامة أسطوانية ضخمة .

مسجد الباب المردوم بطليطلـة

تحتفظ مدينة طليطلة بأثـر اسلامى جليل ، هو المسجـد المعروف بمسجد الباب المردوم . وأقامه أحمد بن حديدى من ماله الخاص ، وتم بناؤه على يدى موسى بن على البناء وسعـادة فى المحـرم سنة ٣٩٠ هـ (ديسمبر ٩٩٩ — يناير سنة ١٠٠٠ م) . وأحمد بن حديدى هذا من أعيان طليطلة الذين اشتهروا بالعلم . وكان قد استوزره اسماعيـل ابن ذى النون ملك طليطلة .

والمسجد صغير المساحة ، مشيد من الحجر الجرانيتى والآجـر .

وبيت الصلاة فيه مربع الشكل : طول كل جانب منه ثمانية أمتار ، ويتألف من ثلاثة أروقة طولية ، تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، بحيث يحدث من ذلك التقاطع تسعة أساطين ، تفصل بينها أربعة أعمدة تيجانها قوطية قديمة ، يتفرع منها اثنا عشر قوسا على شكل حدوة الفرس • ويعلو كل أسطوان من الأساطين التسعة قبة تتقاطع فيها الأقواس على النحو الـذى رأيناه فى قرطبة • والقبة الوسطى أكثر ارتفاعا من القباب الأخرى •

أما واجهة المسجد الرئيسية ــ وهى الواجهـة الجنوبية الغربية ــ فتطل على الطريق المؤدى الى الباب المردوم بثلاثة أقواس ، فى أعلاهـا نقش كوفى يتألف من قطع من الآجر ، بارزة على سطح البناء داخل افريز بين صفين من الأسنة البارزة • ويسجل هـذا النقش تاريخ البنـاء • والقوس الأيمن من هذه الأقواس متجاوز على شكل حدوة الفرس ، على نمط نظام أقواس المسجد الجامع بقرطبة • والقـوس الأيسر مفصص ، أما الأوسط فمجدد • ويعلو هذه الأقواس الثلاثة ، التى تعتبر أبوابـا ابيت الصلاة ، بائكة صماء من أقواس متجاوزة متقاطعة • ويتوج هـذه البائكة الزخرفية افريز بداخله شبكة مخرمة من المعينات •

أما الواجهة التى تطل على بهو المسجد فمن ثلاثة أقواس متجاوزة بمثابة أبواب ، تعلوها ستة أقواس متجاوزة صماء يتناوب فيها اللونان الأبيض والأحمر ، نتيجة لتعاقب قوالب الحجر والآجر على نظام أقواس جامع قرطبـة •

ولقد تحول هذا المسجـد الى كنيسة الكريستو دى لالوث ، بعـد استرداد ألفونسو السادس ملك قشتالة لطليطلـة • وأضيفت اليـه فى الجانب الشرقى حنية من الأسلوب المدجن ، وذلك فى القرن الثالث عشر •

المسجد الجامـع بالمريـة

لم يتبق من هذا المسجد الا آثار ضئيلة داخل كنيسة سان خوان ، لا تعدو المحراب وجزءا من جداره • ويعتقد العالم الأثرى توريس بلباس أنه قد شيد بعد زيادة الحكم المستنصر لجامع قرطبة بسنوات قليلة ، وأنه كان يتألف من خمسة بلاطات عمودية على جدار القبلة : البلاط الأوسط منها كان أكثر البلاطات الأخرى اتساعا وكان يعلو المحراب المربـع قبيبة مفصصة ما زالت قائمة حتى وقتنا هـذا • وكان نظام البنـاء فى جدار المحراب ، الذى حفظ لنا اليوم ، يخضع للنظـام القرطبى القـائم على « آدية وشناوى » ، أى تنـاوب حجرين موضوعين عرضا مـع حجر موضوع طولا •

وقد أضيف الى هذا المسجد ، زمن زهير العامرى ، زيادة من جوانبه الثلاثة الشرقى والغربى والشمالى • ويتجلى ذلك فى قول ابن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام : « هو الذى بنى هذا المسجد الجامع بالمرية ، وزاد فيه الزيادات من جهاته الثلاث ما سوى القبلة » • وكان البلاطان اللذان أضافهما زهير العامرى ، على جانبى بيت الصلاة ، أكثر البلاطات الأخرى اتساعا • وترى فى المحراب بقايا طبقتين من الزخرفة تختلفان فى الأسلوب: السفلى منهما يمكن نسبتها الى زهير العامرى • وتتميز هـذه الزخرفة ، التى تختفى تحت طبقة الزخرفة الثانية ، بأقواسها الزخرفيـة المدببة فى أقسام المحراب الوسطى ، وبالمحارات نرى لها نظائر فى جامع قرطبة •

أما الأقواس الصغيرة الصماء القائمة على عمد ، بزخارفها القائمة على المراوح النخيلية ، والفصوص المتصلة بحلقات معقوفة ، فترجع الى عصر الموحدين الذين أصلحوا المسجد بعد أن خربه النصـارى فى أثناء احتلالهم للمرية ما بين عامى ١١٤٧ — ١١٥٧ م • وتشبه هـذه الزخرفة زخرفة محراب آخر عثر عليه فى كنيسة نويسترا سنيورا دى لا اسونثيون بمرتلة بالبرتغال • وكانت مسجدا شيد بعد عام ١١٥٧ م •

وقد زار الرحالة الألمانى منتزر جامع المرية سنة ١٤٩٤ ، ووصفه بأنه من أجمل مساجد غرناطة ، وكان يتألق بمئات الثريات ، وكان صحنه مغروسا بأشجار الليمون والبرتقال ومفروشا بالرخام ، كما كانت تتوسطه نافورة للوضوء •

ولقد تحول هذا الجامع الى كنيسة ، وأقيمت به الشعائر المسيحية فى عام ١٤٩٠ ، وشيدت بداخله كاتدرائية سنة ١٤٩٢ • ثم تهدمت هذه الكاتدرائية على أثر زلزال حدث سنة ١٥٢٢ • وأقيمت سنة ١٥٢٤ كاتدرائية أخرى فى مكان آخر غير هذا المسجد • ثم حول المسجد الى كنيسة سان خوان • ثم تحولت هذه الكنيسة بدورها الى مخزن للمدافع والمهمات سنة ١٨٤٥ ، ثم سلمت الى جماعة الآباء الفرنسيسكان ، فحفظت بقاياها وبقايا الجامع الى اليوم •

وقد عثر فى أرض هذا المسجد على بضعة كوابيل حجرية تشبه كوابيل جامع قرطبة ، الا أنها تختلف عنها بكثرة زخارفها القائمة على التوريقات ، وتبدو فيها أوراق مبسوطة مقسمة الى أصابع ، وتتشابه هذه الأوراق مع غيرها فى قصر الجعفرية بسرقسطة وقصبة مالقة ، مما يقطع بأنها من عصر المعتصم ابن صمادح •

جامع الموحدين باشبيلية

شرع الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف فى بنائه فى شهر رمضان سنة ٥٦٧ هـ (١١٧٢ م) • وعهد الى شيخ العرفاء (كبير المهندسين) أحمد بن باسة والبنائين من أهل اشبيلية ومراكش وفاس بذلك •

وكان سبب بنائه لهذا المسجد أن جامع ابن عدبس قد ضاق بأهل اشبيلية ، فكانوا يصلون فى رحابه وأقبيته وفى حوانيت الأسواق المتصلة به ، فيبعد عنهم التكبير بالفريضة • وحفر المهندسون أساسه حتى وصل

الحفر الى الماء ، ثم وضع أساسه من الآجر والجيار والجص والأحجار ، وأسست دعائمه تحت مستوى سطح الأرض • وظل البناء مستمرا ، حتى كمل بالتسقيف ، مدة أربعة أعوام ، وقارب جامع قرطبـــة فى الاتساع • واهتم العرفاء ببناء قبة المحراب ، وأودعوا فيها كل عبقريتهم • وصنـــع للمسجد منبر من أجود أنواع الخشب ، ونقشت فيه الزخارف الرائعة ، ورصع بالصندل مجزعا بالعاج والأبنوس وبصفائح الفضة والذهب ، ثم أقيمت له مقصورة أحاطت بالمحراب والمنبر •

وكان المسجد يشتمل على سبعة عشر رواقا عموديـــة على جـــدار القبلة ، البلاط الأوسط منها أكثر البلاطات اتساعا • وكانت أقواس الجامع متجاوزة منكسرة تستند على دعائم من الآجر • وكـــان يـــدعم جدران الجامع الخارجية ركائز ضخمة لدفع الناشىء من الأقواس •

ولما عاد أبو يوسف منصورا ، أمر بصنع التفاحات الأربـــع المذهبة خليفته ، أبو يوسف يعقوب ، يظفـــر بالبيعـــة حتى أمـــر والى اشبيلية بالاشراف على اتمام مشروع أبيه وأكمال بناء مئذنة تجاوز فى ارتفاعها مئذنة قرطبة • ولم يتم بناء المئذنة الا بعد انتصــــار أبى يوسف يعقوب المنصور على جيوش قشتالة فى موقعة الأرك فى ١٠ يوليـــو سنة ١١٩٥ • وارتفعت المئذنة فى رشاقة مشرفة على سهول اشبيلية •

ولما عاد أبو يوسف منصورا ، أمر بصنع التفاحات الأربـــع المذهبة لتتوج المئذنة ، ورفعت فى السفود البارز بأعلى قبة المئذنة ، ثم أزيحت عنها الأغشية التى كانت تغطيها فى احتفال حضره الخليفة وولى عهـــده الناصر وجميع بنيه وأشياخ الموحدين والقاضى وأعيان المدينة ، وذلك فى ربيع الآخـــر سنة ٥٩٤ هـ (١١٩٧ م) ، فبهرت ببريقها ولألائهـــا عيون الحاضرين •

ولمـــا سقطت اشبيلية فى يد فرناندو الثالث ملك قشتالـــة ، تحول

المسجد الجامع الى كنيسة سانتا ماريا • وظل المسجد قائما على تلك الحال دون أن تصيب عمارته أضرار جسيمة ، ومع ذلك فقد أقيمت به عدة مصليات ، منها المصلى الملكى ، وتلاحقت عليه بعد ذلك المصائب على أثر الزلازل ، فاضطر المجلس الكنسى باشبيلية الى اتخاذ قرار بهدمه وبناء كاتدرائية بقرطبة مكانه • وبالفعل هدم الجامع ، ووضع حجر الأساس فى البناء الجديد سنة ١٤٠٢ • وقد ظل بهو الجامع — المعروف ببهو البرتقال — محتفظا بسلامته الى حد كبير حتى تهدمت مجنبته الغربية سنة ١٦١٨ م •

ولم يتبق من جامع الموحدين الا عدة أقواس تطل على بهوه من جهة الشمال والشرق • ومن بين هذه الأقواس قوس الباب المعروف بباب الغفران • وقوام زخارفه شريطان بارزان ، ترتسم فيها مستطيلات ومربعات قائمة على رؤوسها ، ويتوسطهما شريط أوسط يزدحم بتوريقات من سعف النخيل الملساء التى تخلو من السيقان ، تطوقها خطوط مخرزة ، وأطرافها تنحنى فى تجعدات وتتلاحم فى تناسق وايقاع • وكلها زخارف يمتزج فيها الطراز الأندلسى بالطراز المغربى •

أما المئذنة فقد تحولت ، بعد سقوط اشبيلية سنة ١٢٤٦ ، الى برج للنواقيس ملحق بالكنيسة • ثم سقطت تفاحاتها الذهبية على أثر زلزال سنة ١٣٥٥ • ثم أزالت احدى الصواعق الجزء العلوى من المئذنة سنة ١٤٩٤ ، كما سقط جزء آخر منها فى زلزال سنة ١٥٠٤ • وأقام الاسبان مكان هذا الطابق العلوى طابقا جديدا من البناء سنة ١٥٦٧ ، نصب فى أعلاه سنة ١٥٦٨ تمثال من البرنز يدور مع الرياح • ومن هنا أطلق عليه اسم خيرالديو (Giraldillo) أو دوارة الهواء ، وتحول هذا الاسم الى خيرالدا (Giralda) ، وأصبح يطلق منذ أوائل القرن الثامن عشر على البرج بأكمله •

ويزين كل جدار من جدران المئذنة شبكتان من المعينات البارزة

تختلف فى كل وجه من وجوها ، وتحتل المنطقة الوسطى بين الشبكتين أقواس متجاوزة ومفصصة فى غاية الروعة والجمال •

المسجد الأعظم بقصر الحمراء

لم يتبق من هذا المسجد الجامع سوى أسس جدرانه ، ويقع الى جنوب بهو السباع من قصر الحمراء • ويذكر ابن الخطيب « أن من أعظم مناقب السلطان محمد بن محمد بن محمد بن يوسف بن نصر (٧٠١ — ٧٠٨ هـ) ابتناء المسجد الأعظم بالحمراء من غرناطة ، على ما هو عليه من الظرف والتنجيد والترقيش ، من فخامة الحكم واحكام أنوار الفضة وابداع ثرياتها » • والى هذا المسجد تنسب ثريا برنزية محفوظة اليوم فى متحف الآثار الأهلى بمدريد •

وقد بنى هذا الجامع من الآجر ، وكان طوله ١٦ مترا وعرضه ١٣٫٣٠ مترا • وكان محراب الجامع مثمنا فى تخطيطه ، ويبلغ اتساعه نحو ١٫٨٠ متر • وكان بيت الصلاة فيه يشتمل على ثلاثة أروقة طولية ، تقطعها ثلاثة أروقة عرضية ، وتستند أقواسه على ثمانية أعمدة ارتفاع الواحد منها ١٫٩٦ متر •وقد عثر الحفائر التى أجريت بأرض هذا المسجد على قطع من الأعمدة وتيجانها وقواعدها • وكانت المئذنة تقوم فى الركن الغربى من المسجد •

ويذكر العالم الأثرى توريس بلباس أن هذا الجامع يشبه الى حد كبير مسجد سيدى بل حسن بتلمسان ، الذى أقامه السلطان أبو سعيد عثمان سنة ١٢٩٦ • وقد ذكر ابن خلدون أن أبا الوليد اسماعيل ، سلطان غرناطة ، ٧١٣ — ٧٢٥ هـ (١٣١٤ — ١٣٢٥) ، أرسل الى السلطان ابن تاشفين الأول (١٣١٨ — ١٣٣٧) من أسرة بنى عبد الواد بالجزائر ، مهندسين غرناطيين بارعين أقاموا له القصور والمساجد فى المنصورة والعباد •وهذا يفسر التشابه العجيب بين جامع غرناطة ومسجد سيدى

بن حسن .

ولما استولى الملكان الكاثوليكيان على غرناطة ، فى ٢ يناير سنة ١٤٩٢ تحول المسجد الى كنيسة ، ثم تهدم سنة ١٥٧٦ . وقد أجرى السنيور موديستو ثندويا ، سنة ١٩٢٣ ، فى أرضه أولى حفائره الأثرية .

مسجد المدجنين بطليطلة

اغتصب ألفونسو السادس ملك قشتالة مدينة طليطلة ، من القادر ابن ذى النون ، سنة ٤٧٨ هـ (١٠٨٥ م) مقابل مظاهرة ألفونسو له على أهل بلنسية .وكان المسلمون يمارسون بادىء ذى بدء شعائر دينهم فى أحد مساجد طليطلة التى خصصت لهم .

على أنهم ، منذ أن انتزع منهم المسيحيون مسجدهم الجامع سنة ١١٥٩ ، استبدلوا به مسجدا آخر حاولوا اخفاءه اتقاء نقمة بعض المتعصبين فى بلاط ألفونسو الثامن من الفرنج (الفرنسيين) الذين كانوا يتربصون بهم السوء . ولعل هذه التقية يمكن أن توضح لنا الوضع الشاذ الذى اتخذه « مسجد المسلمين » . وهو مسجد ورد ذكره فى ثلاث وثائق، نشرها المستشرق الأسبانى آنخل جنثالث بلنسية فيها ذكر اسم « مسجد المسلمين الواقع فى ربض الافرنج بمدينة طليطلة ، حرسها الله » . وربض الافرنج المذكور كان حيا تجاريا ، يقع بجوار الكاتدرائية ، خاصا بسكنى الفرنسيين .

وكان هذا المسجد يقوم فى طابق علوى بعيدا عن أنظار الفرنسيين وتخطيط البناء من أسفل يكشف فى خفاء شديد عما فوقه . ويسمى هذا المسجد اليوم بدار الدباغين (Casa de las Tornerias) . ولسنا نعرف الغرض من هذا الطابق الأدنى ، ويغلب على الظن أنه كان يتخذ بيتا . أما الطابق العلوى فيحتفظ بنظام المسجد اذ ينقسم — شأنه فى ذلك شأن مسجد الباب المردوم — الى اثنى عشر قوسا متجاوزة تقوم على أربعة

أعمدة وسطى ، بحيث تقسمه الى تسعة أساطين مربعة ، تعلو الأسطوان الأوسط منها قبوة من الضلوع ، قوامها أربعة أقواس نصف دائرية متقاطعة فيما بينها : اثنان رأسيا واثنان أفقيا • ويشغل كل مربع من المربعات التسعة الناشئة من هذا التقاطع ، قبيبات صغيرة يتقاطع فيها قوسان صغيران فى شكل صليبى • وهو تطور غريب لقبوات مسجد الباب المردوم : فبدلا من وجود تسع قبات يعلو كل منها أسطوانا من أساطين المسجد ، اجتمعت القباب التسع فى قبوة واحدة تغطى الأسطوان الأوسط من مسجد المدجنين ، فى حين غطيت الأساطين الأخرى بقبوات نصف اسطوانية ذات أربعة مقاطع رأسية •

وقد أصبح مظهر هذا المسجد اليوم يثير الأسى ، فقد أهمل منذ هجره أصحابه ، وجعل بعد ذلك مستودعا للخرائب والأنقاض ، وأدمج أحد أساطينه فى منزل مجاور له ، وصار اليوم مخزنا لبراميل الخمور ، ومع ذلك فلهذا المسجد أهمية كبرى باعتباره المثل الوحيد فى الأندلس لمساجد المدجنين فى عصر الاضطهاد • ثم أن قبوته تمثل مرحلة جديدة من الفكرة المعمارية البحتة التى رأيناها فى جامع قرطبة ، الى الفكرة الهندسية الزخرفية التى تتجلى فى قبوات مسجد الباب المردوم •

٢ ــ الكنائس :

تمتع المسيحيون الذين أقاموا فى ديار الاسلام بالأندلس منذ الفتح ، وتأثروا بالثقافة العربية ، وتعربوا تعريبا أنساهم لغتهم ••• تمتع هؤلاء المسيحيون ــ ويعرفون بالمستعربين ــ طوال العهد الاسلامى بحرية العقيدة والتسامح التام • وقد أبقت لهم الحكومة الاسلامية بالأندلس كنائسهم وأديرتهم ، بل منحتهم الحق فى بناء كنائس جديدة • وكان المستعربون يعيشون فى أحياء خاصة بهم ، وكان رئيسهم يعرف بالقومس ، وقاضيهم يسمى بقاضى النصارى •

وقد اهتم المستعربون بدراســـة التراث العــربى من شعر وأدب وفلسفة ، وشارك عدد كبير منهم فى الحياة السياسية والأدبية بالبلاد . وكان لهم الفضل الأول فى انتشار الحضارة الاسلامية فى اسبانيا المسيحية بحكم اجادتهم للغة العربية واللغة اللاتينية الحديثة .

وقد كان للنصارى كنائسهم فى أحيائهـــم الخاصـــة بهـــم بقرطبة وسرقسطة وطليطلة واشبيلية . وكانوا يقرعون نواقيسهم رغم مـــا كان يسببه هذا من ازعاج المسلمين واثارة بعض المتعصبين منهم عليهم . وفى قرع النواقيس دلالة واضحة على تسامح المسلمين وتركهـــم النصارى يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لمعه . والقش قد برز فى عبدة المسيح ، ذكر لقرع النواقيس منها :

أتيتنى وهـــلال الجـــو مطلع
قبيل قرع النصارى للنواقيس

ووصف الشاعر أبو عامر بن شهيد احدى الكنائس فقال : « وقـــد فرشت بأضغاث آس ، وعرشت بسرور واستيناس ... وقرع النواقيس يبهج سمعه ، وبرق الحميا يسرح لمعه . والقش قد برز فى عبدة المسيح ، متوشحا بالزنانير أبدع توشيح » .

وظل النصارى فى الأندلس يتمتعون بحريتهم الدينية ، حتى حـــد المرابطون منها ، وأخذوا يضطهدونهم . فقد طالب ابن عبدون ، فى كتابه عن آداب الحسبة ، أن يمنع قرع النواقيس من الكنائس ، وأن يرتدى المسيحيون واليهود ثيابا معينة ، وألا يركب أحد منهم جوادا ، ألا يشترى مسلم رداء ارتداه مسيحى أو يهودى .

ويغلب على الظن أن هذا الاضطهاد بدأ عقب توســـع الاسترداد المسيحى فى قلب اسبانيا الاسلامية ، واتهام المسلمين لهؤلاء المستعربين بالتجسس عليهم لمصلحة الدول المسيحية فى شمال اسبانيا ... وخاصة

بعد حملة ألفونسو المحارب ، سنة ١١٢٥ ، التى اجتاح فيها بلاد الاسلام حتى أدرك قرطبة واشبيلية • وازداد اضطهاد الموحدين لهـم ، فنفوهم الى بلاد المغرب حتى يكونـوا بعيـدين عن مؤازرة الممالك المسيحية فى الشمال ، واستطاع عدد كبير من المستعربين التسلل من الأندلس الى هذه الممالك الشمالية •

ويهمنا الآن دراسة الكنائس المستعربة فى العصر الاسلامى • وهى كنائس بناها مهندسون من النصارى وفقا للأسلوب السائـد فى اسبانيا الاسلامية • غير أن ما تبقى من هذه الكنائس قليل جدا بالنسبة للكنائس المستعربة التى بنيت فى ممالك قشتالة ونافـارة وليون • وقـد بقيت فى الأندلس بقايا كنيسة « ببشتر » التى أقامها عمـر بن حفصون (١) بين عامى ٨٩٨ ـــ ٩١٧ م ، بعد اعتناقه المسيحية ، وكنيسة سانتا ماريـا دى ماكى بطليطلة التى أقيمت فى منتصف القرن التاسع وطليعه القرن العاشر• وتتميز هاتان الكنيستان بالعقد المتجاوز الذى ظهر وساد استعمالـه فى العمارة الاسلامية بالأندلس •

وهناك نوع آخـرمن الكنـائس التى أقامها العرفـاء المسلمون الخاضعون للحكم المسيحى ، ويعرف باسم الكنائس المدجنة ••• اذ أن

---

(١) ثار عمر بن حفصون على الأمير محمد والأمير عبد الله ، واستقل ببشتر وأخذ يناوىء منها سلطان قرطبة . وقد استطـاع الخليفة عبد الرحمن الناصر سنة ٣١٥ هـ أن يستولى على مدينة انجش من طاعـة حفص بن عمر بن حفصون ونازلـه ببشتر ، وابتنى بجوارهـا حصن طلجيرة . فأذعن حفص الى السلم ، وتم ذلك سنة ٣١٦ هـ ، ودخل الناصر مدينة بشتر ، وصلى فى مسجدها المهجور . واقيمت الدعـوة للناصر بجامع بشتر وعمرت المساجد المخربة وهدمت الكنائس المعمورة . وقـد كان حسن عمارة هذه الكنائس وتخريب المساجد بها واستيلاء الدثور عليها من أعظم الأدلة على ردة عمر بن حفصون .

ملوك اسبانيا المسيحية وجدوا من بين المدجنين كثيرا من أصحاب المهن الفنية والصناعات ، كالنجارين والفخارين والبنائين ، فاستخدموهم فى بناء كنائسهم ، فازدهر الطراز المدجن فى الكنائس • ولا شك أن الفضل فى ازدهاره يرجع الى تفوق المدجنين المسلمين فى الناحية الفنية ، والى مقدرتهم فى البناء بالآجر ، بدلا من الحجر الذى كان يندر وجوده • وكان الطراز المدجن لا يختلف عن الطراز الاسلامى ، حتى أنه ليصعب على الفاحص التمييز بينهما •

وقد انتشر هذا الأسلوب المدجن فى طليطلة ، لأنها كانت أولى المدن الاسلامية التى سقطت فى أيدى المسيحيين • ونستطيع أن نشاهد فى كنيستى سان سباستيان (القرن ١٤ م) ، وسان رومان بطليطلة (قرن ١٣ م) ، عقودا على شكل حدوة الفرس تحيط بها طرز أو ترابيع على النحو الشائع فى العمارة الاسلامية • وتحتفظ كنيسة سانتياجو دل آرابال التى أسسها ألفونسو السادس بعد استرداده لطليطلة ، بكثير من العناصر المعمارية الاسلامية • وقد أعيد بناء هذه الكنيسة على صورتها الحاضرة فى القرن الثالث عشر • وجميع الزخارف التى تكسو جدران هذه الكنيسة من الخارج وثيقة الصلة بالعمارة الاسلامية ، وبرجها لا نكاد نفرقه عن المآذن اذا استثنينا منه طابق النواقيس • وأجمل الأبراج المدجنة بطليطلة أبراج كنائس : سان رومان ، وسانتا ليوكاديا ، وسان ميجل الألتو •

ومن أمثلة الأبراج المدجنة التى كان يرجع أنها مآذن : برج كنيسة امنيوم سانكتورم Omium Sanetorum باشبيلية ، وبرج كنيسة سانتا كاتالينا ، وبرج كنيسة ماركوس بالمدينة نفسها ، وذلك لتقارب زخارفها من زخارف مئذنة المسجد الجامع باشبيلية (الخيرالدا ، التى أصبحت مثلا احتذته الأبراج المدجنة ، وانتقل منها الى سائر مدن الأندلس •

٣ ـ البيعة اليهودية (الكنيس) :

كان اليهود يئنون من اضطهاد القوط الغربيين لهم ، ومن القيود التى فرضتها عليهم مجامع طليطلة • ولذلك أيدوا العرب ، وآزروهم عند الفتح الاسلامى للأندلس • ووكل اليهم الفاتحون أمر حراسة المدن المفتوحة ، وعينوهم فى المناصب الرفيعة،ومنحوهم كثيرا من الامتيازات•• فتمتعوا بتسامح المسلمين وعطفهم عليهم •

وعظم شأن الطوائف اليهودية فى بعض المدن الأندلسية ، مثل طليطلة وقرطبة وغرناطة ـ التى كانت تعرف باغرناطة اليهود ـ واشتهر منهم كثيرون فى الطب والكيمياء ، وأمثال : حسداى بن شفروط (٩١٠ ـ ٩١٨ م) ـ وكان طبيبا وفلكيا ،واتخذه الخليفة عبد الرحمن الناصر طبيبا له ومستشارا ـ والياس بن المدور اليهودى بمدينة رندة •

وحظى منهم يوسف ابن النغريلى الاسرائيلى (٩٨٢ ـ ١٠٥٥) بالوزارة فى بلاط ملك غرناطة ، باديس بن حبوس بن ماكسن الصنهاجى، وكانت بيده أموال الملك •

وقال عنه ابن بسام :

« أنه تقلد أزمة الأعمال ، ووطىء عقبه جماهير الرجال ••• حتى كان يغسل يده من القبل ، ويتمدح بالطعن على الملل • ألف كتابا فى الرد على الفقيه أبى محمد بن حزم ، وجاهر بالكلام فى الطعن على ملة الاسلام ••• فما دفع عن ذلك بتأنيب ، ولا استطيع تغييره عليه الا بالقلوب » •

وبلغ ابن النغريلى منزلة عالية حتى تسمى بالناغير ، أى المدبر بالعبرية ، وقد أنشد أبو اسحق الألبيرى الشاعر قصيدة خاطب فيها باديس وحرضه على اليهود ، منها :

ألا قــل لصنهاجــة أجمعين
بدور الزمان وأسد العرين
مقــالة ذى مقة مشـــفق
يعد النصــيحة زلفى ودين
لقـــد زل ســيدكم زلــة
تقــر بهــا أعين الشــامتين
تخـــير كاتبــه كافـــرا
ولو شاء كان من المؤمنـــين
فعز اليهـــود به وانتخوا
وتاهــوا وكانوا من الأرذلين

كذلك نال الوزير الكاتب أبو الفضل بن حسداى منزلة كبيرة فى بلاط المقتدر بن هود ملك سرقسطة • وكان الكاتب أبو بكر بن سدراى اليهودى وزيرا فى بلاط أبى مروان بن رزين ملك السهلة •

ونبغ من اليهــود شعراء كثــيرون ، منهم : ابراهيــم بن سهل الاسرائيلى ، الذى كان من أعاظم شعراء اشبيلية ووشاحيهــا فى عهد الموحدين ، وكان يتظاهر بالاسلام • وابراهيم بن الفخار اليهودى ، وكان عارفا بالمنطق والشعر ، واشتغل فى بلاط ألفونسو الســادس • واشتهر بسام بن شمعون الوشقى بالغناء والموسيقى فى عهد الموحدين • وكــان بالأندلس من شاعرات اليهود : قسمونة بنت اسماعيل اليهودى • وكان منهم الفلاسفة والعلماء : أمثال ابراهيم بن عــزرا التطيلى (١٠٩٣ — ١١٦٧) ، وابن جبرول المالقى (١٠٢١ — ١٠٥٢) ، وموسى بن ميمون (١١٣٥ — ١٢٤٠) أعظم فلاسفة اليهود •

وظل اليهود متمتعين طوال العهد الاسلامى بتسامح المسلمين ••• حتى كانت أيام الموحدين ، فطردوهم من الأندلس لمالأتهــم للنصارى الشماليين • وهاجر عدد كبير منهم الى بــلاط ملوك اسبانيــا المسيحية

وصانعوهم • ومـع ذلك فقـد كان لليهود بيـع أقاموهـا فى اسبانيا الاسلامية منها كنيس قرطبة الواقع فى شارع بنى ميمون • وقـد أقامه اليهود سنة ١٣١٤ على أنقاض كنيسهم القديم ، وأصيب هـذا الكنيس بأضرار جسيمة منذ طرد اليهود نهائيا من اسبانيا سنة ١٥٤٢ الى أن صار أثرا قوميا فى ٢٤ يناير سنة ١٨٨٥ • وجدران هذا الكنيس مكسوة جميعا بالتوريقات الاسلامية المحفورة فى الجص •

وما زالت طليطلة تحتفظ حتى اليوم بكنيسين : أحدهما يسمى سانتا ماريا لابلانكا ، والثانى الترانسيتو • ويعد كنيس سانتا ماريا لابلانكـا احدى روائع الفن المدجن • ويغلب على الظن أنه بنى فى القـرن الثالث عشر • ويشتمل على خمسة أروقة تفصلها فيما بينها أربعـة صفوف من البوائك ذات الأقواس المتجاوزة على شكل حدوة الفرس • وتقوم هذه الأقواس على عمد مثمنة الشكل • أما كنيس لترانسيتو فيعد من أبـدع العمائر المدجنة حقا • بناه صمويل بن ميرها ليفى ، خازن أمـوال بدرو الأول ، فى سنة ١٣٥٧ على نفقته الخاصـة • وتكسو رأس الكنيس من الداخل زخرفة تشبه زخارف قصر الحمراء بغرناطة والقصر باشبيلية •

ثالثا ــ العمارة المدنيــة بالأندلســـ

يستجيب النظام المعمارى للدار الأندلسيـــة ومظهرهـــا الداخلى والخارجى عادة،الى عدة عوامل جغرافية : كدرجة حرارة المكان ، والموقع الذى تقوم عليه الدار • ولقد افتتح المسلمون فى الأندلس مدنا مزدهرة العمران وشاهدوا أبنية تختلف عما شاهـــدوه فى المشرق بهرتهم عمارتها وكان لابد لهم أن يعيشوا فى دورها حتى تتهيأ لهم الوسائل لبنـــاء دور خاصة بهم •

ولم يكد يمضى على فتح الأندلس نصف قرن حتى شهدت حركـــة معمارية ضخمة ، فى عهد الأمير عبد الرحمن وبنيه من بعـــده : ونخص بالذكر منهم عبد الرحمن بن الحكم ، وعبد الرحمن النـــاصر ، والحكم المستنصر • فأقيمت فى عهدهم أبنية تخضع لنظام الدور السابقة عـــلى الفتح الاسلامى • ثم تطور هذا النظام بالتدريج بطبيعة الحال ، متأثرا فى تطوره بنظام المسجد الذى يعد أساسا لكل الأبنية الاسلاميـــة • ولم تتخذ الدار فى الأندلس طابعا أندلسيا خاصا الا منذ عهد ملوك الطوائف • وبمرور الزمن أدرك نظام الدار الأندلسية ذروة اتقانه فى عهد الموحدين وعصر دولة بنى نصر •

ولقد وصف ابن سعيد المغربى دور الأندلس بأنها « فى غاية الجمال لمبالغة أهلها فى أوضاعها وتبييضها لئلا تنبو العيون منها » • وأضـــاف : « اننى تعجبت ، لما دخلت الديار المصرية ، من أوضاع قراها التى تكدر العين بسوادها ، ويضيق الصدر بضيق أوضاعها » • كذلك أثنى الشقندى، فى رسالته عن فضائل الأندلس ، على المبانى الأندلسية فقال : « أما مبانيها فقد سمعت عن اتقانها واهتمام أصحابها بها ، وكون أكثر ديارها لاتخلو من الماء الجارى والأشجار المتكاثفة ، كالنارنج والليم والليمون والزنبوع وغير ذلك » •

وكـــان البيت الأندلسى يتألـــف من جزءين أساسيين : الواجهـــة الخارجية ، وداخل البيت •

الواجهة الخارجية : كان المظهر الخارجى للدار عادة متواضعـــا ، عاطلا من الزخرفة ، يتناقض مع مظهره الـــداخلى الزاخر بالزخـــارف والتنميقات • ذلك أن أهل الأندلس كانـــوا يبنون دورهم لأنفسهم كى يتمتعوا بالحياة داخلها • ثم أن المرأة الأندلسية كانت تؤثر دائما البقاء داخل بيتها فلا تخرج الا نادرا ، فحياتها وثيقة الصلة بداخل الدار • ومن هنا كان من الضرورى تزيين داخلها بالزخارف الرائعـــة ، حتى تعوض للمرأة ما كانت تفقده من بقائها رهينة دارها •

وكان مدخل الباب فى دور الأثرياء يفضى الى أسطوان أو ردهة ، وتؤدى الردهة الى البهو أما المدخل فى الدور العادية ، فكان يتصل بممر منكسر على شكل زاوية قائمة ، حتى لا يتاح للمارة فى الطريق رؤيـــة من بداخل الدار وما يجرى فيها •

وظهر فى دور بنى نصر ، التى ترجع الى أواخر القرن الثالث عشر ، طابع جديد لواجهة المدخل غنية بالزخرفة ، اذ يعلو المدخل فى العادة عتب ثم يعلو العتب نافذة مزدوجة ، ويكتنف المدخل من كل من جانبيه عمود ملتصق بالجدار يعلـــوه مسند (كابولى) ، نصفـــه الأدنى من الجص ، والأعلى من الخشب المنقوش • ويستقبل هذا النصف العلوى من المسند أحد طرفى ظللة بارزة من الخشب ، وظيفتها حماية الزخـــارف الجصية الملونة والزليج الذى يكسو ازار واجهة المدخل •

وكانت الواجهة الخارجية للدار تزود فى بعض الأحيان بشراجيب أو شماسات ، أى نوافذ بارزة تشبه الشرفات ، تعلو فتحة الباب • وتغطى هذه النوافذ شبكات من الخشب تتيح للمرأة رؤية المارة دون أن يراها أحد من الخارج • وكانت هـــذه الشراجيب البارزة عن الجدران تســـاهم فى

تضييق الحارات وزيادة حلكتها ، ولكنها فى الوقت نفسه كانت تخفف من حرارة شمس الأندلس ، وتمنح النساء المحجبات فرصة التمتع بما يجرى خارج الدار دون أن يراهن أحد من السابلة •

وقد عرفت مصر هذا النوع من النوافذ تحت اسم مشربية ، وهو تحريف ظاهر من كلمة مشرفية ، أى التى تشرف منها النساء • وما زالت ذكرى الشراجيب ماثلة فى شرفات الدور الأندلسية فى الوقت الحاضر ، وعلى الأخص فى مدن رندة واشبيلية والسهلة •

وبالاضافة الى الشراجيب كان يطل على الشوارع — بطول الواجهة — حجرة كبيرة بارزة تحملها مساند تسمى الغرفة البرانية ، وبالاسبانية (Algorfa albaranna) • ويغلب على الظن أن انتشارها كان بسبب رغبة الأهالى فى استغلال الأرض التى تبنى عليها الدار أقصى حدود الاستغلال ، الا أن هذه الغرف كانت تجعل من الشوارع الأندلسية ممرات مسقوفة تحجب الضوء وتخفف حرارة الجو •

داخل البيت : كان يتوسط الدار الأندلسية بهو مربع يمده بالهواء والضوء • ويصفه المؤرخ الاشبيلى ألونسو مورجادو (الذى عاش فى القرن السادس عشر) فى بعض بيوت اشبيلية فيقول : « وللأبهاء التى لا تخلو منها دار ،أرضية من الآجر المحكوك ، ويكسوها الأغنياء بالزليج ، ويحيطونها بأعمدة الرخام ، وكانوا يعنون كل العناية بتنظيفها • وكثيرا ما تغطى هذه الأبهاء بظلات من النسيج فى الأوقات التى تشتد فيها درجة الحرارة ، فيلطف الزليج والرخام من حرارة المكان • وأكثر من هذا وذاك كانوا ينصبون نافورة مياه فى وسط الأبهاء ، ويغرسونها بأكارم الأشجار • أما البيوت التى يتعذر على أصحابها عمل ذلك ، فقد كانوا يستغنون عن ذلك بآبار مياه » •

والواقع أن هذا الوصف — رغم تأخره فى التاريخ — يعبر عما

كانت عليه أبهاء الدور الأندلسية فى العصر الاسلامى ، حيث كان لكل دار بهو تتوسطه نافورة ينطلق منها الماء فيرطب المكان ، وتهدأ لرؤيته النفوس أو تتوسطه بئر تحيط بها أشجار وأزهار ، كما كان الحال فى المـــدن التى تخلو من قنوات المياه ، مثل مالقة وطليطلة واشبيلية ، فى عصر بنى عباد والمرابطين •

وكانت بالأحياء التجارية فى الأندلس دور صغيرة تتألف من طابق واحد ، وأحيانا من غرفة واحدة تعلو أحد الحوانيت التجارية • وكـــان يصعد الى هذه الغرف العليا من طريق فتحة بجوار باب الحانوت ، يخرج منها درج يصل بين الحانوت والغرفة • وكانت هذه الغرفة تستقبل الضوء من منافذ صغيرة تشبه منافذ السهام التى ترى فى أسوار المدن والقلاع • وكانت هذه الغرف تسمى بالمصارى (مفردها مصرية) ، وما زالت اللغة الاسبانية تحتفظ بهذا الاسم العربى (Almacoria)

وتذكر الوثائق الاسبانية التى تبعت سقوط المـــدن الاسلامية ــ بمناسبة توزيع الدور الأندلسية على الفاتحين الاسبان ــ أن كثيرا من هذه الدور كانت تشتمل على اصطبلات ومطابخ ملحقة بفناء الدار •

ولدينا من الدور الاسلامية أمثلة مادية بقيت فى بعض المدن ، ومن هذه الأمثلة دار اسلامية بمدينة غرناطـــة ، من القـــرن الخامس عشر ، حفظت حتى أواخر القرن الماضى ثم هدمت • وكانت تتألف من بهو مربع : طول كل جانب منه خمسة أمتار ، وتدور الغرف حول هذا البهو • وبكل من الجانبين الشمالى والجنوبى ممر يطل على البهو بثلاثة عقود أو أقواس قائمة على أعمدة • كما حفظت الزخارف التى تكسو الجدارين الشمالى والجنوبى اللذين يطلان على الممرين السابق ذكرهما ••• هذه الزخارف جصية هندسية ونباتية بينها عبـــارات « لا غالب الا الله » ، « لا اله الا الله » •وكلها محفورة فى الجص •

وكان باب الدار ينفذ فى الجدار الشمالى المطل على الفناء ، تعلوه ثلاث نوافذ أقواسها نصف دائرية • وتكسو هذه النوافذ شبكات جصية من الزخرفة الهندسية • وتشغل الفراغ بين هذه النوافذ توريقات غاية فى الروعة والجمال ، ويحيط بالنوافذ اطار مستطيل به افريز كتــابى تتكرر فيه عبارتا « العزة لله » و « البقاء لله » •

وعثر فى المرية على أساس لدار تقع على الطريق المعروف بشانكا • وقد زينت جدرانها بزخارف من أشرطة ملونة متقاطعة فى أشكال هندسية رائعة • وترجع هذه الدار الى القرن الرابع عشر •

ووصف لنا « جبين روبلز » فى كتابه « مالقة الاسلامية » دارا يرجع تاريخها الى عصر بنى نصر • وذكر روبلز أنها مستطيلة الشكل تتألف من طابقين : أحدهما سفلى ، والآخر علوى ،وينفتح مدخل الدار فى واجهته•• ويتوسط الدار بهو مكشوف تحيط به أروقــة مسقوفة تطــل على البهو ببوائك من ثلاثة عقود أو أقواس قائمة على أعمدة ، وتتوزع الحجرات على هذه الأروقة •

وفتحة الباب على شكل عقد متجاوز لنصف الدائرة تحيط به تربيعة من الآجر ، وتملأ بنيقات العقد زخارف من سيقان نباتية ملفوفة • وكان يسقف الحجرات لوحات خشبية تتخذ شكل هرم ناقص •

القصــــر

لما افتتح المسلمون الأندلس أقام رؤساؤهم فى القصــور الكبرى بالمدن المفتوحة • وتروى أخبار الفتـــح الاسلامى أن مغيث الرومى — القائد الذى افتتح مدينة قرطبة — أقام فى قصر أمير قرطبـــة القوطى ، وهو القصر المعروف ببلاط قرطبة • غير أن موسى بن نصير رأى أن هذا البلاط أنسب لأن يكون مقراً لوالى قرطبة ، فمنح مغيثاً دارا تشرف على

باب الجزيرة ، أو باب القنطرة المقابل للثلمة التى دخل منهـا مغيث عند فتحه لقرطبه • وكانت « دارا شريفة ذات سقى وزيتون وثمار ، يقال لها اليسانة ، كانت للملك الذى أسره ، وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهى تسمى بالأندلس بلاط مغيث » •

وكان لكل مدينة مفتوحة قصبة بداخلها قصر يحكم منه الأمير رعيته • وقد استولى المسلمون على هذه القصاب ، مثل لا قصبة غرناطة ، وقصبة أريولة حاضرة كورة تدمير ، وقصبة باجة •

ولم يشرع المسلمون فى بناء قصورهم الا فى عهد بنى أميـة ، وهو العصر الذى نبتت فيه الفنون الاسلامية الأندلسية •.فما كاد عبد الرحمن ابن معاووية يستولى على الامارة بالأندلس حتى رأى أن يحيط نفسه بهالة من فخامة الملوك وأبهة الخلفاء ، فقامت حركة معمارية قوية بالبلاد .(١) ، ونشطت هذه الحركة فى عصر الخليفة عبد الرحمن الناصر ، الذى نالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهـار ما نالـت ، حتى بلغت مستوى من الرخاء والثراء لم تبلغه الأمم الأخرى • كذلك اشتدت حركة البناء فى عهد ابنه الحكم المستنصر ، والمنصور بن أبى عامر •

ويعد عصر ملوك الطوائف ، الذى تبع عصر الخلافة الأموية ، أزهى عصور العمارة المدنية على الاطلاق، اذ حرص هؤلاء الملوك على الانغماس فى حياة الترف ، فبلغوا فى الرقة الغاية ، وأقاموا القصور الشاهقة والآثار الجليلة الرائعة • وقد بالغ المؤرخون العزب فى وصفها • ومن أهمهـا : قصر الناعورة بطليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصـر القصبة بمالقة ، وقصر الصمادحية بالمرية ، وقصر الشراجيب بشلب •

---

(١) من بين القصور التى اقيمت ، فى عهد أمراء ببنى امية ، قصر أبى دانس بالبرتغال ، وقصر عمروس بطليطلة .

وكنا نجهل ما كانت عليه عمارة القصور الأندلسية فى عصر المرابطين حتى أمكن الكشف عن بقايا قصير منتقوط فى سهل مرسية ، فزودتنا بمعلومات وافية عن نظام هذه القصور •

أما عصر الموحدين فكان من أزهى العصور فى البناء والتشييد ، فقد أقاموا القصور فى غرناطة وقرطبة ومالقة واشبيلية • ونوهت كتب التاريخ بما بذله أبو يوسف يعقوب من بنائه قصر البحيرة خارج باب جهور ، من أبواب اشبيلية ، ومده له بالمياه من قلعة جابر (قلعة وادى أيرة) ، ومن تشييده للقصر الموحدى بقصبة اشبيلية • وكذلك كثر بناء القصور فى عصر بنى نصر بغرناطة • وليس أدل على ذلك من ذكر قصر الحمراء ، وقصر البرطل ، وقصر جنة العريف •

قصور قرطبة فى عهد بنى أمية

كان الخلفاء من بنى أمية وأمراؤهم يشيدون قصور الحكم بجوار المساجد الجامعة ، وكانوا يطلقون عليها اسم « دور الامارة » • على أنهم كانوا يلتمسون الراحة فى بعض الأحيان ، فيعمدون الى بناء قصور للراحة واللهو بعيدا عن الحاضرة ، ليتمكنوا من الاستغراق فى الترف ، والاستنامة الى حياة اللهو والنعيم التى لاتتاح لهم فى مقر الحكم بالحاضرة •

وكانت هذه القصور تتخذ مظهرا عمرانيا شديد الشبه بالمدن الصغيرة • فقد كانت تتألف من قصور الأمير وأفراد حاشيته وخاصته ، ومن متنزهات ومحال للوحوش فسيحة ، ومسارح للطيور مظللة بالشباك ، واسواق وحمامات وفنادق ، ودور للصناعة ومساجد • غير أن حياة هذه المدن الملكية كانت موقوتة ، فما أسرع ما كانت تنتهب وتسلب على أثر سقوط الأسرة الحاكمة ، كما حدث فى مدينة الزهراء ومدينة الزاهرة ومنية العامرية • ويغلب على الظن فى أسباب تخريب هذه القصور أن

الاسلام يستهجن اضفاء معنى الأزلية على البناء ••• فالدوام لله فقط • وبناء قصور لها صفة الخلود ، أمر خارج عن الدين ، ويشف عن تحد للألوهية •

(١) قصر الامارة : قال عنه ابن بشكوال : « هو قصر أولى تداولته ملوك الأمم ••• وفيه من المبانى الأولية والآثار العجيبة — لليونانيين ، ثم للروم والقوط والأمم السابقة — ما يعجز الوصف • ثم ابتدع الخلفاء من بنى مروان — منذ فتح الله عليهم الأندلس بما فيها — فى قصرها البدائع الحسان • وآثروا فيه الآثار العجيبة والرياض الأنيقة • وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة • وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم ، وأجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص ، تؤديها منها الى المصانع (الأبنية المختلفة) صور مختلفة الأشكال : من الذهب الابريز ، والفضة الخالصة ، والنحاس المموه ••• الى البحيرات الهائلة ، والبرك البديعة ، والصهاريج الغربية ، فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة » •

وأضاف ابن بشكوال قائلا : « وفى هذا القصر القصاب العالية السمو ، المنيفة العلو ، التى لم ير الراءون مثلها فى مشارق الأرض ومغاربها » • وذكر أن من أبنية قصر قرطبة المشهورة : قصر الكامل ، والمجدد والحائر والروضة والزاهر والمعشوق والمبارك والرشيق وقصر السرور والتاج والبديع • من أبوابه : باب السطح المشرف ، وباب جنوبى اسمه باب الجنان يشرف على الرصيف الأعظم وباب الوادى ، وباب شمالى يعرف بباب قورية ، وباب آخر — يعرف بباب الجامع — كان يؤدى الى ساباط الجامع ، ومنه كان يدخل الأمراء يوم الجمعة •

ولقد أضيف الى هذا القصر ، فى العصر الاسلامى ، اضافات متتالية • ولما استولى فرناندو الثالث على قرطبة سنة ١٢٣٦ ، أعطى هذا

القصر الى أسقف قرطبة ، فسمى منذ ذلك الحين بالقصر الأسقفى (Palacio Episcopa) وأصيب هذا القصر بأضرار جسيمة على مر العصور اذ أحرق عدة مرات . ثم حوله الأسقف دون سانشو دى روخاس ، فى القرن الخامس عشر ، الى قصر من الطراز القوطى . ثم هدمت الواجهة الجنوبية فى السنوات الأولى من القرن السابع عشر ، وأحرق القصر سنة ١٧٤٥ ، ولم يتبق منه اليوم سوى الجدار المقابل لجدار الجامع وجزء من الجدار الشمالى للقصر ، فما زالا يحتفظان بنظام جدران جامع قرطبة نفسه ، بما فى ذلك الركائز التى تدعم الجدران وتدفع عنها الضغط .

(ب) قصور الراحة واللهو : أقام عبد الرحمن الداخل — فى أول أيام امارته عام ١٣٨ هـ — قصر الرصافة على بعد كليو مترين شمال غربى قرطبة ، وسماه باسم رصافة جده هشام بدمشق ، وجعله خاصا لنزهه وسكناه أكثر أوقاته . وأحاط هذا القصر بالجنان الواسعة : غرسها بأكارم الشجر ، وأودعها ما كان يستجلبه له يزيد وسفر رسولاه الى الشام ، من النوى المختارة والحبوب الغريبة ، حتى نمت هذه الأشجار بحسن التربية والتعهد ، فى زمن قصير ، وأصبحت أشجارا معتمة أثمرت أجود أنواع الفواكه وأطيبها . وانتشرت هذه الثمار فى أرض الأندلس ، فاعترف بفضلها على أنواعها . وأصل الرمان السفرى ، الذى فاض على أرجاء الأندلس ، وأصبح الناس لا يفضلون عليه سواه ... من هذه الرصافة . وسمى بالرمان السفرى نسبة الى سفر رسوله الى الشام لاحضار أخته .

ومن بين الزراعات التى أدخلت فى الأندلس ، زراعة النخيل ، وكان عبد الرحمن الداخل أول من غرس نواة النخل فى الرصافة ، فكبرت فى عهده ، ونظر اليها يوما فهاجت الذكريات فى نفسه ، وتذكر بها وطنه فقال:

تبدت لنا بين الرصافة نخلة
تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل

فقلت : شبيهى فى التغــرب والنوى
وطول ابتعـــادى عن بنى وعن أهلى
نشــأت بأرض أنت فيهــا غريبــة
فمثلك فى الاقصاء والمنتأى مثــلى !

وأصبحت منيــة الرصافة ــ بعــد سقوط قرطبة ــ مقرا للآبــاء الفرنسسكان ، وتبقى منها اليوم بعض آثار جدران وقاعات . وفى جوف هذه الجدران باب يؤدى الى طريق فى باطن الأرض يقال انه كــان يصل بين قرطبة والرصافة ، وأن هذا الطريق كان يرتاده الأمير عبد الرحمن متى شاء لنفسه الراحة واللهو بعيدا عن أنظار رعيته بالحاضرة . ومــا زالت فى الرصافة نخلة قدم عليها العهد حتى تآكلت أجزاء منها ، يقال انها نخلة عبد الرحمن الداخل . وتذكر هــذه النخلة ــ ســواء صدقت الروايــة الاسبانية أم لم تصدق ــ بما كان لهذا القصر من روعة وبهاء .

وبقرطبة قصر آخر شيده عبد الرحمن بن معاوية ، وأضاف اليه بنو أمية وزخرفوه ، وذهبوا سقفه وفضضوها ، ورخموا أرضه وروضوها ، وأبدعوا بناءه ، وغقوا ساحته وفناءه ، واتخذوه ميدان مراحهم ومضمارا لانشراحهم ، وحاكوا به قصرهم بالمشرق .

وفيه قال ابن عمار :

كل قصر بعــد الدمشــق يذم
فيه طاب الجنى وفاح المشــم
منــظر رائق ومــاء نمــير
وثرى عــاطر وقصر أشــم
بت فيه ، والليل والفجر عندى
عنــبر أشهب ومســك أحم

ولما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد الامارة بقرطبة سنة ٩١٢ م ،

وتلقب بألقاب الخلافة سنة ٩٣٢ م ، ونالت الأندلس على يديه من المجد الرفيع والازدهار ما نالته ، حتى بلغت مستوى من الرخاء لم تبلغه الأمم الأخرى ... رأى أن يبنى له قصرا يليق بجلال الخلافة وبهائها ، فبنى قصر الزهراء على بعد خمسة أميال غربى قرطبة وقد ذكرنا قصور الزهراء عندما تحدثنا عن هذه المدينة .

وأقام محمد بن أبى عامر ، على نهر الوادى الكبير بالقرب من قرطبة ، قصرا سماه بالزاهرة . وشيدت الى جواره عدة قصور وثكنات للجند ، حتى أصبح هذا القصر نواة لمدينة سميت بالزاهرة وقد توسع المنصور فى تخطيطها ، وبالغ فى رفع أسوارها : فاتسعت المدينة ، وكمل بناؤها بعد عامين . وانتقل اليها المنصور بن أبى عامر سنة ٩٨٠ ، واتخذ فيها الدواوين . وبنى كبار قواده ورجال حاشيته عظيم الدور وشاهق القصور ، وقامت بها الأسواق ، وكثرت الأرفاق ، وأحاطها بالمنيات والجنات ، مثل : منية السرور ، ومنية العامرية . واشتد ملك ابن أبى عامر منذ نزل قصر الزاهرة ، وتوسع مع مرور الأيام فى تشييد أبنيتها حتى كملت .

ولما ثار محمد بن هشام بن عبد الجبار بن الناصر المعروف بالمهدى ، وثارت معه عامة الناس على ابنه عبد الرحمن بن المنصور الملقب بشنجول .. خربوا الزاهرة ، واستولى النهب على ما فيها من التحف والذخائر ، وعم بها الخراب ، ونهبت خزائنها ، وأضرمت النيران بساحاتها وتوزعت آثارها .. فلم تبق دار فى الأندلس الا ودخلها من فيئها حصة كثيرة أو قليلة ، وقيل ان بعض ما نهب منها بيع ببغداد وغيرها من البلاد الشرقية . وفى بهو الجص بقصر اشبيلية ــ الذى بنى فى عصر بنى عباد ، وأضيف اليه زمن الموحدين ــ أعمدة تيجانها متخذة من أطلال الزاهرة والزهراء .

القصور فى عصر الطوائف

استقل ملوك الطوائف بأهم مدن الأندلس ، وعظم شأن كثير منهم ، أمثال : المعتمد بن عباد باشبيلية ، وبنى الأفطس ببطليوس ، وبنى ذى النون بطليطلة ، وبنى حمود بمالقة ، وبنى حوس بغرناطة ، وبنى صمادح بالمرية ، وبنى هود بسرقسطة ، وبنى رزين بالسهلة ، وبنى برزال بقرمونة • وقد عمل هؤلاء الملوك على احاطة أنفسهم بكل مظاهر الترف : ففتحوا أبواب مدنهم للشعراء والأدباء ورجال الفن ، وتنافسوا فى بناء القصور السامقة والمبانى السامية • ومن هذه القصور بالله يزيد بن المعتمد بن عباد واليا عن أبيه فيها ، وقصر الصمادحية الذى شيده المعتصم بن صمادح بالمرية ، وقصر أبى عيسى بن لبون بمربيطر وقصر المظفر بن الأفطس بيابرة •

ولم يتبق من قصور الطوائف الا آثار قليلة منها : قصر بنى عباد باشبيلية ، وقصر بنى برزال بقرمونة ، وقصر الناعورة بطليطلة ، وقصر الجعفرية بسرقسطة ، وقصر القصبة بمالقة •

قصور المعتمد بن عباد

أقام المعتمد بن عباد ملك اشبيلية مجموعة من القصور ، منها : قصر المبارك ، وقصر الثريا ، وقصر الوحيد ، والقصر الزاهى ، وقصر المؤيد • وكانت هذه المجموعة تقع شرقى مدينة اشبيلية ، خارج أسوارها فى المكان الذى يقوم عليه القصر الحالى (Alcazar) • وما زالت فى هذا القصر الاشبيلى بقايا من قصر ابن عباد تتمثل فى عقدين على شكل حدوة الفرس ، بينهما عمود ، يطلان على بهو الجص من أبهاء قصر اشبيلية •

كذلك أقام المعتمد قصرا آخر خارج مدينة اشبيلية ، على الضفة الأخرى من النهر ، وسماه قصر الزاهر أو حصن الزاهر • وكان من أجمل المواضع لديه وأبهاها ، وأحبها اليه وأشهرها ، لاطلاله على نهر الوادى

الكبير ، واشرافه على القصر العبادى ، وجماله فى العيـون ، واشتماله بالشجر والزيتون • وكان المعتمد يحن اليه وهو فى منفاه بأغمات ، ويقول:

فياليت شـعرى هل أبيتن ليلة
أمامى وخلفى روضـة وغدير
بمنبتة الزيتـون مورثة العـلا
يغنى حمـام أو تدن طيـور
بزاهرها السامى الذرى جاده الحيا
تشـير الثريا نحـونا ونشير
ويلحظنا الزاهى وسعد سـعوده
غيورين والصب المحب غيور ؟ !

وموضع هذا القصر اليوم بالقرب من قرية حصن الفرج (San Juan de Aznalfarache) على الجانب الأيسر من الوادى الكبير •

وكان للمتعمد قصر رائع يطل على بحيرة كبرى خارج باب جهور من ابواب اشبيلية ، وهو الموضع الذى أقام فيه الخليفة الموحدى أبو يعقوب يوسف قصره المعروف بالبحيرة •

قصر بنى برزال بقرمونة : قرمونة مدينة قديمة اشتهرت منذ العصر الرومانى بتحصيناتها المنيعة • ويـذكر صاحب كتاب « أخبار مجموعة » أنها مدينة ليس بالأندلس أحصن منها • وخضعت قرمونة ، زمن الفتنة ، لبنى برزال البربر • وأقام اسحق بن محمد بن عبد الله البرز الى قصر قرمونة ، وجعل فيه مجلسا رائعا سماه بالسامرة • وقـد أجريت فى هذا القصر عدة اصلاحات ، وأضيف اليه زمن الموحـدين ثم أصيب بأضرار فادحة بعد الاسترداد ، وقاسى من جراء التغييرات المعمارية العميقة التى شملت عمارته زمن بدرو القاسى ملك قشتالة وغيره من ملـوك اسبانيا

المسيحية • ولم يتبق منه اليوم سوى آثار قليلة بالقرب من باب مرشانة• وكان القصر يقوم فى أكثر مناطق المدينة ارتفاعا •

قصر الناعورة بطليطلة شيدة المأمون بن ذى النون ملك طليطلة ، فى سنة ٤٥٥ هـ (١٠٦٣ م) ، وصنع فى وسطه بحيرة ، جعل فى وسطها قبة من زجاج ملون منقوش بالذهب ، وساق الماء على رأس القبة بتدبير أحكمه المهندسون : فكان الماء ينحدر من أعلى القبة حولها محيطا بها متصلا بعضه ببعض ، وكانت القبة فى غلالة من ماء سكب خلف الزجاج لا يفتر جرية ••• والمأمون بن ذى النون جالس فيها لا يمسه منه شىء وقد سمى هذا القصر بالناعورة بسبب ساقية كانت تدور بالقرب من قبة الزجاج ، تجلب الماء من نهر طليطلة وتروى به الروض •

وقال الفتح بن خاقان فى كتابه « قلائد العقيان » فى ترجمته للعلامة أبى محمد عبد الله بن السيد البطليوسى : « وأخبرنى أنه حضر مع المأمون بن ذى النون فى مجلس الناعورة بالمنية التى تطمح اليها المنى ، ومرآها هو المقترح والمتمنى ••• والمأمون قد اجتبى وأفاض الحبا • والمجلس يروق كأن الشمس فى أفقه ، والبدر كالتاج فى مفرقه • والنور عبق ، وعلى ماء النهر مصطبح ومغتبق ، والدولاب (الساقية) يئن كناقة اثر الحوار ، أو كثكلى من حر الأوار • والجو قد عنبرته أنواؤه ، والروض قد رشته أمطاره وأنداؤه ، والأسد قد فغرت أفواهها ، ومجت أمواهها ! »•

وقد وصف ابن حيان هذا القصر ، وذكر أن من مجالسه : المجلس المكرم ، قد كسيت أجزاؤه السفلى بازار من المرمر الأبيض الرقيق ، ونقشت فيه صور حيوانات بين أشجار ، وطيور تحط فوق ثمار • ويفصل هذا الازار عما فوقه طراز عريض به نقوش كتابية محفورة فى الرخام ، كلها أشعار فى مديح المأمون • ويعلو هذا الطراز الكتابى أفاريز من الفسيفساء المذهبة ، عليها صور حيوانات وطيور وأشجار • وأرضية هذه الأفاريز مكسوة بتوريقات مذهبة وملونة •

وكان لقصر الناعورة بحيرتان ، نصبت على أركانهما تماثيل أسود من الذهب والصفر ، تشبه أسود بهــو السباع بغرناطة ، وقــد فغرت أشداقها ، وانساب الماء من أفواهها نحو البحيرتين هونا • ووضع فى قاع كل بحيرة حوض رائع من المرمر ، بديع النقش ، قــد برزت فى جوانبه صور حيوانات وطيور وأشجار • وغرزت فى وسط كل حوض منها شجرة من فضة ، فيندفع الماء منها ، وينصب على الأفنان كرذاذ المطر ، وتحدث عند مخرجه نغمات كألحان موسيقية عذبة !

وقد اندثر هذا القصر بصورته التى وصفناها ، ولم يبق منه سوى أطلال بفحص طليطلة • ويطلق الاسبان على هذه الأطلال قصر جاليانا ، وقد نسجوا حوله قصصا من الفروسية والأساطير • وتروى هذه القصص أن أميرة مسلمة كانت تعيش فيه ، وانتهى بها الأمر ــ بعــد مغامرات عجيبة ــ الى أن تتزوج الامبراطور شارلمان •

وقد بقى من هذا القصر جزء مستطيل أقيم فى طرفيه طابقان يؤلفان برجين كبيرين ، ويتكون الطابق الأدنى منهما من قاعــة متوسط تتخلل جدرانها فتحات • والبناء يتبع الأسلوب الطليطلى فى العمارة ، اذ تتناوب فيه صفوف الحجر الجرانيتى وصفوف الآجر • أما القبوات فمتعارضة • وقد بقيت بعض عقود (أقواس) نصف دائرية وأخرى مفصصة فى داخل الغرف • أما الزخارف فمن نوع مدجن ، وتحمــل رنوك (رموز) أسرة قزمان ، مما يفسر ــ الى حد كبير ــ صحة هذه الرواية •

قصر الجعفرية بسرقسطة : بناه أبو جعفر أحمد المقتدر بالله بن هود (١٠٤٧ ــ ١٠٨١) ، كما يثبت ذلك نقش بأحد تيجان أعمدة هذا القصر • وقد سمى بالجعفرية نسبة الى كنيته (أبى جعفر) • وكان المقتدر يسميه « مجلس الذهب » ، وفيه يقــول :

قصر السرور ومجلس الذهب
بكمـــا بلغت نهـــاية الأرب

لو لم يحـــز ملكى خـــلافكما
كانت لدى كفـــاية الطلب

وقد تحول هذا القصر الى دير بعد سقـــوط سرقسطة فى أيـــدى النصارى ، ثم ألحقت به بعد ذلك عـــدة مقصورات دينيـــة نذرت لسان جورج ، ثم أضيفت اليـــه سنة ١٤٩٢ ـــ فى عهـــد الملكين الكاثوليكيين : فرناندو وايزابيلا ـــ قاعة العرش • غير أنه مالبث أن أقيمت فيه محكمة التفتيش بسجونها الرهيبة • ثم دعمه فيليب الثانى بمعاقل ، وحفر من حوله خندقا•ثم حول الى معكسر فىسنة١٨٦٦فىعهد الملكة ايزابيلا الثانية، فهدمت المنصورة الكبرى التى شيدها بدرو الرابع ، وجردت من زخارفها الاسلامية الرائعـــة •

وقد وصم جوميث مورينو هذا التخريب للقصر بأنه « عمل بربرى يندى له الجبين ، ومن أشـــد النقط سوادا فى تاريـــخ اسبانيا » • ولم يستثن من هذا العمل الهمجى سوى المصلى الذى يؤلف بزخارفه ـــ مع ما يحتويه متحفا سرقسطـــة ومدريد من تيجان أعمدة ، وعقـــود جصية رائعة ـــ كل ما بقى من قصر بنى هود •

ومن العسير أن نتصور ما كان عليه هذا القصر قبل أن يعتريه هذا التشويه ، ولكن لدينا تصميمـــا يصور هذا القصـــر سنة ١٧٥٧ • وقد استطاع سافرون أن يقيم عليه دراسة علمية هامة •

والقصر على مسافة قصيرة من ربض المدينة على نهر ابرو • ويتألف من سور مستطيل يدعمه تسعة عشر برجا أسطوانية الشكل ، عـــدا برج التكريم فقد كان مربع الشكل • وفى وسط هذا البناء فناء مستطيل تدور به أروقة جانبية • وكانت تطل على جانبيه القصيريين مجموعتان من الغرف،

كل منهما تتألف من قاعة وسطى وغرفتين جانبيتين كما هى الحال فى قصور الحمراء وقصور المدجنين ٠ والى جانب برج التكريم قاعة كبيرة ــ لعلها كانت مجلس الذهب الذى كان يعتز به المقتدر بن هود ــ تنفتح فى جانبيها غرفتان ، احدهما يشغلها المسجد الذى ما زال قائما حتى وقتنا هذا ٠ وكانت هذه القاعة الكبرى تتصل جنوبا بالصحن ، وكان يقابله فى الجهة الأخرى قاعة تسمى قاعة الرخام نسبة الى كثرة أعمدتها الرخامية ٠

وقد كشفت بائكة من العقود الاسلامية كانت تتصل بأسطوان المدخل الرئيسى ، على أثر هدم جزء من مقصورة سان جورج التى فى قاعة الرخام ٠ وتتألف هذه البائكة من ثلاثة أقواس كلها غلو فى التعقيد الزخرفى ، وأقواسها طبقتان : احداهما فوق الأخرى ، والدنيا منهما أقواس مفصصة متقاطعة ، فوقها أقواس أخرى تتداخل فيها الخطوط المستقيمة بالمنحنيات ٠ وفيها نشهد اتجاه الفن الأندلسى ، اذ ذاك ، الى الاسراف فى التعقيد ، والغلو فى حشد الزخرفة ، والتوسل بالأقواس المتقاطعة التى تظهر فيها التوريقات المتشابكة والتشجيرات المتداخلة ٠

أما المصلى فبابه مدجن ، وأما داخله فمثمن الشكل ٠ وأصله مربع طول ضلعه ٥٠ر٥ م ، تحول الى مثمن بأن أقيمت فى أركانه أنصاف حوائط ويشغل المحراب الركن الجنوبى الشرقى ، وتعلوه قبيبة مفصصة محارية الشكل ، ومدخله على شكل قوس متجاوز يشبه قوس محراب جامع قرطبة ، يحيط به افريز مستطيل ، وفى بنيقتيه محارتان ٠ ويزين الجدران السبعة الأخرى قوس أصم شديد التعقيد من النوع الذى تختلط فيه الخطوط والمنحنيات ، ويحيط به افريز بارز يتخذ الشكل نفسه ٠ أما القوسان المحفوظان بمتحفى مدريد وسرقطسة فكانا يزينان القاعة الرئيسية ويستحيل على المرء أن يتقصى امتداد خطوط هذه الأقواس ، اذ هى تتشابك وتتداخل فيما بينها بطريقة ساحرة فريدة ٠

ويحتفظ متحف سرقسطة بمجوعة رائعـــة من تيجـــان الأعمـــدة المرمرية تمثل لنا مدى التطور الذى أحرزه الفن الأندلسى بعد أن تحرر مما كان يغلب عليه من تأثيرات سابقة عـــلى الاسلام • ونلمس فى هذه التيجان حرية الأداء والرشاقة • وتكسو هذه التيجان زخـــارف قوامها ورقة الأكنش أو شوكة اليهود ، وتوريقات دقيقة حفرت على طبقتين حفرا غائرا أبرز هذه الزخارف وأوضحها •

ولا تزال فى متحف سرقسطة اشلاء كثيرة من هـــذا القصر نجهل مكانها منه وتتألف من ألواح رخـــامية وشمسيات جصية ، ان دلت على شىء فعلى مدى ما وصل اليه الفن الأندلسى من تعقيد رائـــع يعجز عنه الوصف •

قصر بنى حمود بقصبة مالقة : أقـــام يحيى بن عـــلى ابن حمود (١٠٢١ ــ ١٠٣٧) هذا القصر بقصبة مالقة التى بناها حبوس الضهاجى ولم يبق من هذا القصر ، الذى أضيف اليه فى عصر بنى نصر ، سوى قاعة يبلغ طولها ٧٫٥٠ موعرضها ٣ أمتار ، وتنتهى جنوبا بشرفة رائعـــة تطل على البحر ، وتبدو جدرانها من الخارج فقيرة البناء ، ولكن الزخارف التى تكسوا أجزاءها الداخلية وثيقة الصلة بزخارف قصر الجعفرية •

وعندما شرع فى اجراء حفائر فى قصبة مالقة سنة ١٩٣٦ ، لم يكن فى الحسبان اكتشاف مثل هذا الأثر الجليل الذى يرجع الى القرن الحادى عشر • ومدخل القاعة تزينه بائكة من ثلاثـــة عقود أو أقـــواس شديدة التجاوز ، مكسوة بزخارف رائعة • ويسبق هذه البائكة رواق أعيد بناؤه فى عصر النصريين ، كما يبدو من أسلوب التيجان ونوع العقود • وتطل هذه القاعة على بهو شأنها فى ذلك شأن الجعفرية بسرقسطة ، والى غربها بناء مربع طول ضلعه ٢٫٥٠ متر ، ويقوم فى كل واجهة من واجهاته الأربع عقدان متقاطعان ، وينشأ من تقاطعهما عقد جديد يعلوهمـــا على النحو

الذى نراه فى عقود زيادة الحكم المستنصر بجامع قرطبة ، وهذه العقود جصية ملساء ،

أما القاعة نفسها فكان يدور بجدرانها طراز بارز به زخرفة جصية لم يبق منها سوى أجزاء ملتصقة بالجدران ، وعقود المـدخل تتألف من سنجات (١) مزخرفة ، وأخرى عارية من الزخرفـة بالتناوب ، وتتكون الزخرفة من توريقات تظهر بينها المراوح النخيلية الطويلة التى ما تلبث أن تلتف حول نفسهـا ، وكيزان الصنوبر التى تتـدلى وسط الفـروع والسيقان ، وفى باطن العقود لوحات موزعة فى امتداد السنجات تحتشد فيها الزخارف الجصية التى تذكرنـا بالفن الخلافى بقرطبـة ، وتمهد لزخارف قصر الجعفرية ،

قصور الموحدين فى الأندلس

اهتم خلفاء الموحدين فى الأندلس ببناء القصور ،وحظيت اشبيلية ـ حاضرتهم فى اسبانيا الاسلامية ـ بعنايتهم ، فأسسوا فيها القصر الذى يحكم فيه الخليفة فى أثناء مروره بها أو زيارته لهـا ، وقصـر البحيرة ، والقصر الواقع خارج باب الكحل ،، كما أقام ولاتهم فى الأندلس قصورا فى المدن التى حكموها ، منها : قصـر أبى يحيى بقرطبة وقصـر السيد بمالقة ، واشتهر من مهندسيهم فى بناء القصور يعيش المالقى ، والعريف محمد بن المعلم ، وشيخ العرفاء أحمد بن باسة ، والعريف على الغمارى، قصر أبى يحيى بقرطبة : هو قصر بنـاه السيد أبـو يحيى بن أبى

قصر أبى يحيى بقرطبة : هو قصر بنـاه السيد أبـو يحيى بن أبى
يعقوب يوسف بن عبد المؤمن خارج أسوار قرطبة على متن نهر الوادى

---

(١) السنجات : هى قطع الحجارة او قوالب الآجر التى يتألف منها عقد من العقود أو قوس من الاقواس . وهذه السنجات تكسى بطبقة من الجص وينقش عليها زخارف نباتية وتوريقات .

الكبير ، وتأنق فى بنائه ، وبالغ فى اتقانه ، وأنفق فى بنيانه مالا كثيرا • وقد قال الشاعر ناهض بن ادريس فى وصف هذا القصر :

ألا حبـذا القصر الذى ارتفعت به
على الماء من تحت الحجارة أقواس

هو المصنع الأعلى الذى أنف الثرى
ورفعـه عن لثمه المجـد والباس

فأركب متـن النهـر عزا ورفعـة
وفى موضع الأقدام لا يوجد الراس

فلا زال معمـور الجنـاب وبابه
يغص ، وحلت أفقه الدهر أعراس

ويغلب على الظن أن المهندس الحاج يعيش المالقى هـو الذى بنى هذا القصر ، لأنه انتقل الى قرطبة بعد سنة ١١٦٠ لعمارة قصورها • وما تزال بقايا هذا القصر قائمة على احدى طواحين الهواء بنهر الوادى الكبير قرب قنطرة قرطبة •

قصر البحيرة خارج باب جهور بأشبيلية : أمر الخليفة أبو يعقوب ببناء قصر البحيرة خارج باب جهـور سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) ، واختط بحيرته فى الجنان المنسوبة لابن مسلمة القرطبى ، بعد أن عوضـه عنها بعوض صحيح من الجنات مثلها • وأقام فى هذا المكان قصورا ودورا ، وأمر أحمد بن محمد الحوفى قاضى اشبيلية ، وأبا بكر محمد بن يحيى الحذاء أمام جامع اشبيلية ، أن يختطا له ما يتصل بهذا القصر وملحقاته وجناته لغرس الزيتون والأعناب وغرس الفواكه المستغربة النادرة ••• فاختطا ما أمرهما به • واستجلبت أشجار الزيتون المختـارة ، وغرست هى وأحمال الأجاص (الكثمرى) والتفاح •

أما القصور فقد قام ببنائها عريف البنائين بالأندلس أحمد بن باسه، فجاءت فى غاية الحسن والبهاء . وما زالت آثار الموضع الذى كان يشغله هذا القصر قائمة حتى وقتنا هذا .

قصر اشبيلية : من العسير استخلاص ما أقامه الموحدون فى مجموعة الأبنية التى تؤلف اليوم قصر اشبيلية ، فقد كان يتألف من قصور مختلفة فى مركزين رئيسيين : قصر الملك بدرو الذى أقامه سنة ١٣٦٤ على أبنية اسلامية ، والقصر المسمى بالقصر القديم .

على أن الذى يهمنا هو القصر الموحدى الذى أقامه أبو يوسف يعقوب على أنقاض أحد قصور المعتمد بن عباد . ولم يتبق منه اليوم سوى قاعة تسمى قاعة الجص ببهوها ، وهو بهو ضيق صغير المساحة ، مستطيل الشكل تقريبا ، يقوم فى أحد جانبيه القصيرين صف من العقود تتألف من قوس أوسط منكسر ، يحيط به من كل جانب ثلاثة أقواس صغيرة ، وتتكىء هذه الأقواس أو العقود على أعمدة استغلت من قصر المعتمد بن عباد ، ويؤلف حافات العقود السبعة خطوط متموجة .

أما بنيقتا العقد الأوسط فتغطيهما شبكة من أشرطة منحنية متشابكة، فى حين تمتد العقود الجانبية وتتقاطع منحرفة لتحدث معنيات محزمة . وكان بالجدار المقابل لهذه البائكة جوفة من ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس ، تتكىء على عمودين مركزيين .

كذلك تبقت من بقايا قصر اشبيلية قبة ذات اثنى عشر عقدا متقاطعة فيما بينها ، وذلك فى المنزل رقم ٣ ببهو البنود ، غير بعيد من بهو الجص . وتشبه هذه القبة قبة المحراب بجامع تلمسان .

قصر الحمراء بغرناطــة

ينسب قصر الحمراء الى أبى الحجــاج يوسف الأول (١٣٣٤ ــ ١٣٥٤) • وقد شيد فيه أول ما شيد : البرج المعروف بقمارش ، وقصر متشوكة ، والحمام الملكى ، وباب الشريعة ، وبــرج الأسيرة ، ومصلى البرطل • ولما قتل أبو الحجاج يوسف خلفه ابنــه محمد الخامس الغنى بالله ، فأكمل بناء قصر الحمراء بما فيه القصــور السلطانية التى تحيط ببهوى الريحان والسباع •

أعمال يوسف الأول : وينسب الى يوسف الأول السور الحصين الذى يحيط بمرتفع الحمراء ، بأبراجه وبوابته العظمى المعروفــة بباب الشريعة ، الذى ينم نظام بنائه عن أصالة وعن فن اسلامى خالص • وقد تم بناؤه سنة ١٣٤٨ وفقا لما ورد فى النقش الكتابى • وقد أطلــق عليه باب العدل نسبة لصورة كف مفتوح ومفتاح : يرمز الكف الى العدالة ، ويرمز المفتاح الى مدخل قصور الحمراء كما أطلق عليه اسم باب الشريعة نسبة الى المصلى الذى كانت تقام فيه صلاة العيدين والابتهالات الدينية وقت الشدة والقحط والجفاف •

ومن أقدم قصور الحمراء التى ترجع الى عهد يوسف الأول قصر البرطل ، ويعنون بالبرطل فى الأندلس الظلة التى تقوم على بائكــة هذا القصر ، الواقعة بين برج السيدات ومصلى صغير • وتتألف ظلــة هذا القصر من خمسة عقود ، أوسطها أكثرها ارتفاعا • ويطل البرطل على بركة تزودها نافورة أسفل العقد الأوسط بالمياه • ووراء هذا البرطل ، وفى ركن منه قاعة مربعة تشبه البرج يمكن الارتقاء منها الى طابق علوى • ويغطى الجدران التى تعلو عقود بائكة البرطل شبكات من زخرفة المعنيات ،ويحيط بالجدران ازار من الزليج تتعدد فيه الرسوم الهندسية الملونــة • وتقوم عقود البائكة على أربع دعائم من الآجر •

والى يمين البرطل من شرقه ، وعلى ممشى السور ، مسجد صغير ملحق بالبرطل لصق دار قديمة . ويتناقض مظهر هذا البناء الصغير ، من حيث ترابه ، مع بناء الأسوار والأبراج المجاورة فى حمرتها وعرائها من الزخرفة . ويبلغ طول هذا المسجد ١٦ر٤ أمتار وعرضه ٣ أمتـار . وفى رأسه محرب يقابل الباب ، ويتجه نحو الجنوب الشرقى . وتعلوه قبوة مقرنصة .

كذلك ينسب الى يوسف الأول برج الأسيرة الذى يضم بداخله قصرا صغيرا يتألف من قاعة أساسية تكتنفها شرفات ومخادع جانبية . ويتوسط البرج بهو داخلى صغير يحيط به من جهات الأربع مجنبـات . وزخرفة قاعات هذا البرج – لا سيما تربيعاته الزليجية – من أجمـل ما شيده يوسف الأول . وينسب الى السلطـان نفسه برج الشرفات بين مصلى البرطل وبرج الاسيرة . والى يسار برج السيدات يقع مخـدع الملكة ، ويضم هذا البرج قصرا لطيفا من أعمـال يوسف الأول ، ويتصل هـذا البرج بقصر الريحان وبرج قمارش . وقد تغيرت الأجزاء العليا منه فى القرن السادس عشر ، وازدانت بروائع من فن التصوير الايطالى .

أما قصر السلطان يوسف الأول ، فهو أروع مـا شيده السلطان ، ويتوسط هذا القصر بهو الريحان ، وفى جهته الشمالية برج قمارش الذى يشتمل فى داخله على قاعة السفراء . ومن قمريات هذه القاعة ومنظراتها يمكن امتاع البصر بمنظر من أروع مناظر الطبيعة الساحرة ، وتنتقل العين فى نهر حدرة الذى تندفع مياهه أدنى البرج الى حى البيازين فى المرتفع الآخر المقابل للحمراء .

وزخاف هذا القصر يعجز عنها الوصف ، وتتألف من زخرفة جصية ملونة هندسية ونباتية وكتابية ، ويعلوه سقف خشبى يعرف باسم رواق البركة . وتطل على بهو الريحان بأئكة مؤلفة من سبعة عقـود ، العقد الأوسط منهاه أكثرها ارتفاعا . وهو أروع مثال للبهـو الأندلسى ، اذ

تشغل وسطه بركة كبيرة ، مستطيلة الشكل ، تحف بها أشجار الريحان ، ومن هنا سمى أيضا باسم بهو البركة • ويقابل هـذه الواجهة جنوبا ، واجهة أخرى مماثلة تقع فى المحور نفسه •

والى شرقى مجلس قمارش وبهو الريحان : الحمامات السلطانية ، وهى من أقدم أبنية القصر • وتؤلف هذه الحمامات مجموعة كاملـة من الأبنية • وترجع الى عهد يوسف الأول الذى سجل اسمه فى نقش كتابى• ويسبق الحمامات الى الشمال قاعة يطلق عليها اسم قاعة الأسرة ، وقد أجريت عليها اصلاحات عديدة فى القرن السادس عشر ، غيرت كثيرا من معالمها القديمة • ويسقف القاعة الأساسية فى الحمامات قبة تخترقها مناور أو مضاوى ، وهى أشكال نجمية لانفاذ الضوء ،وتكسو الجزء الأدنى من الجدران تربيعات رائعة من الزليج •

أعمال محمد الخامس : توج محمد الخامس أعماله المعمارية بتشييده أروع مجموعة فى قصور الحمراء ، وهى مجموعة قصر السباع • ونظام هذا القصر جديد فى تاريخ العمارة الغرناطية فى القرن الرابع عشر ••• اذ أنه ـــ بدلا من القاعتين اللتين تقعان فى الطرفين القصيرين للمستطيل فى بهو قصر جنة العريف وبهو الريحان ـــ أحاط بالبهو المركزى ، المعروف ببهو السباع ، فى واجهاته الأربع أربع بوائك • وتتوسط البهو نافورة أو فوارة تقوم على حرص استدار تحته اثنا عشر أسدا تمج المياه من أفواهها ويدور بالبهو أربع بوائك ، تقوم على عمدها الرشيقة عقود نصف دائرية مطولة ، تعلوها جدران مكسوة بالشبكات الزخرفية • ونقرأ على جدران هذا القصر نقوشا عربية ، منها « عز لمولانا السلطان أبى عبد الله الغنى بالله » كما تزخر بكثير من أشعار ابن زمرك فى مدح السلطان •

وبهو السباع على شكل مستطيل طوله ٢٨٫٥ مترا ، وعرضه ١٥٫٧٠ مترا • ونظام هذا البهو يماثل نظـام القصيرين جوسقان مقببان تحملهما أعمدة رشيقة ، ويتقاطع محورا البهو ـــ وقد اتخذا شكل قناتين للمياه ـــ

بحيث يؤلفان شكلا صليبيا . وتقع خلف الجوسق الغربى قـاعة فسيحة تغيرت معالمها الاسلامية ... فى حين تقـع خلف الجوسق الشرقى قاعة الملوك ، أو قصر العدل ، وتزخر بالعقود المتعارضة التى تحتشد فى بواطنها المقرنصات الدقيقة .

أما القاعتان الجانبيتان للبهو شمالا وجنوبا ، فهما من أروع ما جاء به فن العمارة الاسلامية فى الأندلس : فالقاعة الجنوبية ـ وتعرف بقاعة بنى سراج ـ يتوسطها حوض من الرخام به آثار بقع حمراء ، يقال انها من دماء بنى سراج بعد أن قضى عليهم ملوك بنى نصر . وتعلـو القاعة قبة رائعة الجمال من القرنصات الدقيقة ، نجمية الشكل . أمـا الشمالية المقابلة لها ، فاسمها قاعة الأختين ، نسبة الى لوحتين كبيرتين من الرخام متماثلين فى الشكل تكسوان الأرضية . وتعلو هذه القاعة بالمثل قبة نجمية الشكل من المقرنصات الدقيقة التى تشبه خلايا النحـل . وتؤدى هذه القاعة الى شرفة تطل على حى البيازين . وجميع جدران هـذه القاعات مكسوة بالزخارف الهندسية والنباتية المحتشدة ، تتخللها كتابات كوفية ونسخية فيها أدعية للسلطـان . والأجزاء الدنيا منهـا مؤزرة بالزليج والفسيفساء .

ونلاحظ أن فن البناء بقصر الحمراء فن دنيوى ، عـلى نقيض فن المرابطين . ولم يكن بناء بنى نصر للمساجد الا نتيجة للتوسع الاجتماعى الذى فرضته هجرة سكان المدن التى سقطت تباعا فى أيدى النصارى . وحتى هذه المساجد كانت تزخر بالزخارف التى تلهى المسلم عن صلاته ، وتجعل من هذه المساجد قصورا خيالية تسبح فى زخارفهـا وتنميقاتها الأبصار دون كلل أو ملل ... بل أن هـذه الزخارف كانت تغطى جدرانا رقيقة ضعيفة ، وتكسوها كما لو كانت أبسطة .

وهكذا يكشف فن غرناطة عن حقيقة طبيعية : هـى رغبة شعب قد بلغ ذروة التطور فى التمتع بحاضره والشك فى غده . وهكذا كانت الأبنية

التى زخرت بها غرناطة قصورا يتمتع فيها المرء بحياة من الترف فى نطاق طبيعى لا مثيل لجماله • وكان المجال الذى يحيط بهذه القصور يتجاوب وهذا التمتع •

ونجح عرفاء بنى نصر فى احداث تأثير جمالى يصحب فن توزيع الخمائل والجنان ومزج المنظر الطبيعى بالعمارة ••• فالحمراء تجلو لنا أروع أمثلة هذا الفن ، بل هى واحة خضراء فى اقليم قاحل جاف تحرقه الشمس ، ولا تدع غابة الحمراء التى تحيط بالقصر السلطانى وكثافة الفروع أى مجال لنفاذ أشعة الشمس • كما أن هذه النسمات المنعشة التى تهز الأشجار فترطب الوجوه المحترقة ، والمياه التى تنساب بين الصخور ، والطيور التى تغرد على الأشجار وبين الأغصان والافنان ••• كل ذلك يجعل من قصر الحمراء قصرا أسطوريا أو جنة الله فى أرضه ، ويحمل المرء على أن يحيا فى عالم خيالى لا يفكر فيه الا فى القصور التى كانت تعيش فيها أميرات ساحرات •

وهنا يبلغ الفن الغرناطى الذروة ، فقد أعد كل شىء اعدادا دقيقا لتخدير المشاعر عن ادراك الحقيقة التى لا سبيل الى التغافل عنها ، وهى انتهاء دولة الاسلام فى الأندلس !

الحمامات

كثر بناء الحمامات فى المدن والقرى الأندلسية ، بحيث يمكننا القول بأن دور الحمام فى الأهمية المعمارية يأتى مباشرة بعد المسجد الجامع • وكانت للحمام أهمية عظمى فى الحياة الاجتماعية الأندلسية ، اذ كانت عادة الاستحمام من العادات المتأصلة بعمق فى الاسلام • والواقع أن الحمام هو المكان الذى يستشعر فيه المرء بجهة الحياة ، لأن الاستحمام يولد فى النفس احساسا بالراحة ، ويحدث فيها شعورا بانتعاش بدنى وروحى •

وكان من أسباب تعلق أهل الأندلس بالاستحمام ــ بالاضافة الى الشعور النفسى الذى يحدثه بخار الماء الساخن ، وما يتبعه من تدليك ــ أن الحمام كان مركزا للاجتماعات المرحة ، ومجالس الأنس واللهو والغناء ثم أن النساء يجدن فى الذهاب اليه فرصة للتسرية عنهن وتغيير الجو ، والتمتع بحرية نسبية ، اذ أنهن يحطمن فيه ــ ولو خلال دقائق ــ أغلال التقاليد • وكان الأمر كذلك بالنسبة للرجل حين يتجرد من ثيابه ، ولا يضع على بدنه غير مئزر رقيق • وكثيرا ما كان شعراء الأندلس يذكرون الحمام فى أشعارهم ••• من ذلك قول أحد الشعراء فى وصف حمام :

ومنزل أقوام اذا ما تقـــابلوا
تشـــابه فيه وغده ورئيســـه
ينفس كربى اذ ينفس كربه
ويعظم أنسى اذ يقل أنيســـه

وكثيراما قصده الشعراء الأندلسيون ، وتطارحوا فيه الشعر • ومن أمثلة ذلك أن أبا بكر بن بقى قابل أبا جعفر بن هريرة التطيلى المعروف بالأعمى الشاعر ، فقال له الأعمى : أجز • فقال :

حمامنا كرمان القيظ محتدم
وفيه للبرد صر غير ذى ضرر

فقال الأعمى :

صـــنوان ينعم جسم المرء بينهما
كالغصن ينعم بين الشمس والمطر

وقال الشاعر نفسه ، أعمى تطيلة ، فى وصف حمام :

يا حســـن حمامنـــا وبهجتـــه
مرأى من الســـحر كله حسن

ماء ونار حـــواهما كنف

كالقلب فيه السرور والحزن

وكان للحمام — بالاضافة الى ما سبق — غرض دينى ، اذ أنه يطهر جسد المرء تطهيرا تاما • ولعل ذلك هـو السبب الذى من أجلـه يغسل المسلمون جثث أمواتهم قبل مواراتها التراب ، لأن جسم الانسان معرض دائما لكل ما يفسد الطهارة • والماء يطهر الجسم ، ويزيل ما علق به • وفى ذلك يقول الشاعر الشهاب بن فضل الله :

وحمـــامكم كعبـــة للوفود

نحج اليـــه حفـــاة عراه

يكرر صـــوت أنابيبه

كتـــاب الطهارة •• باب المياه

وكانت الحمامات لهذا السبب تكثر بالقرب من المساجد حيث يتيسر للمسلمين الاستحمام والتطهر قبل الدخول الى المسجد للصلاة • وتدل الوثائق الخاصة بتوزيـع دور اشبيلية عـلى الفاتحين الأسبان ، بعد استردادهم للمدينة ، على أن حماما اسلاميا كان يقع بالقرب من سقايات المسجد الجامع • وما زلنا نرى اليوم آثار حمام بجوار المسجد الجامع باشبيلية ، قبالة مئذنته ولصق القصر الأسقفى •

وفى قرطبة تبقى حمامان بجوار المسجد الجامع : أحدهما فى شارع يعرف بلاس كوميدياس ، والآخر فى شارع الحمـام • ويتألف الحمام الأول من قاعة وسطى ، بها عقود مفرطحة ومتجاوزة تحملها عشرة أعمدة، وكانت تعلو هذه العقود قبو لم يبق لها اليوم وجود بعد أن تحولت هذه القاعة الى بهو •

ويذكر هرناندو البياسى ، فى القـــرن السادس عشر ، أن بغرناطة حماما كان يقع بجوار المسجد الجامع الذى تحول الى كاتدرائية غرناطة •

وكثرت الحمامات فى المدن الأندلسية لدرجة أن عددها أصبح متقاربا مع عدد مساجدها • ويذكر ابن حيان أن عدد حمامات قرطبة بلـــغ أيام المنصور ابن أبى عامر تسعمائة حمام ، وقيـــل سبعمائه • ويـــذكر ابن عذارى المراكشى أن حمامات النساء وصلت الى ثلثمائه حمام •

وقد اتخذ بعض ملـــوك الأندلس من الحمامات مسرحـــا للجرائم السياسية ، فقد احتال المعتضد بالله بن عباد على طائفة من رؤساء أعدائه البربر حتى زاروه باشبيلية ، فأدخلهم الحمام مبالغة منه فى الحفاوة بهم، وما كادوا يدخلون فى قاعته الساخنة حتى سد عليهم الباب فهلكـــوا عن آخرهم !

ولم تكن عادة الاستحمام فى الأندلس استمرارا لما كان متبعـــا فى اسبانيا قبل الفتح الاسلامى ، فقد حمـــل الفاتحون معهـــم تقاليدهم ، وغرسوها فى اسبانيا • وانتشرت عادة الاستحمام فى اسبانيا المسيحية بتأثير من اسبانيا الاسلامية • الا أن عادة الاستحمام تلاشت من اسبانيا المسيحية منذ النصف الثانى من القرن السادس عشر فى عصر الامبراطور شارلكان والملك فيليب الثانى • وساعد على ذلك تعصب الكنيسة ضد هذه العادة الاسلامية وعداؤها الشديد لهـــا • وانقرضت فى طليطلة منذ عهد ألفونسو الحكيم ، واقتصرت عند أهل طليطلة على المناسبات الهامة عندهم فكانت الفتاة لا تستحم الا يوم زفافها • وذكر فراى ارناندو دى طلبيرة، أسقف غرناطة ، أن الملكة ايزابيلا الكاثوليكية اعترفت أمامه بأنها كانت لا تغسل قدميها الا مرة واحدة فى الشهر •

وكان دير يوستى ، الذى اعتزل فيه الامبراطور شارلكان ، خاليا من الحمامات • وعندما جردت مخلفاته فى هذا الدير عثر على أربع قطع

من النسيج الهولندى ، كان يستخدمها الامبراطور العظيم لتخفيف قدميه عند غسلهما •

وكان الحمام الأندلسى يتألف عادة من مدخل يؤدى الى ثلاث قاعات أو أربع رئيسية مقباة ، تضاف اليها ملحقات الحمام من الموقد والمرحاض الى آخره • وكانت هذه القاعات تتصل فيما بينها عن طريق فتحات أو أبواب ، وكانت تتخذ جميعها شكلا مستطيلا ، أو مربعا بخلاف الحمامات المصرية فى العصر الاسلامى ، اذ كانت تدور حول غرفة مركزكة •

ويؤدى مدخل الحمام الى أسطوان أو ردهة صغيرة فى شكل مرفق ، يليه حجرة ضيقة مستطيلة تعلوها قبوة نصف أسطوانية بنهايتها قبوان يعرفان بالخلوتين • ويفصل هاتين الخلوتين عن بقية القاعة عقدان يستندان فيما على عمود مركزى • ونعرف هذه القاعة باسم « البيت البارد » ، وتقابل قاعة (Tepidarium) فى الحمامات الرومانية • وكان المستحمون يجلعون فيها ثيابهم عند دخول الحمام ، ويلبسونها عند خروجهم منه • وفى أركان الخلوتين مقاعد يستريح عليها المستحمون •

وفى بعض الحمامات المترفة كانت تسبق البيت البارد غرفة تعرف « ببيت المستراح » ، يستريح فيها المستحمون قبل خروجهم من الحمام ومقابلتهم الهواء الخارجى • ويلى البيت البارد قاعة تعرف بالبيت الوسطانى ، وهى أكثر اتساعا من القاعة السابقة ، وتعد أهم أجزاء الحمام • ويتوسط هذه القاعة فراغ مركزى مربع يعلوه قبة ، ويحيط به أربعة ممرات مقببة ، تحملها عقود قائمة على أعمدة • وجيمع هذه القبوات الجانبية ، والقبة الوسطى ، تتخللها فتحات نجمية الشكل تغلق بقطع زجاجية — تسمى « مضاوىء » — لادخال الضوء •

ويتبع هذه القاعة قاعة أخيرة تعرف « بالبيت الساخن » (Calidarium) وهى غرفة ضيقة مستطيلة تشبه الغرفة الأولى ، ولها نفس نظامها • وفى

منتهى الغرفة موقد كبير يسمى بالقدر أو البرمة أو الفرنش ، وهـو ما يقابل (Hypocausis) الرومانية . وتخرج من القدر أنابيب الماء الساخن والبارد ، وتدخل فى الجدران لتصب فى أحواض الحلوات .

ويلاحظ أن درجة الحرارة ترتفع فى الحمـام بالتدريج من البيت البارد الى البيت الساخن ، فـاذا انتهى المستحـم من حمامه تعرض بالتدرج لهواء أقل حرارة من الهواء الداخلى الساخـن حتى يصل الى البيت البارد فيستريح فيه قليلا قبل أن يغادر الحمام .

وكانت أرضية الحمام تكسى عادة بالفسيفساء أو بلوحات الرخام ، وجدر أنه تزين بلوحات الزليج ، أو تحلى بالرسوم الجمليـة التى تمثل صور النساء عاريات . وكثيرا ما ساهمت التماثيل الرومانيـة فى تجميل الحمامات . ويذكر المقرى أنه عثر فى أطلال طالقة الرومانية على تمثال جارية من المرمر تحتضن صبيا ، وتنظر فى ذعر الى حية تكاد تقترب من صبيها ، وقد حملت هذه الدمية ووضعت فى حمـام الشطارة باشبيلية ، وتعشقها جماعة من العوام . وفيهـا يقول أبو تمام غـالب بن رحاب الحجام ، من شعراء القرن الحادى عشر :

ودمية مرمر تزهى بجيـد
تنـاهى فى التورد والبيـاض

لها ولد ولم تعـرف خليلا
ولا ألمت بأوجاع المخـاض

ونعلم أنهـا حجـر ولكـن
تتيمنا بألحـاظ مراض .

وكان يعمل بالحمامات قومة ، منهم الحكاك والحجـام ، وكان لا يسمح لهم بالتجول داخل الحمـام الا بسراويل نظيفة بيضاء . وكـان السقاءون يحملون الماء على ظهورهم من السقايات الى الحمامات . وقد

تصل المياه رأسا الى الحمامات من قنوات فى جوف الأرض ، تتفرع منها أنابيب الى المبانى المختلفة كما حدث فى أشبيلية فى عهد أبى يعقوب يوسف (١١٧٢).

ولقد تبقى فى اسبانيا عدد كبير من الحمامات الاسلامية — فى اشبيلية وبلنسية وميورقة وغرناطة وقرطبة وسرقسطة ومرسية وطليطلة وبسطة — ويرجع سبب بقاء كثير منها فى حالة جيدة الى ضخامة جدرانها وصلابتها والى قدرة قبواتها على تحمل بخار الماء ، ثم الى وظيفتها النفعية ، وعدم وجود أية علاقة بينها وبين عمارة المساجد التى عمد الاسبان الى محوها من اسبانيا . ولذلك فان الحمامات هى أقل المنشآت الاسلامية تعرضا للتخريب والتدمير الذى لم تسلم منه بقية الآثار الأخرى .

حمامات طليطلة

تبقى منها حمامان ، وقد أصبح هذان الحمامان اليوم مصارف للقاذورات ومخازن ، الأمر الذى أدى الى سد فتحاتهما وتشويههما . أحدهما يقع قريبا من البوثو أمارجو (البئر المرة) بطليطلة ، وكان يعرف فى القرن الثالث عشر باسم حمام يعيش ، ويتألف من ثلاثة أروقة متوازية ، طول الواحد منها عشرة أمتار ، تعلوها قبوات نصف أسطوانية. ويقع الحمام الثانى — وكان يعرف بحمام زيد — فى الحى القديم لليهود ، ويتصل أسطوان المدخل فيه برواقين متوازيين فى حجم مماثل لأروقة الحمام السابق ، تعلوهما قبوتان أسطوانيتان مزودتان بالمضاوى التقليدية .

حمام غرناطة

أقامة باديس الصنهاجى ، وكان يعرف فى العصر الاسلامى بحمام الجوز . وقد وصل الينا هذا الحمام فى حالة جيدة للغاية . وباب الحمام

يؤدى الى بيت المستراح الذى تخلع فيه الثياب ، وهو قاعة تعلوها قبوة نصف أسطوانية تتخللها مضاو مثمنة نجمية الشكل • ويتلو هـذه القاعة البيت البارد ، وهو قاعة طويلة فى نهايتها مخدعان يتقدمهما عقدان على شكل حدوة الفرس تحملهما أعمدة ، ويلى هذه القاعة البيت الوسطانى ، وتحيط به ثلاثة ممرات، فى كل ممر ثلاثة عقود على شكل حدوة الفرس قائمة على عمد ، وتلتقى بهذه العقود عقـود أخرى عمودية على جدران القاعة من نصف دائرية • ويعلو الجزء الأوسط من القاعة قبوة مفرطحة ، ويتبع هذه القاعة قاعة البيت الساخن التى تشبه القاعة الأولى • وينتهى الحمام بموقد وبعض الملحقات •

وجدران الحمام مبنية من ملاط شديد الصلابة ، أمـا العقود فمن الآجـر •

حمـــــام بلنسيـة

هو أكمل هذه الحمامات جميعـا ، ويسمى اليوم حمـام الميرانتى (Almirante) • ولقد تهدمت منه ردهة المدخل ، وبقيت عدة قاعات منها البيت الوسطانى ، وتعلو الفراغ المركزى بهذا البيت قبة مثمنة تقوم على جوفات مقوسة ، وحول هذا الفراغ أربعة ممرات تطل على وسط القاعة بعقود على شكل حدوة الفرس ، قائمة على عمد من الرخـام الوردى بتيجانها الملساء •وتعلو هذه المرات قبوات نصف أسطوانيـة تتخللها ، وتتخلل القبة الوسطى مضاو نجمية الشكل •

الفنـــــادق

تأثر المسلمون فى الأندلس بنظـام الفندق الذى كـان شائعا عند اليونان باسم (Agora) ، والرومان باسم (Horrea) ، فاستخدموا هذا البناء فى مدنهم ومن العجيب أن الفندق الاسلامى فى الأندلس ظل معروفا

فى اسبانيا المسيحية ، وكان يعرف باسم (Alhondiga) أو (Alfondiga) ومنها اشتقت اليوم كلة (Fonda)، وتعنى بالاسبانية فندقا يأكل فيه النزلاء وينامون .

وكان الفندق فى الأندلس بناء يقضى فيه التجار الغربـــاء ليلهم ، وتحفظ فيه البضائع وتخزن أو تباع أحيانا بالجملة ، فكان بمثابة الخان فى المشرق بجانب وظيفته فى التخزين والبيع . وكانت هذه الفنادق تتسمى بأسماء ما يباع فيها من بضائع : كالحبوب والقمح والخضروات والقراميد والتين ... الى غير ذلك ، أو كانت تتسمى بأسماء أصحابهـــا ، كفندق زايدة بغرناطة .

ويشغل الفندق الأندلسى مكانة هامة فى العمران الاقتصادى ، لذلك كثرت الفنادق فى أهم مراكز المدينة ، أى حول المسجد الجامع . ويؤيد ذلك ما ذكره الادريسى خاصا بفنادق المرية من أنه كان بها ، فى النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ، ما يقرب من ٩٧٠ فندقا .

ويتألف الفندق فى الأندلس ــ كما نراه اليوم فى مراكش ــ من بهو مستطيل أو مربع تدور به مجنبات أو ممرات تطل عـــلى هـــذا البهو . وتتوزع غرف الفندق وراء هذه الممرات . ويخصص الطابق الأدنى من الفندق للمخازن والاصطبلات ، أما العلوى فيشتمل على حجرات النزلاء ومخازن البضائع المعدة للبيع . وتقوم عقود المجنبات حول بهو الفندق على دعائم خشبية تربطها فيما بينها أوتار خشبية كذلك . وكـــانت هذه الدعائم ، فى الفنادق الغنية ، تتخذ من الآجـــر ، ويتوسط البهو عـــادة فوارة للسقاية .

ويمكن الصعود الى الطابق العلوى من الفندق من درجين . وجدران الفندق الخارجية خالية من أى منفذ وذلك لتجنب السرقات . أما المدخل فكان يتخذ شكل عقد متجاوز على هيئة حـــدوة الفرس ، أو منكسر على

مثال عقــود الموحدين ، ويحيط به اطــار مستطيل تزين بنيقتيه ، أى خاصرتيه ، بعض التكوينات الزخرفية والتوريقات • ويلى المدخل ردهة أو أسطوان تعلوه قبوة أسطوانية أو من المقرنصات ، كما هو الحــال فى فندق غرناطة المعروف اليوم بفندق الفحم • وتقوم غرفة الفندقى فوق هذا الأسطوان مباشرة ، وهى غرفة مزودة بنافذة مزدوجة العقد ، تطل على البوابة حتى يستطيع الفندقى أن يراقب منها عملية نقل البضائع •

ونظام هذه البوابة ، بعقدها الضخم المنكسر ، يذكرنا بالايوانات المشرقية التى ظهرت بادىء ذى بدء فى القصــور الساسانية • وتؤدى الردهة الى باب يفضى الى البهو ، ويعلو هذا الباب عتب ، وتعلو العتب نافذة مزدوجة العقد • ولم يكن بفنادق الأندلس أســرة للنوم ، بل كان النزلاء ينامون على حصر يمدهم بها الفندقى كما يمدهم بالأغطية اللازمة• وكان على النزلاء أن يشتروا طعامهم من الخارج •

وما زال اسم الفندق يطلــق اليوم على أحــد شوارع اشبيلية (Calle de la Alfondiga) ويعد فندق الفحم بغرناطة أروع أمثلة الفنادق الأندلسية فى القرن الرابع عشر • وبوابته من أجمل البوابات فى المعارة الأندلسية • ويتألف هذا لفندق من ثلاثة طوابق ، ويتوسط بهوه الفسيح حوض لسقاية النزلاء •

القيســـــاريات

اشتهرت مدن الأندلس فى العصر الاسلامى بازدهار متاجرها وكثرة أسواقها • واختصت بعض المدن بكثرة منتجاتهــا الزراعية ـــ كالزيتون وما يقوم عليه من صناعات ، والفواكه والغلال ـــ وأخرى بوفرة منتجاتها الصناعية : كصناعة المنسوجــات والبسط والغضار المــذهب (الخزف) والزليج ، وصناعة الصابون واستخراج زيت الزيتون ، وصناعة آلات

الصفر والحديد من السكاكين وما اليهـا • ولذلك كثرت بمـدن الأندلس الأسواق العامرة •

وكانت هذه الأسواق تمتد حول ساحة المساجـد الجامعة ، وكانت البضائع القيمة تباع فى بنـاء كبير على شكل مستطيل ، بداخله طريـق تتوزع فيه الحوانيت على كلا الصفين • وكان يطلق على هذا البناء اسم «قيسارية» • وكلمة قيسارية تعريب للكلمة اليونانية اللاتينية (Kaisareie وتعنى السوق القيصرى التابع للدولة •

ونظام القيسارية فى الأندلس يخضع لنظام قيسارية حلب الرومانية وكانت القيسارية الأندلسية تتألف أحيانا من شبكة من الطرقات الضيقة المسقوفة زنقـات ، أو ممرات تدور حـول بهو فسيـح • وتنفتـح الحوانيت على هذه الممرات • وما زالت اشبيلية تحتفظ حتى اليوم بشارع يعرف بشارع القيسارية بجـوار كنيسة سان سلفادور ، نسبة للسوق الذى كان يحيط بجامع ابن عدبس • ويحدثنـا ابن عبدون فى كتابه عن آداب الحسبه ، بأن هذه القيسارية كانت تضم سـوق الثياب ، وسوق الخياطين الذى يسمى اليـوم (Calle de los Alfayates) والصباغين ، وسوق السقاطين ، وسوق الصاغة والعطارين •

وكانت القيسارية قائمة حتى عهـد الخليفـة أبى يوسف يعقوب المنصور سنة ٥٧٢ هـ (١١٧٦ م) • اذ أمر بهـدم الديـار والحوانيت والفنادق التى كانت تحيط بساحة المسجد الجامع ، ثم أمر ببناء قيسارية حول هذا المسجد المـوحدى : تأنق فى بنائها ، وجعل لهـا أربعة أبواب ضخمة تحوطها من جوانبها الأربعة ، أكبرها الباب القبلى والباب الشمالى ، وكانا يقابلان بابى الجامع القبلى والشمالى • فلما كمل بناؤها بحوانيتها نقلت اليها أسواق العطارين والبزازين والخياطين • وتزاحـم الناس فى المزايدة فى كرائها ، فنما الخراج فى ذلك الوقت ، وعمر الجامع بالصلوات

فيه • ويغلب على الظن أن أسقف هذه القيسارية الاشبيلية كانت من ألواح الخشب المنقوشة بالزخارف النباتيـة والتوريقات ، كما كان الحـال فى قيسارية مراكش •

وظلت هذه القيسارية قائمة بعد سقوط اشبيلية فى أيدى المسيحيين وبقيت أبوابها قائمة حتى النصف الثانى من القرن السادس عشر وفقـا لوصف المؤرخ الاشبيلى المعاصر لها ألونسو مرجـادو • كذلك وصفها المؤرخ رودريجو كارد بعد ذلك بخمسين عاما بقوله : « وتقع القيسارية أمام الدرجات المؤدية الى كاتدارئية سانتا مارية • وعلى الرغم من فقرها الزخرفى فانها تعد بحق غنية بما تحتويه من أسواق الحـرير والديباج وغيرها من المنسوجات القيمة • وهناك سوق الصاغة والحلى والجواهر »

ويحدثنا المؤرخ نفسه عن قيسارية جامع ابن عدبس (كنيسة سان سلفادور) فيقول : « ما زالت قائمة فى المكان الذى كانت تشغلـه فى عهد المسلمين » • وظلت القيسارية الكبرى قائمة حتى طليعـة القرن التاسع عشر ، ثم اقتصرت ــ قبل عام ١٨٣٩ بقليل ــ على شارع واحد قصير هو شارع قيسارية الحرير ، فى نهايـة كل طرف منه عقـد ضخم تقوم عليه غرف •

وكانت قرطبة تحتفظ حتى عهد حديث بميدان مستطيل الشكل يعرف بالقيسارية • وكانت لبلنسية قيسارية فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر • كما كانت لكل من طليطلة ومالقة وغرناطة قيسارية تقع قريبا من المسجد الجامع • وتبقى من قيساريـة غرناطة طريق واحـد من الطرق الكثيرة المتشعبة داخلها ، وتصطف على كلا جانبى هذا الطريق حوانيت كانت تباع فيها المصنوعات القيمة والمنتجات الثمينة • وقد احترقت هذه القيسارية سنة ١٨٤٣ • ويصفها مارينيو سيكيلو فى القرن السادس عشر بقوله : « يوجد بها ما يقرب من مائتى حانوت ، تباع فيهـا المنسوجات الحريرية وجميع أنواع التجارات الثمنية • وهذا البناء ــ الـذى يعد فى

حد ذاته مدينة صغيرة ــ يشتمل على كثير من الأزقة والزنقات ، وينفتح فى سوره عشرة أبواب عليهــا درابون أو حراس معهــم كلاب يسهرون الليــل » .

دور الصـــــــناعة

دار الصناعة بناء تصنع فيه السفن والآلات ، وكانت تسمى أيضا بدار صناعة القطائع ، أو دار صناعة الأسطول . ومن كلمة دار الصناعة اشتقت الكلمة الاسبانية (Atarazana) والكلمة الفرنسية (Arsenal)

ولميكن للمسلمين عند فتحهم الأندلس معرفة بصناعــة السفن ، فاستخدموا دور الصناعة القديمة لعمل سفنهم . فقد ذكر ابن القوطية القرطبى ، أن سارة القوطية [1] أنشأت مركبا باشبيلية توجهت بــه الى الشام ، ونزلت بعسقلان ويغلب على الظن أن هذه الــدار كانت من بناء الرومان .

وذكر الحميرى فى كتابه « الروض المعطــار » أنه كــان بالجزيرة الخضراء دار للصناعة سنة ٧٤١ م فى الوقت الذى نزلت فيه جنود بلج بن بشر فى شبه الجزيرة . وقد أصلح الأمير عبد الرحمن بن محمد هذه الدار ، وأتقن بناءها ، على أسوارها . ثم اتخذها الثائرون زمن الطوائف قصرا . وورد ذكرها أخيرا فى عهد الملك عبد الله الزيرى ملك غرناطة .

ويبدو أن دار الصناعة باشبيلية قد توقفت عن انتاج السفن حتى عهد عبد الرحمن الأوسط ، حين بدأ النورمانديون يغيرون عــلى ساحل الأندلس ، فاضطر الأمير ازاء ذلك الى بناء دار صناعة باشبيلية . ويقول ابن القوطية بهذه المناسبة : « فأمر باقامة دار صناعة باشبيلية ، وأنشأ

---

(١) هى ابنة « المند » اكبر ابناء الملك « غيطشة » ، آخــر ملوك القوط الغربيين الشرعيين .

المراكب ، واستعد برجال البحر من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم ، فاستعد بالآلات والنفط • فلما قدموا القدمة الثانية سنة أربع وأربعين ومائتين (٨٥٨ م) ، فى أيام الأمير محمد ، تلفوا فى مدخل نهر اشبيلية فى البحر ، فهزموا وحرقت لهم مراكب ، فانصرفوا » •

واهتم عبد الرحمن الناصر ، من بنى أمية خاصة ، باصطناع سياسة بحرية فى الأندلس لمواجهة أخطار النورمانديين والغزو الفاطمى • وأقام دارا للصناعة بالمرية ، وثانية بطرطوشة ، وثالثة بقصر أبى دانس •

وبلغ الاهتمام بصناعة السفن أقصاه فى عصر الموحدين ••• فقد ذكر ابن صاحب الصلاة أن الخليفة الموحدى أبا يعقوب يوسف ، أمر واليه على اشبيلية ، أبا داود بلول بن جلداسن ، قبل حملته على شنترين بالبرتغال سنة ١١٨٤ : « أن يقوم ببناء دار صناعة للقطائع ، تتصل من سور القصبة الذى على الوادى بباب القطائع الى الرجل السفلى المتصلة بباب الكحل » • وقد أكد المؤرخ الاشبيلى « أورتث دى ثونييجا » أن دار الصناعة الاسلامية كانت فى الموضع نفسه الذى ذكره المؤرخ المسلم ابن صاحب الصلاة •

وقد قامت هذه الدار فى عهد الناصر الموحدى بصناعة عدة سفن حربية • وكان يحميها برج الذهب الذى بناه أبو العلا ادريس المأمون سنة ١٢٢٠ ، ألا أن هذه الدار هدمت عند الهجوم البحرى الذى قام به رامون بونيفاث ، قائد أسطول قشتالة ، على مدينة اشبيلية سنة ١٢٤٦ • وفى سنة ١٢٤٨ شرع ألفونسو العاشر فى اعادة بناء دار الصناعه باشبيلية متبعا فى ذلك النظام القديم •

وكانت دار الصناعة بأشبيلية تتألف من عدة أروقة عمودية على الوادى الكبير ،تفصل فيما بينها دعائم قوية من الآجر ، وتعلوها قبوات

مرتفعة من البناء ... اذ كان المسلمون يحرصون على تجنب الخشب فى أبنيتهم الحربية لقابليته للحريق .

وفى عهد بنى نصر أقيمت دور أخرى لصناعة الأسطول فى المرية ومالقة . وقد استمرت دار صناعة الأسطول بالمرية قائمة حتى سقوط المرية سنة ١٤٨٩ ، ثم خربت بعد ذلك .

أما دار صناعة الأسطول بمالقة ، فقد أنشئت كذلك فى عصر بنى نصر ، ولم يتبق منها اليوم سوى بوابتها الكبرى التى يبلغ ارتفاعها ٨٫٥٦ متر وعرضها ٧٫٥٠ متر . وعقدها من الرخام على شكل حدوة الفرس المنكسرة بعض الشىء فى رأسها ، وتتناوب فى هذا العقد سنجات بارزة وأخرى فى مستوى البناء ، ويحيط بحنية العقد شريط منبعج يتصل بالاطار العالم المربع ، ويعلوه عتب مستطيل ، ويشغل بنيقتى العقد رنكان بارزان عليهما شعار بنى نصر ، وهو العبارة المشهورة « لا غالب الا الله » ويعلو جدران البوابة افريز يمتد فيه صف من العقود المتجاوزة الصغيرة . ويتوج الجدار كله شرفات تشبه شرفات الحصون .

جسور المياه

عندما افتتح المسلمون الأندلس شاهدوا كثيرا من الجسور الرومانية الضخمة ، تحمل المياه من الجبال فى أنابيب دقيقة الى المدن . وقد استخدم الفاتحون هذه الجسور حينا ، ثم تفننوا فى تشييد جسور من عمارتهم حين تقدم عندهم فن البناء .

ويذكر ابن الفرضى أن عبد الرحمن الناصر أقام سنة ٣٢٩ هـ (٩٤٠ م) « القناة الغريبة الصنعة ، التى أجرى فيها الماء العذب من جبل قرطبة ، الى قصر الناعورة غربى قرطبة ، فى المناهر المهندسة ، وعلى الحنايا المعقودة . يجرى ماؤها ، بتدبير عجيب وصنعة محكمة ، الى بركة

عظيمة عليها أسد عظيم الصورة ، بديـــع الصنعة ، شديد الروعــة ، لم يشاهد أبهى منه فيما صور الملوك فى غابر الـــدهر ، مطلى بذهب ابريز ، وعيناه جوهرتان لهما وميض شديد ... يجوز هذا الماء الى عجز هــذا الأسد ، فيمجه فى تلك البركة من فيه ، فيبهر الناظر بحسنه وروعة منظره وثجاجة صبه ، فتسقى من مجــاجه جنان هــذا القصر عــلى سعتها ، ويستفيض على ساحاته وجنباته ، ويمد النهر الأعظم بما فضل منه ... فكانت هذه القناة وبركتها ، والتمثال الذى يصب فيها ، من أعظــم آثار الملوك فى غابر الدهر ... لبعد مسافتها ، واختلاف مسالكهــا ، وفخامة بنيانها ، وسمو أبراجها التى يترقى الماء منهــا ويتصوب من أعاليهــا . وكانت مدة العمل فيها ، من يوم ابتدأت من الجبــل الى أن وصلت الى هذه البركة ، أربعة عشر شهرا » (١) .

ويغلب على الظن أن هذا الجسر كان لا يختلف فى كثير أو قليل عن الجسور الرومانية بمــاردة وشقوبية وطركونة . ولسوء الحظ لم يتبق شىء من هذا الجسر .

أما اشبيلية فقد كان مشكلة امدادها بالمياه أمرا محــيرا بسبب قلة مياها العذبة القابلة للشرب . ولما اختار الموحدون هذه المدينة عاصمة لهم فى اسبانيا ، لم يقفوا عاجزين أمام هذه المشكلة فقد نظــر الخليفة أبو يعقوب يوسف فى أمر توصيل المياه الى قصوره باشبيلية والبحيرة .

---

(١) قال ابن بشكوال عن هذا الجسر : « ابتدع الخلفــاء من بنى مروان فى قصرها البدائع الحسان ، وأجروا فيه المياه العذبة المجلوبة من جبال قرطبة على المسافات البعيدة ، وتمونوا المؤن الجسيمة حتى أوصلوها الى القصر الكريم واجروها فى كل ساحة من ساحاته وناحية من نواحيه فى قنوات الرصاص تؤديها منها الى المصانع صور مختلفة الاشكال من الذهب الابريز والفضة الخالصة والنحاس المموه الى البحيرات الهائلة والبرك البديعة والصهاريج الغريبة فى أحواض الرخام الرومية المنقوشة العجيبة»

وكان خارج باب قرمونة — فى الفحص الواسع — أثر قديم ، قد بعد به العهد ، من بنيان جسر رومانى قديم ، قد علت عليه الأرض ، وأصبح هذا البناء خيطا رفيعا من حجارة لا يفهم المسلمون الغرض منه . فخرج اليه الحاج يعيش المهندس ، وحفر حول هذا الأثر ، فاذا بـه جسر من المياه قديم من عهد الرومان كانت تجرى فيه المياه . فمازال يعيش بتتبعه بالحفر حتى أوقعة الحفر فى العين القديمة ، المسماة عند أهل اشبيلية بعين الغبار ، كانت تخرج منها المياه ... فأذا تلك العين ليست بعين ماء مـاء كما كان الظن ، وانما كانت فتقا فى طريـق الجسر الرومانى . فاستمر يعيش فى الحفر حتى اهتدى الى أصل الجسر — قرب قلعة وادى أيرة — فأصلحه المهندس ، وأجراه الى داخل اشبيلية حيث وزع عـلى القصور والحدائق . ومازالت بقية من هذا الجسر قائمة بالقرب من باب قرمونة باشبيلية . وبعض عقودها من الآجر ، والبعض الآخر من الحجارة .

القنـــاطـــــــر

تتميز الأندلس بكثرة أنهارها التى تشق مدنها ، مثل : نهر تـاجة ، ونهر آنة ، ونهر الوادى الكبير ، ونهر حدره ، ونهر شنيل ، ونهر وادى لكه ووادى سليط . فكان من الضرورى أن يهتم أمـراء الأندلس باقامة القناطر على هذه الأنهار لربط الضفتين . وكانت هذه القناطر أمـا قائمة على أقواس : مثل قنطرة طليطلة ، وقنطرة قرطبة وقنطـرة سرقسطة ، وقنطرة ماردة . واما قائمة على سفن : مثـل قنطرة اشبيلية ، وقنطرة مرسية .

وقنطرة اشبيلية بناها الخليفة الموحدى أبو يعقـوب يوسف سنة ٥٦٦ هـ (١١٧٠ م) ، لانجاز مصالح الناس ، واجازة الجند عليها فابتدأ العرفاء والصناع العمل بها ، والنجارة والهندسة لوضعها على النهر ، فى أول المحرم سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) فتمت فى ٧ من صفر من العام نفسه .

وعقد القنطرة على سفن مربوطة ، وبذلك يسر الاتصال بين اشبيلية وربضها المعروف بطريانة . وقد هدمت هذه القنطرة سنة ١٢٤٦ عند فتح الاسبان لاشبيلية .

وقنطرة قرطبة كانت تصل بين مدينة قرطبة وربضها المعروف بشقندة ، وهى من بناء الامبراطور أغسطس قيصر ، وقد وجدها الفاتحون العرب ، عند فتحهم لمدينة قرطبة ، مهدمة : قد سقطت حناياها ، ولم يبق منها سوى دعائمها ... فجددها السمح بن مالك الخولانى من أحجار السور الرومانى . ثم جددت بعد ذلك فى عد هشام بن عبد الرحمن الداخل من خمس فى أربونة ، وأحكم بناءها وأتقنها . وقال يوما لوزرائه:
الداخل من خمس فىء أربونة ، وأحكام بناءها وأتقنها . وقال يوما لوزرائه
« ما يقول أهل قرطبة ؟ » . فقال أحدهم : « يقولون ما بناها الأمير الا عليها . وبالفعل لم يمر عليها طول حياته ، ووفى بما حلف عليه .

ثم جددها عبد الرحمن الأوسط مرة ثانية . وأعيد بناؤها فى عهد الملك دون بدرو . ثم جددها الملكان الكاثوليكيان . ثم أقيم بها سنة ١٦٠٢ قوسان جديدان . وفى سنة ١٧٨٠ جددت الدعائم التى تحمل القنطرة . وفى سنة ١٨٨٠ أعيد رصفها من جديد . ثم كسيت سنة ١٩١٢ بكسوة من الأسمنت غطت معالمها الأثرية . وفى نهاية القنطرة من جهة شقندة برج كبير يطلق عليه القلعة الحرة ، بناه أنريكى الثانى سنة ١٣٦٩ على أسس بناء اسلامى . وعدد أقواس هذه القنطرة اليوم ستة عشر قوسا تحملها سبع عشرة دعامة .

أما قنطرة طليطلة فتقوم على نهر تاجه . وكانت تتألف من قوس واحد تكتنفه فرجتان من كل جانب ، وقد خربت القنطرة أيام الأمير محمد وهدمها . ثم أعاد بناءها خلف بن محمد العامرى قائد طليطلة بأمر المنصور بن أبى عامر سنة ٩٩٧ . وخربت بعد استرداد القشتاليين لطليطلة ، ولم

يبق منها سوى الكتف الكبير للجانب المقابل للمدينة ، فرممت سنة ١٢٥٩ • وظلت على حالتها الى يومنا هذا •

وقنطرة القاضى بغرناطة ، التى تقوم على نهر حدرة ، لم يتبق منها اليوم سوى مخرج عقد على شكل حدوة الفرس ، ويلتقى هــذا المخرج ببرج سداسى الشكل ، مشيــد من كتل حجرية • وفى هــذا العقد شق مزدوج كانت تحفظ فيه شبكة حديدية ترتفع فى حالة الفيضان ، وتنخفض وقت الجفاف لتسد النهر • ومن هنا سمى هذا الموضع باسم باب الشبكة، وسمى أيضا بباب الضفاف ، وباب الحواجز ، اشارة الى تلك المغاليق •

ووصلت الينا قنطرة نهر شنيل عند التقائه بنهر حدره فى حالة جيدة، وتتألف من خمسة أقواس نصف دائرية ، قطر الأوسط منها سبعة أمتار ، وهو أكبر من بقية الأقواس • وتقوم هذه الأقواس جميعا عــلى دعائم مزودة بأكتاف مستديرة من ناحية ، ومدببة من الناحية الأخرى • والبناء قوامه ألواح من الحجر الرملى مصفوفة على جوانبها ، كما هو الحال فى قنطرة القاضى ، تتعاقب فى صفوف من كتل قائمة وأخرى ممتدة طولا •

رابعا ـ العمـارة الحربيـــة بالأندلـــس

يشتمل هذا النوع من العمارة فى الأندلس عـلى الأسوار المحيطة بالمدن بأبراجهاه وأبوابها ، وما أدخل على هـذه الأسوار والأبراج من تحسينات استحدثهـا المسلمون لتدعيم النظـم الدفاعية أمـام خطر الاسترداد الاسبانى : مثل الأبراج البرانيـة ، والأسوار الامـامية ، والأبواب ذات المرافق • كما يشتمل على القصـاب والقلاع التى كانت تقام عادة فوق الأماكن المشرفة العالية حتى تتمكن حامياتها من السيطرة والاشراف على كل ما يحيطها من مناطق •

وتحتفظ المدن الأندلسية فى وقتنا هذا بتراث ضخـم من الأسوار والقلاع الاسلامية التى تنطق حقا بالدور الكبير الذى قامت به ، كما تعبر عن الجهاد المرير الذى قام به المسلمون للاحتفاظ بوطنهم الحبيب والدفاع عن شرفهم وكرامتهم • وقد ظلت هذه الأبنية الحربيـة الاسلامية مثلا يحتذى للعمارة المدجنة والمسيحية حتى عصـر النهضة ، حـين فقدت التحصينات من قيمتها الدفاعية القديمة على أثر ما ابتكرته الحروب من آلات حربية جديدة ، كالمدافع والمتفجرات •

الأســـــوار

قنع الفاتحون المسلمون فى أول عهدهم بالأسوار الرومانيـة التى كانت تحيط بأهم مدن الأندلس • فلما اتسع نطاق هذه المدن بازدياد عدد سكانها ، وتثلمت أسوارها ، وتمزقت نتيجة طبيعية للتوسع العمرانى ، واقامة الأرباض الخارجة عن نطاق المدينة ، واتصالها بالحومات أو الأحياء الداخلية وأصبحت هـذه الأسوار عقبة كـأداء فى سبيل العمران ••• استعمل المسلمون أحجار هذه الأسوار فى بناء منشآتهم الدينية والمدنية ، وتحولت مواضع الأسوار المتهدمة الى شوارع فسيحة • ثم أقيمت أسوار

اسلامية البناء على نطـاق أكثر اتساعـا من الأسوار القديمة ، بحيث أصبحت الأسوار الجديدة تحيط بكل ما طرأ على المدينة من توسع عمرانى جديد بعد الفتح .

وتأثرت العمارة الحربية الاسلامية ، بطبيعة الحـال ، بالعمـارة الحربية الرومانية أو البيزنطية التى كانت سائـدة فى اسبانيا ، وحذت حذوها بحيث يصعب على المرء التمييز بين الأسوار الرومانية والأسوار الاسلامية . وما لبث بناء الأسوار الاسلامية أن اكتسب طابعـا اسلاميا خالصا ، وذلك منذ عهد الموحدين حيث بلغ الغاية فى الاتقان والتقدم أمام خطر الاسترداد الذى كان يهدد مملكة المسلمين فى الأندلس .

وقد تبقت أجزاء كثيرة من الأسوار التى كانت تحيط بمدن الأندلس: ففى المرية أجزاء ما زالت قائمة من سور خيران العامرى ، وفى قاصرش تبقى جزء كبير من سورها الموحدى ، وفى بطليوس أجزاء من سورها فى عصر الموحدين ، وفى استجة كذلك بقايا من أسوار الموحدين ، وفى غرناطة وقرمونة والجزيرة الخضراء وأرقش ومدلين بقايا أسوار من عهود مختلفة ودراسة جميع أسوار الأندلس أمر يخرج عن مجالنا ، لذلك فقد اكتفيت بمثالين لبعض هذه الأسوار بقرطبة واشبيلية .

أسـوار قرطبـة

نجح المسلمون فى الاستيلاء على قرطبة من ثغرة فى سورها القبلى بجانب باب القنطرة التى كانت قد تهدمت وقتئذ . ويبدو أن هذه الثغرة قد اتسعت بعد ذلك بسنوات ، كما تهـدمت أسوار قرطبـة من الجانب الغربى ، وأصبحت مدينة مفتوحة للداخلين اليها والخارجين منها .

وكان لا بد لوالى الأندلس فى ذلك الوقت أن يفكر فى ترميم سور المدينة ، وتجديد بناء الجسر . فكتب السمح بن مالك الخولانى — وكان واليا على الأندلس وقتئذ — الى الخليفة الأمـوى عمر بن عبـد العزيز

يستثيره فى ذلك الأمر ، ويخبره « أن مدينة قرطبة تهدمت من ناحيتها الغربية ، وكان لها جسر يعبر عليه نهرها ، ووصفه بحمله وامتناعه من الخوض فى الشتاء عامة ... فان أمرنى أمير المؤمنين ببنيان سور المدينة فعلت ، فان قبلى قوة على ذلك من خراجها بعد عطايا الجند ونفقات الجهاد وان أحب صرفت صخر ذلك السور فبنيت جسرهم . فيقال ـ والله أعلم ـ أن عمر رحمه الله أمر ببنيان القنطرة بصخر السور ، وأن يبنى السور باللبن اذ لا يجد له صخرا » . فبنى السمح قنطرة قرطبة ، ثم مات عمر . وتولى يزيد بن عبدالملك ، وعزل السمح بعد ذلك ، وبذلك تعطل بناء سور قرطبة .

وظل سور قرطبة مهدما حتى ولى الأمير عبد الرحمن الداخل الأندلس ، فأعاد بناء السور حول قرطبة باللبن فى سنة ٧٦٦ م على أساس السور الرومانى القديم .. وفى ذلك يقول صاحب كتاب فتح الأندلس . « وفى سنة خمسين ومائة أمر الامام ابن معاوية ببناء سور قرطبة ، فبنى ما كان جبر منه باللبن ، اذ بنيت القنطرة من صخره ، فكمل بناؤه حسب ما أمر به » .

وكانت أبواب قرطبة سبعة : واحد فى السور القبلى هو باب القنطرة ويعرف بباب الصورة نسبة الى تمثال للعذراء كان منصوبا فى أعلاه ، وكان يسمى كذلك بباب الوادى . وباب الجزيرة الخضراء ، وبابان فى السور الشرقى هما الباب الجديد ويعرف بباب سرقسطة ، وباب عبد الجبار ويعرف أحيانا بباب طليطلة ، وباب رومية . وفى السور الشمالى باب واحد هو باب اليهود أو باب ليون أو باب طلبيرة . وفى السور الغربى ثلاثة أبواب هى من الشمال : باب عامر القرشى ، وباب الجوز أو بطليوس ، وباب العطارين أو اشبيلية .

وفى سنة ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ابتنى الناصر لهذه الأبواب أبوابا داخلية توازيها حتى يتمكن البوابون من تثقيفها . وكان هذا ابتكار

معماريا بقصد المبالغة فى أحكام اغلاق هذه الأبواب .

وكانت أرباض قرطبة قد زادت ، وأصبحت تحيط بمدينة قرطبة أو قصبتها من جميع الجهات ، حتى بلغت واحدا وعشرين ربضا . وكانت هذه الأرباض خارج أسوار المدينة القديمة ، غير مسورة على الاطلاق . فلما كان عهد الفتنة التى تبعت سقوط الخلافة الأموية ، وأصبح الناس لا يأمنون على مالهم وأرواحهم ... أقيم حول هذه الأرباض سور مانع وخندق يدور بجملتها . وذكر ابن عالب أن محيط هذا السور بلغ أربعة وعشرين ميلا بما فى ذلك ربض شقندة على الضفة الأخرى من النهر . وكان بناء الأسوار من الطابية (١) .

ظل سور قرطبة موضع رعاية الأمراء والخلفاء حتى أعاد الموحدون بناءه بالملاط الصلب ، ولم يتبق منه اليوم الا بقايا متناثرة لها طابع عمارة الموحدين ، التى تتميز بأبراجها المربعة . ويحيط بالسور الأساسى سور آخر أمامى — أو « حزام برانى » وفقا لتسمية ابن أبى زرع فى كتابه روض القرطاس — ويبلغ ارتفاع هذا السور الأمامى نصف ارتفاع السور الرئيسى . ويعلو الأسوار ممشى أو درب يسير عليه المتحاربون . ويتوج السور شرفات مستطيلة الشكل .

وما زالت بقايا سور عبد الرحمن الداخل قائمة ابتداء من المستشفى العسكرى بقرطبة . وترتكز هذه الأسوار على أسس من قطع الحجارة المهذبة القطع . وهناك قطاع آخر من السور الرومانى القديم مازال قائما حول باب العطارين .

---

(١) هو تراب مختلط بالكلس يصب بين لوحين من الخشب مقدرين طولا وعرضا ، ومركزين على سمكهما فى المواضع المعدة للبناء . ويبقى السور كله ملتحما كأنه قطعة واحدة .

أســوار اشبيليــة

ظلت أسوار اشبيلية الرومانية تقوم بوظيفتها بعد الفتح الاسلامى مباشرة حتى اللحظة التى فاض فيها المجموع العمرانى على نطاق المدينة . وتجاوز سورها القديم نتيجة لازدحام السكان وكثرتهم ، خـاصة عند مقدم جنود الشام الى الأندلس واستقرار جند حمص فى اشبيلية . وكان لابد للأسوار أن تطأطىء من رءوسها أمام هذه الزيادة فى عدد السكان ، لأنها لو بقيت كما هى لأصبحت لا محالة عقبة للتوسع العمرانى للمدينة .. لذلك فان أجزاء من أسوار اشبيلية تفتحت لتتيح للسكان الاتصـال فيما بينهم داخل المدينة وخارجها . ويغلب على الظن أن الجزء الـذى تهدم تهدم منها هو الجزء المواجه للميناء ، وذلك لكثـرة العمران بـه ، ولأنه المكان الذى دخل منه النورمانديون عندما احتلوا اشبيلية .

وكانت اشبيلية مدينة غنية بمنتجاتها ، عامرة بأبنيتها . وكانت ميناء تصدر منه منتجات الاقليم الجنوبى والغربى من الأندلس عبر الوادى الكبير والمحيط الأطلسى ، فكانت مدينة هامة ، تتمنى أى دولة الاستيلاء عليها . وجاءت اللحظة الحاسمة سنة ٨٤٤ عندمـا نزل النورمانديون فى اشبيلية ودخلوها ، ولم تستطع الأسوار أن تمنع دخولهـم ، أو تدفعهم عنها (١) . وذعر الناس ، وأدخلوا المدينة ... فتحـرك جيش قرطبة ،

---

(١) يقول ابن سعيــد : « وفى سنة تسـع وعشرين ومائتين ظهرت مراكب الاردمانيين المجوس بسواحل غرب الاندلس . ويوم الأربعاء لاربع عشرة خلت من محرم سنة ثلاثين ومائتين حلت على اشبيلية — وهى عورة — فدخلوها ، واستباحوها سبعة أيام ... الى أن جـاء نصر الخصى ، وهزم عنها النصارى المعروفين بالمجوس ، وعاث فى مراكبهم . وفى ذلك يقول الشاعر عثمان بن المثنى : —

يقولون أن الاردمانيين اقبلوا فقلت اذا جاءوا بعثنا لهم نصرا

وبعد هذا بنى سور اشبيلية باشارة عبد الملك بن حبيب » .

بقيادة الفتى نصر ، يؤازره جيش الثغر الأعلى بقيادة موسى بن قسى • وأعد المسلمون للنورمانديين كمينا وقع فيه هؤلاء ، وقتلهم المسلمون قتلا ذريعا ، واستردوا اشبيلية بعد أن طردوا منها الحامية النورماندية •

عندئذ أشار الوزراء على الأمير عبد الرحمن الأوسط ببنيان سور اشبيلية • وكتب الوزير عبد الملك بن حبيب الى الأمير عبد الرحمن ، اثر محنة اشبيلية ، فى بنيان سورها وتحصينها • ووافق ذلك مشروع الأمير عبد الرحمن فى بنيان زيادته بالمسجد الجامع بقرطبة • وذكر له الوزير فى كتابه « ان بنيان سور مدينة اشبيلية أوكد عليه من بنيان الزيادة فى المسجد الجامع • فعمل برأيه فى بنيان سور اشبيلية ، ولم يثن عزمه عن بنيان الزيادة ، فأعطى كلا منهما بقسطه من ارهاق العزيمة والسخو بالنفقة ، الى أن كملا معا ، كما أراد » •

وذكر ابن القوطية القرطبى أن الأمير عبد الرحمن عهد ببنيان السور الى عبد الله بن سنان ، أحد موالى بنى أمية بالشام ، وكان وثيق الصلة بالأمير وهو طفل • فلما أصبح عبد الرحمن أميرا بعث فى استقدامه ، فقدم فى هذه الآونة التى قامت فيها مشكلة بناء سور اشبيلية • وقام عبد الله بن سنان ببناء السور ، ونقش اسمه على أبوابه •

ويذكر الحميرى أن سور اشبيلية أوثق بناؤه بالحجارة • ويغلب على الظن أن نظام بنائه كان مماثلا لبناء قصبة ماردة التى بنيت عام ٨٣٥ فى عصر عبد الرحمن الأوسط نفسه ، وكذلك كان مماثلا لبناء مسجد عمر بن عدبس باشبيلية الذى بنى فى عهد الأمير أيضا • ومن المحتمل أن هذا السور بنى من حجارة السور الرومانى القديم •

ظلت أسوار اشبيلية صلبة قوية • وكانت اشبيلية ، زمن الأمير عبد الله ، حصينة ممتنعة • وكان يقوم بأمرها بنو خلدون وبنو حجاج • وفى عهد عبد الرحمن الناصر أرسل جيشا الى اشبيلية بقيادة محمد بن حجاج

وقاسم بن وليد ، وحاصرها الجيش . ويظهر أن جـزءا من السور تهدم فى أثناء الحصار ، وحاول ابن حجاج دخول المدينة منه . ولما دخل جيش الناصر اشبيلية أمر — بعد وقت قصير — واليه عليها ، سعيد بن المنذر . المعروف بابن السليم ، بتهديم أسوارها حتى يضمن خضـوع المدينة له فهدمت سنة ٩١٣ م .

ثم أحيطت اشبيلية مرة أخرى بسور من الطابية زمن الفتنة ، أى بعد سقوط الخلافة الأموية بقرطبة ، وكان هـذا السور يحيـط بجميع حومات المدينة . فلما استولى المرابطون على اشبيلية ، قنعوا أول الأمر بأسوراها القائمة . ولكن المدينة لم تلبث أن اتسعت خـارج الأسوار ، وأصبحت الأسوار لا تفى بحاجة المدينة الدفاعيـة فى عصـر اشتد فيه الصراع بين المسيحية والاسلام فى الأندلس . وترك مدينة هـامة ، مثل اشبيلية ، مفتوحة أمام غارات القشتاليين والأرغونيين ، يعـد مغامرة خطيرة ... فالأمر كان يقتضى حماية المدينة بأسوار ضخمة تحيط بأحيائها جميعا ، وتدفع عنها غارات الأعداء .

ثم أن اكتساح البسائط ، واضرام النيران فى الفحوص التى تحيط بالمدن الأندلسية ، أمر من السهل تحقيقه . أما فتح مدينة مسورة منيعة فهو أمر صعب .. لذلك اتجهت أنظار رؤساء الأندلس فى عهد المَرابطين — خاصة بعد غارة ألفونسو المحارب سنة ١١٢٥ ، واكتساح أراضى اسبانيا الاسلامية حتى غرناطة واشبيلية — الى تحصين المدن الأندلسية ، فعمد هؤلاء الرؤساء المثلون لحكومـة المرابطين الـى فرض ضريبة تعرف بالتعطيب على الفنادق ، وخصصت الأموال الناتجة لاعادة بنـاء أسوار بعض المدن كالمرية مثلا .

أما اشبيلية ، فلم يكن بها مال متوفر فى الوقت الـذى قامت فيه مشكلة اعادة بناء أسوارها . فاضطر قاضى المدينة أبو بكر محمد بن عبد

الله ابن العربى المعافرى ، الى أن يفرض على أهل المدينة جلود ضحاياهم يوم عيد الأضحى ، فأحضروها كارهين ... الا أن العامة مـا لبثت أن ثارت عليه ، ونهبت داره . فاضطر القاضى الى بناء سور اشبيلية من ماله الخاص ، فأقامه بالحجارة والآجر والنورة (الكلس) .

ونضيف الى هذا النص الهام ، نصا آخر اكتشفه الأستاذ بروفنسال ى مخطوط لابن عذارى المراكشى . ويذكر هذا النص أن عليا بن يوسف أمر ببناء سور اشبيلية والشرقية بقرطبة وجزء من سـور غرناطة . وقد هدمت هذه النصوص النظرية القديمة التى تنسب هـذه الأسوار الى الموحدين . فكل ما عمله الخلفاء الموحدون لايعدو تجديد بناء بعض أجزاء من هذه الأسوار . ويذكر ابن صاحب الصلاة أن أبا يعقوب يوسف أمر ببنيان سور اشبيلية من جهة الوادى الكبير بعد أن هدمـه السيل سنة ٥٦٤ هـ (١١٦٦ م) ، فبنى بالجص والجيار .

وابتكر المرابطون عند بنائهم لسور اشبيلية نظاما جديدا ... ذلك أنهم أكثروا من الزوايا الداخلية والخارجية فيه بحيث يتخذ شكل خطوط متعرجة منكسرة . وميزه هذا النظام أن يترك المسلمون أعداءهم يتقدمون داخل احدى الزوايا ، ثم يندفعوا عليهم من أعلى الأسوار وعلى دروبها فيفتكوا بهم فتكا ذريعا . ويشبه هذا النظام الزمبرك : اذا ضغط عليه ثم ترك ، اندفع بقوة فيصيب ما يقابله .

ولما انهزم المسلمون فى عهد الخليفة محمد الناصر فى واقعة العقاب سنة ١٢١٢ ، واشتد خطر النصارى على اشبيلية ، عمد أبو العلاء ادريس (١٢١٨ — ١٢٣٠) الى تحصينها أمام الخطر المحدق بها ، فأقام بها سنة ١٢٢١ برجا هائلا هو برج الذهب المشهور الذى لايزال قائما حتى اليوم. ثم جدد أسوار المدينة ، وشيد أمامها سورا أماميا يحيط بها جميعا ، وحفر حولها خندقا يدور الأسوار مبالغة فى تحصين المدينة .

وكل هذه التحصينات جديـــدة فى فن العمـــارة الحربية ، ابتدعها المسلمون فى أواخر أيام دولة الموحدين ، حين اشتد الصراع بين ملوك اسبانيا المسيحية والمسلمين • واهتـــم المسلمـــون بالذود عن أراضيهم والدفاع عن كرامتهم ، فاتجهوا الى تحسين وسائل دفاعهم ، وتفننوا فى مناعتها ، فابتدعوا هذه النظم المعمارية الجديـــدة : كالأبراج البرانية ، والأسوار الأمامية ، والابواب ذات المرافق •

وقد تبقى من سور اشبيلية الذى بناه المرابطون وجـــدده وحسنه الموحدون ، قطاع كامل : يبدأ من باب مقارنة ، وينتهى الى باب قرطبة ـ ثم ينقطع مسافة قصيرة ، ويستمر دائرا بالمدينة مـــارا بحديقة « معهد الوادى » • وتقوم بين مسافة وأخرى من هـــذا السور الأساسى أبراج أكثر منه ارتفاعا تبرز خارج المدينة • وكان معظم هذه الأبراج على شكل مربع • ويتألف البرج من نصفين أدنى مصمت ، ونصف أعلى تشغله غرفة تعلوها فى بعض الأحيان غرفة أخرى أعدت للدفاع ، وفتحت فيها منافذ السهام • ويرتقى الراقون درجا فى داخل البرج يفضى الى أعلاه ، بحيث يشرف على الأسوار جميعا ، ويدور بأعلى البرج شرفات ودراو مستطيلة الشكل •

أما برج الذهب فهو برج برانى•والأبراج البرانية (Torres Albrranas) ابتداع موحدى قصد به الدفاع عن منطقة الوادى الكبير ، واغلاق الطريق أمام الأعداء فى أضعف أجـــزاء السور • ويرتبط برج الـــذهب بالسور الأساسى من طريق قورجة (Coracha) • وهى عبارة عن سور بسيط لم يتبق منه أى أثر اليوم • وأصبح البرج منعزلا يقوم وحيدا على حافة نهر الوادى الكبير •

كذلك أحس الموحدون بأهمية نظام الأسوار الأمامية فى تحصيناتهم لأن السور الأمامى يمنع العدو المهـــاجم من شن هجومـــه مباشرة على الأسوار الرئيسية ،ويعطل من تقدمة لفتح الثغرات التى يمكنه أن ينفذ

منها داخل المدينة ، لذلك ابتناه أبو العـــلاء ادريس سنة ١٢٢١ ليدعم به سور اشبيلية •

وكان يخترق اشبيلية فى عهد الموحدين عدة أبواب ، سمـــى بعضها بأسماء المدن التى تتجه اليها مثل : باب قرطبة ، وباب قرمونـــة ، وباب مقارنة ، وباب شريش ، وباب طريانة • وأطلق على أحدها اسم معدن من المعادن الموجودة فى المنطقة ، وهو باب الكحل ، وباب آخـــر سمى باسم دار الصناعة ، ويعرف بباب القطائع ، وباب سمى باب جهـــور ، والباب التاسع عرف بباب الفتح •

ولم يتبق من جيمع هـــذه الأبواب ، بحالته الاسلامية ، غـــير باب واحد هو باب قرطبة •

القلاع والقصـــــاب

لما توطد سلطان المسلمين فى الأندلس ، بحيث شمل الجزء الأعظم من شبه جزيرة أيبيريا ، وأحسوا بالاستقرار بعد الفتح ••• عمدوا الى انشاء مراكز عمرانية جديدة ، تمكينا لمصالحهم الاقتصادية ، ورغبـــة فى دعم نظامهم الدفاعى أمام المحاولات المستمرة من جانب الاسبان لطرد المسلمين من الأندلس • وتتميز أكثر المدن الأندلسية التى أسسها المسلمون بصفات حربية بحتة ، مما يدل على أنها أسست للدفاع عن بعض المناطق وأسماء هذه المدن تعبر بجلاء تام عن هذه الصفات : مثل قلعـــة جابر ، وحصن القصر ، وحصن الفرج • كذلك أقام المسلمون قصابا أو حصونا عظمى فى بعض الأماكن المرتفعة من المدينة لدعم الدفاع عنها •

حصن الفـــرج :

يقع حصن الفرج جنوب غربى طريانة من مدينة اشبيلية ، ويعرف اليوم باسم « سان خوان دى اثنالفراش » (San Juan de Aznalfarache'

وهو تحريف من حصن الفرج • وتاريخ بناء هذا الحصن يرجع الى عهد أبى يوسف يعقوب المنصور ••• اذ أنه لما عـاد من حملته الظافرة التى استرد فيها شلب من البرتغاليـين سنة ٥٨٥ هـ (١١٨٩ م) — أى قبل انتصاره فى موقعة الأرك بخمس سنوات — أمر أن يبنى لـه على النهر الأعظم باشبيلية حصن ، وأن تبنى له فى ذلك الحصن قصـور وقبات ، جاريا فى ذلك على عادته من حب البناء وايثار التشييد ، فتمت عمارة هذه القصور مثلما أراد •

ولما رجـع المنصور الى اشبيلـة سنة ٥٩١ هـ (١١٩٥ م) ، بعد انتصاره فى موقعة الأرك ، جلس للوفود المهنئة فى قبـة من تلك القبات المشرفة على نهر الوادى الكبير ، ودخل عليه الشعراء يمدحونه • وفى هذا اليوم أمر باستعراض جنده فى سلاحهم التام ، فلما مـروا بين يديه ، وأعجبه ما رأى من حسن هيئاتهم ، قام وصلى ركعتين لله • وكـان ذلك فى ٢٨ من جمادى الآخرة سنة ٥٩١ هـ ، وأصبح هذا الحصن مقرا صيفيا لخلفاء الموحدين ، ومركزا دفاعيا لمنطقة الشرف •

وسقط هذا الحصن فى أيدى القشتاليين سنة ١٢٤٦ بعد مقاومة عنيفة من جانب المسلمين ، ثم تهدمت أسـواره فى سنة ١٢٨٤ ، وأقيمت حوله قرية سميت منذ ذلك الحين باسم (San Juan de Aznalfarache) • ولم يتبق منه اليوم سوى آثار ضئيلة لبعض أسواره المرتفعة •

حصن القـصر :

من الحصون الشهيرة فى منطقة الشرف المحيطـة باشبيلية ، ويقع على بعد ٢٥ كليو مترا جنوب غربى اشبيلية ، فـوق نشز يعرف اليوم باسم (Cerro de Alcazar) ، بحيث يشرف من هذا المرتفـع على وادى الطلح • وهذا الموقع يعد من أروع المواقع الاستراتيجية • وكان المعتمد بن عباد كثيرا ما يقضى فيه أوقات نزهه • وآثار هـذا الحصن الضئيلة تثبت أنه أقيم فوق أبنية رومانية قديمة • أما الآثـار الاسلامية فيه فلا

تعدو قطاعا من الأسوار طوله ٢٠ مترا وارتفاعه أربعة أمتـــار ، وبرجا ضخما ، بنيت جميعا من الطابية .

حصن فـــارو بمالقـــة :

يقوم على مرتفع جبل فارو ، الواقع شرقى مالقة ، على أسس قلعة فينيقية قديمة . بناه الأمير عبد الرحمن الداخل سنة ٧٨٧ م . وكان يتألف فى ذلك الوقت من سياجين : أحدهما خارجى مبنى من الآجـــر ، والثانى يتصل بالقصبة . ولما تولى عبد الرحمن الناصر اهتم بتحصينه واتمامه . وحوله بنو حمود الى قلعة منيعة ، وأقاموا به برجا هائلا للاشراف على مالقة وخليجها يعرف اليوم باسم (Torre Vigia) ويبلغ ارتفاعة ١٧ مترا .

وقد سقط هذا الحصن فى أيدى الملكـــين الكاثوليكيين سنة ١٤٨٧ م بعد حصار شاق دام أربعين يوما . وتبقى منه اليـــوم أسوار السياجين والجباب ، وجزء من البرج الأعظم الذى يقال انه كان يعلوه فنار يرسل الضوء الى البحر .

حصن المـــدور :

يقع هذا الحصن على جبل يبلغ ارتفاعة ١٥٥ مترا فى الطريق ما بين قرطبة واشبيلية . بناه المسلمون سنة ٧٥٩ م ، وسمى بالمـــدور لاحاطة البياسى سنة ١٢٢٦ ، ولكـــن فرناندو الثالث افتتحه سنـــة ١٢٤٠ م . وأسوار هذا الحصن متعرجة أسواره لقمة هذا الجبل . وقد جدده أبو محمد تتفق أسواره فى أماكن مختلفة منه ، وتقوم بها أبراج ضخمة كلها صماء من الداخل ، وتعلوها جميعا شرفات منشورية الشكل . أما مدخل الحصن فيقع فى الجنوب الشرقى منه .

قلعة جابر أو قلعة وادى ايـــرة :

تقع على بعد ١٢ كليو مترا غربى اشبيلية ، عـــلى الجانب الغربى

لاحدى الهضاب ، ويبلغ ارتفاعها نحو ٨٢٫٥٠ مترا ، ويحيط بها وادى أيرة من الجنوب والغرب .

وقلعة جابر أهم مثل للحصون الأندلسية الباقية الآن . وكانت تعد فى العصر الاسلامى المفتـــاح الحقيقى لاقليـــم اشبيلية . وكانت ــ بما تشتمل عليه من أسوار وأبراج ، وقصـــور ، ودور ، ومسجـــد جامع ، وحوانيت ــ مدينة صغيرة .

وقد تردد اسم هذه القلعة فى المدونات العربية عـــلى ثلاث صور : الأولى ــ وهى التسمية القديمة ــ أطلقها المؤرخون عند الفتـــح ، وهى قلعة الرعواق . ثم أطلقت عليها التسمية الثانية : القلعة ، أو قلعة وادى أيرة (Alcala de Guadaira) وهى التسمية الحالية . والصورة الثالثة هى قلعة جابر ، وهذه التسمية الأخيرة أطلقت عليها فى عهد الموحدين .

ومن الثابت أن الموحدين جددوا بناء هذه القلعة ، وزودوا أسوارها بالخنادق والأسوار الأمامية . ويتجلى ذلك فى نظام الابراج والاسوار التى تشابه كل الشبه أسوار اشبيلية وقاصرش وبطليوس وأبراجهـــا . وكانت القلعة تتألف من سياجين بينهما سور فاصل فى وسطه باب . ولما استولى فرناندو الثالث على القلعة أصلح حصونها ثم أعيد اصلاحها فى القرن الخامس عشر فى عهد الملكين الكاثوليكيين . وفى سنة ١٥٤٣ أجريت عليها اصلاحات عديدة ثم جددت مرة ثالثة فى عهد فيليب الثانى .

ولما استولى الفرنسيون فى القرن الثامن عشر على القلعة ، خربوا كثيرا من أبراجها ، وفتحوا ثغرات واسعة فى أسوارها لتركيب المدافع . وبالرغم من جميع هذه الاصلاحات التى غيرت مظهر القلعة الاسلامية ، نستطيع أن نميز أبراج الموحدين .

قصبة المريـــة :

تقع هذه القصبة فى الجزء الشمالى من المدينة ، عـــلى جبل مرتفع بحيث يمكن الاشراف منها على الثغر • وتمتد القصبة طــولا من الشرق الى الغرب ٥٣٠ مترا ، وتتخللها البروزات والأبراج الكثيرة فى غير نظام• وقد لاحظ الحميرى هذا الامتداد طولا فقال : « وهو حصن منيع لايرام ، مديد من الشرق الى الغرب » •

وكان يصل القصبة بالمدينة الوسطى باب ، كمـــا كانت مزودة بباب شرقى يخرج من أسوار المدينة • وكان بها مسجد جامع مـــا تزال آثاره قائمة حتى وقتنا هذا • وتتوزع القصبة فى ثلاثة مرتفعات غير متساوية : فالمرتفع الأعلى يقع غربى القصبة ، ويتصل بسور ربض الحوض فى خط يتفق مع طريق يعرف اليوم باسم شانكا • وكان هذا الجـــزء من القصبة هو معقلها الأمنع • ويغلب على الظن أنه القلعة المنسوبة الى خيران • وقد أعيد بناؤه فى عهد الملكين الكاثوليكيين ، ويبدو ذلك واضحـــا فى أبراجه الأسطوانية • أما المرتفع الثانى فيكاد يكون مربعـــا منبسطا فى سطحه ، وكان يشغله القصر وملحقاته، ويتصل سوره بسور ربض المصلى مخترقا الطريق المعروف اليوم باسم لاهويا ، وكان يصعد فى ســـيره حتى يصل الى تل سان كريستوبال أو جبل لاهم الذى ذكره الادريسى • والمرتفع الثالث طويل للغاية ، وكانت فى موضعة حدائق وبساتين أنشأهـــا خيران بعد أن أجرى اليها المياه من المدينة •

وبناء أسوار القصبة قوامه ، فى سائر أجزائها ، خليط من الملاط ، وتسندها أبراج تتجاوز السور فى ارتفاعها • وبالأجزاء العليا منها غرف داخلية، وتتمثل فى بعض آثار هذه الأسوار بقايا جدران تتبع فى بنائها النظام الخلافى • وقد أسفر البحث الأثرى عن كشف آثار حمـــام كان يتألف من خمس غرف تمتد على صف واحد •

قصبـــة بطليوس :

ذكرنا عند الحديث عن بطليوس أنها من بناء عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وأنه بنى أسوراها من الطوب والطابية • وقد زيد فى سمك هذا السور فى عهد الأمـــير عبد الله بن محمـــد • وأصبحت بطليوس فى عهد الموحدين مهددة أمام خطر البرتغاليين والقشتاليين ، فأقـــام الخليفة أبو يعقوب يوسف بها قصبة شاهقة ، وأجرى اليها المياه من الوادى المعروف بوادى آنة سنة ١١٧٢ م •

وتقوم هذه القصبة على مرتفع من الأرض يبلغ ارتفاعه نحو ستين مترا ، يشرف على المدينة وعلى واديها • ويحيـــط بالقصبة سور بيضى الشكل ، مزود بأبراج مربعة ، وتتصل به بثلاثة قورجـــات لا يقل طول الواحدة منها عن ٢٢ مترا • وتنتهى هذه القورجات بأبراج برانية أشهرها البرج المعروف باسبانتنا بروس الذى كان يطلق عليــــه ، منذ عهد ليس ببعيد ، اسم برج الطلايع ، وهـــو مثمن الأضلاع يشبـــه برج الذهب باشبيلية ، وجدرانه مبنية من ملاط ، ويجرى على هذه الجدران من أعلى افريز بارز من الآجر ، على نحو أبراج الموحدين • وقد تخلف من أبواب القصبة الثلاثة بابان : أحدهما يعرف بباب التاج ، والآخر بباب الزائدة ، وكلاهما نظام الأبواب ذات المرفق ••• اذ أن الممر الواصـــل بين فتحتى الباب ينحنى بزاوية قائمة فى شكل المرفق • ويمتاز هذا النظـــام بوضع عقبات بتلك الانحناءات تفاجىء الأعداء عند هجومهم •

وجميع الأبراج والأسوار مبنية من الطابية ما عدا عقود الابواب فهى حجرية • وقد تبقت من أسوارها الواجهة الشماليـة الغربية فى حالة جيدة • وكان يتقدم هذه الأسوار أسوار أخرى أمامية ، كما هو الحـــال فى سور مقارنة بأشبيلية ، ويبلغ الفراغ بين السورين ما يقرب من ثلاثة أمتار • وقد أسفرت الحفائر الحديثة ، التى أجريت فى الواجهة الشرقية

بالقصبة ، عن كشف بقايـا السور الأمامى الذى كـان يدعم مراكزها الدفاعيـة •

قصبـة مالقـة :

ترتفع أسوار القصبة فى جلال فى منطقة من أجمـل مناطق مالقة ، فوق نشز ينحدر تدريجيا • ولقد أقيمت القصبـة أول الأمر ، فى أواخر عهد الأمير عبد الرحمن الداخل ، لتحمى المدينة من غارات النورمانديين • ثم أعيد تشييدها بين عامى ١٠٥٧ ـ ١٠٦٣ ، فى عهد باديس الصنهاجى • والى ذلك العهد ترجع مجموعة أسوارها الموزعة فى نطاقين • والأسوار مزودة بأبراج ضخمة مربعة الشكل ، تمتد من مسافة لأخرى ، مشيدة من الطوب مع ملاط ضعيف • وفى بعض أجزائها ن كتل حجرية غير منتظمة فى صفوف ضيقة بين صفوف مزدوجة من الآجر •

وتشتمل القصبة على قصر باديس الواقـع بجـوار مقر حجرات غرناطة ، كما أن هناك مجموعة من الدور الصغيرة اكتشفت فى القصبة ، ولا تقل أهميتها عن أهمية القصر • ولعلها كانت خاصة بكبـار الخدم فى البلاط •

خامسا ـ التأثيرات المعماريـة فى الأندلس

كانت العلاقات الفنية وثيقة بين الأندلس وبلاد المغرب طوال العهد الاسلامى ، وعلى الأخص منذ أواخر الدولة الاموية بالأندلس . وبدأت التأثيرات الأندلسية فى عهد بنى أمية تتسلل الى بـلاد المغرب الأقصى ، ولكنها أخذت تشتد فى عهد ملوك الطوائف ودولتى المرابطين والموحدين ، وشملت كل بلاد المغرب ، وانتهت هذه التأثيرات بسقوط غرناطة ، حين هاجر عدد كبير من أهل الأندلس الى بلاد المغرب واستقروا فى مدنـه ، يعمرونها ويغرسون فيها بذور حضارتهم الأصيلة .

التأثيرات الأندلسية فى عمـارة المغرب الأقصى

بدأت التأثيرات الأندلسية تفد الى بلاد المغرب منذ عصر المرابطين الذين تأثروا برقة الأندلس ومظاهر الترف فيهـا . ويذكر الادريسى أن عليا بن تاشفين ٥٠٠ ـ ٥٣٧ هـ (١١٠٦ ـ ١١٤٣ م) ، حين أراد بنـاء جسر على وادى تنسيفت ، أحضر من الأندلس مهندسين وأشخاصا آخرين مهرة فى فن البناء . ويـذكر الاستاذ هنرى تراس أن قلعـة تسغيموت المراكشية أقيمت سنة ١١٢٥ م ، فى عهد على بن تاشفين ، بتوجيهات رجل أندلسى اسمه الفلكى هـاجر الى مراكشـ . وليس من شك فى أن فن المرابطين بمراكش والجزائر تأثر تأثرا كبيرا بالفن الأندلسى ، وهو أمر يقطع باشتراك فنانين أندلسيين فى أعمال البنـاء بمراكش . ومن هذه العمائر التى يتجلى فيها التأثـير الأندلسى : قبة البروديين بمراكش ، والمسجد الجامع بتلمسان .

وعصر الموحدين هو العصر الذى توثقت فيـه العلاقات الفنية بين المغرب والأندلس ، وانتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب ، وظهرت فى جميع الأبنية التى أقامها خلفـاء الموحدين هناك : مثل جـامع حسن برباط ، وجامع الكتبية بمراكش ، وقصبة رباط .

ويذكر ابن سعيد المغربى : « أن حضرة مراكش هى بغداد المغرب ، وهى أعظم ما فى بر العدوة ، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة وبساتينها ، انما ظهرت فى مدة بنى عبد المؤمن . وكانوا يجلبون لها صناع الأندلس من جزيرتهم ، وذلك مشهور معلوم الى الآن » .

هذه العبارة توضح لنا كيف انتقلت التأثيرات الأندلسية الى المغرب الأقصى فى عهد الموحدين . وقد أيدها قول ابن خلدون : « وأما المغرب فانتقل اليه ، منذ دولة الموحدين ، من الأندلس حظ كبير من الحضارة ، واستحكمت به عوائدها بما كان لدولتهم من الاستيلاء على بلاد الأندلس، وانتقل الكثير من أهلها اليهم طوعا وكرها » .

والواقع أن أثر المهندسين الأندلسيين فىعمائر بلاد المغرب فى عهد الموحدين كان عظيما للغاية ، فلقد كان الخلفاء يحيطون أنفسهم — فى بلاطهم بمراكش— بشعراء وعلماء من أهل الأندلس . واستخدم عبد المؤمن — وهو أقل خلفاء الموحدين الثلاثة الأوائل بالأندلس — عددا كبيرا من الكتاب الأندلسيين : منهم ابن عطية الذى كان يقوم بهذه الوظيفة نفسها فى العهد الأخير من دولة المرابطين .

ولقد برز من بين مهندسى الموحدين اثنان اشتركا فى أعمال البناء بالأندلس ، فى عهد عبد المؤمن وابنه أبى يعقوب يوسف ، وهما : أحمد بن باسة ، والحاج يعيش الملقى . ويدلنا اسم أحمد بن باسة على أنه أندلسى الأصل من اشبيلية ، كما يؤكد ذلك أنطونيا ملشر . ولعله ينتسب الى أسرة الباصة المستعربة بطليطلة التى ينسب اليها اليان بن أبى الحسن بن الباصة ، فى أواخر القرن الثانى عشر ، كما ينسب اليها أيضا حسن بن محمد بن باسة المتوفى سنة ٧١٦ هـ (١٣١٧) ، المكنى بأبى على صاحب الأوقات بالمسجد الجامع بغرناطة ، والمتضلع فى علم الحساب والفلك ، وصاحب مواقيت الظل ، وابنه أحمد بن حسن بن باسة .

ونعتقد أنه كان لهذه الأسرة فرع فى عهد ملوك الطوائف ، اذ ورد اسم ابن باسة فى أحد فصول تاريخ أبى مروان بن حيان عندما يقول : « ••• وانكدر بأثر وفاته ابن باسة هدام القصور ومبور المعمور ••• بيده بادت قصور بنى أمية الرفيعة ، ودرست آثارهم البديعة ، وحطت أعلامهم المنيعة • قدمه ابن السقاء مدبر قرطبة لجمع آلات ما تهدم من القصور المعطلة » •

أما الحاج يعيش الملقى ، فهو أندلسى أيضا من مالقة • وقد أرسله الخليفة الموحدى عبد المؤمن ابن على مع زميله أحمد بن باسة سنة ٥٥٥هـ (١١٦٠ م) للاشراف على أعمال البناء بجبل الفتح (جبل طارق) • وبالفعل توجه ابن باسة من اشبيلية ، والقائد أبو اسحاق البراز بن محمد من غرناطة الى جبل الفتح ، ولحقهما الحاج يعيش من مراكش • وأمر الخليفة عبد المؤمن بارسال عدد كبير من البنائين والنجارين والفعلة ، من اشبيلية ومناطق أخرى من دولته • وشرع المهندسون فى بناء حصن الجبل فى ٩ ربيع الأول سنة ٥٥٥ ، وكمل بناؤه فى أقل من ثمانية أشهر • وبنى الحاج يعيش طاحونة هواء فى أعلى الجبل •

والحاج يعيش هو صاحب المقصورة الشهيرة الملحقة بالمسجد الجامع بمراكش ، وهى عمل ينم عن فن وحيل هندسية أعجبت كل من شاهدها ، تدور بمحركات خفية ترفع وتهبط بعد ساعات الصلاة ، ولا يرى منها الا الجزء الأدنى من المحراب • ولا تزال فى أرضية الكتبية بمراكش — فى المكان الذى كان يفصل هذا الجزء عن باقى أجزاء المسجد — آثار قطعتين من الخشب بينهما فراغ كاف عميق يتسع لجدران المقصورة حين تهبط فيه • ولا يشك الأستاذ تراس فى أن يعيش الملقى هو الذى شيد مسجد الكتبية بمراكش وجامع تنملل ، وهو المهندس نفسه الذى كشف سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) عن جسر المياه الرومانى باشبيلية ، وكان يحمل المياه

قديما من الوادى قرب قلعة جابر ، ثم انقطع منذ عهد قـــديم ، فتتبعه بعيش فى الطريق الى قرمونة حتى قلعة جابر فجدد بناءه ٠

وبعد أن أتم أحمد بن باسة أعمال البناء بجبل طـــارق مضى الى قرطبة لتجديد قصورها ، وتزويد جوانبها بالقلاع الحصينة ٠ ولما عاد الى اشبيلية فى رمضان عام ٥٦٧ هـ (مارس ١١٧١) ، عهد اليــه الخليفة أبو يعقوب بالنظر مع البنائين والعرفاء فى بناء المسجد الجامع ٠ وقد اشترك فى ذلك جميع عرفاء أهل الأندلس ومعهم عرفاء البنائين من مراكش ومدينة فاس وأهل العدوة ، « فاجتمع منهم من أصنـــاف النجارين والنشارين والفعلة لأصناف البناء أعداد من كل صنف ، وصناع مهرة فى كل فن من الأعمـــال » ٠

كذلك شرع أحمد بن باسة فى بنـــاء قصور البحـــيرة سنة ٥٦٧ هـ (١١٧١ م) خارج باب جهور من اشبيلية ٠ وفى سنة ٥٨٠ هـ (١١٨٤ م) شرع فى بناء مئذنة جامع اشبيلية ،بعد أن ردم أساسها الذى تملؤه المياه بالأحجار والجيار ، وبلط موفد الماء حتى أمن استقرار الأساس وثباته ٠ ويغلب على الظن أنه توفى بعد ذلك بقليل ٠

واشتهر من مهندسى المغرب على الغمارى من قبيلة غمـــارة ، وهو الذى قام ببناء مئذنة جامع اشبيلية بعد وفاة المهندس ابن باسة ، وكان يسافر الى مراكش من وقت الى آخر للاشراف على أعمال البناء هناك : كالقصبة بمراكش ، وقصـــور الخليفة ، والصوامـــع ، والأسوار بفاس وتاجررات ٠ ويمكننا أن نميز التأثيرات الأندلسية فى جميع هذه الأبنية ٠

واشتدت التأثيرات الأندلسية فى عمائر المغرب بعد انهزام الموحدين فى موقعة العقاب المعروفة بلاس نافاس دى تولوزا سنة ١٢١٢ ، اذ عبر

عدد كبير من أهل الأندلس الى بر العدوة مهاجرين الى المغرب ، بعد أن أخذ الأعداء من القشتاليين والأرغونيين يلتهمون مدنهم . وازدادت الهجرة الى المغرب الأقصى بعد هزيمة المسلمين فى موقعة نهر سالادو فى جمادى الأولى سنة ٧٤١ (٣٠ أكتوبر سنة ١٣٤٠) فى عهد السلطان أبى الحجاج يوسف بن الأحمر .

ولما قضى على عدد كبير من أهل الأندلس بالخروج منها ــ بعد سقوط غرناطة ــ تفرق كثيرون منهم ببلاد المغرب الأقصى من بر العدوة . فأما أهل البادية فمالوا فى البوادى الى ما اعتادوه ، ودخلوا أهلها ، وشاركوهم فيها فاستنبطوا المياه ، وغرسوا الأشجار ، وأحدثوا الأرحاء الطاحنة بالماء ، وغير ذلك . وعلموهم أشياء لم يكونوا ليعلموها ولا رأوها ، وصلحت أمورهم ، وكثرت مستغلاتهم ، وعمتهم الخيرات . وأما أهل الصنائع فانهم فاقوا أهل البلاد ، وقطعوا معاشهم ، وأخملوا أعمالهم وصيروهم أتباعا لهم ، ومتصرفين بين أيديهم . وكانوا اذا كلفوا بعمل من الأعمال ، أكملوه فى أقصر وقت ، وأفرغوا فيه من أنواع الحذق والتجويد والمهارة ما يجذبون به اعجاب الناس بهم . وكانت لهم اليد الطولى فى بناء عمائر بنى مرين بفاس ومراكش ومكناس وسلا والرباط وشالة وغيرها من المدن المغربية الكبرى ، وما زالت آثارهم قائمة فى المساجد والقصور والمدارس والحصون والحدائق والبساتين ، وكافة أنواع الأبنية التى تزخر بها هذه المدن .

ولقد تبقى اليوم فى مدينة سلا ، الواقعة على المحيط الأطلسى ، بابان بدار الصناعة التى أنشأها بين عامى ٦٥٠ ــ ٦٦٠ هـ (١٢٦٠ ــ ١٢٧٠) مدجن من اشبيلية هاجر فى هذا العصر الى سلا ، واسمه محمد

بن على بن عبد الله بن محمد بن الحاج الاشبيلى (١) الـــذى أنشأ أيضا الدولاب (الساقية) القائم فى مدينة فاس جديد ، وذلك فى النصف الثانى من القرن الثالث عشر ، فى عهد السلطان أبى يوسف يعقوب المنصور بن عبد الحق المرينى وأكبر البابين هو باب المرسى أو باب الميناء الصغير وبه عقد كبير على شكل حدوة الفرس منكسر تبلغ سعته تسعة أمتار ، ويحيط به افريز زخرفى ، كما يدور حوله نقش كوفى • أما بنيقتاه فتحتشد فيها زخرفة من التوريقات • ويتوج عقد المدخل افريز من عقود صغيرة •

التأثيرات الأندلسية فى تونس

بعد أن استولى خايمى ملك أرغون على بلنسية انتقل كثير من أسرة ابن مردنيش وأهل شرق الأندلس الى تونس ، وأقاموا فى كنف السلطان أبى زكريا الحفصى • ويذكر ابن خلدون : « أنهم أبقوا فيها وبأمصارها من الحضارة آثارا ، ومعظمها بتونس ، امتزجت بحضارة مصر ، وما ينقله المسافرون من عوائدها » •

وقال ابن سعيد المغربى فى هذا المعنى : « ومدينة تونس بافريقية قد انتقلت اليها السعادة التى كانت فى مراكش بسلطان افريقية أبى زكريا يحيى بن أبى محمد بن أبى حفص ، فصار فيها من المبـــانى و المبساتين و الكروم ما شابهت به بـــلاد الأندلس ، وعرفاء صناعـــه من الأندلس ، وتماثيله التى يبنى عليها ، فانما أكثرها من أوضاع الأندلسيين » •

---

(١) يغلب على الظن انه ينتسب الى الحـــاج يعيش المالقى ، ويقول ابن الخطيب فى الاحاطة حين يتعرض لذكر محمد الحـــاج الاشبيلى أن هذا المهندس يجيد الحيل الهندسية ، وكذلك الآلة الحربية الجافية • وقـــد أقام بفاس الدولاب الكبير •

وكان ابن سعيد يدرك تمام الادراك مدى الأثر الأندلسى فى بلاط تونس ، لأنه خدم الأمير أبا عبد الله المستنصر ، خليفة أبى زكريا يحيى ، وهو أكبر بناة هذه الأسرة • وكان بلاطه يزخر بالأندلسيين الذين هاجروا الى جواره • وكان أبو زكريا هذا أقوى أمير فى زمنه على افريقية ، وكان يفرض سلطانا مؤقتا على اشبيلية وبلنسية ومرسية وشريش وطريف •

وقد أقيم فى عهد سلاطين بنى حفص كثير من القصور والمنتزهات : منها قصر رأس الطابية الذى أسس فى عهد السلطان المستنصر الحفصى، ٦٤٧ ــ ٦٧٥ هـ (١٢٤٩ ــ ١٢٧٧ م) • وكانت بساتينه تتبع نظـام بهو السباع بغرناطة • والى هذا السلطان تنسب جنة أبى فهـر التى تبعد كيلو مترا واحدا عن جنوب تونس •

وتحتفظ تونس بأسواق العطور والمنسوجات التى ترجـع الى هذا العصر • وأهم آثار بنى حفص التى يتجلى فيها التأثير الأندلسى بعض الزخارف التى تزين باب لالا ريحانة ، بجامـع القيروان ، ومسجد باب الدرب بالمناستير الذى أقامه المستنصر الحفصى سنة ٦٥٨ هـ (١٢٦٠ م)

التأثيرات الأندلسية فى الجـزائر

وفد كثير من فنانى ومهندسى الأندلس الى تلمسان ، فى عهد بنى زيان الذين حكموا المغرب الأوسط أو الجزائر ، فى النصف الأول من القرن الثالث عشر ، حتى منتصف القرن الرابـع عشر • وكـانت تربط ميناء تلمسان بميناء المرية روابط وثيقة • ولقد طلب أبو حمو الأول سنة ٧٠٧ ــ ٧١٨ هـ (١٣٠٨ ــ ١٣١٨ م) وابنه أبـو ناشفين سنـة ٧١٨ ــ ٧٣٧ هـ (١٣١٨ ــ ١٣٣٧ م) من السلطان أبى الوليد اسماعيل ملك غرناطة سنة ٧١٣ ــ ٧٢٥ هـ (١٣١٤ ــ ١٣٢٥ م) أن يبعث اليه عددا من صناع وفنانى الأندلس لبنـاء القصور بحاضرته تلمسان ، اذ أن هـذه المدينة كانت

تحتفظ حتى ذلك الوقت بخشونة الحياة البدوية • وشرع فى بناء هذه القصور فى عهد أبى حمو ، وتم بناؤها فى عهد خلفه أبى تاشفين • ولقد أرسل اليهما أبو الوليد اسماعيل ، أعظم مهندسى مملكته • وأمهرت تلمسان وقتئذ بالقصور والدور والحدائق والجنات التى لم يبن مثلها بعد ذلك ، ومن هذه الأبنية : دار الملك ، ودار السرور ، ودار أبى فهر • وساهم أبو تاشفين — وكان أميرا فنانا عالما بفن الرسم ، محبا للبناء والتعمير — أكثر من أى سلطان آخر فى تجميل عاصمته ، وذلك ببنائه القصور • كما شجع رجال قصره على بناء القصور ، وانشاء الجنات ، وغرس البساتين • وفاق بذلك أباه فيما قام به فى هذا السبيل • وللأسف لم يتبق شىء مما أقامه ، اذ أن السلطان المرينى أبا العباس خربها ودمرها سنة ٧٨٦ هـ (١٣٤٨ م) •

وتصور المساجد التى أقامها بنو زيان الى أى حد تأثر فن العمارة الجزائرية بالعمارة الأندلسية • ويعد مسجد سيدى بل حسن ، الذى أقامه السلطان أبو سعيد عثمان سنة ١٢٩٦ ، صورة مماثلة لمسجد الحمراء ولقد نقل الى تلمسان كثير من العناصر الزخرفية من الأندلس ، منها الزليج الذى كان يزين مسجد المشوار بمدينة تلمسان •

وتصور واجهة مسجد العباد مدى تأثير العمارة الغرناطية فى عمارة الجزائر ، فى عهد السلطان أبى الحسن المرينى ، اذ أن زخارف التوريقات والزخارف الهندسية ، التى تكسو الجدران جميعا موزعة فى تقاسيم غاية فى الروعة والجمال • كذلك يمكننا مقارنة مئذنة المنصورة بمئذنة جامع اشبيلية : لتشابه تقاسيمهما الزخرفية ،وتفاصيلهما المعمارية ،وتشبيكاتهما القائمة على تقاطع العقود بنظائرها فى الخيرالدا •

التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصريـــة

يعـــد عصر المماليك العصر الـــذى تسربت فيـــه التأثيرات الفنية الأندلسية الى مصر • ذلك لأنه العصر الذى توثقت فيه عرى الصداقة بين مصر واسبانيا المسيحية والاسلامية معا • فما كادت تسقط بغداد فى أيدى التتار سنة ١٢٥٨ حتى تألفت فى القاهرة جبهة قوية لدفع خطــر التتار المدمر • واستطاع الملك المظفر سيف الدين قطز أن يهزمهم هزيمة نكراء فى واقعة عين جالوت فى ٢٥ من رمضـــان سنة ٦٥٨ هـ (٣ سبتمبر سنة ١٢٦٠) • وبذلك تمكنت مصر من صد هذا السبيل الجارف الـــذى كان يهددها ويهدد دول أوربا • وقدر لمصر أن تنقذ أوربا من غزو محقق كاد يقضى قضاء مبرما على معالم حضارتها ، وارتفع بذلك شأن مصر ، وأخذ ملوك اسبانيا المسيحية يخطبون ود سلاطينها بالسفارات المتتابعة •

ولقد أتاحت لنا الوثائق العربية بمحفوظات مملكة أرغون أن نتتبع تاريخ هذه الصلات الودية تتبعا تاريخيا ، منذ أن وقعت بين الملك الأشرف خليل بن السلطان المنصور قلاوون ، و « خايمى » الثانى ملك أرغون ، معاهدة الصداقة والسلم فى ١٩ من صفر سنة ٦٩٢ هـ (٢٨ ينـــاير سنة ١٢٩٣ م) ، واشترك فى هـــذه المعاهـــدة ملك قشتالـــة وليون وملك البرتغال • ولقد جددت هذه المعاهدة فى عهد الملك الأشرف برسباى فى ٣٠ مايو سنة ١٤٣٠ بينه وبين ألفونسو الخامس ملك أرغون • وكانت العلاقة طيبة للغاية بين سلاطين بنى الأحمر بغرناطة ، وسلاطين المماليك فى مصر • ويمكننا أن نذكر على سبيل المثال السفارات المتبادلة بـــين ملك غرناطة محمد الخامس ، وملك مصر الأشرف شعبان فى النصف الأخير من القرن الثامن الهجرى • كما أرسل الغالب باللـــه محمد بن محمد بن نصر سنة ١٤٤٠ عدة سفراء الى السلطان الظاهر جقمق ، (١٤٣٨ — ١٤٥٣) طالبا منه معونة يتقوى بها مسلمو الأندلس فى الدفاع عن أنفسهم ضد جيرانهم المسيحيين فى أسبانيا •

وكان من أثر هذه العلاقات الطيبة أن زار مصر عـــدد كبير من أهل

غرناطة سواء للتعليم أو التدريس ، وقد أقام فيها من طابت له الاقامة . وكانت حركة الاسترداد الاسبانى قد أوشكت أن تجهز على دولة الاسلام بالأندلس ، التى انكمشت رقعتها بعد موقعة سلادو ، فهاجر عدد كبير من أهل الأندلس الى مصر عند سقوط مدنهم ، ووفد كثير من هؤلاء المهاجرين الى بلاط سلاطين المماليك يحثونهم علـى استرداد الأندلس ، وانقـاذ مملكة غرناطـة .

وليس من شك فى أن من بين هؤلاء المهاجرين بعض الصناع وأرباب الحرف والعرفاء . ويدل على ذلك بعض قطع الزليج الأندلسى التى عثر عليها فى حفائر الفسطاط ، مما يؤيد ما ذكره سفير السلطـان الغرناطى الغالب بالله محمد ، الى السلطان جقمق ، فى رسالته أنه هـو وأصحابه قدموا بعض الهدايا الى اسلطان المملوكى . ويقول هذا السفير : « وقد كنا قد قدمنا له شيئا مما اصطحبناه من متاع الأندلس : كالفخار الملقى ، والانجبار الغرناطى ،وشىء من ثياب الخز المنسوجة بها ، وغير ذلك » .

وكان لهذه العلاقات أثرها الكبير فى نفـاذ التأثيرات الأندلسية فى العمارة المصرية فى عصر المماليك . وتشهد ذلك فى عقود الطابق الأعلى من مئذنة المنصور قلاوون ، وفى تفاصيل الزخرفـة الجصية بمئذنة الناصر محمد بالنحاسين ، وعقود مسجد سنجر الجاولى

وهناك بعض عناصر معمارية أخرى تكشف عن تأثير أندلسى مباشر . فان أوجه الجزء المربع من مئذنة جامع ابن طولون ، التى أعاد السلطان حسام الدين لاجين بناءها من الحجر ، بها أربع مجموعـات من فتحات صماء ، تتكون كل مجموعة من عقدين متجـاوزين توءمين ، يستندان فى وسطهما على عمود صغير . ويخضع أسلوب هذه العقود للنوع المعروف فى الأندلس . وقد قارن العـالم الأثرى « فيلاسكث بوسكو » بين هذه النوافذ ونوافذ اسبانية بحتـة موجودة فى بعضـ الكنائس المستعربة ككنيستى : سان ميجل دى اسكالادا ، وسانتياجو دى بنيالبا . وقد قارنا كذلك بين نوافذ مئذنة ابن طولون وبعض نوافذ قرطبة ومسجد المسلمين بطليطلة .

وتصل بين المسجد والمئذنة قنطرة من البناء ، يحملها عقدان متجاوزان يمثلان العقود الأندلسية • كما أن عقد باب المدخل الى برج المئذنة على شكل حدوة الفرس • وتتفق جميع هذه العقود فى نسبها ، ومواقع مراكزها ، مع العقود الأندلسية ذات الطابع الخلافى • وبأسفل القنطرة التى تربط الجامع بالمئذنة كوابيل من طراز كوابيل جامع قرطبة نفسها فى عهد عبد الرحمن الناصر • وكل هذه العناصر المعمارية والزخرفية لا يمكن بأى حال من الأحوال أن تظهر فى القاهرة فى القرن التاسع الذى أنشىء فيه جامع أحمد بن طولون ••• اذ انها لم تظهر فى الأندلس نفسها — وهى المصدر الذى وفدت منه الى جامع ابن طولون — الا فى أواخر القرن العاشر ، مما يقطع بأن مئذنة ابن طولون بناء متأخر من عصر المماليك •

وفى القبوة التى تعلو أسطوانة المدخل بجامع ألجاى اليوسفى ، وجامع المؤيد ، شيخ مقرنصات داخل جوفة صليبية الشكل ، ترجع الى تقاليد أندلسية • ونرى أصلها فى قبوات الموحدين بجامع اشبيلية ودير لاس أويلجاس ببرغش •

أثر العمارة الأندلسية فى العمارة المسيحية

كان ملوك المسيحية بأوربا يرسلون رسلهم الى خلفاء الأندلس ، رغبة فى كسب ودهم ، وخطب مرضاتهم • وقد ذكر المقرى أن ملك القسطنطينية توفلس بعث الى الأمير عبد الرحمن الأوسط سنة ٢٢٥ هـ بهدية يطلب منه مواصلته ، ويرغبه فى ملك سلفه بالمشرق من أجل ما ضيق به المأمون والمعتصم • فكافأه عبد الرحمن على الهدية ، وأرسل اليه سفيره يحيى الغزال • ووفد الى قرطبة فى عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر ، رسل « صاحب القسطنطينية » ، ثم جاءه رسول من ملك الصقالبة دوقوه ، ورسول آخر من ملك الألمان ، ورسول ثالث من ملك الفرنجة وراء جبال البرانس • وفى سنة ٣٤٠ هـ جاءه رسول أردون يطلب السلم فعقد له •

وفى عهد الخليفة الحكم المستنصر وفد الى قرطبة أردون بن اذفونش ملك الجلالقة ، ووصلت رسل غرسية بن شانجة ملك البشكنس يسألونه الصلح ، ثم وفدت على الحكم أم لذريق بن بلاشك القومس . وأرسل بدور القاسى ملك غرناطة سفارة الى السلطان محمد الخامس يطلب منه فيها أن يبعث اليه بفنانين مسلمين لاقامة قصره باشبيلية ، فأرسل اليه السلطان المذكور طائفة من أمهر البنائين والصناع بغرناطة .

ولا شك أن هذه العلاقات الطيبة — بين ملوك أوربا وأمراء الأندلس — كانت سببا فى تغلغل تأثيرات العمارة الأندلسية فى العمائر المستعربة بشمالى أسبانيا ، والعمارة الرومانية باسبانيا وفرنسا .

ولقد بلغ تأثير الفن الخلافى بقرطبة أقصاه فى كنائس أشتورياس، حيث كان تأثير الرهبان منذ القرن الثامن الميلادى قويا للغاية . وتتمثل هذه التأثيرات فى استخدام عقد حدوة الفرس والطرر المربعة المحيطة به أو النوافذ المزدوجة . كذلك نرى هذه التأثيرات الأندلسية فى كنائس جليقية مثل : كنيسة سانتياجو دى بنيالبا ، وسان مارتينيودى باتو . وشهدت عمارة ليون فيضا من التأثيرات الأندلسية فى كنائسها المستعربة أمثال :سان ميان دى لاكوجويا (٩٨٤) ، وسان ثبريان دى ماثوتى التى بناها القس القرطبى خوان سنة ٩٢١ ، وفى كنيسة سان باوديل دى برلانجا قبة صغيرة تتألف من أربعة عقود متقاطعة فى زوجين ، فوق عقدين آخرين يتقاطعان فى وسطهما ، بحيث تتألف منهما قبوة شبيهة بقبوات جامع الباب المردوم بطليطلة .

ونظام القباب الاسلامية أثر تأثيرا عميقا فى القباب المسيحية ذات الأسلوب الرومانى ، مثل : قبة المزان بقشتالة ، وقبوة مصلى توريس دل ريو بنافارة ، وبرج دير موساك ، وبوابة كاتدرائية سان برتران دى كومنج ، وأولورون وأوسبيتال سان بليز بفرنسا .

فلقد أقيمت القبوة التى تغطى الغرفة العليـــا من برج دير موساك (١١١٥ ـــ ١١٢٠) وخوذة هذه القبوة تتألف من أجزاء متصلة ، تتوسطها فتحة يتجه اليها ١٢ قوسا تنبت من أثنى عشر عمودا ملتصقة بالجدران • أما قبة مستشفى سان بليز القـــائم فى منطقة جبـــال البرانس ، بممر سومبور فى طريق الحـــج الى شنت ياقب ، فتشبه ـــ الى حـــد كبير ـــ أحدى قباب الباب المردوم بطليطلة •

ويتجلى التأثير الأندلسى فى كثـــير من العناصر المعمارية بكنيسة مستشفى سان بليز ، وذلك فى استعمال التشابكات المخرمة فى النوافذ بدلا من الشمسيات الزجاجية الملونة ، واستخدام العقد المتعدد الفصوص فوق حنية الكنيسة • والقبة الوسطى بهذه الكنيسة تقوم على قاعدة مربعه تتحول الى مثمن عن طريق جوفات مقوسة فى الأركـــان • وتنطلـــق من جوانب المثمن عقود تتقاطع فيما بينها مؤلفة شكلا نجمياً وسطه أجوف ، شأنه فى‌ذلك شأن قبتى جامع قرطبة المجـــاورتين للمحراب وتشبه هذه القبوة قبوات أخرى فى كنيسة سان كروا بأولورون تقوم على الضلوع المتقاطعة •

ولقد كانت هناك مناطق فرنسية أخرى على علاقة وثيقة باسبانيا فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر مثـــل : جاسكونيا ، ولانجدوك ، ومقاطعة أكيتانيا ، وانجو ونورماندى • اذ شوهدت بعمارة هذه المناطق محاولات كثيرة للقبوات ذات الضلـــوع تسبق التصليبات القوطية بعهد طويل ، ومنها استلهم المهندسون الفرنسيون الحل المعمارى الفريد الذى تكشف عنه القبوات القوطية المصلبة ، بنورماندى وسانتونج وبواتو•ولم تأخذ التصليبات القوطية مظهرها النهائى الا فى اليوم الذى وحد فيه مبدأ الضلوع القرطبية مع القبوة المتقاطعة ، وذلك بدعم الأجزاء البارزة من هذه القبوة الأخيرة بادخال نظام العقود المتقاطعة • ثم استخدم هـــذا الابتكار فى تغطية مسطحات واسعة بالكنائس ، عوضا عن تغطية أماكن ضيقة محصورة ، شأن القباب الأندلسية • واستغل هذا الابتداع ، الذى

اهتدى اليه مهندسو نورماندى وانجلترا فى كنيسة درهام سنة ١١٠٠ ، فى التطور به بعد ذلك بفضل مهندسى ايل دى فرانس لخلق مظهر جمالى لا مثيل له •

وبجانب التأثيرات الأندلسية ، فى القباب والقبوات ، كانت هناك تأثيرات أخرى فى العمارة والزخرفة • ففى كنيسة نوتردام دى بوردى كليرمو — التى تعتبر أقدم كنائس مقاطعة أوفرنى بفرنسا — استخدمت الكوابيل التى ظهرت أول ما ظهرت فى جامع قرطبة ، منذ عهد عبد الرحمن الأوسط ، ثم تطورت بعد ذلك فى عهد الأمير محمد ، والخليفة عبد الرحمن الناصر ، وابنه الحكم المستنصر •

ومن الغريب أن كوابيل كليرمو تماثل نظائرها بقرطبة على حين تختلف عن كوابيل الكنائس المستعربة باسبانيا ، مما يدل على أن الفنان الفرنسى أخذ من جامع قرطبة مباشرة • ويدل على ذلك ما يزين الافريز بين الكوابيل من قبيبات مفصصة ، أشبه شىء بزهرات تتألف من ثمانى ورقات ، تماثل نظائرها بقبة المحراب وجامع قرطبة •

ونشهد هذه الكوابيل أيضا فى بيريجيه ببرج فرون الذى يرجع الى القرن الحادى عشر • كذلك انتشر العقد ذو الفصوص الثلاثة فى فرنسا أكثر من انتشاره باسبانيا المسيحية ، فكان مركز انتشاره مدينة بوى • ونراه ممثلا فى واجهة كاتدرائية نوتردام دى بوى ، التى أظهرت ولعا كبيرا بهذا النوع من العقود ، بل اننا نرى ما هو أكثر تعقيدا : اذ ظهر بها العقد المتعدد الفصوص ، وعقد حدوة الفرس الذى تتناوب فيه الألوان ، مما يكشف عن تأثير أندلسى مباشر من قرطبة • ونرى العقود المفصصة كذلك فى دير كلونى ببورجنى بفرنسا ، وفى برج كنيسة لاشاريتيه سير لوار •

وقد بحث الأستاذ الدكتور أحمد فكرى أصل العقود المفصصة ،

وذكر لها أمثلة كثيرة بفرنسا • وقام كذلك بدراسة العقود التى يتناوب فيها اللونـــان الأبيض والأســـود بكاتدرائية نوتردام دى بـــوى ، وفى مقصورة سان ميشيل داجويل ، وفى واجهة كنيسة موناستييه وريوتـــار وبولينياك ، وفى كنيسة سان جوليان وفى كنائس فلاى وكاتدرائية فالنس•

من هذا يبدو مدى ما أحدثه الفن الأندلسى الاسلامى من تأثير فى الفن الفرنسى • وكان سبب وصول هذه التأثيرات الى قلب فرنسا ، هو أن الاتصالات بين فرنسا واسبانيا كانت قد توقفت منذ محاولة شارلمان غزو اسبانيا فى عهد عبد الرحمن الداخل •

وكانت اسبانيا ، منذ القرن الحادى عشر ، فى خاطر أساقفة كلونى دائما ، اذ كانوا يعتبرونها المركز الأمامى للمسيحية حيال العالم الاسلامى والحاجز المهدد الذى يجب الدفاع عنه • وكان أساقفة كلونى هم الذين نظموا الحج الى شنت ياقب Santiagode Compo Stela وكانوا هم اللذين أقاموا على طول الطرق الفرنسية المؤديـــة الى اسبانيا الأديرة الكلونية ، لتكون نزلا للحجاج • ومـــا لبث أن أصبح هـــؤلاء الرهبان الكلونيون أبطال المسيحية ، اذ أنهم شاركوا الاسبان فى حملاتهم الصليبية الموجهة الى قلب الأندلس • وكان الرهبان الفرنسيون يترددون كثيرا على الأديرة الكلونية فى اسبانيا ، مثل سان خوان دى لابنيا ، وبرغش • ولا شك أن مهندسا كلونيا استطاع أن يرى فى هذه المدن بعض المساجد التى هدمها النصارى فيما بعد •

وكان من أثر الحج الى « شنت ياقب » أن أقام الرهبان الفرنسيون الذين زاروا اسبانيا كنائسهم ، بحيث أودعوا فى عناصرها المعمارية مـــا يذكر بأرض اسبانيا • ومنهم جوتسكال ، أسقف برى ، الذى حـــج الى اسبانيا فى منتصف القرن العاشر ، وبنى كنيسة سان ميشيل ببوى على

أثر عودته • كما زار الأسقف ببير الثـــانى ، المعروف بمير كير ، كنيسة شنت ياقب وكنيسة سان ايسدرو بليون • وهكذا كان الاتصال بين فرنسا واسبانيا وثيقا للغاية ، مما يفسر ما تركه الاسلام فى عمائر الفرنسيين من تأثيرات عميقة تفصح عن فضل الحضـــارة الاسلامية على الحضـــارات الأوربية ، وهو فضل كانوا يجحدونه حتى عهد قريب •

سابعا — الفنون والصناعات بالأندلس

تبعت حركة الفتح الاسلامى للأندلس فترة من الركود الفنى والكساد الصناعى ، اذ توقف الصناع عن الانتاج نتيجة طبيعية للغزو • كذلك أحدث هذا الفتح هزة فى المجال الاقتصادى بسبب الغنائم الهائلة التى غنمها المسلمون فى المدن المفتوحة من تحف وروائع ، وترتب عليها تجريد اسبانيا القوطية من تراثها الفنى •

وكان عهد الولاة عهد اضطراب وعدم استقرار من الوجهتين السياسية والاقتصادية ، باعتباره فترة الانتقال من الحكم القوطى الى الحكم الخلافى • وما ان استقرت دعائم الاسلام فى اسبانيا ، بتأسيس الدولة الأموية ، حتى ازدهر الاقتصاد الأندلسى من جديد ، ونمت الفنون مع نمو المجتمع وترعرعت • ولما كان الفاتحون متأخرين فى ميدان الصناعة فانهم توسلوا بالعناصر المحلية ، فى هذا الميدان ، لبناء قصورهم ومساجدهم ، وصناعة ما تحتاج اليه البلاد •

والواقع أن العرب كانوا أبعد الناس عن الصناعات • والسبب فى ذلك — كما فسره ابن خلدون — أنهم أعرق فى البداوة ، وأبعد عن العمران الحضرى ، وما يدعو اليه من الصناعات وغيرها • ويرى ابن خلدون أن رسوخ الصناعات فى الأمصار ، انما هو برسوخ وطول أمدها • ويتخذ من الأندلس مثلا فيقول : « كالحال فى الأندلس لهذا العهد ، فانا نجد فيها رسوم الصنائع قائمة ، وأحوالها مستحكمة راسخة فى جميع ماتدعو اليه عوائد أمصارها ، كالمبانى والطبخ وأصناف الغناء ، واللهو من الآلات والأوتار والرقص •• وتنضيد الفرش فى القصور ، وحسن الترتيب والأوضاع فى البناء ، وصوغ الآنية من المعادن والخزف ••• وسائر الصنائع التى تدعو اليها الترف وعوائده ••• وما ذاك الا لما قدمناه من

رسوخ الحضارة فيهم برسوخ الدولة الأموية ، وما قبلها من دولة القوط، وما بعدها من دولة الطوائف الى هلم جرا . فبلغت الحضارة فيها مبلغا لم تبلغه فى قطر آخر » .

وهكذا احتضن العرب حضارة الشعب الاسبانى ، وشملوا رجال الفن من أهل الذمة برعايتهم . وظل الصناع وأصحاب الحرف يسيرون فى الطريق الذى كانوا يسيرون فيه من قبل ، مع تغيير طفيف هو تكييف منتجاتهم وفقا لما يقتضيه الوضع الجديد . ومـا لبث أن وجـد هؤلاء الصناع وأصحاب الحرف أنفسهم مضطرين الى مشاركـة المسلمين فى حياتهم ، وأقبلوا على الثقافـة العربية ، فتحققت بذلك النقلـة فى عهد الخلافة القرطبية فى القرن العاشر الميلادى . وصيغ فى ذلك العصر فن أندلسى اسلامى تدرج فى التطور ــ شأنـه فى ذلك شأن فن العمـارة والبناء ــ فى عهد ملوك الطوائف وعصـر دولتى المرابطين والموحدين ، ووصل الى أوج بهائه فىعصر دولة بنى نصر .

واذا تحدثنا عن الفنون الزخرفية والصناعية فى الأندلس ، فـاننا نعنى مـا كان يصنعه الأندلسيون مـن تحف خشبية ومعدنية وعاجية وخزفية ، ومنسوجات وجلود وزجاج وغـير ذلك . وسنقـوم بدراسة بعضها لنقف على ازدهار الصناعات فى اسبانيا الاسلامية ، وكيف ذاعت شهرتها فى كثير من بلاد أوربا والمشرق الاسلامى .

فن النحت على الخشب

زودنا مؤرخو الأندلس بوصف رائع للتحف الأندلسية المصنوعة من الخشب ، مثل ذلك : منبر المسجد الجامع بقرطبـة ومقصورته ، ومنبر مسجد الزهراء ، ومنبر جامع اشبيلية ومقصورته . ويوضح لنـا هذا الوصف الدقيق مدى ما وصل اليه هذا الفن من تقـدم فى الأندلس فى

العصر الاسلامى . وقد ذكر ابن غالب فى وصف منبر جامع قرطبة أنه « من الصندل الأحمر والأصفر والابنوس والعــود الرطب والمرجان ، وأوصاله وحشواته من الفضة المثبتة المنيلـــة ، وارتفاعه تسع درجـــات وذراعاه من الأبنوس » . ووصفه الادريسى بأنه المنبر الذى ليس بمعمور الأرض مثل صنعته . وذكر أبو حامد الغرناطى أنه أحكــم عمله ونقشه فى سبع سنوات ، وكان يعمل فيه ثمانية صناع . ويضيف ابن بشكوال أنه كان مركبا من ستة وثلاثين ألف وصلة سمرت بمسامير الذهب والفضة، وفى بعضها نفيس الأحجار .

أما مقصورة الجامع فقد نصبت حول المحــراب ، وكانت منقوشة الظاهر والباطن ، تتوجها شرفات . وكانت مزودة بثلاثة أبــواب بديعة الصنعة عجيبة النقش ، وكــان بابها الرئيسى من الذهب ، وعضادتـــاه من الأبنوس .

أما منبر جامع اشبيلية ومقصورته فقد ذكرهما ابن صاحب الصلاة فى مدونته ، وفيهما يقول : « صنع النبر من أغرب ما قدر عليه الفعلة من غرابة الصنعة ،واتخذ من أكرم الخشب مفصلا منقوشا مرقشا ، محكما بأنواع الصنعة والحكمة فى ذلك ، من غريب العمل وعجيب الشكل والمثل، مرصعا بالصندل ، مجزعا بالعاج والأبنوس .. يتلألأ كالجمر بالاشعال وبصفائح من الذهب والفضة ، وأشكال فى عمله من الذهب الابريز يتألق نورا ، ويحسبها الناظر لها فى الليل البهيم بدورا . ثم أردفت له بالعمل المقصورة من أحسن الخشب ، مختصرة من قضبه ، وثيقة لحجبه » .

ولم يتبق للأسف من هذه التحف الخشبيه آثار تذكر . ويمكننا أن نتخيل ما كان عليه منبر المسجد الجامع بقرطبة ، اذا شاهدنا منبر جامع الكتبية بمراكش الذى صنع فى قرطبة فى عهد الموحدين .

ومع ذلك فقد تبقى من جامع قرطبة بعض سماوات (١) وجوائز (٢) سقفه كما وصفها الادريسى بقوله : « وسقفه كله سماوات خشب مسمرة فى جوائز سقفه . وجميع خشب هذا المسجد الجامع من عيدان الصنوبر الطرطوشى ، ارتفاع حد الجائزة شبر وافر فى عرض شبر الا ثلاث أصابع ، فى طول كل جائزة منها سبع وثلاثون شبرا ، وبين الجائزة والجائزة غلظ جائزة . والسماوات التى ذكرناها هى كلها من ضروب الصنائع المنشأة من الضروب المسدسة والمؤربى ، وهى صنع الفص وصنع الدوائر والمداهن : لايشبه بعضها بعضها ، بل كل سماء منها مكتفية بما فيه من صنائع ... قد أحكم ترتيبها ، وأبدع تلوينها بأنواع الحمرة الزنجفرية والبياض الاسفيداجى والزرقة اللازوردية والزرقون الباروقى والخضرة الزنجارية ولتكحيل النقسى ، تروق العيون ، وتستميل النفوس باتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها وتقسيمها » .

وهذا الوصف الرائع ينطبق على بقايا القطع الخشبية التى نحتت عليها زخارف هندسية من دوائر ومضلعات وأقواس مفصصة متداخلة فيما بينهما ، ولون بعض هذه الزخارف بألوان خضراء وزرقاء وغيرها من الألوان التى ذكرها الادريسى . وقد أعاد السنيور فيلاسكث بوسكو تركيب بعض هذه اللوحات والكتل الخشبية فى مواضعها من بلاط المحراب، وما يحيطه من أروقة جانبية ، والبعض الآخر علق على جدران مجنبات المسجد ، وفى متحف الجامع .

وأروع ما تخلف من التحف الخشبية فى الأندلس هو أسقف قاعات قصر الحمراء ، ودور غرناطة وأبنيتها العامة . وكلها أسقف على شكل هرم ناقص ، مزينة بالزخارف الهندسية الرائعة الملونة ، تمثل أشكالا

نجمية بعضها محفور فى الخشب بتشعع منها الخطوط وتتقاطـع ، فتتكرر النجوم فى شكل يجعل من هذه الأسقف متاحف غنية بالزخارف التى تروق العين ببديع تكوينها وروعة تحطيطها • ويحيط بهذه الأسقف من أدناها أزر خشبية عليها توريقات ملونة أ ومزينة بمقرنصات دقيقة •

واستخدم عرفاء بنى نصر الخشب كذلك فى أغراض زخرفية : مثل الأعتاب، واظل المائلة فوق الأبواب ، وفى صاريع الابواب ، وفى النوافذ وفى التشبيكات •

وأروع التحف الخشبية الغرناطية تتمثل فى الظلل التى تعلو الأبواب وتتكىء على كوابيل خشبية تندمج فى الجدران • وكانت هذه الظلل تكسى عادة بزخرفة من التوريقات والكتابات النسخية أو الكوفية • أما مصاريع الأبواب فكانت تتألف من حشـوات هندسية متداخلة ، بعضهـا مرصع بالعاج • وحفظ لنا من هذه الأبواب باب قاعـة قمارش ، وهـو مرصع بحشوات من العاج تحتشد فيها التوريقات •

فن صناعة علب العــاج

يتمثل فن النحت الأندلسى أروع تمثيل فى العلـب المصنوعـة من العاج ، التى كانت تصنع خصيصا لجوارى الخلفاء وزوجاتهم ، لحفـظ قنينات العطر ووضع المسك والعنبر أو لصيانة حليهن • وتحتفظ أغلب هذه العلب بأسماء من صنعت له ، واسم الصانع ، والمدينة التى صنعت فيها ، وتاريخ صنعها ••• مما يزيد فى قيمتها ، ويجعلها بحق من أصدق الوثائق التى تعيننا على دراسة الفن الأندلسى •

وتتخذ هذه العلب العاجية شكلين مختلفين : علب اسطوانية ذات غطاء مقبب ، وصناديق مستطيلة ذات أغطية على شكل هـرم ناقص أو

مسطحة • ويقسمها خوسى فرانديس ، من حيث الزخرفة ، الى ثلاثة أنواع : الأول النوع الذى يشتمل على زخرفة من التوريقات التى تختلط أحيانا برسوم حيوانات • والثانى النوع الذى تنحصر زخارفه فى جمات مستديرة أو مفصصة ، تمثل رسوما آدمية أو حيوانية ، وأحيانا تصور مناظر للصيد أو الطرب • والثالث النوع الذى تمثله زخارف دقيقة لأشخاص أو حيوانات بين توريقات •

وأغلب الظن أن هذه الزخارف تقوم على تقاليد فارسية ، اذ تظهر فيها صور لحيوانات متقابلة مرة ومتدابرة مرة أخرى ، أو تبدو فيها أعناقها متضافرة أو تفصل بين كل زوج منها شجرة الحياة ، أو بعض حيوانات تفترس أخرى ، أو صور عنقاوات مجنحة • أما الصور الآدمية، فتشمل عادة مجالس أنس أو طرب فى بلاطات الأمراء والخلفاء ، ويبدو فيها شخص يجلس أو يقف بين شخصين آخرين أو صور لصيادين أو بيازين ••• وغير ذلك من الموضوعات الشائعة فى الفن الفارسى •

ومن هذه التحف العاجية استطعنا أن نلم بمركزين رئيسيين لصناعة العلب الأميرية أو الخلافية منها : أحدهما قرطبة ، والآخر طليطلة •ويغلب على الظن أن مصنع قرطبة كان قائما بمدينة الزهراء ، اذ نرى اسم مدينة الزهراء منقوشا فى بعض هذه العلب • ولعله دار الصناعة التى أسسها عبد الرحمن الناصر فى هذه المدينة الخلافية ، وفقا لما ذكره ابن خلدون •

وقد ازدهر فن صناعة علب العاج فى عهد الحكم المستنصر ، وأروع تحف هذا النوع : علبة من العاج صنعت فى مدينة الزهراء بأمر الحكم المستنصر ، لزوجته السيدة صبح ، على يدى درى الصغير الفتى الصقلى سنة ٣٥٠ هـ ، وصندوقان آخران صنعا فى نفس هذا المصنع سنة ٣٥٥ هـ ، أمر بصنعهما الحكم للسيدة صبح أيضا •

ولما توفى الخليفة الحكم ، توقف النشاط الفنى لصناعة العاج •••

الى أن كانت أيام عبد الملك بن المنصور ، حاجب الخليفة هشام المؤيد . فأحيا هذه الصناعة . ولدينا من انتاج هذا المصنع صندوق من العـاج غطاؤه على شكل هرم ناقص . وقد صنع هـذا الصندوق للحاجب عبد الملك بن المنصور بن أبى عامر سنة ٣٩٥ هـ (١٠٠٥ م) على يدى الفتى نمير بن محمدالعامرى ، واشترك فى عمله صانعان هما عبيدة وخـير . وزخارف هذا الصندوق تتألف من جامات مفصصة تتضمن مناظر لحياة البلاط الأموى فى الأندلس ، وأخرى تمثل مناظر صيد ومبارزات .

ولما سقطت الخلافة الأموية بقرطبة ، هاجم البربر قصور المدينة ، ودمروها ، ثم خربوا مدينة الزهـراء ، وأحرقوا قصورهـا ومبانيها ، وجعلوها أثرا بعد عين ... وهكذا خربت دور صناعة تحف العـاج بين الأبنية التى خربها البربر ، وتوقفت هذه الصناعة بقرطبة .

ويغلب على الظن أن صناع قرطبة هاجروا الى بلاط ملك طليطلة : المأمون بن ذى النون ، أقوى ملوك الطوائف ، حيث تلقـوا من تشجيعه ما حبب اليهم الاقامة فى ظله وتحت رعايته بمدينة قونكة ، احـدى مدن مملكة طليطلة ، ونستنتج من علب وصناديق قونكة ، المصنوعة فى القرنين الحادى عشر والثانى عشر ، أنها كانت علبا ثرية بزخارفها وطريقة صنعها ولكنها لم تكن كذلك فى مادتها المصنوعة منها ... فلم يكـن من الميسور الحصول على القطع العاجية الضخمة التى كان يجلبها خلفاء بنى أمية . وأصبح استخدام العاج مقصورا على لوحة رقيقة تنفذ فيهـا الزخارف حيث يمكننا أن نرى ما تحتها من أرضية خشبية .

وأقدم هذه التحف العاجية الطليطلية : صندوق من العاج محفوظ فى متحف برغش ، عليه رسوم تمثل مناظر صيد وحيوانات تتصارع موزعة فى ثلاثة صفوف أفقية وأعلى العلبة نقش كوفى نصة :

« ... باقية لصاحبه أطال الله بقاءه ، مما عمل بمدينة قونكة ، سنة سبع عشرة وأربعمائة ، عمل محمد بن زيان عبده أعزه الله » .

وفى متحف الآثار بمدريد ، صندوق مشابه للصندوق المذكور ، ويحمل جانباه الكبيران فراغا مستطيلا فى الوسط تحتشد فيه توريقات . ويحيط بهذا المستطيل شريط يشتمل على حيوانات وطيور متقابلة ، زوجين زوجين ، تفصل بين كل زوجين أقواس مفصصة . وفى الجانبين الآخرين مناظر للصيد والطعان . وتمتد الكتابة فى شريط يتوج الصندوقين ونصها :

« بسم الله الرحمن الرحيم : بركة من الله ونعمة شاملة وعافية باقية ، وغطبة طائلة وآلاء متتابعة ، وعز واقبال وانعام واتصال ، وبلوغ آمال لصاحبه أطال الله بقاه ... مما عمل بمدينة قونكة بأمر الحاجب حسام الدين أبى محمد اسماعيل بن المأمون ذى المجدين ابن الظافر ذى الرئاستين ابن محمد بن ذى النون ، أعزه الله ، فى سنة احدى وأربعين وأربعمائة . عمل عبد الرحمن بن زيان » . وتكرر اسم ابن زيان يدل على أن هذا المصنع ينتمى الى أسرة واحدة من الصناع .

ونستنتج مما سبق أن فن صناعة العلب العاجية بقرطبة وقونكة كان فنا خلافيا خاصا بالأمراء والخلفاء . وقد اختفت هذه المصانع فى القرن الثانى عشر ، وغلبت صناعة العلب والصناديق الشعبية وفى هذه التحف يغلب استخدام الخشب المغطى بصفيحة رقيقة من العاج ، أو المرصع بقطع منه ، ولا نقرأ فى هذه التحف أسماء الخلفاء أو الصناع ، وانما نلاحظ أن صنعتها كانت تجارية بحتة .

وأهم أمثلة هذا النوع : صندوق سان ايسيدرو بليون ، المحفوظ اليوم بمتحف الآثار الأهلى بمدريد ، وصندوقا كاتدرائية طرطوشة ، وثلاث علب خشبية رصعت بنقوش عاجية تمثل مناظر صيد وصور

حيوانات متقابلة • والصندوق الأول عليه نقش نسخي يتضمن اسم الصانع وهو محمد بن السراج ، واسم الشخص الذى صنع له وهو أبو الحسن • ويعتقد فرانديس أنها تحفة أندلسية من القرن الثانى عشر • أما الصندوقان المحفوظان بكاتدرائية طرطوشة فهما متماثلان فى الصناعة، ولكن الزخارف تتألف من رسوم داخل دوائر ، ويتشابهان مع التحف العاجية المصنوعة بقرطبة فى حصر الزخارف الحيوانية والآدمية داخل هذه الدوائر ، وفى موضوعات الزخرفة • ولم يستخدم العاج فى ترصيع زخرفة هذين الصندوقين ، وانما استعمل العظم الملون •

ومما يثير الاعجاب فى هذه الصناديق العاجية مجموعة التصاوير التى بلغت ذروة الكمال الفنى فى الاتقان والدقة ••• هذا الى جمال توريقاتها ، واتساق تكوينها • ونلمس فى الرسوم الحيوانية والآدمية رشاقة فى الحركات ، كما نلمح رقة فى رسوم الغزلان والطواويس • وهذه الصناديق الشعبية — رغم فقر المادة التى صنعت منها — فيها تعبير عن الحركات تتمثل فى الاهتزازات التى تدعم هذا التعبير •

فن صناعة التحف المعدنية

يتميز الفن الاسلامى بصفة تجريدية كانت سببا فى بروز الاتجاه الهندسى فى زخارفه ، كما ساده بوجه عام ميل الى الابتعاد عن تصوير الكائنات الحية ، فعمد الفنان المسلم الى تحوير التماثيل ، بعكس الفنان اليونانى أو الرومانى الذى كان يبحث عن المثل فيما حوله من الطبيعة • ومع ذلك فان كتب التاريخ تزخر بوصف رائع لما كانت تحويه قصور الخلفاء والملوك من تماثيل وصور حية ، كما تشهد بعض الآثار القائمة : كنافورة بهو السباع بقصر الحمراء ، وتصاوير قاعة القضاء ، وقصر البرطل من قصور الحمراء ، وبعض النقوش المحفورة فى أحواض الرخام وعلب العاج بالأندلس ، وبعض التحف المصنوعة من المعادن ••• تشهد

كل هذه التحف بصدق وصف المؤرخين وعدم مبالغتهم فيــه ، وتشهد فى الوقت نفسه بأن الفن الأندلسى لم يقف جامدا أمام التوجيهات الدينية السلبية التى تأثر بها الفن الاسلامى عامة • ونعلل ذلك بأن لمعنى الشكلى تفوق عند الأندلسيين وغيرهم من الشعوب التى كانت تتصف بان خيالها أقل تجريدا من خيال الشعوب العربية •

التماثيـــــــــل

وتشير كتب التاريخ الأندلسى الى التماثيل المعدنية التى كانت تزين قصور الزهراء • ويذكر المقرى أن عبد الرحمن النـــاصر نصب الحوض الصغير الأخضر المنقوش بتماثيل الانسان ، الذى جلبــه أحمد اليونانى وربيع الأسقف من القسطنطينية ، فى مجلسه الشرقى المعروف بالمؤنس ، وجعل عليه « اثنى عشر تمثالا من الذهب الأحمر ، مرصعة بالدر النفيس الغالى ، مما عمل بدار الصناعة بقرطبة : صورة أسد بجانبه غزال ، الى جانبه تمساح ، وفيما يقابله ثعبان وعقاب وفيل ، وفى المجنبتين حمامـــة وشاهين وطاووس ودجاجة وديك وحدأة ونسر ••• كـــل ذلك من ذهب مرصع بالجوهر النفيس ، ويخرج الماء من أفواهها » •

ويذكر ابن بسام أن قصر الناعورة ، الذى بناه القادر بالله بن ذى النون بطليطلة ، كان به بحيرتان « قد نصبت على أركانهمـــا صور أسود مصنوعة من الذهب الابريز أحكم صياغة ، تتخيل لمتأملها كالحة الوجوه ، فاغرة الشدوق ، ينساب من أفواها نحو البحرتين المـــاء هونا كرشيش القطر أو سحالة اللجين » • وفى ذلك المنظر أنشد أبو محمد بن السيد :

والمـــاء كاللازورد قد نظمت

فيـــه اللآلىء فواغر الأســـــد

وهكذا بالغ مؤرخو العرب فى وصف روائع التماثيل المعدنية التى

تزين تلك القصور وصفا لا يمكن أن يصدقه العقل والمنطق • غير أنه وصل الينا من هذه التماثيل اثنان أثبتا بصورة قاطعة ، صدق هذا الوصف : أحدهما تمثال لوعل أو غزال من البرنز فقد قرنية ، عثر عليه فى الحفائر الأثرية التى أجريت بمدينة الزهــراء ، وحفظ عــدة سنوات بدير سان جيرونيمو المجاور لأطلال مدينـــة الزهراء ، ثم حمــل الى متحف قرطبة الأهلى للآثار •

ولعل هذا الغزال هو الذى أشار اليه المقــرى عنــد ذكره للتماثيل الذهبية الحمراء التى كانت تزين قصر المؤنس ، وكان منصوبا مع التماثيل الأخرى ـــ التى كانت تمج الماء من أفواهها ـــ حول الحوض المذكور فى ساحة من ساحات هذا القصر • ويبلغ ارتفاع هذا الغزال نحــو أربعين سنتيمترا ، ويزدان جسمه بزخارف محزوزة من دوائر أو حلقات متصلة، بداخل كل منها ورقة من أوراق الشجر • وكان المــاء يجرى الى فمه من طريق قناة أو أنبوبة تمتد من وسط قاعدته ، ثم يصعد فى أرجله ورقبته •

والتمثال الآخر اكتشف فى قرطبة ، وهو لوعل يزدان بزخرفـــة من دوائر بين سيقان متوجة بصورة أكثر تفننا وتنوعا من وعل الزهراء • الا أن شكل وعل قرطبة غير متناسق لصغر أرجله وضياع أذنيـــه وقرونه • وكان الماء يتخلله من أنبوبة فى وسط بطنه •

وعثر فى مدينة مونثون ذى كامبوس ، من اقليم بلنسية ، على فوارة تمثل أسدا من البرنز ، محفوظة اليوم فى متحف اللوفر بباريس • وذيل هذا الأسد على شكل ساق نباتية تنتهى بورقتين : احداهمــا ملتفه الى أدنى ، ، والأخرى متجهةالى أعلى • وجسم الأسد مغطى كله بالتوريقات ولا يفترق هذا التمثال كثيرا عن تمثال العقــاب المحفوظ بالكامبو سانتو فى مدينة بيزا ، وتمثــال الحصان المزعــوم المحفوظ فى متحف برجليو

بفلورنسا ، والوعل ذى القرون المحفوظ فى متحف بافـارو بميونيخ ، والطاووس المحفوظ فى متحف اللوفر •

وجميع هذه التماثيل تذكرنا بالناحية التجريدية التى اتجـه اليها الفن الاسلامى ، والتى دفعت الفنان المسلم الـى تحوير صور وتماثيل الكائنات الحية وتجريدها من معانى الحياة • وتعزى هذه التحف الأخيرة الى الفن الفاطمى بمصر أو الفـن الصقلى دون دليل قاطـع أو اثبات صريح ، كما أنه ليس هناك من الدلائل ما يكفى لاثبات أنهـا أندلسية • ولكننا نرجح انتسابها الى الأندلس عنـد مقارنتها بالوعلين القرطبيين والأسد الذى عثر عليه فى أسبانيا •

الثريـــات البرنزيـــة

ذكر مؤرخو العرب فى الأندلس أن جامع قرطبة كـان يشتمل على مائتين وثمانين ثريا من اللاطون (الصفر) ، عدد كئوسها يبلغ سبعة آلاف وأربعمائة وخمسا وعشرين كأسا ، وقيل عشرة آلاف وثمانمائة وخمس كئوس • منها أربع ثريات كبار معلقة فى البلاط الأوسط ، أكبرها الثريا الضخمة المعلقة فى قبة المحراب ، وكانت تحمل ألفا وعشرين كأسا • ولم يتبق لسوء الحظ أى ثريا من ثريات جامع قرطبة •

وكان جامع البيرة يحتوى على عدد كبير من الثريات احترقت عندما أحرق البربر هذا الجامع سنة ١٠١٠ م • ولحسن الحظ عثـر على ست ثريات منها فى الحفائر التى أجريت بأرض المسجد ، أكبرها ثريـا على شكل طبق مستدير محزم فى شكل هندسى ، ويتألف محيطها من فراغات مستديرة كانت توضع فيها الكئوس التى تضاء بالزيت • وكان هذا المحيط مزودا بحلقات صغيرة تعلق منها السلاسل •

وفى متحف الآثار بمدريد ثريا رائعة من البرنز تنتمى الى جامع الحمراء ، وهى من أجمل التحف المعدنية الأندلسية . وفى محيطها الأدنى نقش كتابى نطالع فيه اسم السلطان محمد الثالث بن نصر الذى أسس هذا الجامع سنة ٧٠٥ هـ (١٣٠٥ م) ومحيطها العلوى أصغر كثيرا من محيطها الأدنى . وحول هذين المحيطين كسوة من البرنز محزمة بتوريقات رائعة ، وزخرفة من الكتابة النسخية التى نطالع فيها عبارة « لا غالب الا الله » . وتتكرر هذه العبارة فى التفاحات الأربع المتراكمة فى السفود الذى تعلق منه الثريا .

التحف المصنوعة من البرنز

عثر فى مونثون دى كامبوس على مهراس كبير (هاون) محفوظ بمتحف فيلا نوبيا . وهذا المهراس مزود بحلقتين ونتوءات مثلثة على شكل مناقير طيور تدور ببدنه ، وتزينه زخارف محفورة من التوريقات والأسود والطواويس ، ونقش كتابى يتضمن كلمة « لصاحبه » . ويمكن ارجاعه الى عصر الخلافة .

وعثر فى غرناطة على مبخرة أسطوانية الشكل تقوم على ثلاث أرجل، وغطاؤها يكاد يكون مخروطى الشكل ، ومحزم على نحو يتجلى معه ما يشبه الورقات المزدوجة فى دوائر . ويعلو المبخرة طائر منقاره معقوف .

واحتفظ فى كنيسة سان سلفادور باشبيلية بضبتى باب من البرنز المذهب ، موضوعتين اليوم على أحد أبواب الكنيسة ، ولعلهما كانتا معلقتين فى باب المسجد الذى كان قائما فى موضع الكنيسة . وتتألف كل من الضبتين من حلقة سداسية الشكل ، سعتها ١٤ سم ، معلقة فى رأس أسد مركب فوق قرص مثمن الأضلاع جوانبه مقعرة . وتكسو الجميع توريقات فى غاية الروعة والجمال . وتشبه هاتان الضبتان حلقتين من اللاطون

ذكرهما المقرى عندما تحدث عن أبواب قصر قرطبة ، اذ يقول : « وعلى هذا الباب باب حديد وفيه حلق لاطون قد أثبتت فى قواعدها ، وقد صورت صورة انسان فتح فمه » .

وفى متحف بلنسية سطل من النحاس على شكل هرم ناقص ، به زخارف قوامها أرنبان بريان فى دوائر بين كتابات تتضمن عبارات المدح المعروفة .

وتكسو مصراعى باب جامع اشبيلية صفائح من البرنز ، مزينة بخطوط متقاطعة تؤلف أشكالا مسدسة : تتناوب فى وضع أفقى ورأسى، وتقوم بينها أشكال نجمية ، فى وسطها أشكال مثمنة . وتحتشد فى المسدسات الرأسية توريقات رائعة ، وتملأ المسدسات الأفقية كتابة كوفية مختلطة بالتوريقات ، نقرأ فيها عبارة « الملك لله . البقاء لله » ويحيط بالمصراعين افريز من الكتابة الكوفية المختلطة بالتوريقات .

وضبتا الباب من أروع التحف البرنزية فى عهد الموحدين ، اذ تتخذ كل منهما شكل ورقة نباتية أطرافها على شكل حنيات متصلة ، وبداخلها أوراق صغيرة محزمة ، مزودة بأطراف مدببة وأخرى ملتفة . ويحيط بالضبتين كتابة نسخية نصها فى الضبة اليمنى : « بسم الله الرحمن الرحيم . فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال ، رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وأقام الصلاة » . وفى الضبة اليسرى : « بسم الله الرحمن الرحيم . ادخلوها بسلام آمنين . ونزعنا ما فى صدورهم من غل اخوانا على سرر متقابلين. لا يمسهم فيها نصب وما هم منها بمخرجين » . وترجع هاتان الضبتان الى عصر أبى يعقوب يوسف .

وفى متحف الآثار بمدريد سطلان من البرنز من عصر بنى نصر :

أحدهما مخروطى الشكل عليه زخرفة من كتابة نسخية وتوريقات بسيطة • والزخرفة الكتابية نصها : « وبلوغ الأمل » ، ويعلوها افريز كتابى تتكرر فيه عبارة « الغبطة المثقلة » • والآخر أسطوانى الشكل عليه زخارف نباتية وكتابة كوفية •

السيوف

ذكر ابن سعيد المغربى أن من آلات الحرب فى الأندلس « التراس والرماح والسروج والألجم والدروع والمغافر » • وأضاف قائلا : « ان السيوف البرذليات (١) مشهورة بالجودة • والفولاذ الذى باشبيلية اليه النهاية » • ولسوء الحظ لم تصل الينا أى آثار للسيوف الأندلسية قبل عصر بنى نصر • وتشير المدونة العامة لتاريخ اسبانيا ــ التى كتبها الملك ألفونسو الحادى عشر ــ الى أن سلاطين غرناطة كانوا يهدون السيوف الغرناطية الى ملوك المسيحية ، ومنها سيف مقبضة مكسو بصفائح الذهب، ومرصع بالزمرد والياقوت والعقيق •

وقد أهدى أبو الحجاج يوسف سنة ١٤٠٩ م سيوفا من الفضة الخالصة الى دون خوان الثانى والأمير دون انريكى •

وينسب الى السلطان أبى عبد الله عدة سيوف محفوظة فى متحف الجيش ، ولعلها سيوف السلطان التى انتزعها منه الملكان الكاثوليكيان ، عندما أسراه فى احدى المواقع الحربية • ومنها سيف هو أروع السيوف الاسلامية على الاطلاق ، ويعد تحفة فريدة فى صناعة الحلى الغرناطية، ومقبضه من العاج ، تكسوه زخرفة دقيقة ، ويزدان غمده بنجوم وصلبان بينها توريقات وكتابات • وفى متحف الجيش عدة سيوف مقابضها من العاج وأغمادها من الفضة أو النحاس مغطاة جميعا بتوريقات رائعة وكتابات • وفى متحف الآثار بغرناطة منجنيق صغير من الخشب عثر

عليه بمنطقة البشرات ، مرصع بالبرنز ، حفرت فيه زخرفة من التوريقات محزمة ومطعمة بالعاج .

التحف الفضيـــة

وصلت الينا تحفة واحدة من عصر الخلافة ، وهى صندوق كاتدرائية خيرونة . ولعل القطلانيين سلبوها من قرطبة بين ما سلبوه بعد خرابها سنة ١٠١٠ م . وهذا الصندوق عليه نقش كتابى يدل على أنه صنع بأمر الحكم المستنصر ، لابنه وخليفته هشام ، وأن ذلك تم على يـــدى جؤذر سنة ٩٧٠ م . ونص هذه الكتابة هو : « بسم الله . بركة من الله ويمن وسعادة وسرور دائم لعبد الله الحكم أمير المؤمنين المستنصر بالله ... مما أمر بعمله لأبى الوليد هشام ولى عهد المسلمين . تم عمله على يـــد جؤذر فتاه » .

والصندوق مصنوع مـــن الخشب ، ومغطى بصفائح مـــن الفضة المزدانة بزخارف مطروقة ومذهبة . وقاعدته المستطيلة طولها ٣٩ سم ، وعرضها ٢٣ سم . ويزين الصندوق توريقات رائعة فى تكوينها . ويحتفظ الصندوق بمفصلتين دائرتين وقفل رائع الزخرفة .

صناعة المنسوجـات

بصناعة الديبـــاج والحـــرير والحلل النفيسة والسقلاطون والعتابى واشتهرت مالقة بصناعة الموشى المذهب ، كما اشتهرت غرناطة بصناعة واشترهت مالقة بصناعة الموشى المذهب ، كما اشتهرت غرناطة بصناعة الملبد المختم ذى الألوان العجيبة ، ومرسية بالوشى والبسط التنتلية .

ولا شك أن صناعة المنسوجات الأندلسية لم تكن الا تطورا للطرق الصناعية المعروفة فى المشرق منذ قديم الزمان . ولابد أن نبحث دائما عن

أصولها وطريقة صناعتها ، وأسلوب زخارفها ، فى الفن الساسانى والفن البيزنطى والفن القبطى • ولقد استعان الفاتحون المسلمون منذ أن وطئت أقدامهم أرض الأندلس بالصناع المشرقيين ، واستحضر بنو أمية من الشام أسرات كاملة من صناع النسيج ، وأقاموا فى الأندلس دار الطراز •

والطراز ، كما يقول بن خلدون : « علامات يرسمها السلاطين والملوك فى طراز أثوابهم المعدة للباسهم ، من الحرير أو الديباج أو الابريسم ••• تعتبر كتابة خطها فى نسج الثوب الحاما وسدى بخيوط الذهب ، أو ما يخالف لون الثوب من الخيوط الملونة من غير الذهب ، على ما يحكمه الصناع فى تقدير ذلك ، ووضعه فى صناعة نسجهم ••• فتصير الثياب الملوكية معلمة بذلك الطراز ، قصد التنويه بلابسها من السلطان »•

وكان عبد الرحمن الأوسط أول من أنشأ دار الطراز بالأندلس (١)، وتبعه ملوك الطوائف • فلما كانت دولة الموحدين ، استغنوا عن لبس الحرير والذهب ، فأبطلوا دار الطراز • ولكنها أعيدت فى عهد بنى نصر•

ولقد أقام عبد الرحمن الناصر على دار الطراز بقرطبة فتاه خلف ، وجعله مشرفا على صناعة المنسوجات الخلافية • وكان بالأندلس دور أخرى ، موزعة فى المرية ومالقة ومرسية وغيرها ، لصناعة المنسوجات • وكانت هذه المنسوجات موضع اعجاب الأوربيين لجودتها ورقتها •

ويتجلى فى منسوجات الأندلس ، فى عصر بنى أمية ، تأثيران أساسيان : التأثير القبطى ، والتأثير الساسانى • ولكن لم يتبق من انتاج دار الطراز القرطبية سوى قطعة واحدة ، هى طراز هشام المؤيد • وقد

---

(١) فى ذلك يقول ابن الخطيب فى كتابه « أعمال الاعلام » : « وفى ايامه اتخذ الطراز الذى كان حديث الرفاق ، وطرفة أهل الآفاق » .

عثر عليها فى سان استبان دى غرماج ، وهى محفوظة اليوم فى الأكاديمية التاريخية بمدريد ، ولعلها كانت من بين ما انتهبه البربر عند تخريب قرطبة سنة ١٠١٠ م ، وحملت الى هناك •

وهذه القطعة لا تعدو أن تكون غشــاء أصفر اللون، ســداه رقيق للغاية ، مزود بشريط أبيض به بعض الاصفرار ، وفيه رسم دقيق يشف عن تقاليد قبطية ، يتألف من جامات مثمنة الشكل ، متصــلة فيمــا بينها بأشكال نجمية ، وبداخلها صور آدمية وحيوانية فى ألوان بيضاء وزرقاء وخضراء • ويحف بهذا الشريط الزخرفى من أعلى ومن أسفل سطر من الكتابة الكوفية ، تتجه رءوس السيقان فى حروفها الى الداخــل ، ونص هذه الكتابة ما يلى : « بسم الله الرحمن الرحيم ••• البركــة من الله واليمن والدوام للخليفة الامام عبد الله هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين »•

وكانت هناك أنسجة تجلب من المشرق : من العراق وخراسان • وقد ذكر المقرى ، نقلا عن ابن الفرضى ، أن من بين الهدايا التى قدمها الوزير أحمد بن شهيد الى الخليفة عبد الرحمن الناصر « ثلاثون شقــة وخلع خاصة للباسه بيضاء وملونة ، وخمس ظهائر شعبية خاصة لــه ، وعشرة فراء من عالى الفنك : منها سبعة بيض خراسانية وثلاثة ملونــة ، وستة مطارف عراقية خاصة له ، وثمان وأربعون ملحفة زهريــة لكسوته ومائة ملحفة زهرية لرقاده » وزاد عليها ابن خلدون ستة من السرادقات العراقية وثمانيا وأربعين من الملاحف البغدادية لزينة الخيل من الحرير والذهب •

ولقد وصلت الينا قطعة من النسيج المعروف بنسيج الفيلة ، محفوظة بكنيسة سان ايسيدرو بليون ، وعليها كتابة كوفية نستدل منها على أنها عملت فى بغداد • ولقد قلدت المنسوجات البغدادية فى الأندلس تقليــدا رائعا ، وذلك فى المرية التى كانت تصنع بها — على حد قول الادريسى — الخمر العتابى ، والأصبهانى ، والجرجانى •

والعتابى نوع من الخمر ينسب الى بغداد ، وهى أقمشة تغطى بها النساء رءوسهن • وقد عرف الايطاليون هذه الصناعة من طريق الأندلسيين ، كما عرفها الفرنسيون • وعرفت هذه الثياب فى أوربا باسم تابى Tolis ، وهو تحريف واضح من كلمة عتابى ، وكان يقصد بها الاقمشة المموجة • والأصبهانى نوع من الأقمشة اشتهرت به مدينة أصبهان • أما الجرجانى فقد ذاعت شهرته فى جرجان •

وكانت الزخارف تنسج غالبا فى دوائر كبيرة ملتحمة فيما بينها ، وتحف بها الكتابة أفقيا أو حول الدوائر ، ولا تظهر الصور الآدمية الا نادرا • وأجمل مثال لذلك قطعة من القماش ، ترجع الى القرن الحادى عشر ، كان ملفوفا فيها جسد القديس برناردو كالفو • ومنها قطع محفوظه فى متحف فيش باسبانيا ومتحف الفنون الزخرفية بباريس • وزخارف هذه القطعة تمثل صورة جلجامش يرفع بكلتا يديه أسدين فى لون أزرق مخضر وورد ى ، فوق أرضية فاتحة اللون • ويتوج القطعة سطر من الكتابة الكوفية نطالع فيها كلمة « اليمن » مكررة •

وأكثر أنواع الحيوانات شيوعا فى المنسوجات المنسوبة للأندلس ، صور الحيوانات الخرافية ، والعنقاوات ترسم مزدوجة دائما : متقابلة أحيانا ، ومتدابرة أحيانا أخرى أو ترسم بينها ساق نباتية • وكلها من الموضوعات الشائعة فى الفن الساسانى • ومن أجمل أمثلة هذا النوع : قطعة من الحرير الموشى بالذهب ، محفوظة بالكاتدرائية الجديدة بشلمنقة • وتمثل زخارفها جامات بداخلها صور طائرين جسماهما متدابران ، ورأساهما متقابلان • ويحف بكل جامة شريط به عمارة متكررة ، مكتوبة بالخط الكوفى ، نصها : « الملك لله » •

وكانت هذه القطعة تغطى بعض المستندات التى ترجع الى عصر « فرناندو » الثانى ملك ليون (١١٥٨ ـ ١١٨٨ م) • ويرى فيها ميجون

بعض التأثيرات الصينية . كذلك يرى هذه التأثيرات فى القطعة المعروفة بالزرافات ، والمحفوظة فى متحف برشلونة . وفيها نرى رسم طائر كاسر يحمل حيوانا يشبه الأسد .

وهناك نوع من المنسوجات يعرف بمنسوجات الفيلة ، حفظت منه بعض القطع فى كنيسة سان ايسيدرو بليون ، وتظهر فيها دوائر بداخلها صور فيلين متقابلين بينهما شجرة الحياة . وفوق ظهر كل فيل منهما أسد يفترسه ، وفوق ظهر الأسد صقران جسماهما متقابلان ، ورأساهما متدابران . وتدور حول كل دائرة كتابة كوفية نصها : « البركة من الله واليمن .. لصاحبه أبى بكر مما عمل فى بغداد » مكتوبة طردا وعكسا .
وهناك قطع أخرى من هذا النوع من النسيج وجدت فى اسبانيا ، كالقطعة الحريرية المحفوظة فى متحف كونست جفرب (الفنون التطبيقية) ببرلين ، وتزدان بصورة فيل واحد داخل جامة تحف بها زخرفة مضفورة، ويعلو الفيل شجرة .

وكثيرا ما نشاهد صور حيوانات خرافية كاملة كالعنقاوات . وتمثلها قطعة من الحرير محفوظة بمتحف فيش باسبانيا ولعلها أجمل قطعة أندلسية ، وفيها نشاهد التكوين الزخرفى على أرضية قرمزية اللون ، ويتوزع التكوين فى صفوف أفقية يتناوب فيها موضوعان زخرفيان : أحدهما قوامه نسران طويلا العنق متقابلان ، بينهما شجرة الحياة . والآخر يزدان بصورة حيوان خرافى يمثل طائرين متقابلين جسما ورأسهما رأس أسد . ولقد تتبع بوتييه أصل هذا الحيوان الخرافى بالدراسة ، فوجد أنه ظهر قبل الميلاد فى سوريا وبابل . وأغلب الظن أن هذه المنسوجات من صناعة المرية التى كانت ــ خلال عهد طويل ــ أحد المراكز الأوربية العظمى فى صناعة المنسوجات .

وقد تحولت صناعة المنسوجات ذات الصور الحيوانية ، فى عصر

الموحدين ، الى منسوجات ذات زخارف هندسية من تشابكات ومربعات ووريدات وكتابات نسخية ، ومع ذلك فقد أتقنت صناعتها الى حد كبير . وقد ذكر ابن خلدون أن دار الطراز أبطلت فى عهد الموحدين ، ومع ذلك فقد وصلت الينا أمثلة كثيرة من صناعة المنسوجات فى هذا العصر ، عثر عليها فى مقابر المسيحيين : مثل أكفان دون رودريجو خيمنث دى رادا ، والأمير دون فيليب وزوجته ، وأنسجة كاتدرائية لاردة .

وكان أعيان قشتالة وأرغون يتخذون ثيابهم من الأقمشة الأندلسية الاسلامية . وأروع أمثلة المنسوجات الموحدية الأعلام الاسلامية التى غنمها المسيحيون فى واقعة العقاب (لاس نافاس دى تولوز سنة ١٢١٢) التى انهزم فيها الخليفة محمد الناصر . وأهم هذه الأعلام واحد محفوظ فى دير لاس أويلجاس بمدينة برغش . ويغلب على الظن أنه صنع بالمغرب . وهذا العلم منسوج من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، وألوانه حمراء وزرقاء وبيضاء وخضراء وصفراء .وتتألف زخارفه من جامة مركزية ، بداخلها زخرفة هندسية من تشابكات تحيط بها طرز مربعة ، ويحيط بالعلم شريطان من الكتابة النسخية . وفى أدنى العلم شريط من دوائر متصلة . وقد قيل ان هذا العلم سجادة خيمة الناصر ، وهى تشبه الأعلام الاسلامية المعروفة .

ومن هذه الأعلام : علم محفوظ بكاتدرائية طليطلة ، كان من بين ماغنمه المسيحيون من جيش بنى مرين فى موقعة سلادو (٧٤١ هـ) . وهو مصنوع من الديباج المحلى بخيوط الذهب ، ويزدان بكتابات كوفية وزخارف تتألف من دوائر متصلة ، بداخل كل دائرة : اما عبارة « لا اله الا الله » ، واما عبارة « محمد رسول الله » على التوالى . ويمتلىء الفراغ بين الدوائر بزخرفة من التوريقات . وبهذا العلم فى أدناه كتابة نصها : « صنع هذا العلام المنصور للمقام الكريم السلطانى مقام سيدنا ومولانا الملك السلطان الخليفة الامام أمير المسلمين ، وخليفة رب العالمين،

أبو سعيد عثمان العابد الزاهد المجاهد ، أمير المسلمين ، وناصر الدين أبى يوسف يعقوب بن عبد الحق فى قصبة فاس ، حرسها الله تعالى ، فى شهر محرم مفتتح عام اثنى عشر وسبعمائة » .

ولقد ازدهرت صناعة المنسوجات فى مملكة غرناطة النصرية ازدهارا لم تبلغه من قبل ، خاصة المنسوجات الحريرية . وكانت المرية ومرسية ومالقة تشتهر بصناعة الوشى ، وهو نسيج من الحرير من مختلف الألوان تدخل فى صناعته خيوط الذهب . وكانت تنسج فى مالقة الحلل الموشاه المرتفعة الأثمان ، والخاصة بالخلفاء وحاشيتهم .

وكانت ثياب الخز والمنسوجات الحريرية الرائعة تنسج فى أندرش ونارجة ، وتبعث الى مراكش ومصر ، والى الأمراء المسيحيين بشبه الجزيرة . ولقد شهدت المدونات المسيحية بكثرة انتاج مالقة للديباج والوشى ، عندما أشارت الى زيادة عدة سفن قشتالة لمالقة سنة ١٤٠٤ م، وعودتها محملة بالضيافة من منسوجات الحرير الموشى .

وكان تقدير اسبانيا المسيحية — فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر — للمنسوجات الاسلامية بالأندلس عظيما وكان لاعجابهم بها ، يلفون بها موتاهم ويحفظون وكانوا بداخلها مخلفاتهم الدينية ذات القيم الكبرى . وكثيرا ما كان حكامهم يتشبهون فى الزى بالمسلمين ، مثل روى ديات دى روخاس ، قائد أنتقيرة ، الذى كان متعودا على ارتداء الثياب الاسلامية .

وقد ذكر المؤرخ الأسبانى « أنطونيو دى لالاينج » أن فرناندو الكاثوليكى وفيليب الجميل كانا يرتديان سنة ١٥٠٢ الملابس الاسلامية. وذكر هذا المؤرخ كذلك — عند زيارته لمدينة غرناطة — أن هذه المدينة تشتهر بصناعة الحرير الذى يباع فى قيساريتها .

واستمرت مصانع المنسوجات الحريرية الاسلامية باسبانيا المسيحية

تنتج المنسوجات الحريرية الغرناطية ، كالملاحف والمآزر والخمر المختلفة الألوان التى كانت تتغطى بها النساء المسلمات •

ومنذ القرن الثالث عشر اختفت من المنسوجات رسوم الحيوانات التى كانت تنسج داخل دوائر ، واستبدلت بها تكوينات من المعنيات وتشابكات الخطوط المنحنية والقائمة ، وأشكال متعددة الضلوع ونجمية • وكانت هذه العناصر الزخرفية تنظم عادة فى مناطق متوازية ، وأخذت أشرطه الكتابة النسخية تكثر فيها •

وهكذا اتخذت المنسوجات الأندلسية ، فى عصر بنى نصر ، أسلوبا فنيا خاصا عرفت به • ولعلها تأثرت بالزخارف الجصية التى كانت تكسو جدران قصر الحمراء ، والتى كانت تتوزع فى مناطق أفقية تملؤها تشابكات هندسية ودوائر فى ألوان متناسقة فى توزيعها ، رائعة فى حيويتها وبريقها ، وهى ألوان الأصفر الذهبى ، والأحمر ، والازرق ، والاسود والأخضر • وهى الألوان التى كانت تلون بها الزخارف الجصية•

وتحتفظ كنيسة سان سباستيان دى أنتقيرة بحلة دينية ، تعرف بحلة سانتا أوفميا ، قيل انها صنعت من علم غنمه المسيحيون من الجيش الغرناطى فى موقعة شابارال سنة ١٤٢٤ • وزخرفتها تتألف من مناطق ذهبية على أرضية حمراء وخضراء وزرقاء وفى احدى المناطق نقرأ هذه العبارة : « عز لمولانا السلطان » • ومن أروع هذه الأمثلة الغرناطية قطعة من الحرير — لعلها طراز سلطانى — محفوظة فى متحف الفنون الزخرفية بباريس ، وأهم ما تتميز به منطقتان : احداهما زخرفية ، الأخرى كتابية ، تفصل بينهما منطقة ضيقة من الزخرفة الهندسية المتشابكة • وقوام المنطقة الزخرفية توريقات نباتية وتشابكات هندسية• أما المنطقة الكتابية فيتكرر فيها هذا البيت الشعرى :

أنا للعــز أهــل وللعــز أنا
ومن رآنى رأى سرورا وهنا

وفى متحف بلنسية دى دون خــوان بمدريد قطعـــة من النسيـــج الغرناطى ، تزدان بزخرفـــة هندسية من المعنيات ، ويحيط بهـــا أقواس زخرفية تجاورها أقواس أخـــرى تضم كتابـــة كوفية تتكرر فيهـــا كلمة « اليمن » طردا وعكسا .

الحيـــاة العلميـــة والآدبية بالأندلس

اعتمدت الأندلس بادىء ذى بدء على التراث الاسلامى بالمشرق ، وكان هذا الاعتماد اما من طريق استقدام العلماء المشارقة الى الأندلس ، وأما من طريق رحلة الأندلسيين الى المشرق للتزود بالعلم والتحصيل فى مختلف أنواع العلوم والآداب • وكان أهل الأندلس أحرص الناس على التزود بالعلم • ويذكر المقرى فى كتابه « نفح الطيب » أن الجاهل الذى لم يوفقه الله للعلم فى الأندلس ، كان يجهد نفسه ليتميز بصنعة ، ويربأ بنفسه أن يرى عالة على الناس ••• اذ أنهم كانوا يعدون ذلك فى غايـــة القبح • والعالم عندهم معظم من الخاصة والعامة عـــلى السواء ، يشار اليه ويحال عليه ، وينبه قدره وذكره عند الناس •

* ولم تكن بالأندلس مدارس تعين على طلب العلم ، كما كان الحال فى المشرق ، بل كان الطلبة يقرأون ويدرسون فى المساجد ، مقـــابل أجر معلوم • ولم تظهر المدارس فى الأندلس الا فى عصر دولة بنى الأحمر • وكان اقبال الناس على شراء الكتب واقتنائها أمرا معروفا فى الأندلس • وما نعرفه عن ولع الحكم المستنصر بجمع الكتب أكبر دليل عـــلى ذلك ، وقيل انه جمع ما لا يوصف كثرة ونفاسة ، حتى أن مكتبته بلغت نحوا من ٤٠٠ ألف مجلد ، وأنهم لما نقلوها أقامـــوا ستة أشهر فى نقلهـــا • وكان يستجلب المصنفات من الأقاليم والنواحى ، باذلا فيها ما أمكن بذله مـــن الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه • ويذكر ابن بشكوال أنـــه قلما وجد كتاب من خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر فى أى فن •

وكان حظ أهل الأندلس من العلوم والآداب كبيرا للغاية ، فتقدمت تقدما ملموسا منذ العهد الأموى ، واشتغل منهم كثيرون فى الطب والكيمياء والهندسة والعلـــوم الرياضية والفلك ، ونبغـــوا فى الفلسفة والتصوف

والنحو والشعر • وكان أمراء بنى أمية وخلفاؤهـم يكرمون العلماء ، ويحيطونهم برعايتهم ••• فازدهرت العلوم والآداب فى هـذا العصر ، وبلغ هذا الازدهار أوجه فى عصر الموحدين •

العلـوم العقليـة

* أول من اشتهر فى الطب فى الأندلس : أحمد بن اياس القرطبى فى عهد الأمير محمد • ونبغ بعده كثيرون فى عهد بنى أمية ، منهم يحيى ابن اسحق الذى كان طبيبا للأمير عبد الله بن محمد • وقد استوزره الخليفة عبد الرحمن الناصر • وله فى الطب مؤلفات كثيرة • وازدهر الطب فى عهد هذا الخليفة ، واشتهر به كثير من العلماء : منهم أبو عبـد الله محمد بن عبدون العذرى القرطبى ، الذى رحل الى مصر سنة ٣٣٧ هـ (٩٤٨ م) ، ودبر مارستان مصر •والوزير أبـو المطرف عبـد الرحمن ابن شهيد ، مصنف الأدوية المفردة • ويقول عنه المقرى انه كان « آية الله تعالى فى الطب وغيره ، حتى أنه عانى جميع ما فى كتابه من الأدوية المفردة ، وعرف ترتيب قواها ودرجاتها • وكان لايرى التداوى بالأدوية ما أمكـن ، بل بالأغذية أو ما يقرب منها • واذا اضطر الى الأدوية ، فلا يرى التداوى بالمركبة ما وجد سبيلا الى المفردة • واذا اضطر الـى المركب ، لم يكثر التركيب ، بل يقتصر على أقل ما يمكنه • وله غرائب مشهورة فى الابراء من الأمراض الصعبة ، والعلل المخوفة ، بأيسر علاج وأقربه » •

ولعه ابن وافد المشهور الذى ترجم له القاضى أبو القاسم صاعد ، وذكر أنه « ألف كتابـا جليلا لا نظير لـه ، جمع فيه مـا تضمنه كتاب ديسقوريدس وكتـاب جالينوس المؤلفين فى الأدويـة المفردة ، ورتبه أحسن ترتيب » •

واشتهر فى عهد الحكـم المستنصر الطبيب العـالم أبو القـاسم

الزهراوى (من مدينة الزهراء) ، الذى اتخذه الحكم طبيبا خاصا له . ونبغ فى عصره هشام المؤيد الطبيب أبو داود سليمان بن حسان ، المعروف بابن جلجل ، وقد شرح أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس ، وأوضح ما غمض منها فى كتابه « تفسير أسماء الأدوية المفردة من كتاب ديسقوريدس » . وكتب ابن الهيثم فى الخواص والسموم والعقاقير عدة مؤلفات (٩٦٥ — ١٠٣٩) .

أما عصر الموحدين فهو العصر الذهبى لعلم الطب ، اذ نبغ فيه كثير من الأطباء فى الأندلس ، نخص بالذكر منهم : ابن البيطار ، وهو عبد الله بن أحمد المالقى ، الملقب بضياء الدين . وقد رحل الى مصر فى أيام الملك الكامل . وعين طبيبا فى خدمته ، ثم طبيبا للملك الصالح نجم الدين أيوب . وغنى بدراسة النبات والأعشاب فى مصر والشام ، وله عدة مصنفات فى الحشائش لم يسبق اليها ، منها كتاب « الجامع فى الأدوية المفردة » ، وكتاب « الأفعال الغريبة والخواص العجيبة » . وقد استفاد فى كتبه من تصانيف الأدوية المفردة ، ككتاب الغافقى وأبى الحسن الزهراوى . وتوفى بدمشق سنة ٦٤٦ هـ ، اذ تجرع عقارا قاتلا فمات من ساعته .

واشتهر بنو زهر ، من أشراف اشبيلية ، بصناعة الطب التى توارثوها ابنا عن أب ، وكان جدهم الأكبر ، عبد الجبار بن أبى سلمة القرشى الزهرى ، قد دخل الأندلس مع موسى بن نصير ، وكان على ميسرة معسكره ، ونزل باجة ثم بطليوس ، ثم استقر أعقابه فى اشبيلية واشتهر منهم الوزير أبو مروان عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر ، الذى مال الى التفنن فى أنواع التعليم ، من الطب وغيره ، ورحل الى المشرق . ونشأ ابنه أبو العلاء زهر بن عبد الملك بشرق الأندلس ، ومال الى علم الأبدان ، ولم يزل مقيما بشرق الأندلس الى أن استولى يوسف بن تاشفين على الأندلس

وكان أبو العلاء زهر عالما فى الطب ، عارفا بالعلاجات ، مطلعا على

دقائقها . واستدعاه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين اليه فى مراكش لعلاجه . ولابنه عبد الملك بن أبى العلاء كتاب « التيسير » وكتاب « الأغذية » . كذلك ألف لخليفة الموحدين عبد المؤمن كتاب « الترياق السبعينى » . وكان حفيده ، أبو بكر محمد بن أبى مروان عبد الملك ابن زهر ، طبيب اشبيلية الأوحد ، واستوزره خليفة الموحدين أبو يوسف يعقوب المنصور . وتوفى فى سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وأمر أن يكتب على قبره :

تأمل بفضلك يا واقفا
ولاحظ مكانا دفعنا اليه
تراب الضريح على صفحتى
كأنى لم أمش يوما عليه
أداوى الأنام حذار المنون
فها أنا قد صرت رهنا لديه

وذاع فى الطب ، فى عهد الموحدين ، أمر أبى محمد عبد الملك المشدونى ، وأبى العباس بن الرومية الاشبيلى الذى ألف كتابا فى الأدوية المفردة .

وقد استفاد الاوربيون من كتب الطب الاندلسية وترجموا أغلب هذه الكتب الى اللاتينية واليونانية ، مثل كتاب (Viaticum Peregrinantis) الذى ألفه الطبيب ابن الجزار المتوفى سنة ١٠٠٩ ، والذى ترجمه كنستنتينو الأفريقى ، وكتاب (Liber Servitoris) لأبى القاسم الزهراوى المعروف باسم (Alsaharavius) وقد ترجمه جيراردو دى كريمونا الى اللاتينية . وترجم جيدو دى كاولياك سنة ١٤٧٩ كتاب الزهراوى عن الجراحة الى اللاتينية تحت عنوان (Chirurgia parva)

وعرف أبو مروان بن زهر فى الأوساط العلمية الأوربية باسم

(Avenzoar) ، وترجم كتابه التيسير الى اللاتينية عـام ١٤٩٦ ، وظلت هذه الترجمة سارية المفعول فى الطب الايطالى حتى القرن السابع عشر، وكذلك ترجم كتاب الكليات لابن رشد الى اللاتينية تحت عنوان (Colliget) وساهمت مدرسة الترجمة بطليطلة ، فى القرن الثانى عشر ، بنصيب وافر فى ترجمة كتب الطب الأندلسية التى تجـاوزت شهرتها آفـاق أوربا ، ودرست علوم الطب فى باريس على اساس التواليف الاسلامية .

أما علم الكيمياء ، الذى ينظر فى المادة التى تتم بها صياغة الذهب والفضة (١) فينسب الى جابر بن حيان ... حتى أنه يعرف أحيانا بعلم جابر ، وله فيه سبعون رسالة . وقد اشتغل أهـل الأندلس بالكيمياء ، واشتهر منهم أبو القاسم مسلمة بن أحمد المجريطى (من مدريد) المتوفى سنة ٣٩٨ هـ (١٠٠٧ م) شيخ الأندلس فى علم الكيمياء فى عهد بنى أمية. وقد ألف كتابا فى علم الكيمياء سمـاه « رتبة الحكيم » ، وجعلـه قرينا

---

(١) علم الكيمياء ـــ كما فسره ابن خلدون ـــ « علم ينظر فى المـادة التى يتم بها كون الذهب والفضة بالصناعة ، ويشرح العمل الـذى يوصل الى ذلك ، فيتصفحون الكونات كلها ، بعد معرفة أمزجتها وقواهـا ، لعلهم يعثرون على المادة المستعدة لذلك ... حتى من الفضلات الحيوانية ، كالعظام والريش والبيض والعذرات ، فضلا عن المعـادن . ثم يشرح الاعمال التى تخرج بها تلك المادة من القوة الى الفعل : مثل حل الاجسام الى أجزائها الطبيعية بالتصعيد والتقطير ، ومن الذائب منها بالكلس ، وأمهاء الصلب بالصهر والاصلابة وأمثال ذلك . وفى زعمهم انـه يخرج بهذه الصناعات كلها جسم طبيعى يسمونه الاكسير ، وانه يلقى منه على الجسم المعدنى ، المستعد لقبول صورة الذهب أو الفضة ، بالاستعداد القريب من الفعل ـــ مثل الرصاص والقصدير والنحاس ـــ بعد أن يحمى النار ، فيعود ذهبا ابريزا » .

لكتابة الآخر فى السحر والطلسمات الذى سماه « غاية الحكيم » • ومن كبار تلاميذه أبو بكر بن بشرون •

ونبغ فى علم الكيمياء ، فى عهد الأمير محمد ، العالم أبـو القاسم عباس بن فرناس (٨٥٨ ــ ٨٨٦) ، أول من استنبط بالأندلس صناعـة الزجاج من الحجارة •

واشتهر عباس بن فرناس المذكور بصناعة العدد والآلات ، فصنع الآلة المعروفة بالمنقالة ، ليعرف الأوقات على غير رسم ومثـال ، واحتال فى تطيير جثمانه ، وكسا نفسه بالريش ، ومد له جناحين ، وطار فى الجو مسافة بعيدة ••• ولكنه لم يحسن الاحتيال فى وقوعه ، فأصيب فى مؤخره ولم يدر أن الطائر انما يقع على زمكة • وقـد صنع فى بيته قبـة تشبه السماء ، وزودها بالآلات الخفية التى تحدث البروق والرعود ، وجعل فى أعلاها نجوما وغيوما تبدو للناظر حقيقة •

وأول من اشتهر فى الأندلس بعلم الحساب والنجـوم : أبو عبيدة مسلم بن أحمد المعروف بصاحب القبلة ، لأنه كان يشرق فى صلاته ، وكان عالما بحركات الكواكب وأحكامها • وكان يحيى ابن يحيى ، المعروف بابن السمينة القرطبى ، بصيرا بالحساب والنجوم • وبرع أبو القاسم أصبغ بن السمح فى علم النجوم والهندسة ، وله عدة تواليف منهـا : « كتاب المدخل الى الهندسة فى تفسير اقليدس » ، وكتاب كبـير فى الهندسة ، وكتابان فى الاسطرلاب • ونبغ أبو الحسن الزهراوى فى العدد والهندسة، وله كتاب فى الهندسة عنوانه « المقابلات عن طريـق البرهان » واشتهر أبو الحكم عمرو بن عبد الرحمن الكرمانى القرطبى ، فى بلاط ابن هـود بسرقسطة ، فى علم العـدد والهندسة • ورحـل الى المشرق ، واشتغل بحران ، وهو أول من أدخل رسائل اخوان الصفا الى الأندلس ، وتوفى سنة ٤٥٨ هـ (١٠٦٥ م) •

✓ ومن علماء الأندلس فى الهندسة والنجوم أبو مسلم بن خلدون ، من أشراف اشبيلية ، وتلاميذه ابن برغوث ، وكان عالما فى الرياضيات ، وأبو الحسن مختار الرعينى ، وعبد الله بن أحمد السرقسطى ، وكـان متعمقا فى علم الهندسة والعدد والنجوم ، ومحمد بن الليث ، وكان بارعا فى العدد والهندسة وحركات الكواكب ، وابـن الوقشى الطليطلى ، وكـان عارفا بالهندسة والمنطق • ومن أشهر علماء الفلك : ابراهيم بن يحيى النقاش ، المعروف بابن الزرقيال ، الذى ابتدع كثيرا من الآلات الخاصة بالنجوم• وكان من مآثر بنى هود ملوك سرقسطة عنايتهم بالعلم ، وكان المقتدر بن هود عالما فى الرياضة والهندسة والنجوم ، وله فيها تآليف •

ويعد عصر الموحدين العصر الذى تقدمت فيه علوم الهندسة والآلات العجيبة • ومن أمثلة ذلك : التابوت الذى صنعه بعض المهندسين لحفظ مصحف عثمان ، اذ كان له باب ينفتح من تلقاء نفسه ، فيخـرج الكرسى الحامل المصحف ، فاذا خرج بأكمله أغلق الباب من تلقاء نفسه • وكذلك المقصورة التى تنصب فى أثناء الصلاة ، وتختفى فى بـاطن الأرض بعد الصلاة •

✓ كذلك برع أهل الأندلس فى صناعة الآلات الفلكية كالاسطرلابات • واشتهر فى عهد بنى الأحمر : يحيى بن هذيل ، وكان بارعـا فى الهندسة والرياضيات •

✓ وقد ترجمت الى اللاتينية بعض المؤلفات الأندلسيـة فى الهندسة والنجوم ، مثل كتاب مسلمة المجريطى عن الكواكب لبطليموس ، ترجمة رودولفو دى بروخاس فى النصف الأول من القرن الثانى عشر • وانتفع ألفونسو العاشر بمؤلفات ابن زرقيال فى الفلك والنجوم •

أما الفلسفة فلم يكن للأندلسيين فى العصر الأموى حظ كبير فيها ، فقد كان جل اهتمامهم منصرفا الى العلـوم الدينية واللغويـة • وكانت

الفلسفة موضع نفور واضطهاد • ويذكر المقرى ، فى كتابه نفح الطيب ، أن كل العلوم كان لها عند الأندلسيين حظ كبير واعتناء ، الا الفلسفة والتنجيم « فأن لهما حظا عظيما عند خواصهم ، ولا يتظاهر بهما خوف العامة ••• فأنه كلما قيل فلان يقرأ الفلسفة أو يشتغل بالتنجيم ، أطلق عليه اسم زنديق ، وقيدت عليه أنفاسه • فأن زل فى شبهة ، رجموه بالحجارة ، وأحرقوه قبل أن يصل أمره للسلطان ، أو يقتله السلطان تقربا لقلوب العامة • وكثيرا ما يأمر ملوكهم بأحراق كتب هذا الشأن اذا وجدت » •

وذكر ابن سعيد « أن الفلسفة علم ممقوت بالأندلس لايستطيع صاحبه اظهاره ، فلذلك تخفى تصانيفه » • ولقد أحرق الخليفة عبد الرحمن الناصر كتب ابن مسرة ، فيلسوف قرطبة الأول • وأحرق المنصور ابن أبى عامر — أول قيامه بالحجابة — كتب الفلسفة ليتقرب الى الفقهاء• ومع ذلك فقد كان فى الأندلس فلاسفة فى العصر الأموى ، منهم محمد بن عبد الله بن مسرة الباطنى القرطبى ٢٦٩ — ٣١٩ ﻫ (٨٨١ — ٩٣١م) (١)• وعيونا مؤلفة لسعيد بن فتحون السرقسطى المعروف بالحمار ، دالة على تمكنه من هذه الصناعة ، ورسائل لأبى عبد الله بن الحسن المذحجى •

وازدهرت الفلسفة فى عصر الموحدين — وعلى الأخص فى عهد أبى

---

(١) قال عنه الفتح بن خاقان فى المطمح : « كانت له اشارات غامضة ، وعبارة عن منازل الملحدين غير داحضة ، ووجدت له مقالات ردية واستنباطات مردية ، نسب بها اليه رهق ، وظهر له فيها مزحل عن الرشد ومزهق .. فتتبعت مصنفاته بالحرق ، واتسع فى استباحتها الخرق ، وغدت مهجورة ، على التالين محجورة » .

يعقوب يوسف بن عبد المؤمن ــ ازدهار منقطع النظير ، وبرز فيها فيلسوفان من أشهر مفكرى الأندلس ، وأعظم فلاسفة الاسلام هما : ابن طفيل ، وابن رشد . وكان أبو يعقوب يوسف محبا للفلسفة ، مقبلا عليها ، فجمع كثيرا من مؤلفاتها . فأجتمع له ــ على حد قول عبد الواحد المراكشى ــ ما يقرب من كتب الحكم المستنصر بالله ، وكان يحيط نفسه بعظام الفلاسفة والمفكرين : أمثال أبى بكر محمد بن طفيل ، وأبى الوليد بن رشد . الا أن انحراف ابنه ، وأبى يوسف يعقوب المنصور ، عن علم الفلسفة ، وسجنه لابن رشد ، وقتل أبى العلاء المأمون لابن حبيب الفيلسوف ... أدى الى خمول حركة الفلسفة ، فتوارى كثيرون ممن كانوا يشتغلون بها .

وكان أبو بكر محمد بن عبد الملك بن طفيل العنسى الوادى آشى ، من أعظم فلاسفة المسلمين . وكان متحققا بجميع أنواع الفلسفة ، قرأ على جماعة من العماء والفلاسفة ، منهم أبو بكر محمد ابن يحيى الصائغ ــ المعروف بابن باجة ــ الذى أشار فى فلسفته الى فكرة اتصال العقل بالانسان (١) وهى الفكرة التى كانت أساسا لوحدة الوجود الصوفية عند ابن طفيل .

ولابن طفيل هذا عدة تصانيف فى أنواع الفلسفة : من الطبيعيات والالهيات ، وغير ذلك . فمن رسائله فى الطبيعيات رسالة سماها « رسالة حى بن يقظان » ، قصد منها بيان الصلة بين العقل والدين . والأساس الفلسفى لهذه الرسالة هو الطريق الذى سار عليه فلاسفة المسلمين على مذهب الأفلاطونية الحديثة . وكان ابن طفيل قد صرف عنايته ، فى نهاية عمره ، الى الالهيات . وكان حريصا على الجمع بين الحكمة والشريعة ، وله تصانيف فى هذا الفرع من الفسفة .

---

(١) فى هذه الفكرة كتابان ، هما : « تدبير الموحد » ، و « كتاب النفس » .

وكان أبو يعقوب يوسف متعلقاً به ، محبا له • وكان ابن طفيل يقدم اليه العلماء والفلاسفة من جميع الأقطار ، ويعرفه بهم • ومن هؤلاء الفلاسفة الذين قدمهم اليه : أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد القرطبي ويعد ابن رشد من أجل فلاسفة الاسلام ، وأعظم ملخصي فلسفة « أرسطوطاليس » وشارحيها (١) • وكان أبو يوسف يعقوب المنصور يقربه اليه ، ثم نقم عليه • ونالت ابن رشد على يديه محنة شديدة •

وذكر عبد الواحد المراكشي سبب هذه المحنة بقوله : « وكان لها سببان جلي وخفي • فأما سببها الخفي — وهو أكبر أسبابها — فأن الحكيم أبا الوليد ، رحمه الله ، أخذ في شرح كتاب الحيوان لأرسطوطاليس ، صاحب كتاب المنطق ، فهذبه وبسط أغراضه ، وزاد فيه ما رآه لائقا به • فقال في هذا الكتاب — عند ذكره الزرافة ، وكيف تتولد ، وبأي أرض تنشأ — : « وقد رأيتها عند ملك البربر » ، جاريا في ذلك على طريقة العلماء في الاخبار عن ملوك الأمم وأسماء الأقاليم ، غير ملتفت الى ما يتعاطاه خدمة الملوك ومتحيلو الكتاب ، من الاطراء والتقريظ وما جانس هذه الطرق ••• فكان هذا مما أحنقهم عليه ، غير أنهم لم يظهروا ذلك • وفي الجملة فأنها كانت من أبي الوليد غفلة • واستمر الأمر على ذلك الى أن استحكم ما في النفوس •••

« ثم أن قوما ممن يناوئونه من أهل قرطبة ، ويدعون معه الكفاءة في البيت وشرف السلف ، سعوا به عند أبي يوسف ، ووجدوا الى ذلك

---

(١) لخص ابن رشد جميع كتب ارسطو وهي « سمع الكيان » وكتاب « السماء والعالم » و « رسالة الكون والفساد » و « كتاب الآثار العلوية » و « كتاب الحس والمحسوس » .. لخصها جميعا في جزء واحد من مائة وخمسين ورقة تحت عنوان « كتاب الجوامع » ثم استفاض في شرحها في كتاب مسوط يقع في أربعة أجزاء .

طريقا بأن أخذوا بعض تلك التلاخيص التى كان يكتبها ، فوجدوا فيها بخطه — حاكيا عن بعض قدماء الفلاسفة بعد كلام تقدم — « فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة ... » ، فأوقفوا أبا يوسف على هذه الكلمة . فاستدعاه — بعد أن جمع له الرؤساء والأعيان من كل طبقة ، وهم بمدينة قرطبة — فلما حضر أبو الوليد ، رحمه الله ، قال له بعد أن نبذ اليه الأوراق : « أخطك هذا ؟ » فأنكر . فقال أمير المؤمنين : « لعن الله كاتب هذا الخط » .وأمر الحاضرين بلعنه » .

وأبعده الخليفة من حضرته وسجنه،وأحرق جميع كتبه فى الفلسفة. غير أنه ما لبث أن عفا عنه ، واستدعاه الى مراكش بجواره ، وأحسن اليه . ولكن الموت لم يمهل ابن رشد فتوفى عام ٤٩٤ ﻫ (١١٩٧ م) .

وقد تناولت فلسفة ابن رشد عدة مسائل : تتدرج من أصل الكائنات الى اتصال الكون بالخالق ، وعلاقة الانسان به ، ثم المادة وخلق العالم . وقد أثرت فلسفة ابن رشد فى الفلسفة الأوربية فى العصور الوسطى ، وترجمت كتبه الى اللاتينية ، وتغلغلت أفكاره فى أوربا . وعنها أخذ كثيرون من الفلاسفة الايطاليين فى أواخر العصر الوسيط .

الشعر الأندلسى

كان أهل الأندلس يفتتنون بالمنثور والمنظوم ، لم تضق لهم فى ذلك ساحة . وكانوا أشعر الناس وأرقهم ، اذ تأثروا بطبيعة بلادهم : بما فيها من رياض نضرة ، وأنهار جارية . وشعر ابن خفاجة البلنسى خير مثل للرقة . وأعانهم على هذا التفوق فى الشعر أنسابهم العربية ، وهممهم الأبية . وكان القرن الرابع الهجرى هو العصر الذهبى للشعر ، اذ برز كثير من الشعراء : منهم أحمد بن محمد بن دراج القسطلى الذى يقارن ببشار بن برد والمتنبى . ومن قوله فى وصف أسطول ابن أبى عامر :

تحمل منـــه البحر بحرا من القنا
يروع بها أمواجــه ويهـول
بكل ممـــالات الشراع كأنهـا
وقد حملت أسد الحقائق غبل
اذا سابقت شـأو الرياح تخيلت
خيولا مدى فرسانهن خيول
سحائب تزجيها الرياح ، فان وفت
أطاقت بأجيـاد النعـام فيول
أراقم تحوى ناقع الســم مالها
بما حملت دون العـداة مقيـل

ومنهم : جعفر بن عثمان الحاجب ، وأحمد بن عبد الملك بن مروان، وأغلب بن شعيب ، وأحمـد بن فرج ، وابن عبد ربــه ــ صاحب العقد الفريد ــ وأبو اسحق الألبيرى ، وابن أبى زمنين ، وابن فرج الجيانى ، وأبو عبد الله محمد بن شخيص . واشتهر منهم أبو عمر يوسف بن هرون الكندى ، المعروف بالرمادى القرطبى ، المتوفى فى عام ٤٠٣ هـ (١٠١٢ م).

وكان الرمادى رقيقا فى شعره . وكان كثير من شيـوخ الأدب فى عصره يقولون : فتح الشعر بكندة ، وختم بكندة . ويعنون أمرأ القيس والمتنبى والرمادى . وقال عنه الفتح فى المطمح : « أنه شـاعر مفلق ، انفرج له من الصناعة المغلق ، وومض له بريقها المؤتلق ، وسال بها طبعه كالماء المندفق ... فأجمع على تفضيله المختلف والمتفق : فتـارة يحزن ، وأخرى يسهل ، وفى كلتيهما بالبديع يعل وينهل . فاشتهر عنـد الخاصة والعامة بانطباعه فى الفريقـين ، وابداعــه فى الطريقين » . وأورد من محاسن شعره قوله :

شـطت نواهم بشمس فى هوادجهم
لولا تلالؤها فى ليلهن عشـــوا

شكت محاسنها عينى ، وقد عذرت ،
لأنهـــا بضمـــير القلب تنخمش

وكان قد أنشد شعرا أوغر عليه صدر الخليفة ، فسجنه . فاستعطفه الرمادى فى سجنه بقوله :

على كمدى تهمى السحاب وتذرف
ومن جزعى تبكى الحمـــام وتهتف
كأن السحـــاب الواكفات غواسلى
وتلك على فقـــدى نوائح هتف

ولما سقطت الخلافة الأموية ، وقامت دول الطوائف ، تنافس الملوك فى اجتذاب الشعراء اليهم . فتألق فن الشعر ، وتبارى الشعراء فى نظم القصائد . وكان لكل ملك من ملوك الطوائف شعراؤه . فمن شعراء المعتمد بن عباد ملك اشبيلية : ابن عمار ، وابن اللبانـــة ، وابن زيـــدون . ومن شعراء المعتصم بن صمادح : ابن الحداد ، وأبو الوليد النحلى ، وأبـــو الفضل بن شرف . وكان بعض ملوك الطوائف ينظم الشعر أمثال : المعتمد بن عباد ، والمعتصم بن صمادح ، وأبى مروان عبد الملك بن رزين ، ومحمد بن طاهر .

فمن قول المعتمد بن عباد وهو فى منفاه :

غريب بأرض المغربين أســـير
سيبكى عليــه منبر وسرير
وتندبه البيض الصوارم والقنا
وينهـــل دمـــــع بينهن غزير

ومن أرق شعراء الطوائف : الشاعر الوزير أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون . وقد سجل بأشعاره كثيرا من أحداث حياته : فى سراحه

واعتقاله ، ومقامة وانتقاله • وكـان يحب ولادة بنت المستكفى ، فأنشد فيها أشعارا رائعة • منها القصيدة المشهورة التى كتبها اليها ، بعد أن يئس من لقائها يستديم عهدها ، ويؤكد ودها ، ويعتذر من فراقهـا بالخطب الذى ألم به ، ويعلمها أنه ما سلاعنها بخمر ، ولا خبا ما بين ضلوعه لها من ملتهب جمر • وتبدأ هذه القصيدة بقوله :

أضحى التنائى بديلا من تدانينا
وناب عن طيب لقيـانا تجافينـا
بنتم وبنا : فمـا ابتلت جوانحنا
شوقا اليكم ، ولا جفت مآقينـا
يكاد ، حين تناجيكم ضمائرنا ،
يقضى علينا الأسى •• لولا تأسينا
حالت لفقـدكم أيامنـا فغـدت
سودا ، وكانت بكـم بيضا ليالينا
اذ جانب العيش طلق من تآلفنـا
ومورد اللهو صاف من تصافينا
واذ هصرنا غصـون الأنس دانية
قطوفهـا فجنينـا منه مـا شنا

ثم يبلغها أنه ما يزال باقيا على الوفاء مهما يطل به الفراق ، فيقول :

لم يعتقد بعـدكم الا الوفاء لكم
رأيا ، ولـم نتقلد غـيره دنيـا
لا تحسـبوا نأيكم عنـا بغيرنا
أن طال ما غير النـأى المحبينـا

ويسألها أن تبقى على العهد مثله ، فيقول :

دومى على العهد ما دمنا محافظة
فالحر من دان انصـافا كما دينا

وقال فى قصيدة أخرى يخاطب بهـا ولادة ، ويطلب منها الوفـاء بالعهد ، ويذكر لها أرقه وسهده :

ما جال بعدك لحظى فى سنا القمر
الا ذكـرتك ذكـر العين بالأثر
ولا استطلت ذماء النفس من أسف
الا على ليلة سرت مـع القصر

ومن قول ابن اللبانة الشاعر فى وداع آل عباد ، بعـد أن أسرهم المرابطون ، ونفوهم بأغمات فى المغرب :

تبكى السـماء بمـزن رائح غاد
على البهاليل من أبنـاء عبـاد
على الجبال التى هدت قواعدها
وكانت الأرض منهم ذات أوتاد
حان الوداع ، فضجت كل صارخة
وصـارخ من مفـداة ومن فاد
سارت سفائنهم والنوح يصحبها
كأنها ابل يحـدو بها الحـادى

واشتهر فى عصر المرابطين شعراء الوصف والتشبيهات أمثال : ابن خفاجة ، وابن الزقاق ، وابن عائشة • وظهر فى عهـد الموحدين شعراء عظام أمثال : أبو عبد الله محمد بن غالب الرصافى ، وأبو العباس أحمد بن سعيد الملقب باللص ، وابراهيم ابن سهل الاسرائيلى ، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن الصابونى الاشبيلى ، وأبو بكر محمد بن أحمد ابن حجاج الغافقى الاشبيلى ، وأبو العباس أحمد بن حنون ، وأبو الحسن على بن يوسف بن خروف القرطبى وغيرهم •

ومن روائع أشعار ابن سهل قوله:

وألمى ، بقلبى منه جمر مؤجج
تراه على خديه يندى ويبرد
يسائلنى : من أى دين ؟ مداعبا
وشمل اعتقادى فى هواه مبدد
فؤادى حنيفى ، ولكن مقلتى
مجوسية من خده النار تعبد

ويتسم شعر ابن سهل الاسرائيلى بالرقة والسلاسة • سئل بعض المغاربة عن السبب فى رقة نظمه فقال : « لأنــه أجتمع فيــه ذلان : ذل العشق ، وذل اليهودية » • وتوفى ابن سهل غريقا سنة ٦٤٩ هـ •

كان هؤلاء الشعراء آخر شعراء مجيدين أنجبتهم الأندلس فى عصر الموحدين • ولم نعد نسمع فى عصر دولــة بنى الأحمر الا عن شــاعرين نابغين هما : ابن الخطيب ، وتلميذه ابن زمرك الذى سجل أشعاره على جدران قصر الحمراء بغرناطة •

وكانت فى الأندلس شاعرات مجيدات : نبغت منهــن فى عصر بنى أمية الشاعرة حسناء التميمية • ومن روائع شعرها قصيدة مدحت فيهــا الأمير عبد الرحمن الأوسط ، وشكت اليه من جور عاملــه بالبيرة « جابر بن لبيد » • ومنها :

الى ذى الندى والمجد سارت ركائبى
على شحط تصــلى بنار الهواجر
ليجبر صـــدعى ، انه خــير جابر
ويمنعى من ذى الظلامة « جابر »
فانى وأيتـــامى بقبضـــة كفه
كذى ريش أضحى فى مخالب كاسر

ومنهن الشاعرة أم العلاء بنت يوسف الحجــارية (من مدينة وادى

الحجارة) ، التى ظهرت فى المائة الخامسة ، والشاعـرة أم الكرام بنت المعتصم بن صمادح ، والشاعرة الغسانية البجانية (من شاعرات القرن الرابع الهجرى) ، وحفصة بنت حمدون الحجارية ، وزينب المرية ، وغاية المنى الشاعرة ، ومهجة القرطبية ، وأسماء العامرية الاشبيليـة ، وبثينة بنت المعتمد بن عباد ، والعبادية جاريته • وكلهن شاعرات من عصر ملوك الطوائف ، وأشهرهن الشاعرة ولادة بنت المستكفى بالله محمـد بن عبد الرحمن بن عبيد الله بن الناصر ، وكتبت بالذهب على طراز ثوبها :

أنا والله أصـلح للمعـالى
وأمشى مشيتى وأتيـه تيها
وأمكن عاشقى من لثم خـدى
وأعطى قبلتى من يشتهيهـا

ومع ذلك فقد كانت مشهورة بالعفة والطهـارة : وفيها أنشـد ابن زيدون أروع قصائده • ومن شعرها أبيات ودعت بها ابن زيدون :

ودع الصـبر محب ودعك
ذائع من سره ما اسـتودعك

يقـرع السن على أن لم يكن
زاد فى تلك الخطأ اذ شيعك

يا أخا البدر سناء وسنا
حفـظ الله زمانا أطلعـك

ان يطل بعـدك ليلى فلـكم
بت أشكو قصر الليـل معك

وكانت ولادة شاعرة القول رقيقـه ، وكانت تساجـل الشعراء ، وتناضل الأدباء ، وعمرت طويلا ، وماتت عذراء سنة ٤٨٠ هـ

ومن أشهرهن حمدونة بنت زياد الوادى آشية ، وكانت تسمى بخنساء المغرب بالأندلس • ومن أروع أشعارها قولها :

ولما أبى الواشـــون الا فراقنا
وما لهم عندى وعندك من ثار
وشنوا على أسماعنا كل غارة
وقل حماتى عند ذاك وأنصارى
غزوتهم من مقلتيـــك وأدمعى

وقولها فى وصف وادى « نهير » ••• منقسم الجداول بين الرياض :

ومن نفسى : بالسيف والسيل والنار
وقانا لفحـــة الرمضـــــاء واد
ســـقاه مضاعف الغيث العميم
حللنا دوحـــــه فحنا علينـــا
حنـــو المرضعات على الفطيم
وأرشـــــــفنا على ظمأ زلالا
ألذ من المدامة للنـــــــديم
يصـــد الشمس أنى واجهتنا
فيحجبها ويأذن للنســـــيم
يروع حصاه حالية العـــذارى
فتلمس جانب العقـــد النظيم

الموشحـــــات

استحدث الأندلسيون نوعا من الشعر العربى يسمى الموشحات ، يستند على أصل شعبى هو الأغنية الشعبية ، وينظم أسماطا وأغصانا ، ويعرف المقطع الأخير من الموشحة بالخرجة ، وهى أساس الصلة الوثيقة التى تربط بين الموشحة والاغنية الشعبية • وغالبا ما كانت هذه الخرجة

تتضمن ألفاظـا رومانسية ، وهى ألفاظ شائعة فى العاميـة . وتختلف الموشحة فى تركيبها عن القصيدة ، اذ تتعدد القوافى فى الموشحة ، وتسمى الأبيات التى تختلف قوافيها بالأغصان ، والتى تتفق قوافيهـا بالاسماط أو الأقفال . أما الخرجة فهى أهم جزء فى الموشحة .

وقد فسر ابن بسام فى « الذخيرة » أصل الموشحات وتطوره ، وذكر أن أول من صنع أوزان هذه الموشحات فى الأندلس هو محمد بن محمود القبرى الضرير ، وأنه كان يصنعها على أشطار الأشعار ، وأنه كان يأخذ اللفظ العامى والعجمى ويسميه المركز ، ويضع عليه الموشحة دون تضمن فيها ولا أغصان .

ثم أخذ ابن عبد ربه عن موشحات مقدم بن معافى ... الا أن أول من برع فى هذا النوع من الأشعار عبـادة القزاز ، شـاعر المعتصم بن صمادح ، وكان عبادة هذا أسبق وشاحى معاصريه . ومن أمثلة توشيحاته الموشحة التى يبدأ مطلعها كالآتى :

من مورد التسنيم ، من سلك فلج ...

ويمضى الوشاح فى ايراد الأغصان والاقفال،حتى ينتهى الى الغصن الأخير فيقول :

وغادة لـم تزل — تشكو لمن لا ينصف
ياويح من يتصل — بحبل من لايسعف
لمـا رأته بطـل — وهى غرامـا تكلف
غنت وما للأمل — الا اليـه المصرف

ويختتم الموشحة بالخرجة الآتية :

ميو سيدى ابراهيم ، يانوامن دلج

فأنت ميب ، دى نخت
أن نون شنون كارنش ، يريم تيب
عرفى أوب ، لغرت

والخرجة كما ترى تتضمن ألفاظا رومانسيـــة ، أى لاتينية حديثة مكتوبة بالعربية •

وازدهرت صناعـــة الموشحات فى عصر المرابطين • فبرز كثير من الوشاحين أمثال : أبى العباس أعمى تطيلة ، وابن بقى ، وأبى بكر الأبيض والحكيم أبى بكر بن باجة صاحب التلاحين • وظهرت بدائع الوشاحين فى عصر الموحدين ، فظهر أبو بكر بن زهـــر ، وابن سهل الاسرائيلى ، ومحمد بن أبى الفضـــل بن شرق ، وابن حنـــون ، وابن جرمون ، وأبو الحسن بن مالك ، وأبو بكر بن الصابونى •

ومن أجمل موشحات ابن زهر قوله :

أيها الســـاقى اليك المشتكى
كم دعوناك وان لم تســـمع
ونـــديم همت فى غـــرته
وسقانى الراح من راحته
كلما استيقظ من ســـكرته
جـــــذب الزق اليـــه واتـــكى
وســـقانى أربعـــــا فى أربع

الأزجـــــــــال

يقول ابن خلدون انه لما شاع فن التوشيح فى الأندلس ، وأخـــذ به الناس لسلاسته وتنميق كلامه وترصيع أجزائـــه ، نسجت العامـــة على منواله ، ونظموا فى طريقته بلغتهم الحضرية من غـــير أن يلتزموا فيهـــا

اعرابا ، واستحدثوا فنا سموه بالزجل والتزموا النظم فيه على مناحيهم،

وأول من ابتكر الأزجال أبو بكر بن قزمان القرطبى فى عهد المرابطين ويعد ابن قزمان أمام الزجالين على الاطلاق • واشتهرت أزجاله فى الآفاق ، وانتقلت الى بغداد والشام ومصر • وذكر الحجارى أنه كان فى أول شأنه مشتغلا بالنظم المعرب فرأى نفسه تقصر عن أفراد عصره ، كابن خفاجة وغيره ، فعمد الى طريقة لا يمازجه فيها أحد منهم ، فصار أمام أهل الزجل المنظوم بكلام عامة الأندلس • وذكر لسان الدين ابن الخطيب أن هذه الطريقة الزجلية بديعة ••• تنفسح لكثير مما ضاق على الشاعر سلوكه ••• وبلغ فيها أبو بكر بن قزمان مبلغا عظيما ، فهو آيتها المعجزة، وحجتها البالغة ، وفارسها المعلم ، والمبتدىء فيها والمتمم •

وخلفه فى هذه الصناعة مدغليس الزجال • وكان أهل الأندلس يقولون : ابن قزمان فى الزجالين بمنزلة المتنبى فى الشعراء ، ومدغليس بمنزلة أبى تمام بالنظر الى الانطباع والصناعة ، فابن قزمان يهتم بالمعنى، ومدغليس باللفظ • ومن أروع أزجال مدغليس :

ورذاذ دق ينــزل
وشعــاع الشمس يضرب

فتــرى الواحــد يفضض
وترى الآخــر يذهب

والنبــات يشرب ويســكر
والغصــون ترقص وتطــرب

وتــريد تجى الينــا
ثم تستحى وتهــرب

ثم ظهر أبو الحسن على بن جحدر ، وأبو الحسن سهل بن مالك ،

ثم جاء بعدهما الوزير أبو عبد الله ابن الخطيب • واشتهر فى عصر بنى الأحمر الزجال أبو عبد الله الألوشى •

ولقد انتشرت أشعار الموشحات والأزجال الأندلسية فى أوربا نفسها• وليس أدل على ذلك من وجود صلة وثيقة بين تركيب الأزجال والموشحات وقصائد بروفانس ولنجدوك المنسوبـــة للشعراء المداحـــين ، المعروفين بالتروبادور ، أمثال ماركابرو ، وجيوم التاسع دوق أكيتانيا ، والأغانى القتشالية التى تطابق الأزجال فى تكوينها ، أمثال أغـــانى كنثيو نيرو دى بايينا • ووجدت فى اللغة القشتالية مرادفات للاصطلاحات المستخـــدمة فى الموشحات ـــ مثل كلمة (Estribillo) وتعنى المركز ، وكلمة (Mudanza) وتعنى الأغصان ، وكلمة (Vuelta) وتعني السمط •

تأثير الثقافة الأندلسية فى أسبانيا وأوربا

أصبحت اسبانيا ــ بانتصار المسلمين على الملكية القوطية فى وادى لكة ــ نقطة التقاء حضارتين متضادتين ، قام بينهما صراع مرير طال أمده ، وانتهى بتفوق احداهما على الأخرى ، فى نهاية القرن الخامس عشر، عندما تغلب الملكان الكاثوليكيان على غرناطة ، وأطفئت بذلك آخر جذوة لحضارة الاسلام فى الأندلس . وعلى هذا الأساس كانت اسبانيا تنقسم ــ فى العصور الوسطى ــ الى شطرين متعاديين منفصلين ، جغرافيا وعنصريا .

وليس معنى هذا أنه لم يكن هناك اتصال بينهما سوى قرعات السلاح ، بل كانت هناك اتصالات أخرى ، وتقاليد مشتركة بينهما بطبيعة الحال ... اذ كانت التأثيرات تتسرب من أكثر هذين الشطرين تقدما فى الحضارة الى أشدهما تأخرا ــ كالماء يندفع من أعلى المناطق الى أشدها انخفاضا ــ وذلك عن طريق المستعربين والمسالمة فى اسبانيا الاسلامية ، والمدجنين ومتنصره العرب أو الموريسكيين فى اسبانيا المسيحية .

ومثل ذلك أن قرطبة لما أصبحت ، فى عهد الخلافة ، الحاضرة الكبرى لاسبانيا ، وحلية الدنيا ومفخرة العالم . وبلغت فى هذا العهد تطورا عمرانيا لا مثيل له فى دول العالم المعاصرة ، وأحست بتفوق ثقافتها على سائر الثقافات فى الولايات المسيحية باسبانيا ... فرضت هذه الثقافة على قشتالة فى عهد فرنان جنثالث ، ونافارة فى عهد سانشو البدين ، وتغلغلت التأثيرات الاسلامية فى كيان اسبانيا تغلغلا عميقا بحيث تجلت مظاهرها فى الحياة العامة والتقاليد واللغة والآداب والفنون والفلسفة .

ولم يكن لسقوط الخلافة بقرطبة ، وتفتيت الوحدة السياسية للاسلام فى الأندلس ــ بقيام دول ملوك الطوائف ــ أدنى أثر فى اعاقة مجرى هذا السيل من التأثيرات ، بل أنه على العكس من ذلك قد أعان

على تقويتها • ولا يخفى علينا أن اسبانيـــا الاسلامية لم تعـــد ـــ حتى انتصر المرابطين على نصارى اسبانيا فى الزلاقة عام ١٠٨٦ م ، والموحدين فى الأرك عام ١١٩٥ ـــ كما كانت فى عهد الخلافة القرطبية صلبة قوية ••• اذ أخذت رقعة الأندلس تتقلص شيئا فشيئا ، منذ عهد الطوائف ، أمام الدفع السريع للاسترداد المسيحى •

وكان الظن أن تمحى الآثار العميقة التى تركتها الحضارة الاسلامية فى اسبانيا بزوال سلطان الاسلام السياسى وسقوط مدنه الكبرى • ولكننا نشهد نقيض ذلك ، اذ تألفت فى هذه المدن مراكز ثقافية اسلامية ، قوامها العناصر المدجنة أو المسلمون الذين خضعوا للاسبان بعد سقوط مدنهم فى أيديهم • وكانت طليطلة ـــ أولى المدن الاسلامية الكبرى التى سقطت فى أيدى القشتاليين ـــ أهم مراكز المدجنين • فقد ظل القشتاليون ، منذ انتزاعهم لها من أيدى المسلمين حتى طليعة القرن الثالث عشر الميلادى ، يستخدمون اللغة العربية فى معاملاتهم التجارية ووصاياهم ومنحهم ، أو كانوا يستخدمون أسماء عربية ولاتينية فى آن واحد •

وكانت طليطلة على هذا النحو نقطة الالتقاء بين الحضارة الاسلامية فى الأندلس ، والحضارة المسيحية التى حملها الاسبان معهـــم من شمال اسبانيا • فمن طليطلة ، فى القرن الثانى عشر ، انتشرت العلـــوم التى تلقاها الاسبان باللغة العربية الى أنحاء أوربا من طريق الكتب التى قام بترجمتها اسبان وافدون • وظلت طليطلة مركزا للثقافة الاسبانية فى عهد ألفونسو الحكيم ، الذى وضع العلوم والثقافات العربيـــة ـــ وبخـــاصة الفلسفة والمنطق والطب والكيمياء والفلك ـــ تحت متناول أيدى علماء العالم الأوربى ، وأحاط نفسه بكبار العلماء من المسلمين واليهود •

وقد اشتغل بعض العلماء فى طليطلة بترجمة الكتب العلمية العربية الى اللاتينية ، أمثال دومنجو جنثالث وخوان اسبالنسى • وكان أحدهما يقوم بترجمة هذه الكتب الى لغة دراجـــة فينقلهـــا الآخر الى اللاتينية

المدرسية • وقام بالترجمة أيضا فى طليطلة أجانب ممن جذبتهم شهرة كنوزها العلمية وأمضى هؤلاء العلماء سنوات طويلة فى ترجمة النصوص العربية ، ونخص بالذكر منهم جيراردو دى كريمونا الايطالى — وكان أعظم المترجمين انتاجا — وأديلاردو دى باث الانجليزى ، وهرمان الألمانى •

وتابع بعض علماء اليهود ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية فى القرن الثالث عشر ، نذكر منهم : يعقوب بن أباماري ، وليفى بن خرسون• وانتقلت هذه الترجمات الى الثقافات الأوربية • وهكذا أصبحت الحضارة الأندلسية حلقة الاتصال بين الشرق الاسلامى والغرب المسيحى •

تأثير الازجال الأندلسية فى الشعر الغنائى الاوربى

يتجلى أهم مظاهر التأثيرات الاسلامية الاسبانية فى الشعر الشعبى الشعبى الممثل فى الموشحات والأزجال • وقد بينا ، عند حديثنا عن الموشحات ، أن أصل هذا النوع من الشعر يتمثل فى الأغنية الشعبية التى كانت شائعة فى الأندلس ، وأهم عنصر فيها هو « الخرجة » ، وهى بيتان تنتهى بهما الأغنية ، وكان الوشاحون يصوغونها فى لغة دارجة أو فى ألفاظ رومانسية •

وأول من تنبه الى وجود تماثل فى تركيب الأبيات وتعاقب القوافى بين الشعر الشعبى الأندلسى وأغانى التروبادور الأكيتانية والبروفنسية ، فى العصور الوسطى ، هو المستشرق الاسبانى « دون خوليان ريبيرا » • وعلى هذا الأساس أقام نظريتـه فى أن تركيب الشعر الغنائى ، الـذى ابتدعه أعمى قبرة وصورة ابن قزمان ، يزودنا بمفتاح السر الذى يفسر تركيب الصور الشعرية فى مختلف النظم الشعرية الغنائيـة التى عرفها العالم المتحضر فى العصور الوسطى ، الا أنه لم يستطع اثبات نظريته

اثباتا أكيدا ، فكان ذلك مثار للجدل بين الباحثين : فذهب فريق الى تأييدها ودحضها فريق آخر •

ومن هذا الفريق الثانى ، العالم البرتغالى « رودريجيس لابا » ، الذى حاول فى كتابه عن « أصول الشعر الغنائى فى البرتغال » اثبات أن التركيبات العروضية كانت معروفة فى أوربا قبل عهد الزجال القرطبى ابن قزمان • وساق لاثبات ذلك أمثلة لأبيات متحدة القافيـــة تتألف من ثلاثة أجزاء وجدها فى شعر القرن الثانى عشر اللاتينى •

وهناك فريق وقف موقفا معتدلا بين الفريقين • وعلى رأس هــذا الفريق عالمان من أجل العلماء فى الدراسات البروفنسية ، هما : « أبيل » الألمانى و « جانتروى » الفرنسى • ويرأس فريق المؤيدين لنظرية التأثير الأندلسى فى الشعر البروفنسى المؤرخ الاسبانى الكبــير « دون رامون مننديث بيدال » الذى شرح نظريته فى كتابــه « الشعر العربى والشعر الأوربى » ، ونقض بها حجج خصومة ، واستشهد بأمثلة للشعر العربى موجودة فى الشعر الجليقى يتضمنها كتـــاب « الأرثبرست دى هيتا » المعروف بكتاب (Buen amor)

ويعتقد « مننديث بيدال » أن الزجــل الأندلسى انتشر فى الغرب الأوربى بالسرعة نفسها التى انتشر بها فى الشـــرق العربى • ويستند فى ذلك الى أن أول شاعر غنائى معروف ، كتب بلغة رومانسية ، هو جيوم التاسع دوق أكيتانيا ، متبعا فى شعره التركيب العروضى للزجل الأندلسى•

وهناك ناحية جديرة بالذكر هى أن الوشاحين المسلمين فى الأندلس، والتروبادور فى أكيتانيا وبروفنس ، يتفقون فى الموضوعات التى تقـــوم عليها أغانيهم • فكانت تقوم أمـــا على الحب العذرى وأمـــا على الحب الحسى والمدح ••• فأزجال ابن قزمان تتماثل فى هذا مـــع بعض أشعار التروبادور ماركابرو • وفى أغنيات التروبادور والزجـــالين تتكرر ألفاظ

متماثلة ، كلفظ الرقيب والنمام والحاسد والعاذل ، وفيها وصف لما يلقاه العاشق من آلام • ويشترك ابن قزمان مع ماركابرو وجوفرى روديل فى التغنى بالمدح ••• كل هذا يدل على مدى تأثر الشعر الغنائى البروفنسى بالأزجال والموشحات الأندلسية • ويؤيد ذلك ما يذهب اليه بعض الباحثين من أن كلمة تروبادور مشتقة من الكلمة العربية « طرب » •

أمـا كيف انتقلت هـذه التأثيرات الاسلامية ، فيعـزوه « ليفى بروفنسال » الى أن « جيوم » التاسع — أقـدم شعراء التروبـادور الفرنسيين — كان على اتصال وثيق باسبانيا المسيحية : فقد زار اسبانيا، وساعد ألفونسو المحارب ، ملك أرغون ، فى معركة كتندة عام ١١٢٠ م ، وأنه تزوج ابنة « راميرو » الراهب ملك أرغون ، وقتل فى « شنت ياقب » عام ١١٣٧ م •

ولا يشك « ليفى بروفنسال » فى أن التروبادور مـاركوبرو رحل الى قشتالة ، واشترك مع ألفونسو السابع فى احدى حملاته على اسبانيا الاسلامية ولاشك أن هؤلاء الشعراء الفرنسيين تأثروا بالشعر الشعبى الأندلسى الذى كان شائعا فى اسبانيا المسيحية • وهكذا تغلغـل الشعر الشعبى الأندلسى فى الشعر الغنائى البروفنسى ، فظهر منذ نهاية القرن الحادى عشر الميلادى فى جنوب فرنسا ووسطهـا ، ثم انتشر فى شمال شبه جزيرة ايبيريا وايطاليا بعد ذلك •

القصة العربية فى الادب الأوربى

تعد اسبانيا الاسلامية الجسر الذى عبر منه كثير من المظاهر الأدبية الأندلسية الى أوربا فى العصور الوسطى • ويتفق مؤرخو الأدب اوربى عامة على التأثير الحاسم الذى أحدثه الأدب الأندلسى فى تطـور القصة الأوربية فى العصر الوسيط •

ولقد تلقى الأدب العربى كثيرا من القصص الشرقية من الهند وفارس ، ونقلها بدوره الى الأدب الأوربى • وكان « بدرو ألفونسو » — فى طليعة القرن الثانى عشر — أول من نشر فى العالم المسيحى عددا كبيرا من المجموعات القصصية التى تقوم موضوعاتها حول الأمثال والحكم والمواعظ ، وجعل عنوانها (Desciplina Clericales) ، أى « أدب العلماء » •

ويدل على ما أثارته هذه القصص من اهتمام فى العصور الوسطى وجود أكثر من ٦٣ مخطوطا من هذا الكتاب محفوظة اليوم ، وكلها مكتوبة بلغات أوربية مختلفة ، كالألمانية والفرنسية والعبرية والايطالية والقطلانية والقشتالية • كما أن موضوع هذه القصص عولج فى أكثر من ٦٠ كتابا فى العصر الوسيط ، وعصر النهضة ، لمؤلفين مشهورين : أمثال
« بوفيه » و « دون خوان مانويل » و
« بوكاشيو » و « بوزون » و
« شوسر » و « جيرالدى » و
« ثرنطس » • ويتمثل فى تآليف هؤلاء الأدباء كثير من الموضوعات القصصية التى أوردها « بدرو ألفونسو » •

وانتشرت بعد ذلك بعهد قصير المجموعة القصصية التى يتضمنها كتاب « كليلة ودمنة » ، الذى ترجمه ابن المقفع عام ٧٥٧ من البهلوية الى العربية • ولقد ترجم هذا الكتاب الى القشتالية عام ١٢٦١ بأمر الملك ألفونسو الحكيم ، ثم ترجم الى العبرية فى القرن الثالث عشر ، ونقله « خوان دى كابوا » بعد ذلك الى اللاتينية • وعرف هذا الكتاب ، من هذه الترجمة اللاتينية ، فى لغات مختلفة كالألمانية والدنمركية والايطالية والاسبانية •

أما الترجمة القشتالية ، فهى أدق من ترجمة « خوان دى كابوا » ، اذ أنها نقلت مباشرة من العربية بدلا من اللاتينية • وأصبح هذا الكتاب

أساسا لما كتب بعد ذلك من قصص فى الشرق والغرب ، فى أكثر من أربعين لغة ، اشتملت على حكم وأمثال تقال على ألسنة الطير والحيوان ويكفى أن نذكر الكتب الآتية لبيان أثر كتاب كليلة ودمنة فى الآداب الأوربية :

كتاب (Odo de Cheriton) والقصص الأخلاقية التى كتبها « نيكولاس بوزون » •

وكتاب (Speculum Sapientiae beati Cyrelli)

وكتاب (Thetobnla sive animalium de regiis pracceptis con.)

للكاتب « دبرافيوس » •

وكتاب (Les fables nouvelles) للكاتب « ريشيه »

وكتاب (Le Delices) للكاتب « فربوكيه »

وكتاب (Les fables) للكاتب « لافونتين »

وكتاب « الحيوان » للكاتب « رايموندو لوليو » •

وهناك كتاب آخر لقى من الشهرة والانتشار ما لقيه كتاب « كليلة ودمنة » ، هو كتاب « السندباد » • وقد ترجم هـذا الكتاب الى اللغة القشتالية بأمر الأمير « دون فدريكى » شقيق الملك « ألفونسو » العاشر عام ١٢٥١ ، وجعل عنوانه « خدع النساء وكيدهن » • وقد وصل هـذا الكتاب الى أوربا من طريقين : أحدهما الترجمة القشتالية التى ترجمت عنها عدة ترجمات ، والآخر طريق « التاريخ الفارسى » المعروف بكتاب الوزراء العشرة ، ومنه كانت الترجمة اللاتينية (Clamoles y Clarimunda) أو كتاب « العلماء السبعة » الذى ترجم بدوره الى الفرنسية والايطالية والقطلانية والانجليزية والألمانية والهولندية والهنجارية •

وعرفت اسبانيا المسيحيـة كتاب « ألف ليلة وليلة » من طريـق الأندلس • فقد وردت بعض قصصة فى « المدونة العامة لتاريخ اسبانيا » التى وضعها « ألفونسو الحكيم » ، منها قصة « تيودورة الحسناء » التى أخذ منها المسرحى الاسبانى « لوبى دى فيجا » فى احـدى مسرحياته

الكوميدية • وتنعكس فى مسرحية « كلدرون دى لابركا » ، قصة « النائم اليقظ » • ويمكننا أن نشاهد قصة « الحصان المسحور » فى مسرحية (Liber Septem Sapientium) وقصة « قمر الزمان » فى الرواية الشعبية (Pierres de Provenza y la Linda Magalona) ويذهب « مننديث بيلايو الى أن هاتين القصتين الأخيرتين نقلتا الى الأدب الأوربى شفاها أيام الحروب الصليبية ، وأن كان وجود مخطوطات اسبانية تشتمل على قصة « قمر الزمان » تدحض هذه النظرية •

ومما يدل على أن كتاب « ألف ليلة وليلة » كان شائعا فى الأندلس فى العصر الاسلامى ، أن الموريسكين سجلوا بعض قصصه باللغة الخيمادو التى كانوا يكتبون بها ، ومن هذه القصص قصة « قصر الذهب » ، و « مدينة اللاطون » ••• كما يمكننا اليوم أن نتعقب بعض قصص من نوع قصص شهر زاد فى اللغة الاسبانية ، ففى قصة « الغيور العجوز » التى كتبها « ثرفنطس » نجد الموضوع نفسه الذى نسجت حوله قصة « القاضى وابنة التاجر » • وفى الأسطورة الشعبية التى أوحت الى « ثوريليا » بذكرياته فى مدينة بلد الوليد ، شبه كبير بقصة تدور حول عدالة السماء •

وليس الأمر وقفا على القصص الاسبانية ، وانما نرى لكتاب « ألف ليلة وليلة » صدى فى القصص الأوربية تسبق الترجمة الفرنسية التى قام بها « جايان » فى بداية القرن الثامن عشر • ففى « رحلة براندان للبحث عن الجنة » نطالع قصة الجزيرة المتحركة التى ظهر أنها حوت ضخم ، وقصة الطيور الضخمة التى تشبه الرخ • وفى قصة شميد الألمانى ، المعروفة باسم (Das Schloss in der Hutt xa-xa) وقائع مماثلة لقصة « علاء الدين والمصباح السحرى » •

وكان للقصص العربية أثر كبير فى ذيوع كثير من القصص فى الأدب الأوربى ، مثل : مجموعة « ألف قصة وقصة » ، و « أساطير عربية » التى نشرها « رينيه باسيه » ، وتشتمل على خمسة وستين موضوعا قصصيا •

وانتشر فى أوربا ، فى العصر الوسيط ، نوع من القصص التاريخية تختلط فيه الحقيقة بالخيال على نحو ما جمعه « هيرودوت » عن مصر • وقد ترجم فى هذا الصدد كثير من القصص العربيـــة عن « الاسكندر ذى القرنين » •

الملحمـــة وأصلهـــا الأندلسى

قام المستشرق « دون خوليان ريبيرا » ، عام ١٩٤٣ ، بشرح نظريته التى ذهب فيها الى أنه ظهرت فى كتب التاريخ الأندلسى القديمة « آثار ملاحم رومانسية ، لعلها ازدهرت فى الأندلس فى القرنين التاسع والعاشر» وذكر أنه وجـــد فى بعض القصائد الأندلسيــــة فى الوصف ، وفى بعض المدونات العربية ، كثيرا من الأساطير والقصص الشعبية ، كتب بعضهـــا باللاتينية ، وبعضها الآخر يؤلف جـــزءا من التراث القومى الذى كـــان شائعا بين الاسبـــان بالرومانسية • فقصـــة « أرطباس » ، وأسطورة « ازراق بن منتيل » ــ اللتان ذكرهما ابن القوطية فى كتابــه « تاريخ افتتاح الأندلس » ــ هما قصتان تنطبقان على حقيقة واقعة ، تنشأ منها أسطورة شعرية ، تضمنتها المدونات التاريخية بعد ذلك مع بعض التغيير •

وتتميز هذه الملاحم بأنها تروى حوادث قريبة العهد نسبيـــا ، فهى لا تزال تحتفظ بحرارة الصراع الذى كثيرا ما ينشأ بين أبطالهـــا ، كما تستخدم شخصيات تاريخية ، وتحتشد فيها أخبار فى الفروسية ، كالمبارزة بين بطلين مثلا • وملحمة « السيد الكنبيطور » تصـــور مغامرات السيد تصويرا تاريخيا ، على نحو السير التاريخية ، منذ غادر قريته وحارب فى صف المستعين ، ملك سرقسطة ، من ١٠٨١ الى ١٠٨٧ م • ومن المعـــالم العربية فى هذه الملحمة : كلمـــة (Mio Cid) المشتقة من الكلمـــة العربية « سيدى » ، وزجر السيد للطير ــ وهى عادة عربية ــ والألفاظ العربية الكثيرة المتكررة •

وملحمة « أبناء لارا السبعة » مثل آخر من أمثلة التداخل بين الحياة المسيحية والاسلامية فى الأندلس • فالبطل فيها عربى أبوه مسيحى ، وأمه مسلمة ، زعمت القصة أنها أخت المنصور بن أبى عامر •

وشاع بين الموريسكيين نوع من القصص يدور حول بعض الشخصيات الغرناطية فى بلاط ملوك بنى الأحمر • مثل قصة « زفرة العربى الأخيرة » ، وقصة « ابن سراج وشريفة الجميلة » وفيها يتنافس المعسكران المسيحى والمسلم فى ابداء الكرم ، واظهار روح الفروسية النبيلة • وقد وضع « بيرث دى هيتا » كتابا عن هذا الموضوع سماه « الحروب الأهلية فى غرناطة » ، وصاغه فى أسلوب قصصى روى فيه أخبارا ووقائع تاريخية تتخللها أشعار رومانسية • وقد ترجم هذا الكتاب الى الفرنسية فى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، واتخذ كثير من الكتاب الفرنسيين من بعض الشخصيات الغرناطية المذكورة فيه أبطالا لقصص ومسرحيات : مثل قصة شاتوبريان عن « آخر بنى سراج » ، وقصص « وشنطن ارفنج » عن أساطير قصر الحمراء •

أثر الفلسفة الأندلسية فى الفكر الأوربى

ذكرنا من قبل — عند حديثنا عن الحياة العقلية فى الأندلس — كيف ترجمت كتب ابن مسرة وابن طفيل وابن رشد وابن باجة الى اللاتينية • وذكرنا أن مراكز الترجمة كانت تنحصر فى مدرسة قطلونية فى القرن العاشر ، وأشهر مترجميها الراهب « جربرتو » ، ومدرسة طليطلة ابتداء من القرن الثانى عشر ، ومن أشهر مترجميها « دومنجو جنثالث » ، المعروف بدمنيكوس جندسالفى و « خوان هسبالنسى » • وانضم الى هذه المدرسة كثير من المترجمين الأوربيين الذين وصلت الى أسماعهم ما تزخر به طليطلة من فرائد الكتب العربية فى العلوم والفلسفة ، ومن هؤلاء « خيراردو دى كريمونا » الايطالى و « اديلاردو دى باث » وغيرهما •

وهكذا بدأ اتصال الفكر الغربى الأوربى بالفلسفة العربية منذ القرن الثالث عشر • من طريق هذه الترجمـات • وفى هـذا القرن امتزجت نظريات الفلسفة الاغريقية بالفلسفة الاسلامية والعقائد المسيحية • وكان لشروح ابن رشد وتعليقاته أكبر الفضل فى اتصال المدرسيين بالفلسفة الاغريقية • كما عرف المدرسيون كتب ابن باجه وابن طفيل وغيرهما ممن يغلب عليهم مذهب الأفلاطونية الحديثة •

وقد تجلى هذا الآثر فى كتاب «الفريدوس انجليكوس»(De Mout Cordis) وفيه تظهر بعض الاتجاهات النفسية العربية • كذلك عرف « اليخاندرو دى هالس » علم « الميتافيزيقا » عند الغزالى وابن سينا • وكان « جييرمو دى أفرينا » يعرف كثيرا عن الفلسفة الاسلامية ، اذ قـرأ عن الفارابى وابن رشد ، وجعل من ابن رشد « أنبل وأعظم مثال للفلاسفة » •

وكان « البرتو ماجنو » أول من أدخل العلوم العربيـة فى فلسفة المدرسيين • ويشير فى موسوعتـه الفلسفية الى المامـه بآراء فلاسفة المسلمين • وكان كثير الاعجاب بهم ، وذكر أن كتب الفلك الاسلامية ليس فيها ما يناقض العقائد الكاثوليكية على عكس ما يذهب اليه من لم يطالعها• وقد بلغ بـه التأثر بطريقـة ابن رشد أن كتب تعليقـات عـلى كتاب أرسطوطاليس فى السياسة • فليس عجيبا اذن أن يلم تلميـذه « سانتو توماس دى اكينو » (توما الأكوينى) بالفلسفة الاسلامية الماما تاما •

وكان حظ ابن رشد عظيما فى أوربا المسيحية ، لكثرة مـا نشر من مؤلفاته باللاتينية ، وفقا لمـا ذكره رينـان • وظلت آراؤه تضىء الفكر الانسانى حتى نهاية القرن السادس عشر • وظهر الى جانبها مذهب جديد، يعرف بالمذهب الرشدى ، وهو مذهب أخذت به المدرسة الفرنسسكانية ، ودافعت عنه ، وعلى رأسها « روجر بيكون » و « سيجر دى برافانت » فى جامعة باريس • ويقوم المذهب الرشدى عـلى نظريتين أساسيتين : احداهما نظرية المخادعين الثلاثة ، وفيها يهاجم الأديان الثلاثة اليهودية

والمسيحية والاسلام • والثانية نظرية الحقيقتين ، وهى نظرية لاهوتية فلسفية ، لعلها اشتقت من آراء محيى الدين بن عربى •

وترتبط آراء محيى الدين بن عربى ، ومذهبه الفلسفى ، ارتباطـا وثيقا بآراء علمين من أعلام الفكر الانسانى فى القرن الرابع عشر : أحدهما « دانتى » فى كتابه « الكوميديا الالهية » وكتابه « الحياة الجديدة » •

وقد استوحى « دانتى » ، فى كثـير من العنـاصر التى تؤلف قصيدته الخالدة ، قصة الاسراء والمعراج • والآخر « ولوليو » فى كتابه « أسماء الله المائة » ، وكتابه عن الحيوان ، وكتاب « الصاحب والمحبوب » ، وكلها كتب يتجلى فيها أثر التصوف والفلسفة الاسلامية •

تأثر اللغـة العربية فى اللغـة الاسبانية

كان لابد أن تتأثر اللغة الاسبانية باللغـة العربية فى أثنـاء العهد الاسلامى الطويل ، الذى تفوقت فيه ، من حيث الاستعمال ، على سائر اللغات الاسبانية • ويتجلى هذا التأثير بأوضح صورة فى آلاف الألفاظ العربية التى يزخر بها قاموس اللغة الاسبانية ، والتى تشهد بما كان بين المسلمين والمسيحيين من صلات وثيقة ، فى جميع نواحى الحياة ، نتيجة طبيعية لمعاشرة المستعربين للمسلمين والمدجنين للمسيحيين •

ولا تقتصر هذه الألفاظ على العلوم التى ذكرناها آنفـا ــ كالطب والفلسفة والرياضة والفلك والكيمياء والموسيقى ــ وانما تتجاوز ذلك الى الحياة الاجتماعية والسياسية ، والتقاليـد العسكرية ، ونظـم الزراعة والتجارة والصناعة والعمارة والعمران • وهى أبلغ سجـل خلدت فيه الحضارة الأندلسية •

أسماء الانهـــار والمواضـع :

الوادى الكبير	Guadalquivir
وادى الأبيار	Guadalaviar
وادى الحجارة	Guadalajara
القلعــة	Alcala
القليعــة	Alcolea
قلعة وادى أيره	Alcala de Guadaira
قلعة أيوب.	Calatayud
قلعة ربــاح	Calatrava
الجزيرة الخضراء	Algeciras
شقر (جزيرة)	Alcira
طريف (جزيرة)	Tarifa
يابسة (جزيرة)	Ibiza
بسطة (مدينة)	Baza
المدور (مدينة)	Almodovar
البسيط (مدينة)	Albacete
الدويرة	Aldovera
حصن القصر	Aznalcazar
حصن الفرج	Aznalfarache
مدينة الزهراء	Medina Azzahra
مدينة سالم	Medinaceli
بــلدة	Belda
بلد الوليــد	Valladolid
المعدن (مدينة)	Almaden
قلعة الحرة	Calahorra
جبل طارق	Zonaica

Gibralfare	جبل فارو
Gibraléon	جبل العيون
Aljarafe	الشرف (منطقة)
Algarve	الغرب (منطقة)
Almeria	المرية (مدينة)
Alhama	الحامة (مدينة)
Alejar	الحجار (مدينة)
Alcacer do sal	قصر أبى دانس (مدينة)
Arrecife	الرصيف (بمدينة قرطبة)
Benamexir	بنى بشير (حصن)
Zafarraya	فحص رعين
Alqueria	قريـــة
Jerica	شارقة (مدينة)
Zoco	سوق
Zocodover	سوق الدواب
Alhambra	الحمراء (اسم قصر)
Alhandega	الخندق (اسم موضع)
Ajarquia	فحص
Vcga	الحوز
Alfoz	الشرقية (اسم حى من قرطبة)
Aldca (Daya)	ضيعة
Arrabal	ربض
Adarve	درب
Aceite	زنيقـــة

الألفاظ الخاصة بالزراعة والرى :

ساقية	Acequia
ناعـــورة	Noria
الجب	Aljibe
منيـــة	Munya
الروضة	Rauda
البركـــة	Alberca
السد	Azud
جنة العريف (موضع)	Generalife
الرياض	Arriate

أسماء الزهور والفواكه :

الياسمين	Jazmin
الريحان	Arrayan
البرقوق	Albaricoque
سوسنة	Azucena
الخزامى	Alhucema
النارنج	Naranjo

أسماء المأكولات والبقول :

الأرز	Arroz
الباذنجان	Berenjenas
الترمس	Altramuce:
المجبنات	Almojabanas
الزيت	Gibraltar

اللوبيـــا	Alubia
الزعفران	Azafrân
الخروب	Algarroba
السكر	Azucar
الزيتون	Aceituna

أسماء المؤسسات الاقتصادية والدينية :

الطاحونة	Atahona
دار الصناعـــة	Atarazana
المخزن	Almacen
القيسارية	Alcaiceria
الفندق	Alhondiga
الديوان الجمركى	Aluana
مدرسة	Mederza
ربـــاط	Rabita
مسجد	Mezquita

الألفاظ الشائعة فى العمارة والزخرفة :

البناء	Albanil
العريف	Alarife
القبـــة	Alcoba
الطوب	Adobe
المنـــارة	Alminarete
المنـــار	Alminar
سقف سماء	Zaqui Zami
بنيقة العقـــد	Atalaya

تربيعة العقد	Albanega
الربع المحيط بالعقد	Atarabea
الازار الزخرفى	Arrabe
الافريز الزخرفى	Alizar
البربخانـــة	Aafiz
البكرة (فى الأبراج)	Barbacana
الستارة (الحائطية)	Albácara
برج الطليعـــة	Citara
برج البنرانى	Albarrana
الغرفـــة	Algorfa
الغرفة العليا (المصرية)	Mazaria
التوريق	Ataurique
التوشية	Ataujia
الترصيع	Ataracea
السطح	Azotea
المقربص	Almocarabe
أسطوان الدار	Azaguan
جائزة السقف	Jacena
ضبة الباب	Aldaba
زرقـــون	Azarcon
نزلة (فى الزخرفة)	Nacela
تشبيكة	Tabique
اكليـــل زخرفى	Alecrim
سقايـــة	Azacaya
شماسة	Ajimez

قنطـــرة	Alcantara

المنسوجات والمفروشات :

البرنس	Albornos
الازار	Alizar
المئزر	Almaizer
الستارة	Acitara
القطـــن	Algodon
المخـــدة	Almohada
الحمرة (سجادة)	Alfombra
الجبـــة	Chupa
السراويل	Zaragüelles
الخفاف	Alifafes

آلات الطرب :

العـــود	Alaúd
الطنبور	Tambore
الدف	Adufe
الطبـــل	Atabale
البـــوق	Alboque
القيثارة	Guitarra

ادوات المطبخ :

المهراس (الهاون)	Almirez
السطل (الدلو)	Acetre
الربع (كيل الزيت)	Arrope

النظم السياسية بالأندلس

الخلافة :

كان بنو أمية يتلقبون بالامارة ، منذ أن استقر أمر عبد الرحمن بن معاوية بالأندلس عام ١٣٨ هـ ، حتى تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد فى عام ٣٠٠ هـ . ولم يقدم الأمراء من بنى أمية ، خلال هذه الفترة ، على التلقب بلقب الخلافة : لاحساسهم بأن الخلافة وحدة لا تتجزأ ، وأنه لايجوز أن يلقب بها الا من يكون الحجاز فى حوزته .

فلما تولى الأمير عبد الرحمن بن محمد امارة قرطبة ، واستقرت دعائم امارته ، ورأى ماوصلت اليه الخلافة العباسية بالمشرق من ضعف وانحلال ، واستبداد القواد الأتراك — فى عهد المقتدر العباسى — وعبثهم بالخلفاء بالعزل والقتل . ورأى أن أئمة لفاطميين قد تلقبوا بالخلافة ، وأصبحوا يهددون الأندلس ، ويعدون العدة لضمها اليهم ، وأنه لايقل عنهم كمالا فى القوة والمنعة ، وأثرا فى الدفاع عن الاسلام ، وفى المثاغرة والجهاد ...

لما رأى عبد الرحمن ذلك كله ، أمر فى ٢٨ من ذى القعدة عام ٣١٦هـ ، أن تكون الدعوة له فى مخاطباته ، والدعاء له على المنابر بأمير المؤمنين ، « لما استحقه من هذا الاسم الذى هو له بالحقيقة ، ولغيره بالانتحال والاستعارة . فلبس هذا الاسم ، فى هذا الوقت ، حلة لائقة بمنصبه ، وتراثا راجعا اليه » . وتلقب عبد الرحمن بالناصر لدين الله أمير المؤمنين ، وأصدر منشورا وزعه عماله فى النواحى المختلفة ، وقد جاء فى المنشور ما يلى :

« بسم الله الرحمن الرحيم . صلى الله على نبيه محمد الكريم . أما بعد : فان أحق من استوفى حقه ، وأجدر من استكمل حظه ، ولبس

من كرامة الله تعالى ما ألبسه ... فنحن : للذى فضلنا الله به ، وأظهر أثرتنا فيه ، ورفع سلطاننا اليه ، ويسر على أيدينا دركه ، وسهل بدولتنا مرامه ... وللذى أشاد فى الآفاق من ذكرنا ، وأعلى فى البلاد من أمرنا ، واعلق من رجاء العالمين بنا ، وأعاد من انحرافهم الينا ، واستبشارهم بما أظلهم من دولتنا ... ان شاء الله . فالحمد لله ، ولى الانعام بما أنعم به ، وأهل الفضل بما تفضل علينا فيه ...

« وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا كذلك . اذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ، ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحقه منه . وعلمنا أن التمادى على ترك الواجب لنا من ذلك ، حق لنا أضعناه ، واسم ثابت أسقطناه . فمر الخطيب بموضعك أن يقول به وأجر مخاطبتك لنا عليه ، ان شاء الله » .

وفى أول ذى الحجة شرع الخطيب بقرطبة فى دعائه للناصر لدين الله بامرة المؤمنين . فكانت أول خطبة تسمى فيها عبد الرحمن بن محمد بهذا الاسم . وهكذا تحولت الامارة فى الأندلس الى خلافة ، واستمر هذا اللقب فى ذرية عبد الرحمن الناصر حتى سقوط الدولة الأموية . فعندما تطرق اليها الضعف ، فى عهد هشام المؤيد بالله ، تولى محمد بن أبى عامر الحجابة ، وأصبح الحاكم الحقيقى فى الأندلس . أما الخليفة فقد انزوى فى قصره ، ولم يبق له من الخلافة سوى الاسم .

ولما سقطت دولة ابن أبى عامر ، تولى الخلافة أمراء من بنى أمية ، قتل منهم من قتل ،وعزل من عزل ... حتى انقرضت الخلافة الأموية من الأندلس . واستقل كثير من الولاة فى مدنهم ، وقامت دويلات الطوائف ، وتلقب ملوكها بألقاب الخلافة وتوزعوها : فمنهم من تلقب بالناصر والمنصور والمقتدر والمعتضد ، ومنهم من تلقب بالمعتصم والمظفر والمتوكل والمعتمد . وفى ذلك يقول ابن شرف الشاعر :

مما يزهــدنى فى أرض أندلس
أسماء معتمد فيها ومعتضــد
ألقــاب مملكة فى غير موضــعها
كالهر يحكى انتفاخا صورة الأسد

أما ملوك المرابطين فقد اكتفــوا بلقب « أمير المسلمين » — وهو دون الخلافة — فى حين تلقب ملوك الموحدين — منذ عهد عبد المؤمن بن على — بلقب « أمير المؤمنين » ، وتسموا بالأئمة المعصومين ، اشارة الى مذهبهم فى عصمة الامام وتنزهه عند أتباعه . واتخذ ملوك بنى نصر لقب « سلطان » ، وكان نظام الحكم فى عهدهم مطلقا .

الوزارة :

كانت قاعدة الوزارة فى الأندلس ، فى عهد بنى أمية ، مشتركة فى جماعة يعينهم الخليفة لاعانته ومشاورته فى شئون الدولــة . ولم يكن اطلاق لفظ الوزير ، فى بداية الدولة الأموية ، شائعا كما كــان الحال فى الدولة العباسية فى المشرق ، والدولة الفاطمية فى مصر . اذ كــان خلفاء بنى أمية يأنفون من اسم الوزير فى مدلوله . ثم قسموا خطته أقساما ، وأفردوا لكل قسم وزيرا : فجعلوا لحسبان المــال وزيــرا ، وللترسيل وزيرا ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيرا ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيرا .

وكان الأمير عبد الرحمن الأوسط أول من اتخذ للوزراء فى قصره دارا للوزارة ، ورتب اختلافهم اليه فى كل يوم : يستدعيهم معه أو من يختص منهم ، أو يخاطبهم برقاع فيما يراه من أمور الدولة ... كــل فيما جعل له . وأفرد للتردد بينه وبينهم واحــدا منهم : ارتفع عنهــم بمباشرة الأمير أو الخليفة فى كل وقت ، فارتفع مجلسه عن مجالسهم ، وخصوه باسم الحاجب حينــا ، وذى الوزارتين حينــا آخر . وكــان

الحاجب ـ على هذا النحو ـ نائبا عن الوزراء لدى الخليفة ، أو رئيسا لهم ، كما هو الحال فى وقتنا الحاضر • وكانت هذه الوظيفة اعظم ما تنوفس فيه فى عهد بنى أمية • وكان الخليفة عبد الرحمن الناصر اول من طبق لقب ذى الوزارتين على وزيره أحمد بن عبد الملك ابن شهيد ، باعتباره جامعا بين خطتى السيف والقلم •

ولما كانت دولة الموحدين ، خص الخلفاء منهم لقب الوزارة للكاتب المتصرف المشارك للسلطان فى خاص أمره : كابن عطية ، وعبد السلام الكومى • وكان للوزير مع ذلك النظر فى الحساب والأشغال المالية ، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين •

وفى عهد بنى نصر أصبحت الوزارة تسند عادة الى كبار الكتاب ، امثال أبى الخطيب وابن زمرك •وكان الوزير يشرف على جميع شئون السلطنة ، ويوجه سياستها الداخلية والخارجية على السواء ويذكر ابن خلدون أن بنى نصر أنشأوا وظيفة جديدة : هى وظيفة وكيل السلطان ، ويختص بحسبان المال وتنفيذ أوامر السلطان •

الحجابة :

كان اختصاص الحاجب فى عهد بنى أمية واسعا ، يشتمل على الشئون المدنية والعسكرية • وكان ـ بالاضافة الى هذه الوظيفة ـ واسطة بين الخليفة ووزرائه يقوم بملازمة الأمير ومباشرته ••• لذلك كانت هذه الخطة أعظم الخطط قدرا ، وغاية ما يرجوه كل وزير •

ثم ارتفع شأن الحاجب فى أواخر عهد بنى أمية ، وأخذ يستبد شيئا فشيئا بأمور المملكة ••• فبرز من الحجاب : الحاجب جعفر بن عثمان المصحفى ، الذى ارتقى الى هذا المنصب الكبير زمن الحكم المستنصر ، وقام بتدبير شئون الدولة الأندلسية • وفيه يقول الفتح بن

خاقان فى المطمح : « تجرد للعليا ، وتمرد فى طلب الدنيا ، حتى بلغ المنى ، وتسوغ ذلك الجنى ، ووصل الى المنتهى ، وحصل على ما اشتهى ... دون مجد تفرع من دوحته ، ولا فخر نشأ بين مغداه وروحته : فسما دون سابقة ، ورمى الى رتبة لم تكن لنفسه مطابقة ، فبلغ بنفسه ، ونزع عن جنسه ... واستوزره المستنصر ، وعنه قد كان يسمع وبه يبصر . وحجب الامام ، وأسكب برأيه ذلك الغمام ... » .

ثم ظهر المنصور محمد بن أبى عامر الحاجب ، وارتفع شأنه واستبد بشئون الخليفة هشام المؤيد ، فمنع الوزراء من الوصول اليه ، الا فى النادر من الأيام ، يسلمون وينصرفون . وأورث ابن أبى عامر الحجابة لأولاده ، من بعده ، حتى سقطت الدولة العامرية عام ١٠٠٨ م .

فلما كان عهد ملوك الطوائف ، انتحلوا لقب الحجابة الى جانب ألقاب الخلافة . وكانوا يعدون لقب الحجابة شرفا لهم . وكان لابد من ذكر لقب الحاجب وذى الوزارتين قبل ذكر أسمائهم : ومن أمثال هؤلاء الملوك : الحاجب ذو الرياستين أبو مروان عبد الملك بن رزين ملك السهلة ، وذو الرياستين المنصور بالله أبو الوليد محمد بن جهور ملك قرطبة .

خطة القضاء :

كانت خطة القضاء فى الأندلس أعظم الخطط عند الخاصة والعامة ، لتعلقها بأمور الدين ، واستقلالها عن الخلافة . ولا يقوم بأعباء هذه الخطة الا من ولى القضاء الشرعى فى المدن الكبرى . وكان القضاء ينقسم الى شرعى ومدنى :

(١) القضاء الشرعى : كان القاضى الشرعى يختار من بين أفاضل الناس ، وأحسنهم سيره ، وأوسعهم علما ، وأرجحهم عقلا وذكاء . وكان قاضى الجماعة ينظر فى المواريث والوصايا والتحجير والأحباس ، كما كان يقوم بأمامة الناس فى صلاة الجماعة .

وكان قاضي الجماعــة لا يقضى الا فى قرطبة ، وكان ينيب عنــه فى الأقاليم قضاة آخرين ، فى حين كانت لقاضى الجماعة ، فى الدولة العباسية الرياسة على القضاة جميعا • وظل منصب قاضى الجماعة أرفع مناصب القضاء فى الدولة الأندلسية ، منذ عهد بنى أمية حتى عصر دولــة بنى نصر • وكان قاضى الجماعة فى غرناطة ، فى عهد بنى نصر ، يجمــع بين وظيفته فى القضاء الشرعى وبين أمامة المسلمين فى الصلاة والخطبة •

(ب) القضــاء المدنى : وكان يشتمل على أربــع خطط : صاحب الشرطة ، وصاحب المدينة ، وصاحب المظالم ، والمحتسب •

صاحب الشرطــة :

كانت المسائل السياسية والجرائم وغيرها تسند لصاحب الشرطة • فكان من اختصاصه حفظ الأمن ، وتنفيذ الأحكام التى يصدرها القاضى والتى يصدرها هو • ولم يكن منفذا لهذه الأحكام فحسب ، بل كان يتولى الاتهام والتحقيق ، ويقيم الحد دون أن يتدخــل القاضى فى أحكامه • ويشبه فى ذلك قاضى الجنايات الشخصية فى عصرنا الحاضر •

وكان صاحب الشرطة يعرف عند العامة بصاحب الليل ، لمحافظته على الامن فى العاصمة والأقاليم ، ومطاردته المجرمين وأهــل الفساد • وكانت خطته تسمى أيضا خطة الطواف بالليل ، لأنه كان يبعث العسس والدرابين فى الأزقة والشوارع والدروب للقبض على اللصوص ومنتهكى القوانين •

صاحب المدينة :

وكان يجمع بين يديه سلطة كبرى عند غياب الخليفة ، وسلطته فى هذه الحالة تعد سلطة مطلقة • واختصاص صاحب المدينة فيه غموض ، اذ أنه قد يجمع أحيانا بين وظيفته ووظيفة الشرطــة • ويشبه صاحب المدينة المحافظ فى وقتنا الحاضر •

صاحب المظالـــم :

هى وظيفة ممتزجة من سطوة السلطنة ونصفة القضاء ، وتحتاج الى علو يد وعظيم رهبـــة : فهى تقمع الظـــالم من الخصمـــين وتزجر المعتدين . وكان صاحب المظالم يمضى ما عجز القضاة عن امضائه ، لان سلطته تفوق سلطة القاضى . وتقابل وظيفة صاحب المظالم وظيفة قاضى الاستئناف فى أيامنا هذه . وكان صاحب المظالم يختار من أفاضل الناس، وأغلاهم مكانة فى المجتمع . وكان يحيط به حماة وأعوان وفقهاء وكتاب وعدول .

المحتسب :

هى وظيفة ملحقة بالقضاء لأن فيها حكما . وكـــان المحتسب يسير بنفسه فى الأسواق ، ومعه أعوانه يحملون الموازين والأكيال الصحيحة ؛ فيدس المحتسب أحد أعوانـــه على البائعين ، ويختبر وزن السلعـــة أو كيلها ... فان وجد به نقصا ،جرس البائع، وضربه بالسياط فى الأسواق.

وكان اختصاص المحتسب يتجاوز المبيعات الى جميع شئون المجتمع الأندلسى . اذ كان يأمر بالمعروف ، وينهى عن المنكر ويحث عـــلى عدم الغش والتدليس ، ويحمل الناس على اتباع الخير . وكان يمنع الناس من تحميل الحيوانات ما لا تطيق ، ويمنع معلمى الصبيان فى المكاتب من ضرب الأولاد ، ويحكم على أصحاب المبانى المتداعية ، ويمنع التسول بصوره المعروفة ... اذ أن فى ذلك كسلا عن الكـــد ، والكسل مستقبح فى الأندلس . وكان يشترط فيمن يتولى وظيفـــة الحسبة أن يكون من المشهورين بالعلم والمعرفة والذكاء ، فيختار من بين القضـــاة لأن عمله مرتبط بالقضاء .

الجيش :

كان الجيش الأندلسى ينقسم الى فرق ، على كل منهـــا أمير يحمل

راية • وكانت الفرق تنقسم بدورها الى كتائب ، على كل منها قائد يحمل علما ، وتنقسم الكتائب الى أقسام أخرى فرعيـــة • وكان ينقسم ، من حيث الأسلحة ،ثلاثة أقسام : مشاة ويتسلحون بالرماح الطويلة والتراس والسيوف ، ورماة ويحملون القسى والسهـــام ، وفرســـان ويتسلحون بالمزاريق والسيوف ويلبسون الذروع • وكـــان الجنود يلبسون عـــلى رءوسهم مغافر تشبه الخوذات أو البيضات الصقلبية • وكان الفرسان أهم ما فى الجيش من قوة ، اذ كانوا يؤلفون القـــوة الضاربة السريعة الحركة التى تقوم بالحصار والتطويق •ومن فرسان الأندلس المشهورين: أبو عبد الله بن مردنيش ، ومما اشتهر به أنـــه كان يدفـــع فى مواكب النصارى ، ويشقها يمينا ويسارا منشدا :

أكر على ألكتيبة لا أبالى

اختفى كان فيها أم سواها

وكان أكثـــر الجيش الأندلسى ، فى عهـــد بنى أميـــة ، من المغرب والصقالبة والجنود المرتزقة • فلما جاء المنصور بن أبى عامر ، استكثر من البربر والصقالبة وأضعف من العرب ••• لأنه رأى ألا يعتمد على العنصر العربى •

وكانت قيادة الجيش من أهم المناصب فى الأندلس بسبب الصراع الطويل الأمد بين المسلمين والمسيحيين ، منذ الفتح الاسلامى للأندلس حتى سقوط دولة الاسلام فيها • وقد برز من قـــواد الأندلس فى عهد الولاة : السمح بن مالك الخولانى الذى استشهد فى سبتمانيا عام ١٠٣هـ وعنبسة ابن سحيم الكلبى الذى استشهد فى أرض فرنسا عام ١٠٧ هـ • وعبد الرحمن الغافقى الذى قتل فى موقعـــة بلاط الشهداء على بعد ٧٠ كيلو مترا جنوبى باريس ، وهى الموقعة الحاسمة التى تحـــدد بها ملك المسلمين حتى جبال البرانس •

وكان من أعظم قواد بنى أمية : عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث، وأخوه عبد الكريم بن الواحد فى عهد هشام بن عبد الرحمن ، والحكم ابن هشام ، والأمير عبد الرحمن الأوسط • ومنهم القائد أبو العباس احمد بن أبى عبدة فى عهد الناصر لدين الله ، وغالب الناصرى مولى الحكم ، وأحمد بن يعلى ، ويحيى بن محمد التجيبى ، وقاسم بن مطرف بن ذى النون فى عهد الحكم المستنصر •

أما المنصور بن أبى عامر فقد تولى قيادة الجيش الأندلسى بنفسه، وجدد فى تنظيم الجيش ، فأدخل فيه فرقا من الجنود المرتزقة من كل جنس حتى يضمن زوال العصبيات والتناحر الجنسى بين مختلف عناصره وصار يغزو فى كل عام غزوتين : واحد فى الشتاء ، والأخرى فى الصيف، طوال سنى حكمه ، كما كان يفعل عبد الرحمن من قبل حين كان يبعث البعوث والصوائف كل عام فى قلب اسبانيا المسيحية ، فيهدم حصونها ، ويدمر قلاعها وينسف سهولها • وقيل أن المنصور غزا اثنتين وخمسين غزوة ، لم تنكس له فيها راية ، ولم ينكب فى حرب شهرها ، وما انصرف عن موطن الا قاهرا غالبا •

وكان من أعظم قواد المرابطين فى الأندلس : سير ابن أبى بكر ، والأمير يحيى بن واسنو ، ومحمد ابن سعد بن مردنيش • ومن مشاهير قواد الموحدين أبو حفص عمر الهنتاتى ، وأبو سعيد عثمان بن عبد المؤمن ، والقائد شقاف • وكان خلفاء الموحدين يؤثرون قيادة الجيوش بأنفسهم • وقد قتل الخليفة الموحدى ، أبو يعقوب يوسف ، فى احدى معاركه مع البرتغاليين فى شنترين •

وذاعت فى عصر بنى مرين شهرة كثير من قواد المسلمين : أمثال الثغرى ، وابن العلاء ، وموسى ابن عثان ، وأبو عبد الله الزغل •

الاسطول :

كان لابد للمسلمين فى الأندلس من اصطناع سياسة بحرية ، رضوا أم كرهوا ، لأن اسبانيا شبه جزيرة لها سواحل ممتدة طويلة تشرف على البحر الأبيض والمحيط الأطلسى • وكان المسلمـون يعتمدون فى صناعة سفنهم على دور الصناعة القوطية باشبيلية والجزيرة الخضراء وغيرها • غير أن هذه الدور سرعان ما أصابها الفساد بمرور الزمن فتعطلت •

فلما هاجم النورمانديون سواحل الأندلس ، فى عهـد الأمير عبد الرحمن الأوسط ، رأى الأمير ضرورة بناء دار للصناعة ، وتكوين أسطول أندلسى يدافع عن سواحلها • وقد أقيمت أول دار لصناعة الأسطول فى اشبيلية ، ولحقتها دور أخرى لصناعة الأسطول فى المرية ومالقة وطركونه ولقنت وميورقة وأشبونة • وتكون أسطول ضخم استطـاع أن يهزم النورمانديين •

وكان لقيام الدولة الفاطمية بشمال افريقيا ، ومنافستهـا للدولة الأموية بالأندلس ، وامتلاكها لاسطول ضخم تهدد به سواحل الاندلس ، أثر كبير فى دعم حركة بناء الأسطول فى الأندلس فى عهـد عبد الرحمن الناصر • وقد كان لهذا الاسطول الفضل الاول فى تحويل هجوم الفاطميين على مصر بدلا من الأندلس •

وقد تقدمت صناعة الأسطول فى عهد الموحدين ، ونبغ فى قيادته قواد عظام ، أمثال : ابن الرمامس ، وأبى عبد اللـه بن ميمون • وكان الأسطول الأندلسى يتسلح بقاذفات اللهب ، وهى عبارة عن آلات يندفع منها نفط يحرق ما يصادفه • وكان لهذا النفط أثر كبير فى اختراع بنى نصر لمدافع البارود • وكانت السفن الحربية تعرف فى الأندلس باسم الشوانى والأجفان • أمـا السفن العادية ، الخاصـة بالنقل ، فتسمى بالغراب •

شخصيــات اندلسية
موسى بن نصــير

موسى بن نصير أحد أبطال الاسلام ، ومن أشهر قواده العظــام الذين ساهموا بنصيب وافر فى الفتوح العربية الكبرى ، ويقترن اسمه بفتح بلاد المغرب والأندلس •

ولد موسى بن نصــير سنة ١٩ هـ (٦٤٠ م) فى خلافـــة عمر بن الخطاب بوادى القرى • وكان أبوه نصير قائما فى حرس معاوية بن أبى سفيان • وقيل أنه كان وصيفا لعبد العزيز بن مروان ، فأعتقه ، وأصبح موسى بن نصير مولى لعبد العزيز بن مروان • وعينه الخليفة عبد الملك بن مروان عاملا على العراق مع بشر بن مروان ، ثم أخذت عليه بعض مآخذ ، وعتب عليه عبد الملك بن مروان وأراد قتله ، فافتداه منـــه عبد العزيز بن مروان والى مصر بمال ، وأجاره ، وجعله فى قصره لما شاهده من لباقته وحسن تصرفه وحكمته •

وكانت بلاد المغرب قد تم فتح أغلبها بفضل جهود عقبة بن نافـــع الفهرى وأبى المهاجر دينار وزهير بن قيس البلوى وحسان بن النعمان الغسانى ، ولم يبق منها سوى المغرب الأقصى • فلمــا توفى حسان بن النعمان ٧٨ هـ (٦٩٧ م) ، ولى عبد العزيــز بن مروان موسى بن نصير على افريقية (تونس) ، وما يليها سنة ٧٩ هـ (٦٩٨ م) • فتوجه اليها على رأس جيش من وجوه العرب ، وجند من أهلهــا من يتصف بالقوة والجلد ، وجعل فى مقدمتهم طارق بن زياد • فأخذ يقاتل البربر ، ويفتح بلادهم ومدائنهم ، ويبعث بغنائمه الى عبد العزيز بن مروان والخليفة عبد الملك ••• حتى زال ما كان يحمله الخليفة عليه فى نفسه من ضغائن وأحقاد • فلما توفى عبـــد الملك بن مروان سنــــة ٨٦ هـ (٧٠٥ م) ولى الخلافة بعده ابنه الوليد ، وبلغه ماتم من فتـــوح فى المغرب على يدى موسى بن نصير ، فعظمت منزلة موسى عنده ، واشتد عجبه به •

ولم يزل موسى يفتتح مـــدن المغرب الأقصى ، حتى بلغ طنجة ــ قصبة بلاد المغر بوأعظم مدنه ــ فحاصرها حتى افتتحها ، وأقام عليها قائد جيشه طارق بن زياد • واستعصت عليه مدينة سبتة لمناعتها ووصول الامدادات اليها من اسبانيا القوطية عن طريق البحر ، وكان يحكمها من قبل البيزنطيين حاكم اسمه جوليان ، ويسميه العرب يوليان •

ترك موسى قائده طارق على حصار سبتة برا ، وعاد هو الى مدينة القيروان ، قاعدة المسلمين بالمغرب ، وأخذ ينظم البلاد ، ويعمل على نشر الاسلام بين البربر ••• فنجح فى ذلك نجاحا كبـــيرا • وأصبح الفتح العربى للمغرب فتحا عسكريا ومعنويا فى آن واحد ، إذ ضمن انتقال أمة البربر الى الدولـــة العربية من طـــريق الاستعراب واعتنـــاق الدين الاسلامى •

ثم حدث أمر لم يكن فى الحسبان ، اذ قام بين الكونت جوليان و « رودريجو » (١) ، ملك اسبانيا القوطية ، عداء دفع جوليان الى تحريض العرب على غزو اسبانيا • وقيل ان سبب نقمة جوليـــان على رودريجو ملك القوط فعلة شنيعة فعلها بابنته فلورندا ••• فقد كانت العادة وقتئذ أن يرسل الأمراء بناتهم الى بلاط الملك بطليطلة للتأدب والتهذيب وتعلم آداب الملوك • وكان جوليان قد بعث ابنته فلورندا الى بلاط رودريجو وفقا للعادة المتبعة • وكانت فلورندا بارعة الجمال ، فوقعت موقعا حسنا فى عين رودريجو ، فاستدرجها اليه واستنكرهها •

وعلم جوليان بما حدث لابنته ، فغضب لذلك أشد الغضب ، وأقسم على الانتقام من رودريجو انتقاما رهيبا • فأجاز الى اسبانيـــا ، وآثر أن يكتم ما بنفسه حتى يسترد ابنتـــه • وذكروا أن رودريجو أنكر عليه مجيئه فى ذلك الوقت ، فتعلل جوليان بقصة ابتكرهـــا من وحى خياله :

---

(١) يسميه العرب « لذريق » .

فقد ادعى أن زوجته فى أشد حالات المرض ، وأنها تتلهف لرؤية ابنتها ، ونلح فى ذلك الحاحا متواصلا قبل أن يدركها الموت . فتأثر رودريجو لما حدث ، ووافق على طلب جوليان استعادة ابنته .

وقيل انه لما ودعه قال له رودريجو : اذا قدمت علينا ، فاستفره لنا من الشذانقات (١) التى لم تزل تطرفنا بها ، فانها آثر جوارحنا لدينا . فاجابه جوليان : أيهـــا الملك ، وحق المسيـــح لئن بقيت لأدخلن عليك شذانقات مادخل عليك مثلها قط وعرض له بما كان يضمره فى نفسه من السعى فى ادخال العرب اسبانيا .

فما كاد يصل الى سبتة حتى مضى من فـــوره الى موسى بن نصير سنة ٩٠ هـ (٧٠٨ م) ، وأخذ يصف له حسن الأندلس ومزاياها ، ومـــا جمعت من صنوف المنافع والمرافق وطيب المزارع وتعدد الثمـــار وكثرة الأنهار ، ويكشف له عن عوراتها ومواضع الضعف فيها ، ويحرضه على فتحها ، ويذلل له الصعوبات ، ويهون عليه أمر فتحها وعاهده أن ينضم اليه هو وعدد كبير من النبلاء ، أصحاب الحق الشرعى فى ملك اسبانيا الذى اغتصبه رودريجو .

وكانت لهذه المقابلة آثارها فى نفس موسى بن نصير ، وأطمأن الى جوليان ، ووثق بصدق ماحدثه به ... فبادر بالكتابة الى الوليد يستأذنه فى فتح اسبانيا ، فرد عليه الوليد قائلا : « خضهـــا بالسرايا حتى ترى وتختبر شأنها ، ولا تغرر بالمسلمين فى بحر شديد الأهوال » . فعـــاد موسى الى مكاتبة الخليفة ، وذكر له « أنه ليس ببحر زخـــار » ، وأنما هو زقاق يستبين للناظر ما وراءه . فنصحه الوليد بأن يختبرها بالسرايا قبل مغامرته .

عندئذ بعث موسى سرية مؤلفة من أربعمائة فارس من البربر ، وأقام

(١) الشذانقات : جمع شيذق او شواذق ، وتعنى الصقور .

عليهم مولى من مواليه البربر اسمه طريف بن مالك المعافرى ، ويكنى أبا زرعة • ووضع جوليان سفنه فى خدمة موسى ، فعبر طريف الزقاق فى أربع سفن ، ونزل بجزيرة يقال لها جزيرة طريف ــ وتسمى اليوم برأس طريف ــ وأغار طريف على الجزيرة ، فأصاب غنائم وسبيا لا مثيل له •

فلما عاين موسى مدى نجاح الطليعة ، استجد عزما لفتح الأندلس، وأعد جيشا مؤلفا من سبعة آلاف فارس منهـم ثلاثمائـــة من العرب ، وبقيتهم من البربر • وقيل اثنى عشر ألف فارس •

وألقى موسى أمر قيادة هذا الجيش الى مولاه طارق بن زياد ، فهيأ جوليان له السفن اللازمة ومضى معهم • وعبرت السفن الزقاق فى رجب سنة ٩٢ هـ (٧١١ م) •

تقدمت الجيوش الاسلامية فى داخل الأندلس ، وتوالت غاراتهم على الجزيرة الخضراء • وكـــان رودريجو مشغولا وقتئذ بقمـــع ثورة ببنبلونة قام بها حزب الملك المخلوع • فلما بلغه الخبر عظم عليه الأمر، وبادر الى ملاقاة العرب فى جيش عرمرم ، تبلغ عدته نحو مائة ألف من ذوى العدة والعدد • فكتب طارق الى موسى يستمـــده ، ويخبره بفتحه الجزيرة الخضراء واستيلائه على منطقة البحيرة ، وأن رودريجو زحف اليه بما لا قبل له به • فبعث اليه موسى مددا مؤلفـــا من خمسة آلاف فارس تقوى به جيش طارق •

ولما نجحت حملة طارق الى حد بعيـــد ، رأى موسى بثاقب فكرة ضرورة ضم مدن غرب الأندلس ، والاستيلاء على حصونها ، خشية أن يقطع القوط خط الرجعة على طارق • فعزم على أن يقوم بهـــذه المهمة بنفسه ، وجاز الزقاق فى شهر رمضان سنة ٩٣ هـ على رأس جيش مؤلف من ثمانية عشر ألفا • وقيل انه رغب فى أن ينال نصيبا من شرف الغزو، فأقدم على ذلك بدافع من الغيرة والحسد ، مما أصابه طارق من نجاح •

ونزل موسى فى جبل يعرف بجبل موسى ، ودخل الجزيرة الخضراء وأتم فتح المدن التى لم يتيسر لطارق فتحها ، مثل قرمونة ، وكانت من أحصن مدن الأندلس . ثم مضى الى اشبيلية ،فامتنعت عليـــه أشهرا.ثم فتحها ، واتجه بعدها الى ماردة فافتتحها صلحا سنة ٩٤ هـ . وفتح لبلة والتقى مع طارق فى طلبيرة ، وتعاونا معا على فتح بقية شبه الجزيرة .. فارتقيا الثغر الأعلى ، وافتتحا سرقسطة وبرشلونة ، وأوغلا فى البلاد حتى تم لهما فتح بقية اسبانيا معا : فافتتحا حصن بـــارو وحصن لك ، وبنا السرايا حتى بلغا صخرة بلاى على البحر الأخضر ، وأشرفـــا من هناك على الأرض الكبيرة (فرنسا) .

وخطر لموسى أن يعود الى المشرق من ناحية القسطنطينية« ويتجاوز الى الشام دروبه ودروب الأندلس ، ويحوص اليه ما ما بينهما من أمم الأعاجم النصرانية ، مجاهدا فيهم مستلحما لهم ، الى أن يلحـــق بدار الخلافة » . ونمى الخبر الى الوليد فبعث اليه رسولا يأمره بالكف عن التوسع ، ويستدعيه اليه هو وطارق . فخاب أمل موسى فى اختراق مـــا بقى من بلاد افرنجة ،واقتحام الأرض الكبيرة، حتى يصل الى الشام.. وقفلا عائدين الى المشرق . وفى طريقهما مرا على اشبيلية ، فاستخلف موسى ابنه عبد العزيز على الاندلس ،واختار له اشبيلية مقرا له لاتصالها بالبحر ، نظرا لقربه من مكاره المجاز . واستخلف موسى على طنجة وما يليها من بلاد المغرب ابنه الآخر عبد الملك . واستخلف بأفريقة (تونس) أكبر أولاده عبد الله .

ويغلب على الظن أن نزاعا حدث بين موسى وطارق بشأن « مائدة سليمان » التى غنمها طارق من طليطلة ، وأنه تخاصم مع مغيث الرومى، رسول الخليفة الوليد اليه ، اذ طلب منه مغيث أن يسلمه حاكم قرطبة القوطى الذى أسره مغيث عند فتحه لقرطبة ، فامتنع موسى وقتل الأمير القوطى . واتفق طـــارق ومغيث على الوشـــاية لموسى بن نصير عند الخليفة .

أدرك موسى دمشق ، وقدم على الوليد قبل وفاته ، وسلمه الطرائف التى غنمها المسلمون من الدر والياقوت والزبرجد والتيجان المكللة بالدر والياقوت والجوهر ، فأمر الوليد بضمها الى بيت المال (١) ، وما لبث أن مات . وآلت الخلافة الى سليمان ، فشكا اليه مغيث وطارق من موسى ، وكيف قتل الأمير القوطى . وبالغ طارق فى وصف ماغنمه موسى من الجوهر ، وقال : « انه قد غل جوهرا عظيم أصابه ، ولم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله » . فزاد ذلك من حقد سليمان على موسى ، واستقدمه أمامه ، وعنفه وقال له : « والله لأفلن غربك ، ولأفرقن جمعك ، ولأضعن من قدرك » . فقال له موسى : « أما قولك تفل من غربى وتخفض من حالى ، فان ذلك بيد الله ، والى الله لا اليك ، وبه أستعين عليك » . فأمر به سليمان أن يقف فى يوم صائف شديد الحر — وكان موسى رجلا بدينا — فوقف حتى سقط مغشيا عليه ، وأغرمه أموالا لاطاقة له بسدادها ، فافتداه يزيد بن المهلب بألف ألف دينار . ولم يكتف سليمان بذلك ، بل أراد أن يشفى غله من موسى ، فدس الى أهل الأندلس من قتل عبد العزيز بن موسى وهو يؤدى الصلاة فى جامع ربينة سنة ٩٥ هـ ، وأحضر رأسه وطرح أمام أبيه .

وآلت حال موسى أن كان يطاف به ليسأل من أحياء العرب ، ليسد رمقه ! ومات وهو من أفقر الناس وأذلهم بوادى القرى سنة ٩٧ هـ .

---

(١) كان الوليد قد مرض مرضه الذى مات منه ، وكتب الى موسى يأمره أن يتعجل فى قدومه ليدركه قبيل الموت ، وكتب اليه سليمان ، أخو الوليد ، يأمره أن يبطىء فى سيره . وذكر له سليمان أن الوليد فى نزعه الاخير ، ومن الخير أن ينتظر موسى وفاته حتى يقوم الى سليمان الغنائم والتحف الاندلسية . فعمل موسى بكتاب الوليد ، وجد فى سيره فغضب سليمان ، واقسم على الانتقام من موسى اشد انتقام .

طـــارق بن زياد

هو طارق بن زياد ، وقيل طارق بن عمرو ، مولى موسى بن نصير عامل بلاد المغرب من قبل الخليفة الأموى الوليد بن عبد الملك ، وقـائد جيوش البربر التى افتتحت شبه جزيرة أيبيريا •

وقد اختلف مؤرخو العرب فى أصله : فذهب بعضهم الى أنه كان فارسيا همذانيا ، وذهب فريق آخر ــ ومنهم الحميــدى صاحب جذوة المقتبس ــ الى أنه كان بربريا من افريقيـــة ومن قبيلة نفزة البربرية ، وذهب فريق ثالث الى أنه لم يكن مولى لموسى بن نصير ، وأنـــه لم يكن بربرى الأصل ، وانما كان ينتسب الى الصدف • وأرجح هـــذه الآراء جميعا لدينا الرأى القائل بأنه كان بربرى الأصل •• فقد قيل انـــه كان طويل القامة ، ضخم الهامة ، أشقر اللون • وتنطبق هذه الصفات على عنصر البربر (١)

ولسنا نعرف شيئا عن نشأة طارق بن زيـــاد ، ولكننا نسمـــع عن اشتراكه فى مقاتلة البربر فى أثناء ولاية زهير بن قيس علـــى افريقية • فلما قتل زهير فى طبرق ، عام ٧٦ هـ ، عين طارق أميرا على برقة غير أنه لم يلبث طويلا فى هذا المنصب ، اذ أنه سرعان مـــا اختير قائـــد لجيش موسى بن نصير ، فأبلى بلاء حسنا فى حروبه • وظهرت لدى موسى قدرته فى اقتحام المعارك ، ومهارته فى قيادة الجيش ، فولاه على مقدمة جيوشه بالمغرب •

والواقع أن موسى أثبت ، بأختياره لطارق ، درايته بتمييز العناصر الصالحة فى قيادة الجيش • وكان موسى يتبع سياسة تقوم عـــلى تولية العناصر الوطنية المخلصة للمناصب الكبرى فى هذه البلاد ، فاعتمد على البربر اعتمادا تماما لاخلاصهم له ، وصدق اسلامهم • وكان من الطبيعى

أن يقود جيشه ـــ وكان أكثره من البربر ـــ رجل من أهـــل البلاد حتى يستميل اليه قلوب الجند ، فلا يثوروا عليه ، كما حدث في عهد عقبة بن نافع وحسان بن النعمان من قبل •

وهكذا أتيح لطارق بن زياد أن يتولى قيادة جيوش موسى ، ويشترك معه في فتح بقية بلاد المغرب ، والسيطرة على حصـــون المغرب الأقصى حتى المحيط الأطلسى • وما زال يقاتل البربر ، ويفتتح مدائنهم حتى بلغ مدينة طنجة ـــ وهى قصبة بلادهم ، وأم مدائنهم ـــ فحاصرهـــا حتى افتتحها ، وأسلم أهلها • ولم يمض على ولاية موسى للمغرب عدة أعوام حتى خضع له المغرب بأسره ، ولم تستعص عليه سوى مدينة « سبتة »، لمناعتها وشدة تحصنها • وكان يتولى امارتها حـــاكم من قبل الدولـــة البيزنطية ، يعرف بالكونت « جوليان » ، ويسميه مؤرخو العرب « يليان النصرانى » أو « وليان » أو « اليان » •

وكان يليان هذا ـــ برغم تبعيته للدولة البيزنطية ـــ يتوجه فى طلب المعونة الى مملكة القوط بأسبانيـــا ، فتمده الحكومـــة القوطيـــة بالمؤن والأقوات عن طريق البحر • وقاتله موسى وطارق فألفياه فى نجده وقوة وعدة ، فلم يمكنهما التغلب عليه ، فرجعا الى مدينة طنجـــة ، ومن هناك أخذا يغيران على ماحول سبتة ، ويضيقان عليها الخناق دون جـــدوى ، اذ كانت سفن القوط تختلف الى سبتة بالميرة والأداد •

فلما يئس موسى من فتح سبتة ، أقام قائده طارقا بن زياد واليـــا على مدينة طنجة ، حتى يتاح له فرصة مراقبـــة سبتة عن كثب ، وترك تحت تصرف طارق تسعة عشر ألفـــا من البربر بأسلحتهم وعـــددهم الكاملة ، مع نفر قليل من العرب ليعلموهم القرآن وفرائض الاسلام • أما موسى فقد عاد الى القيروان •

آثر طارق أن يكتسب صداقة عدوه « يليان » ما دام قد عجز عن فتح مدينته الحصينة • ويذكر المؤرخ المصرى ، عبد الرحمن بن عبـد الحكم ، أن طارقا كان يراسل « يليان » ويلاطفه حتى تهاديا • ثم حدث فى الجانب الآخر من الزقاق (الأندلس) أمر لم يكن فى الحسبان : ذلك أن « رودريجو » (لذريق) ــ أحد قواد الجيش القوطى ــ وثب على العرش ، وخلع الملك غيطشة ، وتولى مكانه • ولم يكن لذريق هـذا من بيت الملك ، ولا من بين طبقة النبلاء ، وانما نال العرش عن طريق التسور والاغتصاب • وقد أدى هذا الى خلق معارضـة قوية من أنصـار الملك المخلوع •

ويذكر المؤرخ الاسبانى « ادواردو سافدرا » أن « يليان » كـان يمت بصلة القرابة والنسب الى أسرة الملك غيطشة ، وأن هؤلاء اتصلوا سرا بيليان يطلبون منه الاستعانة بجيش طارق حاكم مدينة طنجة ، غير أن يليان تردد فى تحقيق رغبتهم خشية أن يفتتح المسلمون اسبانيا ولا يردوها لأصحابها • وفى أثناء ذلك وقع حادث كان سببا مباشرا فى اقدام « يليان » بطلب الاستعانة بالجيش الاسلامى • فقد كانت ليليان ابنة على حظ كبير من الجمال ، اسمها « فلورندا » • وكان قد بعثها ــ شأنها فى ذلك شأن غيرها من بنات النبـلاء ــ الى بلاط الملك « رودريجـو » بطليطلة للتأدب بآداب الملوك ، فوقعت فى عينى الملك موقعا حسنا ، ويقال أنه اغتصبها • وبلغ ذلك « يليان » فعزم على الانتقام من لذريق • وفى ذلك يقول ابن عبد الحكم : « فقال يليان : لا أرى له عقوبة ولا مكافأة، الا أن أدخل عليه العرب • فبعث الى طارق : انى مدخلك الأندلس » •

وكان طارق يتوقع من « يليان » كل شىء ما عدا قدومه اليه بنفسه يطلب منه مساعدته فى ادخاله الأندلس • ولم يتردد طارق فى الاتصال فورا بمولاه موسى بن نصير ــ وكان وقتئذ بالقيروان ــ فأبلغه ما كان

من أمر « يليان » .

الا أن موسى ــ رغم تلهفه على افتتاح الأندلس ــ لم يثق بيليان، وخاف أن يقحم جيش المسلمين فى مغامرة لا يعلم نتائجها الا الله ، فعزم على استشارة الخليفة الوليد بن عبد الملك فى ذلك الأمر ، فكتب من فوره الى الخليفة ، وروى له تطوع « يليان » بمساعدته فى فتح الأندلس بكل ما يملك . فأجابه الخليفة بألا يغرر بالمسلمين فى بحر كثير الأهـــوال ، ونصحه بألا يطمئن الى يليان قبل أن يبعث سرية للاستكشاف .

وعمل موسى بنصيحته فأرسل سرية مؤلفة من خمسمائـــة مقاتل ، على رأسهم مولاه أبو زرعة ، طريف بن مالك المعافرى ، فنزل طريف فى رمضان عام ٩١ هـ فى جزيرة ، سميت منذ ذلك الحين بجزيـــرة طريف ، وكان نزوله بها بفضل معونة يليان له ، ومـــده بالعيون من أنصـــاره . وعادت سرية طريف الى طنجة سالمة تجر وراءها غنائم طائلـــة . فأنس موسى الى يليان ، وازداد اقداما على الفتح . ثم استدعى مولاه طارقا، وأمره على سبعة آلاف من البربر وثلثمائة من العرب . وأبحرت الحملة من طنجة فى ٥ من رجب عام ٩٢ هـ (ابريل ٧١١ م) ، فى أربـــع سفن أعدها له يليان ، وما زالت هذه السفن تنقل جنود طارق الى جبل كالبى (Calpe) الذى عرف بعد ذلك بجبل طارق (Gibraltar) حتى كمل نقلهم وتوافوا جميعهم لديه .

وقيل ان طارقا كان نائما فى السفينة ، فرأى النبى صلى الله عليه وسلم والخلفاء الأربعة أصحابه يمشون على الماء حتى مروا به ، فبشره النبى بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين ، والوفاء بالعهد . وقيل أنه لمـــا ركب البحر غلبتـــه سنة من النـــوم فرأى النبى يحف به المهـــاجرون والانصار : قد تقلدوا بالسيوف ، وتنكبوا القسى أمامه ، فيقول له رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا طارق ، تقدم لشأنك . ونظر اليـــه والى

أصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه • فهب طارق من نومـــه مستبشرا ، وبشر أصحابه ، وثابت اليه نفسه ثقة ببشراه : فقويت نفسه ، واشتد عزمه ، ولم يشك فى الظفر •

فلما رست سفينته بالجبل ، خرج على رأس فرقـــة من جيشه ، واقتحم بسيط قرية تقع أدنى هذا الجبل تعرف بقرطاجنة (Carteya) ، وشن الغارات على هذا البسيط ، واستولى على القرية • ثم انتقل منها غربا ، وأقام قاعدة لقواته لتكون حصنا يتحصن فيه حالة التراجـــع • وكانت هذه القاعدة تقابل جزيرة صغيرة ، سماها بالجزيـــرة الخضراء ، تقع فى نفس الموضع الذى أقيمت عليه بعد ذلك مدينة الجزيرة (Algeciras)

أما الكونت يليان وأصحـــابه فتخلفوا فى هـــذه الجزيرة لحراسة قاعدة الجبل والدفاع عنها فى حالة الانسحاب •

وقيل أن طارقا أصاب عجوزا من أهل الجزيرة ، فقالت لـــه : أنه كان لها زوج عالم بالحدثان ، فكان يحدثهم عن أمير يدخل الى بلـــدهم هذا ، فيغلب عليه ، ويصف من نعمته أنه ضخم الهامة ••• فأنت كذلك ، وأن فى كتفه الأيسر شامة عليها شعر ، فان كانت فيك فأنت هو • فكشف ثوبه فاذا بالشامة فى كتفه على ما ذكرت ، فاستبشر بذلك هو ومن معه •

هذه روايات وأساطير وضعها المؤرخون ، وتواترت على مر الأزمان ، لتجعل من طارق بطل الاسلام الذى كتب له أن يتم فتح الأندلس على يديه • وقد يكون هؤلاء المؤرخون قد تعمدوا تقليل عدد جنود طارق حتى يعظموا الفتح الاسلامى للأندلس •••

ومهما يكن حظ هذه الروايات من الحقيقة والصدق ، فقـــد كانت

الظروف السياسية فى الأندلس فى جانب طـــارق وجيشه • فقـــد كان « لذريق » مشغولا وقتئذ بأخماد ثورة قـــام بها البشكنس فى مقاطعة بنبلونة ، كما كان كثير من أهل الأندلس ساخطـــين على حكـــم القوط ، فوقفوا موقفا سلبيا من الغزو الاسلامى •

وقع على « لذريق » خبر اقتحام المسلمين ساحل الأندلس الجنوبى، واستيلائهم على الجزيرة الخضراء ، وقوع الصاعقة ، فانزعج وكر راجعا الى جنوب اسبانيا ، وزحف الى قرطبة فى جيش جرار بلغت عدته — وفقا للروايات العربية — نحو مائة ألف • فكتب طارق الى موسى يستمده ، ويخبره أنه فتح الجزيرة الخضراء ، وملك المجاز الى الأندلس ، واستولى على بعض أعمالها حتى البحيرة ، وأن « لذريق » زحف اليه بما لا قبل له به • فأرسل موسى اليه مددا مؤلفا من خمســـة آلاف من المسلمين ، كملت بهم عدة من معه اثنى عشر ألفا •

وأقبلت فى الوقت نفسه جيوش « لذريـــق » حتى عسكرت غربى طريف ، بالقرب من بحيرة خندة (Janda) ، على طول نهير برباط (Barbate) الذى يصب فى البحر الذى سماه العرب « وادى لكه » ، تحريفا للكلمة الاسبانية (Lago) وتعنى البحيرة •

فلما علم طارق بأقتراب الحرب ، أمر باحراق سفنـــه حتى يفقد رجاله أمل العودة الى المغرب ، فيحاربوا فى صدق ، ويقاتلوا أعداءهم قتال الموت والاستشهاد • ثم خطب طارق فى جنوده خطبتـــه المشهورة التى تعد من أروع أمثلة الخطب الحماسية ، وأعظمهـــا أثر فى الهـــاب المشاعر والحث على الجهاد :

« أيها الناس : أين المفر ؟ البحر من ورائكم والعدو أمامكم ، وليس لكم والله الا الصدق والصبر • واعلموا أنكم فى هذه الجزيرة أضيع من

الأيتام فى مأدبة اللئام • وقـــد استقبلكم عـــدوكم بجيشه وأسلحته ، وأقواته موفورة ، وأنتم لا وزر لكم الا سيوفكم ، ولا أقوات لكـــم الا ما تستخلصونه من أيدى عدوكم•وان امتدت بكم الأيام ، على افتقاركم، ولم تنجزوا لكم أمرا ••• ذهبت ريحكم ، وتعوضت القلوب من رعبها منكم الجراءة عليكم • فأدفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية ، فقد ألقت به اليكم مدينته الحصينة • وان انتهاز الفرصة فيه لممكن ، ان سمحتم لأنفسكم بالموت • وانى لم أحذركم أمرا أنا عنه بنجوة ، ولا حملتكم على خطة أرخص متاع فيها النفوس ••• إلا وأنا أبدأ بنفسى • واعلموا أنكـــم ان صبرتم عـــلى الأشق قليلا ، استمتعتم بالأرفه الألذ طويلا ••• فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسى ، فما حظكم فيه بأوفى من حظى •••

« وقد بلغكم ما أنشأت هذه الجزيرة من الحور الحسان ، من بنات اليونان الرافلات فى الدر والمرجـــان ، أو الحلل المنسوجـــة بالعقيان ، المقصورات فى قصور الملوك ذوى التيجان • وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين من الأبطال عربانا ، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارا وأختانا ••• ثقة منه بارتياحكم للطعان ، واستماحكم بمجالدة الأبطال والفرسان ، ليكون حظه منكم ثواب الله على اعلاء كلمته ، واظهار دينه بهذه الجزيرة ، وليكون مغنمها خالصة لكم من دونه ومن دون المؤمنين سواكم •والله تعالى ولى انجادكم على ما يكون لكم ذكرا فى الدارين•••

« واعلموا أنى أول مجيب الى ما دعوتكم اليه • وانى عند ملتقى الجمعين حامل بنفسى على طاغية القوم لذريق ، فقاتله أن شاء الله تعالى• فاحملوا معى : فان هلكت بعده ، فقد كفيتكم أمره ، ولم يعوزكم بطل عاقل تستندون أموركم اليه • وان هلكت قبل وصولى اليه ، فاخلفونى فى عزيمتى هذه ، واحملوا بأنفسكم عليه ، وأكتفوا لهم من فتـــح هذه

الجزيرة بقتله ، فأنهم بعده يخذلون ! » •

فلما انتهى طارق من خطبته التى أشعلت المسلمين حماسة وقوة ، أقبل فى جنوده : وعليهم الزرد (الدروع) ، ومن فوق رءوسهم العمائم البيض ، وبأيديهم القسى العربية ،وقد تقلدوا السيوف واعتقلوا الرماح•

فلما رآهم لذريق كذلك ذهل ، وادخله منهم الرعب (١) • ولكنـــه كان واثقا من النصر لكثرة عدد جنوده ، فولى ميمنة جيشة وميسرته ابنى الملك المخلوع • وكانا قد أجمعا على الانتقام من « لذريق » الذى اغتصب العرش ، وحرمهما من ضياع أبيهما الملك ••• فانحازا مع عساكرهما الى

---

(١) ذكر مؤرخو العرب أنه قال حين شاهد المسلمين وعلى راسهم العمائم ابيض : ان هذه الصور هى التى رأيناها ببيت الحكمة ببلدنا . وفسروا ذلك بأن ملوك القوط أقاموا بطليطلة ، عاصمة مملكتهم ، دارا سميت دار الحكمة ، وضعوا فيها طلسما يتقون به غزو بربر افريقيـــة لبلاد الاندلس ويحصنونها منهم ، واغلق ملوكهم باب هذه الدار . وكلما تولى منهم العرش ملك وضع على بابها قفلا حتى كمـــل عدد الاقفـــال ستة وعشرين قفلا . وكان لذريق هو السابع والعشرين من ملوكهم . فلما اقتعد اريكة الملك قال لوزرائه وخواص دولته : وقد وقع نفسى من أمر هذا البيت الذى عليه ستة وعشرون قفد شىء ، واريد أن افتحة لانظر ما فيه ، لانه لم يعمل عبثا . فقالوا له : أيها الملك صدقت ، انـــه لم يصنع عبثا ولم يقفل سدى ، والرأى والمصلحة أن تلقى أنت أيضا عليه قفلا أسوة بمن تقدمك من الملوك . فاذا كان آباؤك واجدادك قد جروا على ذلك فلا تهمله ، وسر سيرهم . فظن لذريق ان بداخله كنزا ، وأصر على فتح الاقفال وفضها ، ففتحت ودخل فأصابها فارغة لاشىء فيهـــا الا تابوت عليه قفل . فأمر بفتحه فالقاه فارغا كذلك ، ليس فيه الا رق قد صورت عليه صور تمثل فرسانا من العرب معممين على ذوائب جعد، متقلدين السيوف والرماح . وفى أعـــلاه كتابة نصهـــا : « اذا كسرت الاقفال عن هذا البيت ، وفتح هذا التابوت فظهر ما فيه من هذه الصور فان هذه الامة المصورة فى هذه الشقة تدخل الاندلس فتغلب عليهـــا وتملكها » . فوجم لذريق ، وندم على ما فعـــل وعظم غمـــه وتحقق انقراض دولته . فلم يلبث الا قليلا حتى سمع بنزول العرب على جبل كالبى .

طارق مقابل أن يعيد اليهما ما اغتصبه « لذريق » من ضيـــاع أبيهما .
كذلك تآمر عدد كبير من قواد جيش لذريق عليه لاسقاطه ، وكانوا يظنون
أن هؤلاء المسلمين قد وفدوا الى الأندلس بغية ملء أيديهم من الغنائم ،
ثم يعودون من حيث أتوا ، فيجلسون عــلى العرش من يستحقه ...
وهكذا أضموا فى أنفسهم خذلان « لذريق » فى الموقعة الحاسمة .

والتقى الجيشان فى ٢٨ من رمضان عام ٩٢ هـ (١٩ من يوليو عام ٧١١ م) ، وتراجع جناحا جيش لدريق وفقا للخطة الموضوعة ، ونكص عدد كبير من قواد لذريق ، فانكشف قلب جيشه ، وانهار خط دفاعه من أساسه . واضطر لذريق الى التراجع أمام دفع جيش طارق ومن انضم اليه من أصحاب « يليان » وأنصاره ، وأعمل فيهـــم السيف وأذرع فى جيش لذريق القتل على ضفاف البحيرة . وهلك لذريق ، وقيل أنه مات غريقا بالبحيرة ، اذ عثر المسلمون عــلى فرسه الأشهب غاطسا فى طين البحيرة ، وعليه سرج مكلل بالياقوت والزبرجد ، كما وجدوا أحد خفيه . وهكذا حسمت موقعة البحيرة مصير اسبانيا فى العصر الوسيط .

وكان موسى قد أمر طارقا أن يتوقف فى الفتح عند هذا الحد ، فلا يوغل فى تقدمه الى أكثر من ذلك . ويغلب على الظن أنه كـــان يود أن يلحق به لينال نصيبا من شرف الفتح . الا أن طارقـــا لم يصبر على البقاء ، خاصة بعد أن تفتحت له أبواب الأندلس على مصاريعها . ونسى فى نشوة النصر ، وبين مظاهر الحماسة التى فاضت فى نفوس جنوده ، تعليمات مولاه ورئيسه موسى بن نصير ، فرأى أن يستغل هزيمة القوط ، فيطاردهم ويفتتح معاقلهم قبل أن يتجمع شملهم من جديد . فعزم على الاستمرار فى الفتح ، وتقدم الى مدينة شذونة فافتتحهـــا عنوة ، وغنم غنائم لا يدركها الحصر . ثم استولى على مدور وقرمونـــة ، وسار فى فج ، عرف باسم فج طارق .

ومازال طارق يوغل فى البلاد ـــ وقد ملأ الخوف قلـــوب القوط ، و « يليان » يكشف له العورات والثغرات ـــ حتى أدرك قرطبـــة أعظم مدن الأندلس • فنصحه « يليان » أن يوزع جيوشه الى سائر أنحـــاء الأندلس ، وأن يتقدم هو الى طليطلة دار ملك القوط • فوزع طـــارق جيوشه كما نصحه « يليان » : فبعث مغيثا الرومى ، مولى الوليد ، الى قرطبة فى سبعمائه فارس ، وبعث جيشا آخر الى استجة ، وثالثـــا الى مالقة ، ورابعا الى البيرة ••• أما هو فسلك طريقه الى جيان فافتتحها، ثم تقدم منها فى قلب اسبانيا يريد طليطلة • فلمـــا انتهى اليهـــا ألفاها خالية ، قد فر عنها « سندرد » رئيس الكنيسة الاسبانية الى رومة ، كما فر أهلها عنها • فتركها ليطارد فلول الحجارة حتى بلغ مدينة المائدة خلف الجبل •

وبلغت موسى أخبار الفتح ، فغضب لعصيان طارق لأوامره • وقيل انه خاف أن يقطع القوط على طارق خط الرجعة فهنض من القيروان فى أنه خاف أن يقطع القوط عل ىطارق خط الرجعة ، فنهض من القيروان فى عام ٩٣ هـ ، واستخلف عليها ولده عبد الله ، وعبر المجاز فى عسكر ضخم سنة ٩٣ هـ ، وسلك فى حملته طريقا آخر غير طريق طارق ، فاستولى فى طريقه على اشبيلية ولبلة وماردة وباجة • وكتب الى طارق يأمره بمقابلته فى طلبيرة •

وقيل انه وافى طارقا بمدينة استرقة • فلما رآه طـــارق ، نزل عن فرسه اجلالا له وتعظيما • فأهانه وغض من قدره أمام عساكره • وزعموا أنه وبخه على استبداده عليه ، ومخالفته لرأيه ، وضربه بالسوط • وقيل أنه شد وثاقه وحبسه ، وهم بقتله ••• غير أن هذه المزاعم والأقـــوال لا يمكن أن تصدر من موسى بن نصير التابعى ، وقـــد تكون قـــد لفقت لتبرير ما لقيه موسى بن نصير من عقاب سليمان بن عبـــد الملك له بعد

ذلك • والأرجح أنه عاتبه فى رفق على تسرعه فى اقتحـــام الأندلس من وسطها دون السيطرة على شرقيها وغربيها •

وذكر المؤرخون أن موسى طالبه برد ما غنمه من ذخائر وتحف ••• خاصة المائدة المعروفة بمائدة سليمـــان ، وكانت مصوغة من الـــذهب الخالص ، مرصعة بروائع الدر والياقوت والزمرد • فأتاه طارق بها ، بعد أن خلع من أرجلها رجلا وخبأها لديه • فسألــــه موسى عنهـــا ، فتظاهر بالجهل ، واحتج بأنه أصابها كذلك • فأمر موسى بأن تصنع لها رجل من الذهب تختلف عن سائر أرجلها •

وأقام موسى بعض الوقت فى طليطلة ، وبعث الى الوليد رسولين من قبله : هما مغيث الرومى ، وعلى بن رباح التابعى ، يخبر انه بما ظفر به جيش المسلمين من نصر وفتح • وذكر ابن حيان أن موسى اصطلـــح مع طارق ، وأظهر الرضا عنه ، وأمره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه فى جيشه ، ثم تبعه موسى بجيشه • فارتقى طارق الى الثغر الأعلى ، وافتتح سرقسطة عام ٩٦ هـ (٧١٤ م) وأوغل فى البلاد ، وغنم غنائم ضخمة • ثم اتجه نحـــو لاردة متبعا الطريـــق الرومانى الـــذى يربط سرقسطة ببرشلونة ، ثم تصل بعد ذلك بالطريق المؤدى الى أربونة عـــلى ساحل البحر الأبيض •

وأشرف القائدان على الأرض الكبيرة ، وبعثا السرايا الـــى بلاد افرنجة ، فاستولت على برشلونة وأربونة وصخرة اينيون وحصن لودون على وادى ردونة (نهر الرون) وخطر لموسى أن يعـــود الى المشرق عن طريق أوربا من جهة القسطنطينية • وفى هذا الوقت ، الذى خطرت فيه لموسى متابعة فتوحه فى قلب أوربا ، وصل مغيث رسول الخليفة اليه يأمره بالكف عن الفتح والقفول اليه فى صحبة طارق بن زياد • فلاطف موسى مغيثا ، وسأله امهاله بعض الوقت حتى يتيسر له فتح جليقيـــة التى لم

يبق سواها من أراضى اسبانيـا لم تطرقـه جيوش المسلمين • فوافقه مغيث على ذلك •

وعهد موسى الى طارق بمتابعة الطريق الرومانى الذى يصعد من سرقسطة الى وادى نهر ابرو ، واختار هو طريقا آخر يؤدى الى جليقية ونجح طارق فى الاستيلاء على ولايـة أرغون ، وخضع له أمـير هذه المقاطعة ، ويعرف بفرتون جد أسرة بنى قسى ، حكام تطيلة والثغر الأعلى فى عهد أمراء بنى أمية • واعتنق فرتون الاسلام حتى يحتفظ بأمـواله وأملاكه • وتقدم طارق الى الشمال الغربى واستولى على أماية وليون واسترقة •

أما موسى فاتبع الضفة اليمنى لنهر ابرو ، ثم انحرف نحو منطقة سوريا وأعالى نهر دويرة • ثم اندفع شمالا فى بـلاد أشتوريش نحو خيخون وأوفييدو ، واستولى على حصن بارو وحصن لك ، وبث السرايا حتى أدرك صخرة «بلاى» التى لاذ بها «بلايو» (Pelayo) **قائد القوط**•

وبينما موسى يطهر هذه المنطقة الجبلية من المقاومـة القوطية ، اذ قدم عليه رسول آخر من قبل الخليفـة ــ يكنى أبا نصر ــ أردف بـه الوليد مغيثا عندما استبطأ موسى فى العودة الى الشـام • وكتب اليه يونجه ، ويأمره بالخروج • فخرج موسى على الفـج المعروف باسمه ، ووافاه طارق فى الطريق ، منصرفا من الثغر الأعلى ، فمضيا معا عائدين الى اشبيلية ، فاستخلف فيها ابنه عبد العزيز على امارة الأندلس •

وعبر القائدان المجاز الى افريقية يحملان معهما الغنائم ، ويجران خلفهما موكبا من قواد المسلمين ورؤساء القوط المغلوبين ، حتى وصـلا

الى الشام بعد وفاة الوليد وخلافة سليمان • وكان سليمان غاضبا عليه لتعجله فى الوصول الى الشام ، وتسليمه الغنائم العظيمــة التى غنمها المسلمون فى الأندلس للوليد قبل وفاته مباشرة •

وقيل أن طارقا سبق موسى الى سليمان ، ورماه بالخيانة فلما مثل موسى بين يدى سليمان ، سأله عن مائدة سليمان ، فأحضرها ، فقال له : زعم طارق أنه الذى أصابها دونك • قال : لا ، وما رآهــا قط الا عندى فقال طارق : فليسأله أمير المؤمنين عن الرجل التى تنقصها فسأله ، فقال: هكذا أصبتها ، وعوضتها برجل صنعتها لها • فحول طارق يده الى قبائله فأخرج الرجل فعلم سليمان بصدق طارق وكذب موسى ، فعزله عن جميع أعماله ، وأقصاه وأغرمه مالا كثيرا • ومات موسى بوادى القرى بعد أن قضى أيامه الأخيرة فى أسوأ حال •

أما طارق بن زياد ، فقد انقطع خبره بعد ذلك ، ولم نعد نعرف من أمره شيئا ، اذ صمتت المراجع العربية عن تزويدنــا بأخبار عنــه منذ وصوله الى الشام • وما زال الغموض التام يكتنف هذا الفصل الأخير من حياته • ولكننا نرجع أنه أقام فى بلاط سليمان بعد أن غمره بالجوائز لوشايته بموسى • ولكن اسمه ما زال يطلق حتى اليوم على مدينة أقيمت على سفح جبل الفتح تعرف اليوم بمدينة جبل طارق •

الحـــــكم الربضى

(ولد عام ١٥٤ ، ومات عام ٢٠٦ للهجرة)

هو أبو العاصى الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الـــداخل ، ثالث أمراء بنى أمية فى الأندلس . ولد عام ١٥٤ هـ (٧٧٠ م) . وكانت أمه « زخرف » أم ولد اسبانية الأصل . ولما مات أبوه هشام فى ٣ من صفر عام ١٨٠ هـ (١٧ من ابريل عام ٧٩٦ م) ، بعد أن حكــم ما يقرب من سبعة أعوام ، تولى الامارة ثانى أبنائه ، أبو العاصى الحكـــم ، وهو فى السادسة والعشرين من عمره ، بدلا من ابنه الأكبر عبد الملك ... اذ كان هشام قـــد اختاره وليا لعهـــده .وتمت بيعتـــه فى ١٤ من صفر عام ١٨٠ هـ .

وافتتح الحكم عهده بمحـــاربة عميه : عبد اللـــه وسليمان اللذين تنازعا من قبل مع أبيه هشام عند توليه الامارة (١) ، وكانا قد خـــرجا الى بر العدوة من بلاد المغرب ، واستقر سليمان بطنجـــة ، فى حين آثر عبد الله التنقل فى بلاد المغرب ، وزار ابراهيم ابن الأغلب فى القيروان، وعبد الوهاب بن رستم الخارجى فى تاهرت .

ثم علم عبد الله ــ وهو فى بلاط الرستميين ــ بوفاة أخيه هشام الرضا ، فكر راجعا الى الأندلس ، قبل أن يعبر اليها أخـــوه سليمان ، واتجه الى الثغر الأعلى حيث عام ما يضمره الأهالى هنـــاك من كراهية للأمير الحكم بن هشام ... الا أنه لم يجد هناك من يؤيده فى عزل الحكم وتوليته مكانه . وباءت جهوده بالفشل ، فرحل مع ابنيه : عبيد الله وعبد الملك ، عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ، الى بلاد افرنجـــة (فرنسا) ، وقـــابل قارله (شارلمان) فى اكس لاشابل ، وحثه على مهاجمة الأندلس ، ثم

عاد الى الأندلس ، واستولى على حصن وشقة عام ١٨٤ هـ (٨٠٠) ولكن بهلول بن مرزوق أنزله عنه .

ووجد عبد الله تأييدا له عند أهالى بلنسية ، فأقام بها شبه مستقل عن قرطبة ، بعد أن عفا عنه الحكم ، وصالحة مقابل بقائه طول حياته ببلنسية . وبالفعل قضى عبد الله بن عبد الرحمن الداخل بقية حياته فى بلنسية ، حتى أنه عرف بعبد الله البلنسى . وهو الذى أقام ربض الرصافة ببلنسية .

وظل عبد الله قائما بمملكة بلنسية ، موفيا لشروط الحكم ، حتى مات عام ٢٠٨ هـ (٨٢٣ — ٨٢٤ م) . وكان قد بعث بابنيه الى الأمير مبالغة منه فى الوفاء بعهده ، فزوجهما الحكم ابنتيه عزيزة وأم سلمة ، وولى الحكم ابن أخيه عبيد الله قائدا لجيشه ، وصاحب الصوائف فيه ، فتوجه الى برشلونة ، وانتصر على جيوش القطلانيين انتصارا اختال له الاسلام فى الأندلس .

أما سليمان بن عبد الرحمن الداخل ، فقد جاز الى الأندلس فى العام التالى لتولى الحكم بن هشام الامارة ، ونهض فور وصوله الى قرطبة ، بعد أن جمع فرقة من الجنود المرتزقة فى أثناء سيره اليها ، وتقابل جيشه مع جيش الحكم عدة مرات ، وفى كل مرة كان لا يلقى سوى الهزيمة ... ولما حاول سليمان اثارة أهالى ماردة على الحكم ، هزمه حاكم هذه

---

(١) لما علم سليمان بولايته عام ١٧٢ هـ — وكان بطليطلة — حشد الجنود ، وقصد قرطبة — وبرز اليه هشام — وكان اللقاء قرب جيان — فانهزم سليمان ، ولكنه عاود الاشتباك ، فتتكررت هزيمته ، فعاد الى طليطلة وفى الوقت نفسه لحق به أخوه عبد الله . وحاول هشام منازلتهما ، ولكنه آثر الصلح معهما ، فصالحهما بستين الف دينا ... على أن يخرجا بأهلهما وأولادهما عن الاندلس الى عدوة المغرب .

المدينة ـــ وهو أصبغ بن ونسوس البربرى ـــ هزيمة نكراء ، وانكب به فرسه ، وسيق أسيرا • وجاء رسول من الحكم بقتله ، فقتل وشهر رأسه فى شوارع قرطبة ، ثم أمر الحكم بدفنه فى روضة القصر بالقرب من قبر أبيه عبد الرحمن الداخل •

وهكذا كان الحكم ملكا شديد الحـــزم ، ماضى العزيمة ، عظيـــم الصولة ، حسن التدبير • وكان أفحل أمراء بنى أمية ، وأشدهم اقداما ونجدة وصرامة وأنفة وأبهة وعزة • وهـــو أول من اتخـــذ المماليك من الصقالبة ، وكان يسميهم الخرس لعجمتهم • وبلغ عدد مماليكه خمسة آلاف مملوك • وكان يشبه بأبى جعفر المنصور فى شدة البأس ، وتوطيد الدولة ، وقمع الأعداء • ومع ذلك كله كان الحكم عـــادلا بين رعيته ، متخيرا لحكامه وعماله ، مثاغرا فى سبيل الله • واستطاع بفضل هـــذه الصفات جميعا أن يطفىء نيران الفتن بالأندلس ، ويقضى عـــلى ثورات المولدين فيها •

ويذكر المؤرخون أنه كانت له ألفا فرس ، مرتبطة على ضفة الوادى الكبير بجانب قصره ، « يجمعها داران ، على كل دار عشرة عرفاء ، تحت يد كل عريف مائة فرس •••فالعرفاء يشرفون عليها وتعلف على أيديهم»، ويجعلونها على أهبة الاستعـــداد للرحيل والاغارة • وكـــان له عيون يطالعونه بأحوال الناس ، فاذا أنمى اليه البريد خبرا بقيام ثورة ضده، عاجل الثوار قبل أن يعدوا عدتهم ، وفاجأهم بالمحاربـــة والقتل حتى يقضى على الثورة فى مهدها •

وعلى هذا النحو استطاع الحكم أن يقضى عـــلى ثورتين كبيرتين كادتا تطيحان بامارته : الأولى هى ثورة المولـــدين بطليطلة التى حدثت عام ١٨١ هـ (٧٩٧ م) ••• وذلك أنهم كـــانوا يستخفون بولاتـــهم ،

ويميلون الى الثورة على أمراء بنى آمية ، والانفصال عن سلطان قرطبة • وعرف الحكم كيف يوقع بهم ، اذ استقدم عمروس المولد من وشقة ، وولاه على طليطلة حتى يطمئن اليه سكانها المولدون •

وأخذ عمروس هذا يتظاهر أمامهم بكراهيته للأمير ، وبغضه لـه حتى أنسوا اليه ، وأمنوا جانبه ، فبنى قصبة فى وسط طليطلة ، وأقام فيها حفلا دعا اليه وجوه طليطلة وزعماءها وكبار رجالها ••• فحضروا، وأوهمهم أنهم اذا انتهوا من تناول الطعام والشراب ، انصرفوا من باب غير الباب الذى دخلوا منه ، ووقف السيافون على شفير حفرة بداخل القصبة ، وأخذوا يتلقون كل من دخل منهم فيضربون عنقه ، حتى قتل خمسة آلاف وثلثمائة فلانت بعد ذلك شوكة طليطلة طـوال عهده وعهد ابنه عبد الرحمن الأوسط من بعده •

والثورة الثانيـــة : هى ثورة أهـل الربض بقرطبة عـام ٢٠٢ هـ (٨١٧ م) • وكانت السبب فى تلقبه بالحكم الربضى ذلك أن أباه هشاما كان تقياً زاهدا ، وكان يذهب بسيرتـه مذهب عمر بن عبـد العزيز فى صلاحه وورعه ، وانصرافه عن الدنيا لصلاح رعيته وخيرها • وكان من الطبيعى أن يرتفع شأن الفقهاء ورجال الدين فى عهـده ، فأحاط الأمير نفسه بهم ، واستسلم لهم ••• فعظم نفوذهم وقوى شأنهم ، واستولوا على أعظم مناصب الدولة ، وتجاوزوا حدودهم •

فلما تولى الحكم الامارة ، حاول أن ينتزع منهم سلطتهم ، ويسلبهم ما كانوا يتمتعون به فى عهد أبيه ، ويكف أيديهم عن التدخل فى شئون دولته فانقلبوا عليه ، وسخطوا من تصرفاته ، واستغلوا نفوذهم الروحى فى اثارة الناس على الأمير •

وبلغ من استخفاف أهل الربض بقرطبة بالحكم ، أنهم كانوا ينادونه ليلا من أعالى صوامعهم : « الصلاة الصلاة يامخمور » ، وكانوا يعرضون به فى الصوامع أثناء الليل بقولهم : « يا أيها المسرف المتمادى فى طغيانه، المصر على كبره ، المتهاون بأمر ربه : أفق من سكرتك ، وتنبه من غفلتك • وتحت تحريض الفقهاء ، أنكر الناس على الأمير أشياء كثيرة ، وأرادوا خلعه ، وقصدوا الى ابن عم له ، يعرف بابن الشماس ، من ولد منذر بن عبد الرحمن — وقيل محمد بن قاسم — وتفاوضوا معه فى ذلك ، وأرادوا تقديمه وخلع الحكم فأظهر لهم القبول ، وعرف منهم كل تفاصيل المؤامرة وأعضاءها ، وأبلغ ذلك الى الأمير ••• فقبض الأمير على ٧٢ من كبار المتآمرين ، وصلبهم عام ١٨٩ هـ • وكان من بينهم الفقيه يحيى بن مضر اليحصبى ، وموسى بن سالم الخولانى وولده •

وكان الجو وقتئذ مشبعا بالسخط على الأمير ينذر بالخطر وازداد هذا الشعور بالسخط بفضل تحريض الفقهاء الناس على الثورة • ومن بين هؤلاء الفقهاء : يحيى بن يحيى الليثى ، وطالوت بن عبد الجبار ، وعيسى بن دينار • وأنكر الناس على الأمير اطلاقه يد ربيع القومس ، متولى المعاهدين بالأندلس من النصارى ، وكان حظيا فى رجاله ، سوغه فرض المغارم على المسلمين •

وحدث فى ١٣ من رمضان عام ٢٠٢ هـ (٢٥ من مارس عام ٨١٨ م) حادث بسيط ، أشعل — كالشرارة التى تحدث أشد الحرائق — نار الفتنة بين سكان الربض بقرطبة • فقد قتل أحد مماليك الأمير غلاما : فغلت مراجل غضبهم ، وانفجرت براكين أحقادهم على الأمير ••• وكأنما كانوا يرتقبون هذا الحادث ، فهبوا مرة واحدة ، وتجمعوا على مملوك الأمير فقتلوه ، وخرجوا يهتفون بخلع الأمير • وأول من شهر السلاح ضده أهل الربض القبلى بعدوة النهر ، ثم ثار أهل المدينة والأرباض • وتحصن الأمويون وأتباعهم فى القصر ، وتولى الدفاع عن القصر الأميرى قائدان

عظيمان هما : عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث ، وفطيس بن سليمان. وارتقى الحكم السطح ، وأظهر شجاعة نادرة فى مثل هذا الموقف ... فقد دعا — والقتال يدق أسفل قصره — بقارورة من العطر ، فجاءه بها الخادم ، فأفرغها على رأسه ، فلم يملك الخادم نفسه أن سأله : « وأية ساعة طيب هذه ؟ » فقال له الحكم : « اسكت لا أم لك ! ومن أين يعرف قاتل الحكم رأسه من رأس غيره ؟.. » .

وكان لابد للحكم أن يلجأ الى ذكائه ودهائه ، فبعث رجلـين من رجاله الذين يثق بهم ، هما : صاحب الصوائف عبيد اللـه بن عبد الله البلنسى ، واسحق بن المنذر ، على رأس فرقة من الفرسان الى الربض لاشعال النار فى مساكن الثائرين ، وأبقى لحمايته بالقصر فرقة أخرى من جيشه . ونجح عبيد الله فى عبور النهر دون علم الثوار ، والالتفاف حولهم من جهة الربض ، واشعال النار فى بيوتهم . فلما شاهد الثوار ما حدث لبيوتهم ، بادروا بالعودة لانقاذ أولادهم ونسائهم ... وبينما هم يعبرون قنطرة قرطبة ، دهمتهم الخيل من أمامهم ، وتلقاهم حرس القصر من خلفهم ا وانقضوا عليهم يفتكون بهم ، فقتل منهم عدد كبير . واستطاع الحكم أن يقبض على نحـو ٣٠٠ منهم صلبهـم على النهر واستطاع بعض الفقهاء الفرار الى طليطلة ، أمثـال يحيى بن يحيى ، وطالوت بن عبد الجبار . ولما كان اليوم التالى ، أمر الحكم بهدم الربض القبلى ، ودكه حتى صار مزرعة ... ولم يعمر طول مـدة بنى أمية ، وتتبع دور الثوار بالهدم والاحراق . .

وبعد ثلاثة أيام ، أمر برفع القتل والأمان ، على أن يخرج أهـل الربض من قرطبة .. فذهب فريق منهم إلى بلاد المغرب ، ونزلوا بمدينة فاس التى كان قد أسسها ادريس بن عبد الله بن الحسن ، وأقاموا بالحى المعروف اليوم بحى الأندلسيين . أما الفريق الآخر — ويقرب عدده من

١٥ ألفا ــ فقد اتجهوا بحرا الى الاسكندرية ، واستولوا عليها فزحف اليهم عبد الله بن طاهر بن الحسين ، والى مصر من قبل المأمون ، واتفق معهم على الجلاء عنها ، وأعانهم بسفنه على المجاز الى جزيرة اقريطش فاستولوا عليها ، وأقاموا فيها دولة عرفت بالدولة الكلبية .

وهكذا أذعنت له الأندلس بالطاعة ، بعد أن قضى سنين طويلة فى اخماد الثورات والفتن ، مما أتـــاح الفرصة للممالك المسيحية بشمال اسبانيا أن تعيث فى ثغور المسلمين . ففى عام ١٩٢ هـ (٨٠٧ م) جمع لذريق بن قارلة ، ملك الفرنجة ، جيوشه ، وسار الى حصار طرطوشة . فبعث الحكم ابنه عبد الرحمن فى عسكره ، فهزمه ، وعاد جيش الحكم ظافرا . وفى عام ٢٠٠ هـ (٨١٥ م) ، أرسل حملة بقيادة عبد الكريم بن عبد الواحد الى جليقية : فهدم الحصون ، وانتسف المعـــاقل ، وعاد جيشه الى قرطبة منتصرا .

وكان الحكم الربضى رغم فظاظته وقسوته ، وسفكه للدماء ، شاعرا مطبوعا .. فمن قوله بعد موقعة الربض :

رأبت صدوع الأرض بالسيف راقعا
وقدما لأمت الشعب مذ كنت يافعا
فسائل ثغورى : هل بها اليوم ثغرة
أبادرها مستنضى السيف دارعا
وشافه ، على الأرض الفضاء ، جماجما
كأقحاف شريان الهبيــد لواسعا
تنبيـــك أنى لم أكن فى قراعهـــم

بوان ، وأنى كنت بالسيــف قارعا

وأنى اذا ماحادوا سراعا عــن الردى

فما كنت ذا حيد عن المــوت جازعا

حميت ذمارى فاســتبحت ذمارهم

ومن لا يحامى ظل خزيان ضارعا !

فهــذى بلادى ... اننى قد تركتهــا

مهــادا ، ولم أترك عليهــا منــازعا

وقال فى جوار كان مغرما بهن :

ظل مــن فرط حبــــه ممــلوكا

ولقــد كان قبــل ذاك مليكــا

ان بكى أو شكا الهوى زيد ظلما

وبعــادا يدنى حمــاما وشيــكا

وقال يتغزل :

قضب من البان ماست فوق كثبــان

ولين عنى ، وقد أزمعن هجــرانى

من لى بمغتصبات الروح من بدنى

يغصبننى فى الهوى عزى وسلطانى ؟

ومرض الحكم الربضى فى أواخر أيامه ، ومات فى أواخر عام ٢٠٦هـ (٨٢١ م) .

عبـــد الرحمن الأوسط

(ولد عام ١٧٦ ، ومات عام ٢٣٨ للهجرة) .

هو أبو المطرف عبد الرحمن ، الابن الأكبر للحكـــم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل . ولد بطليطلة فى شعبان سنة ١٧٦ هـ . وذكر ابن حزم فى « نقط العروس » أن أبـــاه عنى بتعليمه وتخريجـــه فى العلوم الحديثة والقديمة ، وعهد اليه بولاية العهد باعتبـــاره أكبر أولاده ، ثم لأخيه المغيرة من بعده ، فلما توفى الحكم عام ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) قـــام بالأمر بعده الأمير عبد الرحمن ، وهو فى سن الثلاثين .

واكتسب عبد الرحمن كثيرا من صفات أبيه وجده ، فكان وسطا بين العنف واللين . وقد أثرت نشأته وتربيتـــه الأولى فى تكوين شخصيته : فكان رجلا على مستوى عال من الثقافة والعلم ، وكان عالمـــا متبحراً فى علوم الشريعة والفلسفة . وكان عهده عهد سلم ورخـــاء : اختص فيه العلماء ورجال الفن والأدباء ، وأقام القصور والمنتزهات ، وأجرى اليها المياه من الجبال ، وبنى الجسور ، وشـــيد المساجد فى جميع أنحـــاء الأندلس ، وأسس مدنا اسلامية كمرسية والمرية ، ورتب رسوم المملكة ، واتخذ للوزراء قصرا داخل قصره ، وكان يجتمع بهم متى أراد ذلك .

وعبد الرحمن الأوسط أول من فخـــم السلطنة بالأنـــدلس ، وهو أول من أحدث بقرطبة دار السكة ، وضرب النقود باسمه ، ولم يكن فيها ذلك منذ افتتحها العرب ، وعرفت أيامه بأيام العروس لكثرة الخيرات .. وهكذا سمت الحياة فى الأندلس وارتقت الحضارة ، وأصبحت الأندلس فى عداد الدول العظمى فى العالم .

ويتسم عصر عبد الرحمن بتقدم الحركة العلمية فى البلاد : اذ كان مكرما للعلماء ، محسنا اليهم • وكان يرحب بمقدم العلمـاء المشارقة ، وأهل الأدب والفن ممن ضـاق المشرق بمواهبهـم • واستجلب الى الأندلس روائع التحف التى كانت فى قصور بغداد عند خلع الأمين : مثل عقد الشفاء ، وأعلاق زبيدة بنت جعفر • وكـان ذلك سببـا فى تحول المجتمع الأندلسى ، القائم على أخلاط بشرية غير منظمة ، الى مجتمـع منظم مظهره ، مصقولة صورته • واتخذت الحضارة الأندلسية طـابعا أندلسيا تميزت به بعد أن كانت صورة خليطا من حضارات متباينة •

وتألقت فى عهده عدة شخصيات كان لها أثر كبير فىالتقدم الحضارى الذى أصابته الأندلس على يديه • وأولى هذه الشخصيـات البارزة : شخصية الفقيه المحدث يحيى بن يحيى الليثى • ويقال أن أصلة من بربر مصمودة •

وكان أهل الأندلس ، منذ الفتح الاسلامى ، على مذهب الامـام الفقيه الأوزاعى الشامى ••• حتى عهد الحكم الربضى بن هشـام : اذ انتقلت الفتوى الى رأى مالك بن أنس ، فانتشر مذهب مالك فى المغرب والأندلس على يدى زياد بن عبد الرحمن اللخمى ، المعروف بشبطون ، المتوفى عام ٢٠٤ هـ (٨١٩ م) ، أول من أدخل مذهب مالك فى الأندلس• فروى يحيى بن يحيى الموطأ المالكى بقرطبة عن زياد ، وسمع من يحيى بن مضر القيسى الأندلسى • ثم رحل الى الحجاز ، وهو فى سن الثامنة والعشرين ، فسمع من مالك بن أنس بالمدينة ، وسمـع بمصر عن الامام الليث بن سعد •

ولما عاد الى قرطبة ، فى عهد الأمير هشام ، تولى الرياسة فى الفقة والقضاء ، وروى عنه كثيرون • ونال يحيى مكانة سامية لـدى الأمير وأصبح أمام عصره ، بيده تعيين القضاة فى مدن الأندلس • ويقول ابن

حزم : انه كان لا يشير فى اختيار أحد الا من كان على مذهبه « والناس سراع الى الدنيا ، فأقبلوا على ما يرجون بلوغ أغراضهم به » . وأصبح للفقهاء مكانة عظيمة فى الأندلس فى عهد هشام ، اذ استسلم لهم الأمير. وقد بلغ من نفوذهم أنهم ثاروا على الأمير الحكم الربضى عندما أراد أن يحد من هذا النفوذ . وكان يحيى بين من اتهم باثارة الناس على الحكم فى وقعة الربض المشهورة (رمضان عام ٢٠٢ هـ) ، ففر الى طليطلة ، ثم استأمن فكتب له الأمير الحكم أمانا ، وبذلك عاد الى قرطبة .

وتمكن يحيى من استعادة نفوذه فى عهد عبد الرحمن الأوسط ، واستبد بالأمير . ومن الأمثلة التى تدل على ذلك أن الامير عبد الرحمن أحب جاريه فى شهر رمضان ، ثم ندم على ذلك أشد الندم ، فجمع الفقهاء فى قصره وسألهم فى التوبة والكفارة ، فقال يحيى : « تكفر بصوم شهرين متتابعين » . فلما بادر يحيى بهذه الفتوى سكت الفقهاء ، حتى خرجوا فقال بعضهم له : « لم لم تفت بمذهب مالك فى التخيير ؟ » فقال : « لو فتحنا له هذا الباب ، سهل عليه أن يطأ كل يوم ويعتق رقبة، ولكنى حملته على أصعب الأمور حتى لا يعود الى ذلك » .

وتوفى يحيى فى رجب سنة ٢٣٤ هـ (٨٤٨ م) . وتلى شخصية يحيى بن يحيى ، من حيث المكانة ، شخصية أخرى معروفة : وهى شخصية المغنى الحسن بن على بن نافع ، المعروف بزرياب ، وهو من أعظم شخصيات هذا العصر وأجلها قدرا . وقد ترجمنا له عند حديثنا عن فن الغناء والموسيقى فى الأندلس .

قدم الى الأندلس سنة ٢٠٦ هـ (٨٢١ م) من العراق ، وركب الأمير عبد الرحمن الأوسط بنفسه لاستقباله وتلقيه ، وبالغ فى اكرامه ، وفتح له فى قصره بابا خاصا يستدعيه منه متى أراده . وقد أحدث زرياب ثورة

كبرى فى تاريخ الموسيقى الأندلسية : اذ ابتكر وترا خامسا فى العود ، وجدد فى الألحان تجديدا لم يسبقه فيه أحد ، وابتكر مضربا للعود من قوادم النسر ، وأدخل لأول مرة نظـام المجموعـات المنشدة فى الغناء (الكورس) •

ولم تشمل ثورة زرياب الموسيقى فحسب ، بل امتدت الى كل مـا يتصل بالحياة الاجتماعية فى الأندلس : من ذلك أنه عود أهل الأندلس على استخدام آنية الزجـاج الرقيقة بدلا من آنيـة الذهب والفضة ، واتخاذ فرش أنطاع الأديم اللينة الناعمة على ملاحف الكتان ، وارتداء أنواع شتى من الملابس تبعا لفصـول السنة • ثم أنه ىبتكر نوعـا من المأكولات يسمى النقايا ، وابتدع طرقا غريبة فى طهو الطعام مـا زال بعضها مستخدما اليوم فى الأندلس • واستحدث وسائل جديدة فى تصفيف الشعر : فقد كان الرجل والمرأة ، قبل قدومه ، يرسل جمته مفروقا وسط الجبين عاما للصدغين والحاجبين ، فعمد هو الى تهذيب شعره وشعر بناته وزوجاته ، وتقصيره دون الجباه ، وتسويته مع الحواجب ، ثم استدارته الى الآذان واسداله الى الأصداغ ••• فلمـا عاين الناس منـه ذلك استحسنوا طريقته وقلدوه •

وجمع زرياب الى ما سبق من خصال : لطـف المعاشرة ، وفنون الأدب وكان مجيدا لآداب المجالسة والمحادثة ، ماهرا فى خدمة الملوك ، حتى أن أمراء الأندلس اتخذوه قدوة فيما سنة لهم من آداب •

والشخصية الثالثة التى كـان لها أثر كبـير فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، هى شخصية يحيى ابن حكم البكرى الملقب بالغزال ، يرتفع نسبه الى بكر بن وائل ، فهو ينتسب الى أعظم البيوتات العربية • وكان يحيى أحد شعراء الأندلس المطبوعين الذين اتخذوا من نظم الشعر فنا : لا لكسب قوته ، وانما لاشباع هوايته ، فكان لا يتردد فى أن يقول رأيه

عن الناس صراحة ، حتى سبب لنفسه من جراء ذلك متاعب جمة •

وكان الغزال — الى جانب ما اتصف به من شرف النسب ، وقدرته على نظم الشعر — فتى جميل الوجه ، أنيق المظهر ، لطيف المعشر • كما كان يتصف برقة الحديث ، وفصاحة اللسان ••• حتى انهم لقبوه بالغزال لكمال قوامه ، ورشاقة جسمه • وكان ذلك سببا فى اختيار الأمير عبد الرحمن له سفيرا عنه الى الملوك • وبعثه فى سفارة كبرى الى ملك القسطنطينية ، نوفلس الذى أرسل الى عبد الرحمن سنة ٢٢٥ هـ (٨٤٠ م) بهدية يطلب مواصلته • كما بعثه سنة ٢٣١ هـ (٨٤٥ م) فى سفارة الى «تورجابوس» ملك النورمانديين بايرلندا ، الذى كان قد أرسل سفارة الى الأمير عبد الرحمن اثر هزيمة النورمانديين فى اشبيلية يطلب فيها ماهدنته • وقد اظهر يحيى الغزال من سعة علمه وكياسته وحججه ما أثار اعجاب الملك والملكة • واستغرقت سفارته لدى ملك النورمانديين شهرين ، ثم عاد بعدها الى قرطبة •

ونختتم هذه الشخصيات بشخصية هامة فى بلاط الأمير عبد الرحمن الأوسط ، هى شخصية « طروب » جاريته وأم ولديه : محمد ، الذى تولى الامارة بعده ، وعبد الله الذى وليها بعد المنذر • وكلف بها عبد الرحمن وأحبها حبا ملك عليه نفسه •

و« طروب » هذه واحدة من جاريات شماليات كثيرات أحبهن عبد الرحمن ، مثل « مدثر » و« الشفاء » و « فلة » ••• وأغلبهن صقلبيات أو بشكنسيات • وكان اتخاذ بنى أمية للجاريات الشماليات أمرا شائعا لجمالهن وشقرتهن ، مثل ذلك أن السيدة « صبح » البشكنسية ، أم الخليفة هشام المؤيد ، كانت جارية للحكم المستنصر •

وكانت « طروب » تطمع فى ولاية ابنها محمد الامارة بعد أبية ، من بين أخوته من أبيه الذين يبلغ عددهم مائة وخمسين . وكانت تسعى من أجل ذلك الى المال حتى تستميل الناس اليها . أما الأمير عبد الرحمن فكان يعمل على ارضائها واكرامها ، ولكنها كانت تهجره وتصده عنها ، بل لم تتردد فى تدبير مؤامرة لقتله ،مستعينة فىذلك بفتاه نصر الصقلبى. وانكشفت المؤامرة ، وقتل فيها نصر ... ومع ذلك فقد كان الأمير يهيم بها وجدا ، ولا يحتمل أن تغيب عنه !

وقد روى بعض المؤرخين أن الأمير عبد الرحمن أغضبها مرة ، فهجرته ولزمت مقصورتها . فاشتاق لرؤيتها ، وجهد أن يترضاها ، فأعياه ذلك ، فأرسل من فتيانه من يكرهها على الوصول اليه . فأغلقت باب مجلسها فى وجوههم ، وآلت ألا تخرج اليهم طائعة ولو أدى ذلك الى قتلها . فانصرفوا وأعلموه بقولها ، واستأذنوه فى كسر الباب عليها . فنهاهم وأمرهم بسد الباب عليها من خارجه ببدر الدراهم ... ففعلوا ، وبنوا عليها بالبدر . وأقبل حتى وقف بالباب ، وكلمها مسترضيا راغبا فى المراجعة ، على أن يعطيها جميع ما سد به الباب ، فأجابت وفتحت الباب ، فانهالت البدر فى بيتها ، وأكبت على رجله تقبلها !

ومن الأحداث الشهيرة ، فى عصر عبد الرحمن الأوسط ، غارات النورمانديين على سواحل الأندلس . وكانوا يقبلون فى سفن ذات أشرعة سوداء ، ويرسون بها على الشواطىء ، فيقسمون رجالهم قسمين : قسما يعسكر على الشاطىء ، وقسما يغير على المدينة ، وينهب ما استطاع ويدمر كل شىء . وكان أول ظهورهم فى بسيط الأشبونة ، وتقدموا من هناك حتى مصب نهر الوادى الكبير ، وأغاروا على اشبيلية ، ففر الناس منها الى قرمونة . ثم أغار النورمانديون على فريش ولقنت وقرطبة ومورور ، ولم يجسر أحد من أهل الغرب على مقاتلتهم واستطاع عبد

الرحمن — بفضل جهود موسى بن قسى ، والى الثغر الأعلى — أن يهزمهم، وأجلاهم عن اشبيلية .

وقد نبهت غارات النورمانديين الأمير عبد الرحمن الى ضرورة اصطناع سياسة بحرية . فأمر باقامة دار الصناعة باشبيلية ، وأنشأ المراكب ، واستعد برجال من سواحل الأندلس ، فألحقهم ووسع عليهم، واستعد بالآلات والنفط . فلما أغار المجوس على اشبيلة عام ٢٤٤ فى أيام الأمير محمد ، تلقاهم أسطول الأندلس ، وهزمهم وأحرق مراكبهم. وكانت دار صناعة اشبيلية نواة لدور الصناعة الأندلسية بطركونة والمرية والجزيرة الخضراء ومالقة وميورقة ولقنت وشلب .

ومع أن عصر عبد الرحمن الأوسط كان يتسم بالهدوء والسلم ، فانه لم يتردد فى محاربة الممالك المسيحية بشمال اسبانيا . ففى سنة ٢٠٨ هـ أغزى حاجبه عبد الكريم عبد الواحد الى ألبة والقلاع ، فخرب كثيرا من حصونها . وفى سنة ٢٢٤ هـ بعث عبد الله بن البلنسى ، على رأس جيش ، الى ألبة فهزمه ملكها . وفى سنة ٢٣٠ هـ بعث جيشه الى جليقية : فحاصر مدينة ليون ، ورماها بالمجانيق . فهرب أهلها عنها وتركوها ، فغنم المسلمون ما فيها وأحرقوها .

وتوفى عبد الرحمن الأوسط فى ربيع الآخر سنة ٢٣٨ هـ (٨٥٢ م) وكان من أعظم أمراء بنى أميه فى الأندلس الذين وضعوا الأسس الاولى فى النهوض بالحضارة الأندلسية . وكان عصره عصر ارتقاء وتقدم فى الثقافة والفن ظهرت آثاره فى العصور التالية .

عبـد الرحمن النـــاصر

(ولد عام ٣٠٠ ، ومات عام ٣٥٠ للهجرة)

هو أبو المطرف : عبد الرحمن النـــاصر لدين الله بن محمد بن عبد الله بن محمد بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل • تولى امارة قرطبة وعمره اثنان وعشرون عاما ، عقب وفاة جده الأمير عبـد الله بن محمد (٢٧٥ ــ ٣٠٠ ﻫ / ٨٨٨ ــ ٩١٢ م) •

أما أبوه ، محمد بن عبد الله ، فقد اتهم بالاشتراك فى مؤامرة ضد أبيه عبد الله ، فزج به أبوه فى السجن ، وهناك مات مقتولا بيد أخيـــه المطرف بن عبد الله • وقد نال المطرف جزاء جريمته ، اذ قتله أبوه عبد الله ، واحتضن حفيده اليتيم عبد الرحمن بن محمد ، وخصـــه بمحبته ورعايته ، وكان طفلا فى المهد لا يتجاوز عمره عشرين يوما •

ويغلب على الظن أن الأمير عبد الله كان يستشعر النـــدم لتسببه فى قتل ابنه محمد ، أفضل أبنائه عنده ، وآثرهم لديه ••• وكأنما أراد أن يكفر عن خطيئته فى حق ابنه القتيل ، فكرس حياتـــه لتنشئة حفيده اليتيم ، وأشرف على تربيته بنفسه ، وجعل له حجرة فى قصره • وكان يؤثره من دون بنيه ، ويومىء اليه ، ويرشحه لأمره ، ويقعده فى الأعياد والمواسم مقعده ، ويأمر بالسلام عليه ، وكان ذلك أبلغ دليل على اختياره وليا لعهده على الأندلس •

فلما مات الأمير عبد الله فى أول ربيـــع الأول عـــام ٣٠٠ ﻫ ، ظفر حفيده عبد الرحمن بن محمد بالامارة دون أعمامه وأعمام أبيه ، وكانوا أحق منه بالامارة شرعا ، ولكنهم تخلوا له عنها ، زاهدين فيها لما يحيط بها من أخطار • فقد كانت الأندلس اذ ذاك تجتاز مرحلة من أدق مراحل

تاريخها الاسلامى • وكثر المنتزون على السلطة المركزية ، فتفككت الوحدة السياسية وتمزقت • ورفع كثير من الثائرين من البربر والمولدين على أمير قرطبة راية الاستقلال فى كثير من المدن ، مثل : جيان التى استقل بها موسى بن ذى النون ، وببشتر معقل أسرة ابن حفصون المولدة . واشبيلية مقر حكومة بنى خلدون وبنى حجاج ، وبطليوس التى تحصن فيها عبد الرحمن بن مروان الجليقى ، وباجة قلعة عبد الرحمن بن سعيد بن مالك •

وكان اعتلاء الامارة بقرطبة ، لذلك كله ، أمرا محفوفا بالمكاره والأخطار • وكان الظن أن مصيرها سيئول حتما الى الزوال ، فزهد فيها من هم أحق بها من بيت بنى أمية • وتعلقت آمالهم بهذا الشاب اليتيم الذى كان يتدفق شبابا ، ويشتعل قومية ، ويتوقد حماسة ، فى توطيد دولة الاسلام بالأندلس • وهكذا تهيأت لهذا الفتى الامارة من حيث لايدرى ، واصبح أمير قرطبة بلا منازع •

وكان أول من بايعه أعمامه من أولاد الأمير عبد الله ، وهم : أبان والعاصى ، وعبد الرحمن ، ومحمد ، وأحمد •• فقد وصلوا اليه وعليهم الأردية والظهائر البيض بزى الحزن ، وتلاهم اخوة جده ، وهم : العاصى ، وسليمان ، وسعيد ، وأحمد • وناب عنهم أحمد فى الكلام • فلما بايعه أثنى عليه ، ثم قال : « والله لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام • ولقد كنت أنتظر هذا من نعمة الله علينا ، ويظهر لنا صيانا • نأسأل الله ايزاع اشكر ، وتمام النعمة ، والهام الحمد » •

وتتابع بعد أهل الخلافة جماهير قريش ووجوههم ، ثم الموالى ، ثم رجال أهل قرطبة من فقهائها ووجوهها وأعيانها ، وأهل البيوتات فيها، فتمت له بيعة الخاصة فى ذلك اليوم ، ثم صلى الأمير عبد الرحمن على

جده ووراه فى مدفنه ، من روضة الخلفاء بقرطبة ، ومعه الوزراء ووجوه الدولة . ثم أعد الوزير صاحب المدينة موسى بن محمد بن حدير ، والقاضى أحمد بن زياد اللخمى ، وصاحب الشرطة العليا قاسم بن وليد الكلبى ، وصاحب الشرطة الصغرى أحمد بن محمد بن حدير ، وصاحب أحكام السوق محمد بن محمد ابن أبى زيد ... أعد هؤلاء جميعا العدة لأخذ بيعة العامة فى المسجد الجامع بقرطبة ، فتمت فى اليوم نفسه .

وهكذا ولى عبد الرحمن بن محمد الامارة بقرطبة ، والأندلس جمرة تحتدم ونار تضطرم .

لقد وجد الأمير الشاب أرض الأندلس مضطربة بالثائرين ، مضطرمة بنيران المتغلبين ... فعمد ، قبل كل شىء ، الى اطفاء هذه النيران ، واستنزال أهل العصيان . وكانت سياسته ترمى أولا الى تركيز السلطة فى يده ، وتوحيد الأندلس الى مثل ما كانت عليه فى عهد أمراء بنى أمية الأقوياء . وعند ذلك يمكنه أن يقضى على مظاهر الفوضى والاضطراب التى شملت جميع أنحاء الأندلس ، ويعيد الأمن الى البلاد ، والاقتصاد الأندلسى الى سابق ازدهاره .

وكان لزاما عليه — فى مثل هذه الحالة — أن يصطنع سياسة تقوم على الترهيب والترغيب ، أو على الشدة واللين . وشرع الأمير الشاب فى تنفيذ خطته فى عزم وتصميم ، فأنفذ الكتب الى العمال فى جميع كور الأندلس بطلب الطاعة والاستسلام ، فكان أول رد ورد عليه بذلك هو رد سعيد ابن السليم عامل حصن مارتش من كورة جيان . ثم أرسل الأمير عبد الرحمن أمناءه الى البلاد لأخذ البيعة ، فبعث الى الثغرين الأدنى والأقصى الفقيه أبا مروان عبيد الله بن يحيى ومحمد بن عبد الله بن نصر . والى كور الغرب : حفص بن عبد الرحمن ، وأحمد بن عبد الملك ، ومحمد بن بكر .

وكان محمد بن عبد الرحمن التجيبى ، صاحب سرقسطة ، أول من بايعه من أصحاب الأطراف ، وتتابعت البيعة والاستسلام لعبد الرحمن من جيمع مدن الأندلس • واستبشر الناس بهذا الأمير الذى دخلت محبته فى نفوسهم ، لما أبداه من مسامحته للخارجين على الأندلس ممن بايعوه بالامارة ، وقبلوا دعوته الى الوحدة • وقد أكرمهم عبد الرحمن ، ورضى عنهم،وأتاح لهم سبيل العيش فى أمن وعزة تحت رعايته•

فلما مضى شهر من توليه الامارة ، ولم يستسلم له الا عدد قليل من الخارجين على سلطته ، أعد حملة قصد منها قهر هؤلاء الخارجين على القاء السلاح والخضوع ، وخرج على رأس جيشه ، ولما يمض على توليه الامارة أربعون يوما ، وتسمى هذه الصائفة بغزوة المنتلون ، افتتح فيها سبعين حصنا عظيما منها : حصن المنتلون ، وحصن الشمنتان ، وحصون بنى هابل ،وحصن قاشترة ، وحصن بشيرة ، وحصن أملين • واشتبك عبد الرحمن مع أنصار ابن حفصون الذين كانوا يملكون حصونا كثيرة بكورة البيرة ، فنازلها حصنا حصنا ، وافتتح حصن شبيلس ، وحصن فروة ••• حتى تم له فتح ما يقرب من ثلاثمائة حصن • وعاد عبد الرحمن الى قرطبة منتصرا •

وفى هذه الصائفة يقول الشاعر أحمد بن محمد ابن عبد ربه :

فى نصف شهر تركت الأرض ساكنة
من بعد ما كان فيها الطير قد ماجا
وجدت فى الخبر المأثور منصلتا
من الخلائف خراجا وولاجا

وفى قصيدة أخرى يقول :

في غزوة مائتا حصن ظفرت بها
في كل حصن غزاة للعنـــاجيج
ما كاد منك سليمان ليـــدركه
والمبتنى ســـد ياجوج وما جوج

ومع ذلك كله كان الأمير الشاب يتطلع الى القضاء ، قبل كل شيء، على رأس الأفعى : عمر ابن حفصون وولـــده جعفر . وكـــان عمر بن حفصون هذا قد تحصن بمدينة ببشتر ، من كورة رية ، وأطاعتـــه أكبر مدن وسط الأندلس ، الواقعة بين رية والجزيرة الخضراء من جهة والبيرة وأحواز قرطبة من جهة أخرى . وقد حاول الأمير المنـــذر بن محمد أن يقضي على حركته ، ولكنه مات وهو يحاصر مدينته ببشتر .

وعظم أمر ابن حفصون في عهد الأمير عبد الله ابن محمد ، واشتدت شوكته ، وجرت بينه وبين الأمـــير مناوشات لم تؤد الى نتيجـــة . ثم استفحل أمره ، واشتد خطره ، فأغار على مورور وشذونـــة وقرمونة ، واتسعت رقعة مملكته . ثم ارتد عن الاسلام ، واعتنق الدين المسيحي ، حتى يتجذب اليه الطوائف المستعربة في اسبانيا الاسلامية .

فلما عاين المسلمون ما فعله عمر بن حفصون ، استقبحوا ذلك منه، وانفضوا من جوله . وكان ذلك بداية نهايته ، وضعف أمـــره ، وتظاهر بالخضوع للأمير عبد الرحمن . وقيل أنه اشترك معـــه في غزواته ضد اسبانيا المسيحية بعد أن صفح عنه الأمير . وتوفي عمر بن حفصون في عام ٣٠٣ هـ (٩١٥ م) ، وزعموا أنه مات عـــلى الدين المسيحي ... اذ أن قبـــره نبش عنـــد سقوط مدينة ببشتر عـــام ٣١٦ هـ (٩٢٨ م) : « فانكشفت دفينة جثته الخبيثة على سنة النصرانية من غير شك ، لأنه أصيب مستقبلا بوجهه المشرق ، ذراعه على صدره » .

وخلفه ابنه جعفر الــذى ذهب مذهب أبيه فى العنـــاد والفساد ، فسير اليه عبد الرحمن بن محمد عام ٣٠٦ هـ (٩١٨ م) جيشا استولى على حصن بلدة من حصون رية • وفى عام ٣٠٧ هـ (٩١٩ م) افتتح عبد الرحمن حصن طرش خشين ، من أعمال ابن حفصون ، واستأمن صاحبه، عبد الرحمن بن عمر بن حفصون ، الى الأمير عبد الرحمن فأمنه ، وسلم له الحصن ، وقدم الى قرطبة فأكرمه بها الأمير •

وفى جمادى الآخرة عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) ، قتل جعفــر بن عمر بن حفصون داخل ببشتر غيلة ، فدخلها أخوه سليمـــان ، واستأمن الى الأمير عبد الرحمن •

وتظاهر سليمان بن حفصون بطاعة الأمير ، فسالمه الأمير ••• حتى اذا ما قوى أمره ، عاد الى نكث عهده ، وشن الغارات على مملكة قرطبة، وعاث فى الأرض فسادا ••• فدخل مدينة المنكب عنوة ، وقتــل جميع سكانها ، وسبى نساءها • وما زال كذلك فى عذره ونكثـــه ، حتى توالت عليه الوقائع ، وضيقت عليه جيوش الأمير ، وأوقعت به الهزيمة فى أحواز شنت بجنت ••• فحاول الفرار ، ولكن فرسه كبا به ، فسقط عنه ، وحز رأسه عام ٣١٤ هـ (٩٢٦ م) ، وبعث به من جثته الى قرطبة فصلب على باب السدة •

وخلفه أخوه حفص بقلعة ببشتر • وخرج اليه الأمير عام ٣١٥ هـ (٩٢٧ م) ، فاستولى على حصن الجش ، وأمر بهدمه بعد أن أمن أهله• ثم وصل الأمير سيره حتى وصل الى قلعة ببشتر ، فحاصرها ، وضيق عليها الحصار • وأمر قائده « سعيد بن المنذر » ببنيـــان حصن طلجيرة بجوار القلعة ، مبالغة منه فى التضييق عليها ، حتى يئس حفص بن عمر ابن حفصون ، فأدغن الى السلـــم • وافتتحت ببشتر فى هـــذه السنة بالأمان ، ودخلها الوزير أحمد بن محمد بن حدير ، بعد أن سلمهـــا له

حفص وأتباعه ، ورفعت الأعلام الأميرية على أسوارها فى أول ذى الحجة عام ٣١٥ هـ • وعاد ابن حدير الى قرطبة ومعه حفص بن عمر بن حفصون وأهل بيته ، فأحسن الأمير عبد الرحمن مثواهم ، وتوسع فى اكرامهم •

وهكذا انقضى أمر بنى حفصون • وقضى الأمير عبد الرحمن على أخطر الخارجين عليه • وأمر باخراج جثة عمر بن حفصون ، ورفعها على باب السدة بقرطبة فى أعلى الجذوع ، لتكون عبرة لمن تجرأ على مخالفة الأمير والثورة عليه • وأقيمت الدعوة لعبد الرحمن بجامع ببشتر ، وعمرت فيها المساجد المهجورة ، وهدمت بها الكنائس المعمورة •

أما بنو حجاج باشبيلية ، فقد استطاع الأمير عبد الرحمن أن يجتذب أحمد بن محمد بن مسلمة ابن حجاج اليه ، وسلم اليه اشبيلية فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) • ثم أذعن له محمد بن ابراهيم بن حجاج صاحب قرمونة ، ووصل الى قرطبة فى رجاله وقوته ، وأجرى الأمير عليه ، وقربه من نفسه ، وولاه الوزارة منوها به رفيع القدر •

وفى عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ، توجه عبد الرحمن الناصر الى مدينة بطليوس لمحاربة عبد الرحمن ابن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الجليقى فيها ، فحاصرتها جيوشه ، وضيقت عليها الخناق حتى افتتحها • ثم اتجه الى باجة لمحاربة عبد الرحمن بن سعيد الثائر بها فحاصرها ، ونصب عليها المجانيق حتى نال أهلها العطش ، فاستأمنوا ولاذوا بعفو الناصر ، فأمنهم ونزلوا على حكمه ، وأمن عبد الرحمن بن سعيد وأهله •

وما كاد الأمير عبد الرحمن ينتهى من القضاء على أعداء الوحدة فى داخل الأندلس ، ويعيد اسبانيا الاسلامية الى سابق وحدتها ••• حتى تفرغ بعد ذلك للأخطار خطر الدولة الفاطمية الفتية الناشئة ، التى ظهرت حديثا فى بلاد المغرب ، والتى كانت تتأهب لغزو الأندلس ، وأرسل

خلفاؤها دعاتهم الى هذه البلاد تميهدا لفتحها • فعمد عبد الرحمن بن محمد الى ثلاث وسائل لمواجهة خطر الفاطميين :

١ ـ تلقب بألقاب الخلافة عام ٣١٧ هـ (٩٢٩ م) ليوطد مركزه فى داخل الأندلس وخارجه ، ويفرض هيبته فى النفوس •

٢ ـ بث بذور الفتنة بين قبائل البربر فى بلاد المغرب ، واستولى على معبرى الأندلس ـ وهما مدينتا : سبتة ، وطنجة ـ عام ٣١٧ هـ، وأطاعة بنو ادريس أمراء العدوة وملوك زناتة والبربر ، وأجاز اليه الكثيرون منهم •

٣ ـ اهتم بتقوية البحرية الأندلسية ، فعمل على تكوين أسطول أندلسى ضخم ، ينازع به سلطان الفاطميين فى البحر المتوسط ، ويدافع عن سواحل الأندلس ضد غاراتهم •

وقد أدت سياسة الخليفة عبد الرحمن الناصر الحازمة الى انصراف الفاطميين عن فتح الأندلس الى فتح مصر (١) •

وواجه الخليفة عبد الرحمن الناصر بعد ذلك خطر آخر ، هو خطر الممالك المسيحية بشمال اسبانيا • فقد ازداد خطر « اردون » ملك ليون (أردونيو الثانى بن ألفونسو الثالث (Ordono II) ٩١٤ ـ ٩٢٤ م ، و « شانجة » (سانشوجارثث (Sancho Graces I) ملك برة (Navarra)

---

(١) كان الفاطمون يرمون بفتح مصر الى جعلها قاعدة لفتوحهم فى المشرق الاسلامى . لقربها من الحجاز وبلاد الشام والعراق . وكان فتح مصر أجدى عليهم من فتح الاندلس •

حتى أن « أردون » الثانى ، ملك ليون وجليقية ، حشد جيوشه فى عام ٣٠١ هـ (٩١٣ م) ، وقصد مدينة يابرة (Evora) ، فدخلها عنوة ، وقتل عددا كبيرا من رجالها ، وأسر كثيرا من نسائها وأطفالها ، واستشهد فى هذه الواقعة مروان بن عبد الملك عامل المدينة . وقيل انه لم تدر بالأندلس دائرة على الاسلام من قبل العدو أشنع من هذه الدائرة ولا أقطع .

وفى عام ٣٠٥ هـ (٩١٧ م) التحمت جيوش المسلمين ، بقيادة أحمد بن محمد بن أبى عبدة ، مع جيوش القشتاليين فى واقعة قرب « شنت اشتبن » انهزم فيها المسلمون ، واستشهد القائد وأحس عبد الرحمن الناصر تطور الموقف الى جانب نصارى الشمال ، فقام بنفسه فى عام ٣٠٨ هـ (٩٢٠ م) على رأس جيش متجها الى جليقية ونبرة ، فهدم حصن قاشترو مورش ، وما والاه من المعاقل والأبراج والبيع . وكان « أردون » ملك ليون وجليقية و « شانجة » ملك نبرة ، قد استنجدا بمن جاورهما من ملوك المسيحية ... فلما التقت الجيوش ، انتصر المسلمون انتصارا ساحقا ، وافتتحوا حصن مويش (Muez) ، وهدموه .

ولما مات « أردون » الثانى عام ٣١٢ هـ (٩٢٤ م) خلفه أخوه « فلويرة » (فرويلة الثانى (Fruela II) ٩٢٤ — ٩٢٥ م ، ومات بعد عام واحد . فولى مكانه أخوه «اذفونش»(ألفونسو الرابع Alfonso IV) المعروف بألفونسو الراهب) ٩٢٥ — ٩٣١ م . وقد تنازل ألفونسو هذا لأخيه « ردميره » (راميرو الثانى Ramiro II) ٩٣١ — ٩٥١ م . وكان « ردميره » ملكا شجاعا شديد الصلابة ، استمرت الحرب بينه وبين الناصر دائرة عهد طويلا . وكانت أهم المواقع التى حدثت بينهما موقعة الخندق الشهيرة (Alhandega) ، التى انهزم فيها الخليفة عبد الرحمن الناصر هزيمة شنعاء فى عام ٣٢٧ هـ (٩٣٨ م) قرب مدينة « شنت

مانكش » (Simancas) وفيها ألجأ الليونيون بقيادة ردميره ، والنافاريون — وعلى رأسهم الملكة « طوطة » (Dona Toda) — المسلمين الى خندق بعيد المهوى ، فتساقط فيه الجنود ، وقتل منهم عدد كبير • وانكشف معسكر الناصر فهاجمه « ردميره » ، فتقهقر الخليفة بعد أن فقد أغلبية جيشه •

ومنذ هذه الهزيمة ، لم يعد الناصر يباشر الغزو بنفسه ، وأخذ — بعد هذا الدرس القاسى — يحتاط فى حروبه ، وسجلت له الوقائع التالية بينه وبين جيوش ليون ونبرة انتصارات هائلة ، اكتسح بعدها هاتين المملكتين ، حتى أذعن به أعداؤه بالطاعة ، وهادنوه ، وبعثوا اليه السفارات والهدايا طالبين الصلح ••• ففى عام ٣٤٤ هـ (٩٥٥ م) ، قدم اليه بقرطبة رسول الملك أردون بن ردميره ، يطلب السلم فعقده له•

وفى عام ٣٤٧ هـ (٩٥٨ م) وفدت الملكة « طوطة » (Toda) وحفيدها الملك شانجة المعروف « بسانشو السمين (Sancho el Grueso) الى قرطبة ••• ذلك أن موت « ردميره » الثانى فى عام ٩٥١ م ، أحدث انقساما كبيرا بين أبنائه ، وقام نزاع كبير حول العرش بين « أردون » الثالث ٩٥١ — ٩٥٦ م ، الذى خلف أباه ردميره ، وبين أخيه شانجة السمين ، وكانت تؤازره جدته الملكة طوطة وقومس قشتيلة فردلند (Fernan Gonzalez, Conde de Castilla)

فلما مات أردون الثالث فى عام ٩٥٦ م ، تولى شانجة الأول (٩٥٦— ٩٦٦ م) ، وسمى بالسمين لبدانته وسمنته المفرطة • ولكن نبلاء ليون وقشتالة مالبثوا أن عزلوه عن عرشه ، وولوا عرش نبرة وليون مكانه (عام ٩٥٨) أردون الرابع ، المعروف بأوردينو الشرير لانحطاط خلقه• وقد أيده قومس قشتيلة ، وزوجه ابنته أراكه (Urraca) أرملة أردون الثالث •

ولجأ شانجة السمين الى مدينة بنبلونة ليكون بجوار جدته الملكة طوطة ، وبعث الى الخليفة عبد الرحمن الناصر يطلب منه أن يرسل اليه طبيبا لمعالجته من سمنته المفرطة ، فأرسل اليه الناصر طبيبه الخاص الذى نجح فى ازالة سمنة الملك المخلوع • وكان لذلك أطيب الأثر فى نفس الملكة طوطة وحفيدها • فقدما الى قرطبة ، على رأس سفارة كبرى، يلتمسان من الخليفة عبد الرحمن الناصر أن يساعد شانجة فى استرجاع عرشه •

وفى ذلك يقول المقرى : « وكان غرسية بن شانجة حافدا لطوطة ملكة البشكنس ، فامتعضت لحافدها غرسية ، ووفدت على الناصر سنة سبع وأربعين ، ملقية بنفسها فى عقد السلم لها ولولدها شانجة ابن ردمير الملك ، واعانة حافدها غرسية بن شانجة على ملكه ، ونصره من عدوه ••• وجاء الملكان معها ، فاحتفل الناصر لقدومهم ، وعقد الصلح لشانجة وأمه » •

وأكرم الناصر وفادة الملكة وحفيدها ، وكان من نتائج هذه السفارة أن عقدت محالفة ، كسب الناصر من ورائها حصونا من مملكة شانجة ، مقابل مؤازرته لشانجة ، وعمله على استرجاع عرشه • ونفذ الناصر وعده ، فبعث جيشا هائلا استطاع أن يعيد به شانجة الى عرشه عام ٩٦٠ م ، فأرسل شانجة الى الناصر يشكره على ذلك • ولكن شانجة مالبث أن نكث بوعوده للناصر ، مما حمل الناصر ، وابنه الحكم المستنصر من بعده ، على محاربته • وقد أدى ذلك الى قيام النبلاء عليه فى جليقية، ونجح أحدهم — ويعرف بجونثالو — فى قتله بالسم عام ٩٦٦ •

واشتدت الفوضى ، وشملت البلاد بعد وفاته ، وزاد الاضطراب بتولى راميرو الثالث ابن شانجة ، العرش بعد أبيه (٩٦٦ — ٩٨٢ م) ، وكان صبيا فى الخامسة من عمره • وسنرى أن الحكم المستنصر يتدخل لحل هذه الازمة ، كما تدخل أبوه الناصر من قبل •

وقدم الى الناصر بقرطبة سفراء ملك برشلونة وطركونة راغبين فى عقد الصلح معه ، فأجابه الناصر . كذلك قدم اليـــه رسول من صاحب رومة يخطب مودته .

وأعظم السفارات التى تدل على ضخامة ملك الناصر ورفعة شأنه، سفارة امبراطور بيزنطة ... فانه هاداه ، ورغب فى موادعته ، وذلك بأن أرسل اليه سفارة كبرى وصلت قرطبة فى صفر عام ٣٣٨ هـ (٩٤٩م).

وفى هذه السفارة يقول المقرى عن ابن حيـــان : « تأهب الناصر لورودهم ، وأمر أن يتلقوا أعظم تلق وأفخمه ، وأحسن قبول وأكرمه ، وأخرج الى لقائهم ببجاية يحيى بن محمد بن الليث وغيره لخدمة أسباب الطريق فلما صاروا بأقرب المحلات من قرطبة ، خرج الى لقائهم القواد فى العدد والعدة والتعبية ، فتلقوهم قائدا بعد قائد . وكمل اختصاصهم بعد ذلك بأن أخرج اليهم الفتيين الكبيرين الخصيين ياسرا وتماما ، ابلاغا فى الاحتفال بهم ، فلقياهم بعد القواد . فاستبان لهم بخروج الفتيين اليهم بسط الناصر واكرامه ... لأن الفتيان هم عظماء الدولة وأصحاب الخلوة مع الناصر وحرمه ، وبيدهم القصر السلطانى . وأنزلوا بمنية ولى العهد الحكم المنسوبة الى نصير بعدوة قرطبة فى الربض ، ومنعوا من لقاء الخاصة والعامة جملة ، ومن ملابسة الناس طرا ، ورتب لحجابتهم رجال تخيروا من الموالى ووجوه الحشم ، فصيروا على باب قصر هـــذه المنية ستة عشر رجلا لأربع دول ، لكل دولة أربعة منهم ...

« ورحل الناصر لدين الله من قصر الزهـــراء الى قصر قرطبة ، لدخول وفود الروم عليه . فقعد لهم يوم السبت لاحدى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة المذكورة ، فى بهو المجلس الزاهـــر ، قعودا حسنا نبيلا . وقعد عن يمينه ولى العهد من بنيه : الحكم ، ثم عبد الله، ثم عبد العزيز ، ثم الاصبغ ثم مروان . وقعد عن يساره : المنذر ، ثم

عبد الجبار ، ثم سليمان • وتخلف عبد الملك لأنه كان عليلا لم يطق الحضور • وحضر الوزراء على مراتبهم يمينا وشمالا ، ووقف الحجاب من أهل الخدمة من أبناء الوزراء والموالى والوكلاء وغيرهم • وقد بسط صحن الدار أجمع بعتاق البسط وكرائم الدرانك ، وظللت أبواب الدار وحناياها بظلل الديباج ورفيع الستور • فوصل رسل ملك الروم حائرين مما رأوه من بهجة الملك وفخامة السلطان • ودفعوا كتاب ملكهم صاحب القسطنطينية العظمى : قسطنطين بن ليون ••• » •

* • *

وتوفى الناصر فى عام ٣٥٠ هـ (٩٦١ م) ، بعد حكم طويل تجاوز الخمسين عاما ، قضاه كله فى جهاد متواصل وعمل مرير ••• حتى أنه وجد بخطه أن أيام السرور التى صفت له ، فى هذه المدة الطويلة ، لم تتجاوز أربعة عشر يوما •

وكان عصر عبد الرحمن الناصر عصر ازدهار فى الحضارة الأندلسية، بل انه العصر الذهبى الذى بلغت فيه الحضارة الاسلامية بالأندلس أوج عظمتها ••• كان الناصر عظيما فى سياسته : اذ عرف كيف يعيد الأندلس الى سابق وحدتها ، فيقضى على الثائرين بسياسة هى مزيج من اللين والعنف • وكان ماهرا فى قيادته للجيوش : اذ أنه حارب أعداءه من ملوك اسبانيا المسيحية بنفسه ، واستطاع أن يجعل منهم أتباعا له يلتمسون عونه ونجدته ، وتدخل فى منازعاتهم الداخلية ، وأعاد بعضهم الى عرشه • وكان قويا فى شخصيته ، اذ أمكنه أن ينقذ الأندلس من خطر الفاطميين ، بأن جعل للأندلس أسطولا قويا يدفع عنها الأعداء ، وأن يقيم لنفسه قاعدة فى العدوة تواجه الفاطميين فى المغرب ، وأن يحول الامارة القرطبية الى خلافة ليتسلح بلقب مهيب أمام شعبه وأمام أعدائه •

وكان الناصر محبا للفنون ، يدل على ذلك هدية الوزير أحمد بن

عبد الملك بن شهيد اليه ، وهى هدية عظيمة الشأن ، اتفق أنه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها ، وتدل هذه الهدية على ضخامة الخلافة الأموية وثراء الأندلس فى عهده .

وكان الناصر كلفا بالعمارة والبناء ، فقسم أموال جبايته ثلاثة أقسام : قسم للجند والحروب ، وقسم للبنيان ، وقسم ينفق منه فى غير هذين من المصالح ، ويخزن باقيه ذخيرة . فشيد المعاقل والحصون ، وأقام مدينة الزهراء ، وأضاف الى جامع قرطبة مئذنته الشهيرة .

وفى أعماله المعمارية يقول وزيره عبيد الله ابن ادريس :

سيشهد ما شيدت انك لم تكن
مضيعا ، وقد مكنت للدين والدنيا
فبالجامع المعمور للعلم والتقى
وبالزهرة الزهراء للملك والعليا

وتشهد آثار الناصر فى قرطبة ، وآثار قصوره الخالدة بمدينة الزهراء ، بما بلغته الحضارة الأندلسية من سمو وازدهار ، وتعبر أصدق تعبير عن الناصر نفسه .

همم الملوك اذا أرادوا ذكرها
من بعدهم فبألسن البنيان
أو ما ترى الهرمين كم بقيا ، وكم
ملك محاه حوادث الأزمان ؟
ان البناء اذا تعاظم قدره
أضحى يدل على عظيم الشان

الحـــكم المستنصر بالله

(ولد عام ٣٠٢ ، ومات عام ٣٦٦ للهجرة)

هو أكبر أبناء الخليفة عبد الرحمن بن محمد الملقب بالناصر لدين الله . ولد فى غرة رجب سنة ٣٠٢ هـ وفى ولادته يقول الشاعر أحمد بن محمد ابن عبد ربه مهنئا :

هلال نماه المجـد واختـاره الفخر
تلقت به شمس وأنجبـه بـدر
على وجهه سيماء المـكارم والعلى
فضاءت به الآمال وابتهج الشعر
سلالة أمـلاك ربيب خـلائف
أكفهـم بر ونائلهـم غمـر
بدا لصـلاة الظهر نجـم مكارم
تحف به العليـا ويكنفـه الفخر
فلا زال محفوفا بأكنـاف نعمـة
يطير له ذكر ويسـمو به قدر
هنيئـا أمام المسـلمين عطيـة
حباك بها رب له الحمـد والشكر

وكان أبوه قد عهد اليه بولاية الأمر من بعده وهو طفل لا يتجاوز الثامنة من عمره ، بحيث لو هلك الناصر فى ذلك الـوقت لنصب الحكم بعده حسبما اقتضاه ما أخذه على الناس من العهد بذلك ، واقتضاه من

الأيمان المغلظة المحرجة ، شأن من يأخذ العهد لولده من الملوك • الا أن عمره امتد بعد ذلك الى سن الكهولة • فالحكم ممن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام •

وكان أبوه الناصر يشركه معه فى القيام بكثير من أعباء الحكم ، فقد أخرجه معه فى احدى غزواته سنة ٣١٥ هـ وكان الحكـــم طفلا لا يزيد عمره على الثالثة عشرة ، ثم قلـــده الاشراف على أعمـــال البناء بمدينة الزهراء عام ٣٢٥ هـ •

فلما مات الناصر فى ٢ رمضان عام ٣٥٠ هـ بويع الحكـــم تجديدا لعهده فى اليوم التالى ، أى فى ٣ من رمضان سنة ٣٥٠ هـ ، وقام بأعباء الحكم خير قيام ، وأنفذ الكتب الى جميع أنحاء الأندلس بتمام الأمر له، ودعا الناس الى بيعته واستقبـــل من يومه النظـــر فى تمهيد سلطانه ، وتثقيف مملكته وضبط قصوره ، وترتيب أجناده • وأول من بايعه فتيانه الصقالبة ، وعلى رأسهم جعفر صاحب الخيل والطراز ، ثم تبعهم الكتاب والوصفاء والمقدمون والعرفاء • فلما تمت بيعة أهل القصر له فى مدينة الزهراء أقبل عليه اخوته ، فنزلوا فى مراتبهم بفصلان القصر ، وجلسوا فى المجلسين الشرقى والغربى •

وجلس المستنصر بالله على سرير الملك ، فى البهو الأوسط من الأبهاء المذهبة القبلية ، فى السطح الممرد من قصر الزهـــراء ، فبايعــــه اخوته والتزموا الأيمان المنصوصه بكل ما انعقد فيها ، ثم بايعه بعدهم الوزراء وأبناؤهم وذوو قرابتهم ، ثم أصحاب الشرطة وطبقات أهـــل الخدمة ، وجلس اخوته ووزراؤه ووجوه دولته الى يمينه ويساره ، وظـــل وزيره عيسى بن فطيس قائما يأخذ البيعة على الناس ، واصطف حولهم أكابر الفتيان الصقالبة حتى منتهى البهو ، وهم مرتدون الظهائر البيض شعار الحزن على وفاة الناصر ، قد تقلدوا فوقها السيوف ، وتلاهـــم الفتيان

الوصفاء عليهم الدروع السابغة والسيوف الحالية ، وقد وقفوا فى صفين، وتلاهم فى الفصلان الطبقات الدنيا من الصقالية بايديهم السيوف أو متنكبين القسى . واتصل بهم الجنود وعليهم الجواشن والأقبية البيضاء، وعلى رؤوسهم البيضات الصقلبية ، وبأيديهم التراس الملونة والأسلحة المزينة ... كل هؤلاء فى صفوف منتظمة حتى باب المدينة . فلما تمت البيعة ، أذن الحكم للحاضرين بالانصراف ، ما عدا اخوته ووزراءه ، فقد مكثوا فى قصر الزهراء حتى حمل جسد الناصر الى قصر قرطبة للدفن فى مقبرة الخلفاء .

وأهدى الحكم يوم توليه الخلافة هدية ، ذكر ابن حيان منها : مائة مملوك من الافرنج كاملة الشكة والأسلحة من السيوف والرماح والدرق والتراس والقلانس ، وثلثمائة ونيف وعشرون درعا مختلفة الأجناس ، وثلثمائة خوذة وغير ذلك من آلات الحرب والعدد .

وكان الحكم المستنصر بطبيعته رجل سلم وعلم ، فكان حسن السيرة جامعا للعلوم . محبا لها ، مكرما لأهلها ، جماعا للكتب فى أنواعها وأقام للعلم والعلماء سوقا نافقة جابت اليها بضائعه من كل قطر . فكان يستجلب المصنفات والمؤلفات من الأقاليم والنواحى ، باذلا فيها ما أمكن من الأموال حتى ضاقت عنها خزائنه . وكان ذا غرام بها ، قد آثر ذلك على لذات الملوك ، فاستوسع علمه ، ودق نظره ، وجمت استفادته . وقال عنه ابن الأبار : « كان فى المعرفة بالرجال والأخبار والانساب أحوذيا نسيج وحده ، وكان ثقة فيما ينقله » . وأضاف قائلا : « قلما يوجد كتاب فى خزائنه الا وله فيه قراءة أو نظر ، فى أى فن كان ، ويكتب فيه نسب المؤلف ومولده ووفاته ، ويأتى من بعد ذلك بغرائب لاتكاد توجد الا عنده لعنايته بهذا الشأن » .

ومن أمثلة ولعه بالكتب أنه بعث يطلب كتاب الأغانى من مؤلفه أبى

الفرج الأصفهانى ، وأرسل اليه فيه ألف دينار من الذهب العين ، وقد بعث أبيه أبو الفرج بنسخة منه قبل أن يخرجه فى العراق (١) • وكذلك فعل مع القاضى أبى بكر الأبهرى المالكى فى شرحه لمختصر ابن عبد الحكم •• وقيل انه جمع بداره الحذاق فى صناعة النسخ والمهرة فى الضبط والاجادة فى التجليد • وفيه يقول بن الخطيب فى كتابه أعمال الأعلام : « وكان رحمه الله عالما فقيها بالمذاهب ، اماما فى معرفة الأنساب ، حافظا للتاريخ ، جماعا للكتب ، مميزا للرجال من كل عالم وجيل ، وفى كل مصر وأوان ، تجرد لذلك وتهمم به ، فكان فيه حجة وقدوة وأصلا يوقف عنده » •

واجتمعت بالأندلس فى عصره خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده الا ما يذكر عن الناصر العباسى • ولم تزل هذه الكتب بقصر قرطبة حتى أخرجها الحاجب واضح من موالى المنصور بن أبى عامر ، وقيل أن اخراجها استلزم ستة أشهر • وذكر ابن حيان أن عدد الكتب التى كانت بمكتبته بلغ نحو ٤٠٠ ألف مجلد • وذكر ابن حزم أن عدد الفهارس التى كانت تضم أسماء كتبه بلغ أربعة وأربعين فهرسا ، فى كل فهرس عشرون ورقة •

ومع ذلك كله فان اهتمام الحكم بكتبه ، وانصرافه الى علومه ، واستغراقه فى دورسه ، لم ينسه ما كان يحيط بدولته من أخطار خارجية • فاننا نراه صلبا أمام الممالك المسيحية بشمال اسبانيا • فما كاد يتولى الخلافة حتى طمع الجلالقة فى الثغور ، ولكنه وقف منهم موقفا صارما • فقد كان الناصر قد ساعد قبل وفاته شانجة بن أردون الثالث على استرجاع عرشه سنة ٩٦٠م ، واضطر منافسه أردون الرابع الى الالتجاء الى استوريش ثم انتقل منها الى برغش • وفى ذلك الوقت هاجم

---

(١) ذكر ابن حيان أن أبا على القالى طرز باسم الحكم كتابه « الامالى » .

البشكنس فردلند (فرنان جنثالث) قومس قشتالة وأسروه • وكان شانجة قد وعد الناصر أن يتنازل له عن عشرة حصون من مملكته مقابل مؤازرته له ، ولكنه لم يوف بوعده بعد أن استعاد عرشه ونكث بعهده عندما تولى الحكم المستنصر •

كذلك كان الحكم يتوقع من غرسية ، ملك بنبلونة ، أن يسلمه قومس قشتالة الأسير ، غير أن غرسية وشانجة ظنا أن الخليفة الجديد، باقباله على العلوم وعكوفه على الكتب ، كان رجلا مسالما غير ميال للحروب • فأفرج غرسية عن قوس قشتالة الذى أسرع الى برغش حيث اجتمع بأردون الرابع وأخذا يغيران بقواتهما على أراضى الاسلام•

عندئذ عزم الحكم على وضع حد لذلك ، فأمر بارسال حملة لذلك الغرض فى عام ٣٥١ هـ (٩٦٢ م) فخشى أردون الرابع أن تكون تلك الحملة سببا فى القضاء عليه ، ففكر فى مداهنة الحكم والوفود الى قرطبة ليستنجد به على ابن عمه شانجة • فأسرع أردون الى مدينة سالم ، وهناك التمس من غالب الناصرى قائد الحكم أن يسمح له بالذهاب الى قرطبة لمقابلة الحكم والاستعانة به •

فلما علم الحكم بذلك بعث فى طلبه • وفى ذلك يقول ابن حيان : « وفى آخر صفر من سنة احدى وخمسين ، أخرج الخليفة الحكم المستنصر بالله موليبه محمدا وزيادا ابنى أفلح الناصرى بكتيبه من الحشم لتلقى غالب الناصرى ، صاحب مدينة سالم ، المورد للطاغية أردون بن أذفنش الخبيث فى الدولة ، المتملك على طوائف من أمم الجلالقة ، والمنازع لابن عمه الملك قبله شانجة بن ردمير ، وتبرع هذا اللعين أردون بالمسير الى باب المستنصر من ذاته ، غير طالب اذن ولا مستظهر بعهد ، وذلك عندما بلغه اعتزام الحكم المستنصر بالله فى عامه ذلك على الغزو اليه ، وأخذه فى التأهب له ••• فاحتال فى تأميل المستنصر

بالله والارتماء عليه ، وخرج ، قبل أمان يعقد له أو ذمة تعصمه ، فى عشرين رجلا من وجوه أصحابه ، تكنفهم غالب الناصرى الذى خرجوا اليه ، فجاء به نحو مولاه الحكم ، وتلقاهم ابنا أفلح بالجيش المذكور فأنزلاهم ، ثم تحركا بهم ثانى يوم نزولهم الى قرطبة ، فأخرج المستنصر بالله اليهم هشاما المصحفى فى جيش عظيم كامل التعبية ، وتقدموا الى باب قرطبة ، فمروا بباب قصرها . فلما انتهى أردون الى ما بين باب السدة وباب الجنان سأل عن مكان رمس الناصر لدين الله ، فأشير الى ما يوازى موضعه من داخل القصر فى الروضة ، فخلع قلنسوته ، وخضع نحو مكان القبر ودعا ، ثم رد قلنسوته الى رأسه . وأمر المستنصر بانزال أردون فى دار الناعورة ، وقد كان تقدم فى فرشها بضروب الغطاء والوطاء ، وانتهى من ذلك الى الغاية وتوسع له فى الكرامة ولأصحابه » .

وأذن الحكم له بالمثول بين يديه فى مدينة الزهراء ، واحتفل بذلك اليوم أجل احتفال ، ثم استدعى مترجمه وليد بن حيزون قاضى النصارى بقرطبة ، ليقوم بالترجمة بين الحكم وأردون . ووعده الحكم بمساعدته واعادته الى عرشه الذى اغتصبه شانجة الأول مقابل تعهده له بالمحافظة على علاقات المودة بينهما ، وعاقده على موالاة الاسلام ومقاطعة فردلند القومس ، وعدم التضامن معه ضد الاسلام . واثباتا لحسن نيته رهن ولده غرسية عند الحكم ، وانصرف معه وجوه نصارى الذمة ، وهم وليد بن حيزون وأصبغ بن عبد الله بن نبيل وأسقف اشبيلية عبيد الله بن قاسم ، ليوطدوا له الطاعة رعيته ، ويتسلموا رهنه .

فلما علم ابن عمه شانجة بن ردمير بذلك خاف على ملكه ، وبادر بارسال سفارة الى الخليفة . فبعث ببيعته وطاعته مع قوامس أهل جليقية وسمورة وأساقفتهم ، يرغب فى قبوله ، ويعاهده أن ينفذ اتفاقيته مع أبيه الناصر .

ويرى ليفى بروفنسال أن قرطبة تحولت فجأة ضد أردون الرابع، فلم تحفل بوجوده . ويرجح أنه لم يرحل قط عنها ، بل انه مات موته يكتنفها الغموض فى نهاية سنة ٩٦٢ م . وقد بدد موته المبكر مخاوف ملك ليون ، فوجد فى ذلك فرصة للتراجع والنكث بوعده للحكم ، فبادر بعقد حلف مع قومس قشتالة وملك نابارة وقومس برشونة وبوريل وميرون.. فلم يجد الحكم بدا من اعلان الحرب على شانجة ، بعد أن شاهد بنفسه مدى نكثه بوعده وتحالفه مع ملوك المسيحية ضده وصمم على منازلة كل منهم على حدة . وخرج بنفسه غازيا ، فى صيف سنة ٣٥٢ هـ (٩٦٣ م)، وقصد بادىء ذى بدء مهاجمة قشتالة . غير أن معلوماتنا عن هذه الصائفة قليلة للغاية ، ولانعرف أكثر من أنه اقتحم بلاد فردلند بن غند شلب (فرنان جنثالث) ، فنازل شنت اشتبين دى غرماج الواقعة على نهر دويرة ، وافتتحها عنوة واستباحها فبادر فردلند الى عقد السلم معه . غير أن فردلند ما لبث أن نقض هذا الصلح ، فبعث الحكم مولاه غالبا لغزو بلاد جليقية ، فهزم فردلند ، واستباح بلاده .

وكان غرسية ملك البشكنس قد انتقض على الحكم ، فأغزاه الحكم حاكمه على سرقسطة يحيى بن محمد التجيبى فهزمه . ثم أغزى الحكم أحمد بن يعلى ويحيى بن محمد التجيبى الى بلاد برشلونة فعاثت جيوشه فى نواحيها . ثم أغزى هذيلا بن هاشم ومولاه غالبا الى بلاد القومس فردلند ، فعاثا فيها وقفلا . وعظمت فتوحات الحكم وقواد الثغور فى كل ناحية . وكان من أعظمها فتح قلهرة من بلاد البشكنس على يدى غالب ، فعمرها الحكم .

وفى سنة ٣٥٤ هـ (٩٦٥ م) ، سار غالب الى بلدة ألبة ، ومعه يحيى بن محمد التجيبى ،وقاسم ابن مطرف بن ذى النون ، فابتنى حصن غرماج ودوخ بلادهم . وهكذا كان للتفوق الحربى لجيش الحكم أثره

الكبير فى اعادة الأمن الى ثغور الأندلس بعد مضى سنوات قليلة من تولية الخلافة •

وحالفه الحظ اذ توفى شانجة الاول سنة ٩٦٦ م مسموما ، سمه القومس جنثالو ، فخلفه ابنه ردمير الثالث ٩٦٦ — ٩٨٢ م • وكان لايتجاوز الخامسة من عمره ، فتولت عمته دينا البيرة الوصاية عليه • وكان تولى هذا الملك الصغير سببا فى انتشار الفوضى ، وخروج كثير من الأمراء عليه • وانقسمت مملكة ليون الى امارات صغيرة أخذ كل أمير من أمرائها يتوجه الى قرطبة للاستعانة بخليفتها ضد خصومة (١) • وتوالت السفارات المسيحية على بلاط الحكم المستنصر منذ سنة ٩٦٦ م وفى سنة ٩٧٠ توفى قومس قشتالة ، وتبعه غرسية ملك نابارة والبشكنس فى السنة نفسها •

لم يقتصر نشاط الحكم السياسى والحربى على هذا الحد ، بل تجاوزه الى الجنوب حيث قامت دولة فتية أخذت تناوىء الدولة الأموية فى الأندلس هى الدولة الفاطمية • وكان الناصر قد بث الفتن بين قبائل البربر حتى يتمكن من مواجهة الفاطميين ، كذلك استطاع أن يكتسب اليه قبيلة زناتة ويضم الى أملاكه معبرى الأندلس : سبتة وطنجة • فلما تولى الحكم المستنصر الخلافة سار على سياسة أبيه فى مصانعة بربر العدوة ، مودهم بالأموال • وتلقى دعوته ملوك زناتة من مغراوة ومكناسة ، فبثوها فى أعمالهم ، وخطبوا بها على منابرهم ، وزاحموا بها دعوة الشيعة فيما بينهم ، ووفد عليه كثير من زعماء زناتة الى الأندلس فأكرم وفادتهم •

---

(١) من بين هذه السفارات : سفارة غرسية بن شانجة ملك البشكنس التى تمثلت فى جماعة من الاساقفة والقوامس يسألون الصلح ، ووفود أم لذريق بن بلاشك القومس •

وفى سنة ٣٦٣ هـ (٩٧٤ م) ، وطئت جيوشه أرض العدوة ، واستطاع غالب أن يفتتح مدينة البصره من أحواز آصيلا ، وأن يقضى على دولة الأدارسة الذين طمعوا فى الاستقلال بفاس ، بعد انتقال الفاطميين الى مصر ... قضى غالب على دولتهم ، واستنزلهم من ملكهم، وأجازهم الى قرطبة .

وظهر فى عهد الحكم خطر آخر من جهة البحر ، هو خطر غارات النورمانديين على سواحل الأندلس . ونزل النورمانديون بالمرية ، وحاصروا حصن القبطة من حصونها ، فزحف اليهم الحكم وأوقع بهم . كما ظهر فريق آخر منهم من جهة الغرب ، قدموا من البحر الكبير (المحيط الأطلسى) ، واحتلوا بسائط أشبونة . فناشبهم الناس القتال ، وألزموهم الرجوع الى مراكبهم . فأمر الحكم قواده بحراسة السواحل، كما أمر قائد البحر عبد الرحمن بن رماحس بتعجيل حركة الأسطول لمطاردة النورمانديين . وقيل ان عدد مراكب أسطوله بلغ ستمائة جفن من غزوى وغيره .

وكان نصيب الفن والبناء من اهتمام الحكم المستنصر أعظم من نصيب الكتب والأدب . فقد بلغ الفن الأموى فى عصره ذروة نضوجه وبهائه ، كما بلغت العمارة درجة سامية من الكمال ، وظهرت فيها ابتكارات معمارية كان لها أثر كبير فى فنون العمارة المسيحية باسبانيا وفرنسا ... اذ نجح مهندسو الحكم فى ابتداع نوع جديد من القباب القائمة على الضلوع البارزة المتقاطعة فيما بينها . وقد نقل المهندسون الفرنسيون هذه الفكرة ، وطبقوها على قبواتهم ، فنشأت القبوات القوطية الفرنسية التى أحدثت ثورة كبرى فى تاريخ العمارة الأوربية ، وما زالت زيادة الحكم بجامع قرطبة وآثار قصوره بمدينة الزهراء تشهد بعظمة الزخرفة وروعة البناء ، وتقطع فى صورة لا تقبل الشك بما كانت تنعم به الأندلس فى أيامه من ثراء ورخاء .

وما زال اسم الحكم المستنصر منقوشا على الكسوة الرخامية بمحراب جامع قرطبة ، وتقرأ فى هذا النقش « بسم الله الرحمن الرحيم ••• حافظوا على الصلوات والصلاة الوسطى وقوموا لله قانتين • أمر الامام المستنصر بالله عبد الله الحكم أمير المؤمنين ، أصلحه الله ، بعد عون الله فيما شيده من هذا المحراب ، بكسوته بالرخام رغبة فى جزيل الثواب وكريم المآب ••• » ونطالع اسمه منقوشا على منكبى المحراب ، ونقرأ منقوشا فى الفسيفساء بقاعدة القبة الكبرى • ونقرأة منقوشا على فتحة الباب الجانبى المجاوز للمحراب بمناسبة اقامته للمشروع المؤدى الى مصلاه ، ونقرأ فى عقد المحراب مسجلا تنزيله للفسيفساء •

وكان الحكم ، بالاضافة الى اهتمامه بالفنون والعمارة ، شاعرا يجيد النظم فمن قوله :

الى الله أشكو من شمائل مسرف
على ظلوم لا يدين بما دنت
نأت عنه دارى فاستزاد صدوده
وانى على وجدى القديم كما كنت
ولو كنت أدرى أن شوقى بالغ
من الوجد ما بلغته لم أكن بنت

ومرض الحكم المستنصر فى أواخر أيامه مرضا شديدا ، وأصيب بالفالج فلزم الفراش ، وتوفى بقصر قرطبة فى ٢ من صفر سنة ٣٦٦ هـ (٩٧٦ م) •

السلطان أبو عبد الله

(ولد عام ٨٨٧ ، وتوفى عام ٨٩٨ للهجرة)

تاريخ حياة السلطان أبى عبد الله محمد بن أبى الحسن على ، هو تاريخ الاسلام فى الأندلس فى دور الاحتضار ، أو تاريخ بناء شامخ قدم عليه العهد ثم سقطت آخر دعامة من دعائمة وشرع فى الانهيار . وهو تاريخ يثير الحزن والأسى فى نفس كل عربى .

لقد كانت شمس الأندلس تنحدر رويدا رويدا نحو مقرها الأخير بعد وفاة محمد الخامس الغنى بالله سنة ١٣٩١ م . وآن لأشعتها الباهتة

أن تذوب فى أفق أدمته ضربات الاسبان المتتالية ، ومزقته الفتن الرهيبة بين أفراد بيت السلطنة ، وطعنته الحروب الأهلية والثورات الداخلية تأييدا لأحد السلاطين على الآخر ... فى الوقت الذى اتحدث فيه مملكتا قشتالة وأرغون بعد زواج فرناندو الرابع بايزابيلا أخت هنرى الرابع ملك قشتالة .

بدأ هذا البناء الضخم فى الانهيار ، فى عهد أبى الحسن على بن سعد بن اسماعيل بن نصر الذى وثب على السلطنة فى أغسطس سنة ١٤٦٤ ، بعد أن تآمر على أبيه وخلعه بمساعده بنى سراج . وكان أبو الحسن رجلا لاهيا ، أقبل على الترف ، واستغرق — خاصة فى أواخر أيامه — فى حياة اللذة واللهو . وفيه يقول المقرى : « وكان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل فى اللذات ، وركن الى الراحات، وأضاع الأجناد ، وأسند الأمر الى بعض وزرائه ، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد والنظر فى الملك ، ليقضى الله تعالى ما شاء » .

وكان أبو الحسن متعسفا ، أساء الى أهل مملكته وقادته ، وكثرت المظالم والمغارم على يديه . فأنكر الخاصة والعامة منه ذلك ، واستاءوا

من تصرفاته ، وقتل عددا من قواده مما أثار عليه أخاه أبا عبد الله محمد المعروف بالزغل الذى انتزى عليه بمالقة ، واستقل بهذه المدينة وما يحيط بها من مدن صغيرة . كما أثار عليه أهل غرناطة بسبب استسلامه لزوجته المسيحية ثريا الرومية ، المعروفة فى المدونات الاسبانية باسم زريدة .

وآثر أبو الحسن أن يصالح أعداءه القشتاليين حتى يتفرغ لشئون دولته ، وتم عقد معاهدة صلح فى يناير سنة ١٤٧٨ أثناء اقامة الملكين الكاثوليكيين فى اشبيلية . وقد نشر المؤرخ الاسبانى خوان ماتا كارياثو نص هذه المعاهدة (فى مجلة Al - Andalus المجلد التاسع عشر ، العدد الثانى ص ٣٦٥ ــ ٣٦٧) .

وكان السلطان أبو الحسن قد تزوج منذ اعتلائه سلطنة غرناطة بالأميرة فاطمة ، ابنة السلطان أبى عبد الله محمد الأعسر بن السلطان نصر وابنه السلطانة زهر الرياض بنت القائد أبى السرور مفرج (١) ، وهى المعروفة بفاطمة الحرة سلطانة غرناطة التى أصبح اسمها يمثل أحد الموضوعات القصصية العالمية منذ القرن السادس عشر حتى وقتنا هذا . ورزق منها مولاى أبو الحسن بولدين أكبرهما أبو عبد الله محمد

(١) كان الرأى القديم السائد لدى المؤرخين هو ان زوجة أبى الحسن وأم أبى عبد الله محمد هى عائشة الحرة ، ابنة السلطان أبى عبد الله محمد الايسر بن يوسف ، حتى نشر المؤرخ الاسبانى المعاصر دون لويس سكو دى لوثينا مقالا بحث فيه عن السلطانة أم أبى عبد الله (ظهر هذا المقال فى مجلة (Al Andalus) سنة ١٩٤٧ العدد الثانى صفحة ٣٥٩ ٣٩١) . واعتمد فيه على وثيقتين عربيتين نصتا على أن سلطانة غرناطة سنة ١٤٩٤ كانت تعرف باسم فاطمة الحرة .
ويؤكد دون لويس سكو ان هذا الاسم ينطبق بلا شك على ام السلطان أبى عبد الله آخر ملوك غرناطة ، ولا ينطبق على زوجته لان زوجته التى كانت تعرف باسم مريمة ، حسب احدى الروايات ، وام الفتح حسب رواية أخرى ــ كانت قد توفيت فى اغسطس ١٤٩٣ . أما عائشة الحرة التى ذكرها المؤرخون فهو اسم أخت السلطان أبى عبد الله واسم أخت فاطمة الحرة ابنتى أبى عبد الله محمد بن نصر .

والأصغر أبو الحجاج يوسف ، كما أنجب منها بنتا واحدة هى الأميرة عائشة •

وكان من الطبيعى أن ينصب أبو عبد الله محمد وليا لعهد سلطنة غرناطة ، لولا أن أحب أبو الحسن فتاة مسيحية بارعة اسمها ايزابيل دى سوليس ، كان قد أسرها فى احدى معاركه ، وألحقها فى قصر حريمه • فلما اعتنقت الاسلام تسمت بثريا ، وعرفت فى المصادر العربية بثريا الرومية ، ثم وقعت ثريا موقعا حسنا لدى السلطان أبى الحسن فتزوجها، وآثرها على زوجته فاطمة التى عرفت منذ ذلك الحين بالحرة ، باعتبارها الزوجة الشرعية التى أنجبت ولى العهد •

وأنجبت له ثريا ولدين : هما سعد ونصر ، ونالت لدى السلطان حظوة كبرى ، وأصبح لها المكان الأول عند السلطان لجمالها ونضارة شبابها وفتنتها ، وما لبثت أن سيطرت عليه سيطرة تامة • ووقع السلطان ـ وكان شيخا ـ تحت ارادتها ، وأسلم لها كل أموره ، وأصبح أداة سهلة بين يديها • وهكذا استأثرت ثريا بالسلطان ، فأخذت تعمل على استغلال ما أصابته من نفوذ وحظوة فى النيل من غريمتها فاطمة الحرة ، وأخذت تبذل كل جهودها فى سبيل اقصائها هى وولديها ، حتى يمكنها بعد ذلك أن تحول ولاية العهد من أبى عبد الله الى أحد ولديها سعد ونصر • وخضع السلطان لاغرائها وسحر جمالها ، فأقصى فاطمة الحرة سليلة سلاطين غرناطة وابنيها عنه ، وحرمهم من عطفه ورعايته •

ولم تكتف ثريا بذلك ، بل أمعنت فى الكيد للزوجة المنكوبة ، ومازالت بالسلطان تغريه بكافة الطرق والوسائل حتى أمر بحبس السلطانة فاطمة وولديها فى أحد أبراج قصر الحمراء • وكان هذا العمل الأخرق من جانب السلطان كفيلا باغضاب كبار رجال الدولة ممن يؤيدون ولى العهد وأمه ، وعلى رأسهم بنو سراج • ويذكر المقرى ميل الناس الى

أولاد الحرة بقوله : « وكان قد اصطفى على أمهما رومية كان لهـا منه بعض ذرية ، وكانت حظية عنده مقدمة فى كل قضية ، فخيف أن يقدم أولاد الرومية على أولاد بنت عمه السنية ، وحدث بين خدام الدولة التنافر والتعصب لميل بعضهم الى أولاد الحرة ، وبعضهم الى أولاد الرومية » .

واستمرت ثريا فى طغيانها واستبدادها ، وأصبح السلطان الشيخ ألعوبة سهلة بين يديها تفعل به كما تشاء ، فحرضته على الفتك بولديه . وكان السلطان غائبا عن قصره فى احدى غزواته ضد القشتاليين حين دبر بنو سراج لفاطمة الحرة ولولديها سبيل الفرار من أسرهم فى يوليو سنة ١٤٨٢ . ويذكر هرناندو البياس أنهم تدلوا من احدى نوافذ البرج ، وهبطوا الى الأرض مستعينين ببعض الأغطية والكسوات ، وزودهم المتآمرون بالسلاح اللازم .

ويقول المقرى بهذه المناسبة : « وفى السابع والعشرين من جمادى الأولى ، هرب الأميران أبو عبد الله محمد وأبو الحجاج يوسف خوفا من أبيهما أن يفتك بهما باشارة حظيته الرومية ثريا ، واستقرا بوادى آش وقامت بدعوتهما أما الامير أبو الحجاج يوسف فقد دس له أبوه من قتله فى المرية ، وأما أبو عبد الله محمد فقد نجح فى الفرار فى وادى آش .

كان أبو عبد الله محمد لا يتجاوز العشرين عاما ، حين أعلن الثورة على أبيه فى وادى آش ، وبايعته المرية وبسطة وغرناطة ، واجتمع لديه الأنصار والمؤيدون من سائر مملكة غرناطة ، وانضم اليه أكثر أهلها فما كاد السلطان أبو الحسن يعود من حملته مظفرا ، حتى كانت الثورة ضده قد اشتعلت فى غرناطة ، ففر الى مالقة التى كان يحكمها أخوه أبو عبد الله محمد الزغل . ونصب أهل غرناطة ابنه أبا عبد الله محمد سلطانا مكان أبيه فى أواخر سنة ١٤٨٢ .

وانتهز الملكان الكاثوليكيان فرصة انقسام مملكة غرناطة على نفسها وشنا هجوما عنيفا على قرى مالقة وبلش فى جيش تبلغ عدته نحو ثمانية آلاف جندى ، على رأسه صاحب اشبيلية وشريش وصاحب استجة وصاحب أنتقيرة • واشتبك الجيش الاسلامى ، وعلى رأسه الأمير أبو عبد الله الزغل ، مع جيش قشتالة ، ونجح الزغل فى هزيمة القشتاليين فى مارس سنة ١٤٨٣ ، وتعرف هذه الموقعة التى انتصر فيها المسلمون بالشرقية لوقوع مكانها الى الشرق من مالقة ، « وقتل من النصارى فى هذه الوقعة نحو ثلاثة آلاف ، وأسر نحو ألفين من الأكابر ، وغنم المسلمون غنيمة وافرة من الأنفس والأموال والعدة والذهب والفضة » •

ولما سمع السلطان أبو عبد الله ، صاحب غرناطة ، بأن عمه بمالقة قد تغلب على القشتاليين ، أراد أن يثبت شجاعته هو الآخر وينال نصيبه من شرف الانتصار ، فخرج على رأس جيش مؤلف من أهل غرناطة والشرقية ، فى ابريل سنة ١٤٨٣ الى أن بلغ نواحى لشانة (Lucena) ، وحاز بعض الانتصارات على القوات القشتالية • غير أنهم ما لبثوا أن تجمعوا عليه من سائر النواحى ، وقطعوا عليه خط الرجعة ، وحالوا بين المسلمين وبلادهم فى جبال وأوعار • فانكسر جيش المسلمين وأسر منهم عدد كبير ، وكان فى جملة الأسرى السلطان نفسه « فلما علم به صاحب لشانة ، أراد صاحب قبرة أن يأخذه منه فهرب به ليلا وبلغه الى صاحب قشتالة » • وقاده القائد الكونت دى قبره ذليلا يرسف فى الأغلال والقيود الى أحد الحصون حيث أقيمت عليه الحراسة الشديدة • وأبلغ النبأ الى الملكين الكاثوليكيين فاغتبطا بأسره أشد الاغتباط ، وأنعما على الكونت دى قبرة ، وفكرا فى الاستفادة من أسره •

وعادت فلول جيش أبى عبد الله الى غرناطة وقد نكست ما تبقى لديها من أعلام لم تسلب ، وساد الحزن أهل غرناطة ، وعقد رؤساء المدينة وكبار قادتها اجتماعا كبيرا ، وقرروا استدعاء السلطان المخلوع

أبى الحسن ليتولى السلطنة ، وأرسلوا وفدا لذلك الغرض ، وأتى الوفد به الى غرناطة ، وبايعوه رغم ما أصابه من المرض والصراع الى أن ذهب بصره ، ولم يطل العهد بأبى الحسن فقد تعذر عليه القيام بأعباء الحكم ، فتنازل لأخيه أبى عبد الله ، وعاد هو الى المنكب ليقضى فيها أيامه الأخيرة حتى مات سنة ١٤٨٥ .

وفى تلك الأثناء أخذ جيش قشتالة يجرد مملكة غرناطة من حصونها الكبرى واحدا تلو الآخر ، حتى يخلو أمامه الطريق الى العاصمة ، فزحف الى رندة وحاصرها وقذفها بالأنفاط . وأمام هذا السلاح الجديد لم تقو حامية المدينة على الدفاع عنها ، فاستسلمت المدينة فى ابريل سنة ١٤٨٥ ، وتبع ذلك سقوط عدد كبير من القلاع والحصون الواقعة حول رندة .وتأهب الملكان الكاثوليكيان للانقضاض على مالقة ، ولكنهما كانا ينتظران الفرصة المواتية لتسديد الضربة التالية .

وفى الاستيلاء على رندة يقول المقرى : « وفى شهر ربيع الآخر من سنة تسعين وثمانمائة خرج العدو فى قوة الى نواحى مالقة ، بعد أن كان فى السنة قبلها استولى على حصون ، فاستولى هذه السنة على بعض الحصون ، وقصد ذكوان فهد أسوارها ، وكان بها جملة من أهل الغربية ورنده . ودخل ألف مدرع ذكوان عنوة ، فأظفر الله بهم أهل ذكوان فقتلوهم جميعا ، ثم طلبوا الأمان وخرجوا . ثم انتقل فى جمادى الأولى الى رندة وحاصرها ، وكان أهلها خرجوا الى نصرة ذكوان وسواها ، فحاصر رندة ، وهد أسوارها وخرج أهلها على الأمان ، وطاعت له جميع تلك البلاد ، ولم يبق بغربى مالقة الا من دخل فى طاعة الكافر وتحت ذمته ، وضيق بمالقة وفرق جيشه على بعض الحصون ليحاصروا مالقة » .

وحدث أن قامت فتنة فى غرناطة أذكاها فريق من أنصار السلطان الأسير ، واشتغل الزغل بأخماد هذه الفتنة . وهنا أطلق فرناندو سراح

أبى عبد الله محمد ، وعقد معه معاهدة لمدة عامين اشترط فيها فرناندو أن يتعهد السلطان بالدخول فى طاعته ، وأن يقدم اليه جزيـــة سنوية مقابل أن يمده فرناندو اذا شاء بالسلاح والمال والرجال . وفى ذلك تقول الرواية العربية : « فبعث الى السلطان أبى عبد الله الذى تحت أسره ، وكساه ووعده بكل ما يتمناه ، وصرفه لشرقى بسطة وأعطاه المال والرجال، ووعده أن من دخل تحت حكمه من المسلمين ، وبايعه من أهل البلاد ، فانه فى الهدنة والصلح والعهد والميثاق الواقع بين السلاطين ...

وهكذا عاد السلطان الأسير الى منطقة الشرقية يدعو لنفسه ضد عمه الزغل ، ويطلب من المسلمين الدخول فى طاعته فيؤمنهم من الأعداء، وخرج لبلش فأطاعه أهلها ودخلت بلش فى طاعته ، ونودى فى الأسواق، « وصرخت به فى تلك البلاد الشياطين ، وسرى هذا الأمر حتى بلغ أرض البيازين من غرناطة ، وكانوا من التعصب وحمية الجاهلية والجهل بالمقام الذى لا يخفى ، وتبعهم بعض المفسدين المحبين تفريق كلمة المسلمين . وممن مال الى الصلح عامة غرناطة لضعف الدولـــة . ووسوس للناس شياطين الفتنة وسماسرتها بتقبيح وتحسين ، الى أن قام ربض البيازين بدعوة السلطان الذى كان مأسورا عند المشركين ، ووقعت فتنة عظيمة فى غرناطة نفسها بين المسلمين لما أراده الله تعالى من استيلاء العدو على تلك الأقطار » .

وفى هذه الأثناء هاجم القشتاليون مدينة لوشة ، وكان فيها السلطان أبو عبد الله ، وضيق جيش قشتالة الحصار عليها ، فلم يجد أهل لوشة بدا من طلب الأمان فى أموالهم وانفسهم وأرواحهم ، فوفى لهم فرناندو بذلك ودخل المدينة فى مايو سنة ١٤٨٦ وقيل ان السلطان بقى بعد سقوط المدينة ، فشاع عند أهل غرناطة وقتئذ « أنه ما جاء للوشة الا ليدخـــل اليها العدو الكافر ، ويجعلها فداء له . وقيل انه سرح له حينئذ ابنه اذ كان مرهونا للفداء ... » .

واستتبع سقوط لوشة فى أيدى القشتاليين سقوط عدة حصون ، فاستولى القشتاليون على حصن البيرة على مقربة من مالقة وخرج أهلها الى غرناطة ، ثم سقط حصن مكلين وحصن قلنبيرة دون قتال ، و التجأ أهله الى غرناطة ثم استقر تقدم القشتاليين فى هذه المنطقة ، فاستولوا على منتفريو ورموها بالمحرقات وغيرها ، فطلب أهلها الأمان والتجـأوا الى غرناطة،وأخذ العدو يلتهم سائر الحصون المجاورة فاستولى على المصخرة، وحصن هذه القلاع جميعا وحشد فيها رجاله وأعد العدة لمحاصرة غرناطة .

وشغل السلطان الزغل باخماد فتنة غرناطة عن الدفاع عن مدنه ، ثم ظهر أبو عبد الله فجأة فى البيازين ، فزادت النار اشتعالا ، وانقسمت غرناطة الى فريقين : فريق يؤيد الزغل ، وعلى رأسه أهل غرناطة نفسها، وفريق يؤيد أبا عبد الله محمد وعلى رأسه أهل البيازين (١) . واشتـد أمر الفتنة ، وحين تأهب الزغل لاخمادها جاءته الأنباء بمحاصرة جيش فرناندو لمدينة بلش ـــ حصن مالقة الأمنع ـــ فى مارس سنة ١٤٨٧ .

وأدرك الزغل خطورة الموقف وأشار عليه أنصاره بالمسير لاغاثـة بلش ، فأسرع اليها محاولا انقاذها ، وانتهز أبو عبد الله فرصة رحيل عمه ، واستولى على زمام الأمور فى غرناطة مكانة ، أما الزغل فقد انضم مع بعض رجاله من البشرات ووصل بلش ، فوجد الأعـداء محاصرين لها برا وبحرا ، واستمات أهلها فى الدفاع عنها ولكن ذلك لم يغـير من

---

(١) يقول المقرى : « فاتى على حين غفلة ، ولم يكن يظن بنفسـه ، فاتى البيازين ودخلها ونادى فى اسواقها بالصلح التام الصحيح ، فلم يقبل ذلك منه أهل غرناطة ، وقالوا : ما يعهد لوشة من قديم . ودخل ربض البيازين بالرجال سادس شوال سنة احدى وتسعين وثمانمائة ، وعمه بالحمراء ، وانتقل للقلعة ، واشتد أمر الفتنة . ثم أن صاحب قشتالة أمد صاحب البيازين بالرجال والعدة والمال والقمح والبارود وغيرها ، واشتد أمره بذلك ، وعظمت اسباب الفتنة ، وفشا فى الناس القتـل والنهب » .

مصيرها المحتوم فسقطت فى ابريل سنة ١٤٨٧ ، وفر الزغل مع من بقى من رجاله عائدا الى غرناطة ، ولكنه علم باغتصاب ابن أخيه للسلطنة ، فلاذ بوادى آش وامتنع فيها بقواته ، وانضوى تحت لوائه بعض المدن الشرقية والجنوبية • وهكذا انقسم ما يمكن أن نسميه بمملكة غرناطة الى شطرين متنازعين مما هيأ المجال لسيادة القشتاليين •

ورأى ملك قشتالة أنه لابد أن يسدد ضربته التالية الى اقليم وادى آش ومالقة حتى يتفرغ بعد ذلك لمواجهة تابعه أبى عبد الله محمد ، فزحف الى مالقة وحاصرها برا وبحرا ، وقاتله أهلها قتالا عظيما بمدافعهم وعدتهم وخيلهم ورجالهم ، وطال الحصار عليها حتى أدار القشتاليون على مالقة من البر الخنادق ، والسور والأجفان من البحر ،ومنعوا الداخل اليها ، وقربوا المدافع ودخلوا الأرباض ، وضيقوا على السكان الحصار حتى فنى ما عندهم من الطعام ، فأكلو المواشى والخيل والحمير ، وبعثوا يستنجدون بملوك المغرب وسلاطين مصر والقسطنطينية (١) •

وأرسلوا آخر صيحة للاستغاثة الى السلطان الأشرف قايتباى ممثلة فى سفارة أندلسية وصلت مصر فى نوفمبر سنة ١٤٨٧ ، ولكن السلطان لم يفعل أكثر من ارساله سفارة مصرية الى البابا والملكين الكاثوليكيين يطلب منهم الكف عن الاعتداء على المسلمين ، والرحيل عن أراضيهم والا فسيضطر الى التنكيل برعايا المسيحيين فى بيت المقدس •

ولما وصلت السفارة المصرية الى فرناندو فى سنة ١٤٨٩ كانت مالقة قد سقطت منذ عامين (فى أواخر شعبان سنة ٨٩٢ هـ — أغسطس سنة ١٤٨٧ م) ، كما سقط غيرها من المدن مثل بلش والشرقية •

وكان فرناندو ، وقت وصول السفارة المصرية ، يحاصر مدينة

(١) يقول المقرى فى ذلك : « وبعثوا الكتب لأهل العدوتين — وهم طامعون فى الاغاثة — فلم يأت اليهم أحد » •

بسطة ، ويقذفها بالمدافـــع والآلات من الأسوار • واستقبل فرنـــاندو أعضاء السفارة فى حفاوة بالغة ، وكتب الى السلطان قايتباى : « أنه لا يفرق بين معاملة الرعايا المسلمين والمسيحيين ، وأن عمله هو استرداد أرض أجداده من الغرباء » •

ويغلب على الظن أن سلطان مصر قنع بهذا الجواب بعض الوقت ، ولم يقدم على أية خطوة حاسمة فى سبيل انقاذ غرناطة لانشغاله بشئون مصر الداخلية • وقد أرسل الملكان الكاثوليكيان الى سلطان مصر سفارة سنة ١٥٠٢ لمراضاته ، وكان سفيرهما عليها « بدرو مارتير دى انجليريا »

وما كاد جيش قشتالة يستولى على مالقة حتى أخذ يضم ما حولها من حصون استعدادا لالتهام المرية والمنكب ، وهمـــا الثغران الكبيران الباقيان فى حوزة لمسلمين ، وكانا حلقة لاتصال بين الأندلس وبلاد المغرب التى كانت تبعث مجاهديها اليه لانقاذه • وما لبث فرناندو أن تقـــدم بجيوشه الى المنكب فسقطت فى يده سنة ١٤٨٩ ثم تبعتها المرية فى فبراير سنة ١٤٩٠ • وهكذا انكسر الجسر الذى كان يعبره الغزاة والمجاهدون من المغرب الى الأندلس ، وأحدقت قشتالة بغرناطة من سائر الجهات كمـــا يحدق بالربوة السيل • وكانت بسطة قد سقطت فى يده فى ديسمبر سنة ١٤٨٩ •

فلما رأى الزغل سقوط بسطة والمنكب والمرية وتقدم جيوش قشتالة نحو وادى آش حاضرة اقليمه،وعرف أنه لامناص من تسليمها هى الأخرى سلم مدينة وادى آش للنصارى فى يناير سنة ١٤٩٠ مقابل أن يمنحـــه فرناندو حكم أراضية باسمه ويبقى تحت حمايته • غير ان الزغل ما لبث من المال ثم جاز الى المغرب الأدنى ، ونزل فى وهران ، ثم انتقـــل الى تلمسان • وهناك قضى ما بقى من حياته نادما • ويذكر المقرى أن بتلمسان نسله الى وقته ويعرفون ببنى سلطان الأندلس •

لم يبق أمام فرناندو وايزابيلا سوى غرناطة ، وعلى رأسها أبو عبد الله الذى لقباه بالملك الصغير (El Rey Chico) لضعف شخصيته وحداثته ، فتوجها اليه بطلب تسليم قصر الحمراء ، مقر الحكومة ، على أن يظل السلطان حاكما لغرناطة تحت حمايتهما .

ويبدو أن السلطان الصغير قد أدرك وقتئذ أنهما خدعاه ، كما أدرك أنه تخلى عن أكبر نصير له وهو الزغل بمحالفة الملكين الغادرين ، معاونتهما على بنى جنسة . ولا يعقل ما يتهمه به مؤرخو العرب من أنه كان على اتفاق مع ملك قشتالة كما تقول الرواية العربية : « ثم بعث فى السنة نفسها رسلا لصاحب غرناطة أن يمكنه من الحمراء كما مكنه عمه من القلاع والحصون ، ويكون تحت ايالته ويعطيه مالا جزيلا على ذلك ، وأى بلاد شاء من الأندلس يكون فيها تحت حكمه . قالوا : وأطمعه صاحب غرناطة فى ذلك ، فخرج العدو فى حملاته لقبض الحمراء والاستيلاء على غرناطة ، وهذا فى سر بين السلطانين » .

ولاشك أن السلطان أبا عبد الله لم يرض بذلك الوضع ، وأنه لم يكن على اتفاق مع ملك قشتالة ، كما تزعم الرواية العربية ، بدليل أن الرواية نفسها تضيف بعد ذلك أن السلطان اجتمع بكبراء مملكته لدراسه الموقف ، وأنهم أجمعوا على القتال حتى الموت دفاعا عن وطنهم وحريتهم ودينهم وقوميتهم ، فتقول الرواية : « فجمع صاحب غرناطة الأعيان والكبراء والأجناد والفقهاء والخاصة والعامة ، وأخبرهم بما طلب منه العدو ، وأن عمه أفسد عليه الصلح الذى كان بينه وبين صاحب قشتالة بدخوله تحت حكمه ، وليس لنا الا احدى خصلتين : الدخول فى طاعته أو القتال . فاتفق الرأى على الجهاد والوفاء بما عقده من صلح » .

التهبت قلوب أهل غرناطة حماسة بفضل من تدفق اليها من اللاجئين المسلمين ، ودوت صيحات الجهاد فى كل مكان . فاضطر فرناندو الى الزحف على غرناطة . وفى سنة ١٤٩٠ م خرج فرناندو على رأس جيشه

يدمر كل ما يحيط بغرناطة من بسائط ومروج ، وعاث فسادا فى هذه المواضع ، وحاصر المدينة غير أنه ما لبث أن رحل عنها .. وانتهز السلطان هذه الفرصة ، وحصن أسوار المدينة وما يتقدمها من قلاع ، وحشد فيها جنوده ورجاله استعدادا للجولة القادمة .

وفى السنة نفسها عزم السلطان أبو عبد الله على اختراق الحصار الذى فرضه القشتاليون حول غرناطة ، واعادة الاتصال بينه وبين المنكب حتى يتمكن المجاهدون المغاربة من اتدفق الى غرناطة ، فاستولى على أندرش . وخشى فرناندو أن يكون ذلك مقدمة لاسترداد المسلمين لميناء المنكب . وعزم على وضع حد لذلك ، ورأى أن غرناطة هى أصل البلاء ولا بد من استئصالها ، فخرج فى سنة ١٤٩١ بجيوش كثيفة بلغ عددها ما يتجاوز خمسين ألف مقاتل مسلحة بالمدافع والعدد ، وأشرف على فحص غرناطة فى ابريل سنة ١٤٩١ ، وانتسف فى طريقه مزارع غرناطة ومروجها ، وضرب الحصار حولها ، وصمم على فتحها فأنشأ مدينة تجاهها سماها « سانتافى » Santafé وتعرف لدى العرب بشنتفى ، وصرف همته الى الاقامة على الحصار صيفا وشتاء وصار يضيق على غرناطة كل يوم . ودام القتال سبعة أشهر ، واشتد الحصار بالمسلمين . غير أن الطريق بين غرناطة والبشرات كان متصلا أثناء الصيف ، وكانت الأقوات ترد على غرناطة من ناحية جبل شلير (سيرا نفادا) الى أن تمكن فصل الشتاء ، وكلب البرد ، ونزل الثلج ، فانسد باب المرافق ، وانقطع الجالب وقل الطعام واشتد الغلاء وعظم البلاء .

واستولى القشتاليون على أكثر الأماكن خارج غرناطة ، ومنع المسلمون من الحرث والسبب ، وضاق الحال ، وبان الاختلال ، وعظم الخطب .

ولم يقف المسلمون مكتوفى الأيدى كالشاه تنتظر ذبحها ، وانما كانوا يخرجون مرارا يهاجمون محلات العدو ، ويبدون ضروبا فائقة

من الشجاعة والاستماتة والبأس ... غير أن الجوع اشتــد بالناس ، وأصبح من المستحيل أن يصروا على الحصار ، فدب اليأس فى قلوبهم ، وهرعوا الى السلطان يسألونه التسليم .

وتقول الرواية العربية : « وطمع العدو فى الاستيلاء على غرناطة بسبب الجوع والغلاء دون الحرب ، ففر ناس كثيرون من الجوع الى البشرات ، ثم اشتد الأمر فى شهر صفر من السنة ، وقل الطعام ، وتفاقم الخطب ، فأجتمع ناس مع من يشار اليه من أهل العلم وقالوا : انظروا فى أنفسكم ، وتكلموا مع سلطانكم ، فأحضر السلطان أهل الدولة وأرباب المشورة ، وتكلموا فى هذا المعنى ، وأن العدو يزداد مدده كل يوم ونحن لا مدد لنا ، وكان ظننا أنه يقلع عنا فى فصل الشتاء ، فخاب الظن ، وبنى وأسس وأقام وقرب منا ... فانظروا لأنفسكم وأولادكم . فاتفق الرأى على ارتكاب أخف الضررين . وشــاع أن الكلام وقع بــين النصارى ورؤساء الأجناد قبل ذلك فى اســلام البلد خوفــا على نفوسهم وعلى الناس » .

اتفق السلطان مع كبار رجاله وقواده على مفاوضة فرنــاندو فى التسليم بشروط ، واختير وفد المفاوضة . وتذكر الرواية العربية أن ملك قشتالة منح أعضاء هذا الوفد كثيرا من العطايا والمنح ، ووافق على جميع الشروط فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٤٩١ ، وقد بلغ عدد هــذه الشروط سبعة وستين شرطا ، منها تأمين الصغير والكبير فى النفس والأهــل والمال ، وابقاء الناس فى أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقــارهم ، ومنها اقامــة شريعتهم على ما كانت عليه ، ولا يحكم على أحد منهم الا بشريعتهم ، وأن تبقى المساجد كما كانت ، وألا يدخل النصارى دار مسلم ولا يغصبوا أحدا ، وألا يولى على المسلمين نصرانى أو يهودى ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم ، وأن يطلق سراح جميــع أسرى المسلمين فى غرناطــة ، وخصوصا بعض الأعيان نص عليهم . ومن أراد الجواز للعدوة لايمنع ،

ويحدد للجواز وقت معين ، وأن يضع ملك قشتالة تحت تصرفهم ما يلزمهم من سفن تكرى لهم ، فاذا تجاوز الوقت المحدد ، وأراد بعضهم العبور دفع عشر ما يحمله من مال بالاضافة الى الكراء ، وألا يؤخذ أحد بذنب غيره ، وألا يقهر مسلم على التنصر ، وأن تنصر من المسلمين يوقف أياما حتى يقرر بنفسه ، ويعلن ذلك أمام حاكم من المسلمين وآخر من النصارى . ولا يعاتب من قتل من قتل نصرانيا أيام الحرب ، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداء ، وألا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى ، وألا تفرض على المسلمين ضرائب جديدة ، وأن ترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة ، وأن يسير المسلم فى بلاد النصارى آمنا فى نفسه وماله ، ولا تجعل للمسلمين علامة كما هو الحال مع اليهود وأهل الدجن ، ولا يمنع مؤذن ولا مصل ولا صائم ولاغيره من أمور دينه ، ومن ضحك من النصارى استهزاء يعاقب ، وأن يوافق على كل هذه الشروط صاحب رومة ويوقع عليها بيده (١) .

أما الشروط الخاصة بسلطان غرناطة فهى أن يغادر غرناطة الى منطقة البشرات ، ويجعل مقره فى أندرش على أن يخضع لملك قشتالة . واشترط ملك قشتالة قبل أن يدخل غرناطة أن يقدم اليه أهلها ٥٠٠ من أعيان المدينة بمثابة رهينة ، خشية أن يغدروا بجيشه ويثبوا على رجاله.

وتليت شروط معاهدة التسليم فى غرناطة ، فعم الحزن واليأس قلوب الناس ، وضجوا بالبكاء والنحيب . واتفق السلطان المنكوب مع ملك قشتالة على تسليم المدينة فى ١٢ ربيع الأول سنة ٨٩٧ هـ (٢ يناير

---

(١) نكث القشتاليون هذه الشروط بعد سنوات من سقوط قشتالة ، وحملوا المسلمين على التنصر بقوة السلاح وكل وسائل الارهاب والتعذيب ، فتنصر من المسلمين عدد كبير يعرفون باسم المورسكيين .. وثار عدد آخر بقوا على دينهم ، وامتنعوا عن التنصر ، فحشدت لهم الجيوش واستؤصلوا قتلا وسبيا .

سنة ١٤٩٢ م) . وفى ذلك اليوم دخلت جيوش قشتالة حمراء غرناطة يتقدمها موكب دينى ، وشهد أهل غرناطة بقلوب تتمزق حسرة صليبا فضيا يرتفع بأعلى برج المراقبة بين علم قشتالة وعلم شينت ياقب ، وسمعوا ، ودموعهم تسيل ، صوت الأجراس والنواقيس معلنة سقوط غرناطة فى أيدى المسيحيين ، وانتهاء دولة الاسلام بالأندلس .

. .

ويقول صاحب أخبار العصر فى انقضاء دولة بنى نصر : « وأقبل ملك الروم بجيوشه حتى قرب من البلد ، وبعث جناحا من جيشه فدخلوا مدينة الحمراء ، وأقام هو ببقية الجيوش خارج البلد ... لأنه كان يخاف من الغدر ، وكان طلب من أهل البلد ، حين وقع الاتفاق على ما ذكر ، رهونا من أهل البلد ليطمئن بذلك . فلما إطمأن من أهل البلد ، ولم ير منهم غدرا ، سرح جنوده لدخول البلد والحمراء ، فدخل منهم خلق كثير وبقى هو خارج البلد ... ثم أن ملك الروم سرح الناس الذين كانوا عنده مرتهنين ومؤمنين فى أموالهم وأنفسهم مكرمين ، وأقبل فى جيوشه حين اطمأن ، فدخل مدينة الحمراء فى بعض خواصه » . وأمر فرناندو بتحصين الحمراء ، وتجديد بناء قصورها ، واصلاح سورها ، وصار يختلف الى الحمراء نهارا ويبيت بمحلته ليلا حتى اطمأن الى أهل المدينة ، فدخلها وأقام فيها .

.

وهكذا انطوت بسقوط غرناطة آخر صفحة من تاريخ الأندلس المجيد ، ولكن مأساة أبى عبد الله لم تنته الى هذا الحد ، فقد كتب عليه أن يغادر قصره ومدينته الحبيبة منفيا الى أندرش ، وخرج هذا السلطان المنكود ، هو وأفراد أسرته ومن تبقى من حاشيته ممن أخلص له ، فى موكب صامت حزين صبيحة يوم ٢ يناير سنة ١٤٩٢ ، وقد نكسوا الرءوس وأرسلوا الدموع . ونظر السلطان المفجوع قبل أن يغادر باب المدينة نظرة أخيرة شاملة ثم ضج بالبكاء .

وتبدأ القصيدة باستجارة أبى عبد الله بسلطان فارس فيقول :
حتى أدرك الركب معسكر ملك قشتالة ، فسلم اليه أبو عبد الله مفاتيح الحمراء ، ومضى فى طريقه الى أندرش . وهناك أدرك مدى ما تردى فيه من هوان وذلة ، واستحالت عليه الاقامة على هذا النحو تحت حماية النصارى ، فقرر الهجرة الى أرض المغرب ، وتنازل عن ولايته للبشرات مقابل قدر من المال ، وجاز البحر من المرية فى سنة ١٤٩٣ ، ونزل فى مليلة ، ثم انتقل منها الى فاس واستوطنها مع أهله وأولاده .

وكان قد كتب الى سلطان فاس أبى عبد الله محمد الشيخ ، زعيم بنى وطاس ، مستجيرا به معتذرا عما أصاب الاسلام على يديه ، ودافع عن نفسه فى رسالة تعد من أرفع وأروع الصور الأدبية . وتعبر هذه الرسالة عن عظم مسئولية أبى عبد الله أمام شعبه الأندلسى ، وأمام المسلمين جميعا . وأمام التاريخ . والرسالة من انشاء الكاتب البليغ أبى عبد الله محمد بن عبد العربى العقيلى ، سماها بالروض العاطر الأنفاس فى التوسل الى المولى الامام سطان فاس . وافتتحها بقصيدة تعد أبلغ ما نظم فى التوسل ، وقد تجاوزت هذه القصيدة مائة وعشرين بيتا ، نشرها المقرى فى كتابيه نفح الطيب وأزهار الرياض .

وتبدأ القصيدة باسجارة أبى عبد الله بسلطان فارس فيقول :

مولى الملوك ملوك العرب والعجم
رعيا لما مثله يرعى من الذمم
بك استجرنا وأنت نعم الجار لمن
جار الزمان عليه جور منتقم
حتى غدا ملكه بالرغم مستلبا
وأفظع الخطب ما يأتى على الرغم

ثم يذكره بأنه كان ملكا فى بلد فجع بفقده وضياعه فيقول :

كنا ملوكا لنـــا فى أرضــنا دول
نمنا بهـــا تحت أفنان من النعم
فأيقظتنا سهام للردى صــيب
يرمى بأفجع حتف من بهن رمى

ويمضى الى موضوعه الأساسى من الرسالة ، وهو محاولة اقنـــاع سلطان فاس بأن سقوط غرناطة كان قضاء وقدرا ، وأنه لـــم يتوان عن الدفاع عنها أو يقصر فى دفع العدا ، فيقول :

وابسط لنا الخلق المرجو باسطه
واعطف ولا تنحرف واعذر ولا تلم
لا تأخـــذونا بأقوال الوشـــاه ولم
نذنب ولو كثرت أقوال ذى الوخم
فمـــا أطقنـــا دفاعا للقضـــاء ولا
أراد أنفســـنا ما حـــل من نقم
ولاتعاتب على أشـــياء قد قدرت
وخط مسطورها فى اللوح بالقلم
وعـــد عما مضى اذ لا ارتجاع له
وعد أحـــرارنا فى جملة الخـــدم
ايه ..! حنانيك يا ابن الأكرمين على
ضيف ألم بفاس غـــير محتشم

فأنت أنت ولولا أنت ما نهضـــت
بنـــا اليها خطا الوقادة الرسم
فكم مواقف صدق فى الجهاد لنا
والخيــل عالكة الأشداق للجم
والسيف يخضب بالمحمــر من علق
ما ابيض من سبل واسود من لمم
حتى دهينا بدهيا لا اقتدار بهـا
سوى على الصون للأطفال والحرم
تالله ما أضمرت غشــا ضــمائرنا
ولا طوت صحة منها على سقم

ثم يمدح سلطان فاس ، ويذكر له علاقة أجداده بنى مرين قديما بأجداده من ملوك الأندلس ، وكيف كانوا يجاهدون ويثاغرون ، فيقول:

ســلالة الأمــراء ، الجــلة الكبرا
ء ، العليــة الطهراء ، القــادة البهم
بنــو مرين ليوث فى عــرين أبوا
رؤيا قرين لهم فى الناس والكرم

وينتهى من قصيدته الطويلة ويشرع فى رسالته التى يودعها دفاعا مجيدا عن أخطائه ، ويعترف بهذه الأخطاء فى التفريط بدولة الاسلام . ومما ورد فى هذه الرسالة قوله : « ماذا الذى يقول من وجهة خجــل ، وفؤاده وجل ، وقضيته المقضية من التنصل والاعتذار تجل ... بيد أنى

أقول لكم ما أقوله لربى ، واجترائى عليه أكثر ، واجترامى اليه أكبر : اللهم لا برىء فأعتذر ، ولا قوى فأنتصر ، لكنى مستقيل مستعتب مستغفر . وما أبرىء نفسى ، ان النفس لأمارة بالسوء .. هذا على طريق التنزل والانصاف بما يقتضيه الحال ممن يتحيز الى حيز الانصاف ... على أنى لا أنكر عيوبى فأنا معدن العيوب ، ولا أجحد ذنوبى فأنا جبل الذنوب ، الى الله أشكو عجرى وبجرى وسقطائى وغلطائى ... » .

ثم يعزى نفسه فى سقوط غرناطة ، ويضرب الأمثلة بضياع بغداد كبرى عواصم الاسلام ، التى دخلها التتار ، وأطاحوا بمعالم حضارتها، ومحوا رسوم خلافتها ، فيقول :

« وكيفما كان الحال ، وان ساء الرأى والانتحال ، ووقعنا فى أوجال وأوحال : فثل عرشنا ، وطويت فرشنا ، ونكس لوانا ، وملك مثوانا ، فنحن أمثل من سوانا ... فتلك بغداد السلام ، ومتبوأ الاسلام ، المحفوف بفرسان السيوف والأقلام ، مثابة الخلافة العباسية، ومقر العلماء والفضلاء ، أولى السير الأويسية والعقول الاياسية ، وقد نوزلت بالجيوش ونزلت ، وزوولت بالزحوف وزلزلت ، وتحيف جوانبها الحيف ، ودخلها كفار التتار بالسيف ... » .

ثم يذكر أنه رفض دعوة بعض دول الشرق له للاقامة بأرضها ، وأنه آثر الاستيطان بالمغرب لما يربطه ببلاده من روابط تاريخية وعنصرية ،كما رفض أن يعيش تحت حماية ملك قشتالة اباء للذلة فيقول : « ولقد عرض علينا صاحب قشتالة مواضع معتبرة خير فيها ، وأعطى من أمانه المؤكد فيه خطه بايمانه ما يقنع النفوس ويكفيها ، فلم نر — ونحن من سلالة الأحمر — مجاورة الصفر ،ولا سوغ لنا الايمان الاقامة بين ظهرانى الكفر ... ووصلت أيضا من الشرق الينا كتب كريمة المقاصد لدينا تستدعى الانحياز الى تلك الجنبات ، وتتضمن ما لا مزيد عليه من

الرغبات ، فلم نحتر الا دارنا التى كانت دار آبائنا من قبلنا ، ولم تقبل الانضواء الا لمن بحبله وصل حبلنا ... » .

* • *

وهكذا قدر لأبى عبد الله أن يكون ضياع الأندلس على يديه ، ويقيم هذا الرجل الشقى فى فاس فى ظل سلطانها من بنى وطاس . وشيد لنفسه قصورا على طراز قصوره بالحمراء ، وعاش على الذكريات بعيدا عن وطنه ومسقط رأسه حتى مات بفاس سنة ٩٤٠ هـ (١٥٣٣ م) ، ودفن بازاء المصلى خارج باب الشريعة . وخلف ولدين أحدهما يوسف والآخر أحمد . ثم عدت على أحفاده وذريته عوادى الدهر ، فعاشوا يستجدون الناس !

موضوعـات الكتـاب

صفحة

الباب الأول
أشهر قواعد الأندلس فى العصر الاسلامى

الباب الثانى
الفنون الاسلامية بالأندلس

صفحة

الباب الثالث

الحياة العلمية والأدبية بالأندلس

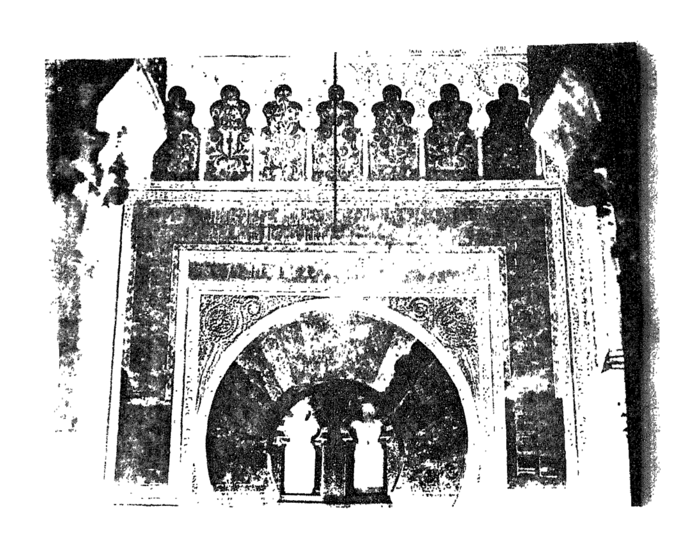
الباب الرابع

النظم السياسية بالأندلس

صفحة

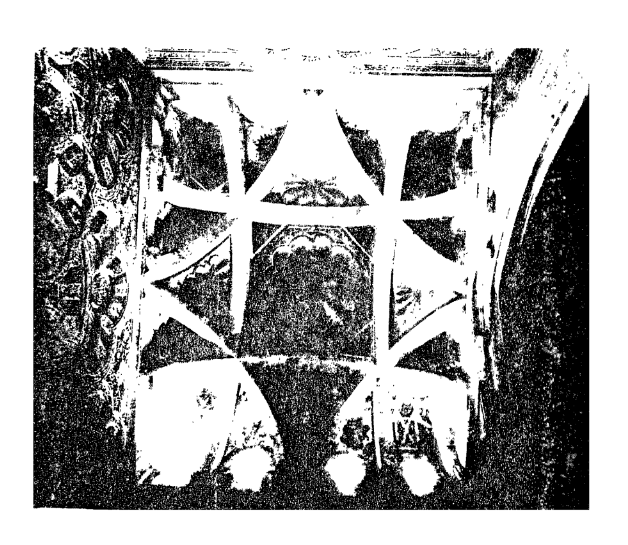
الباب الخامس
شخصيات أندلسية

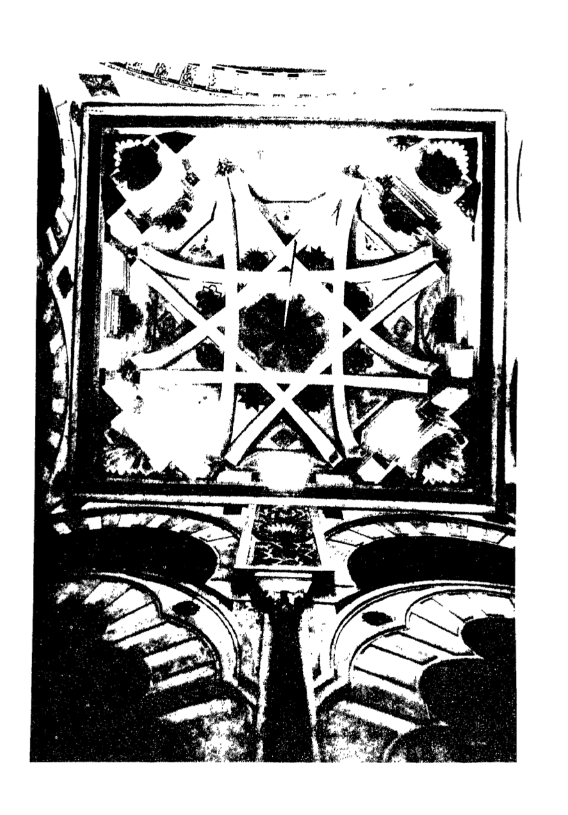
رقم الايداع ٨٤/٤٢٠٢

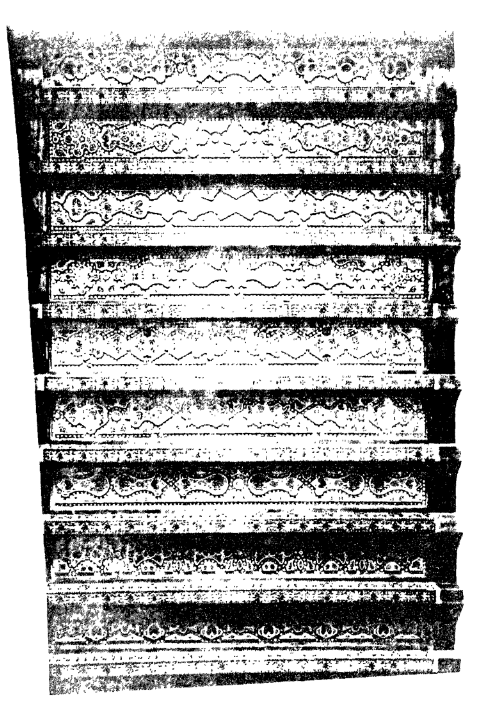


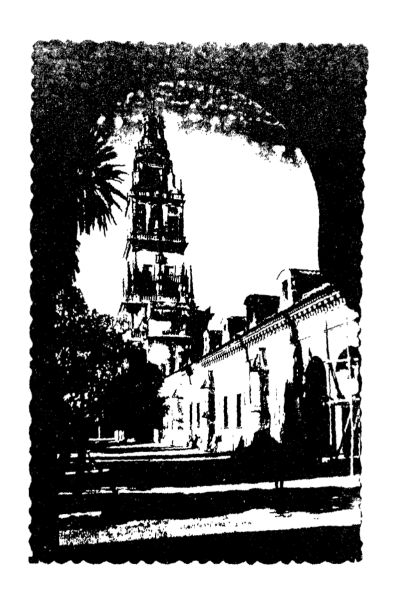
شكل ١ واجهة محراب المسجد الجامع بقرطبة .



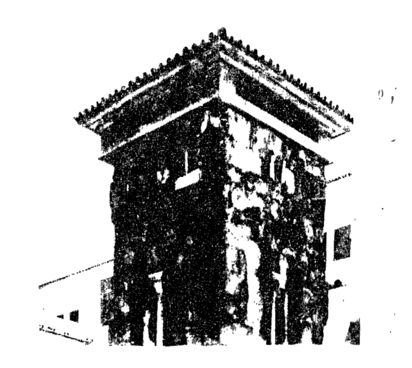








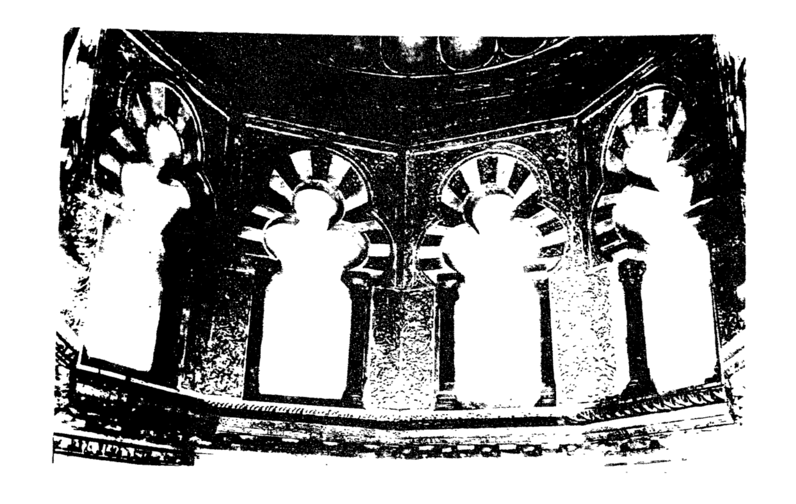
(شكل ٥ ـــ ب ـــ صحن جامع قرطبة .



شكل ٥ - ٢ برج كنيسة سان خوان بقرطبة



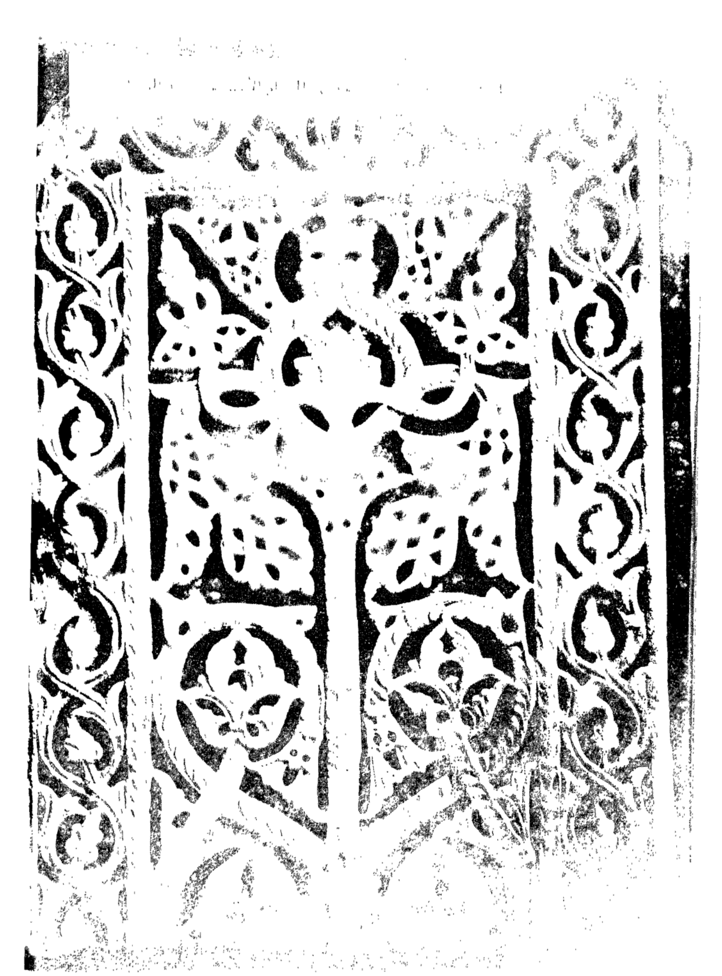
(شكل ٦ـأ) تفصيلات زخرفية بين الضلوع البارزة المتقاطعة بقبة المحراب بجامع قرطبة .





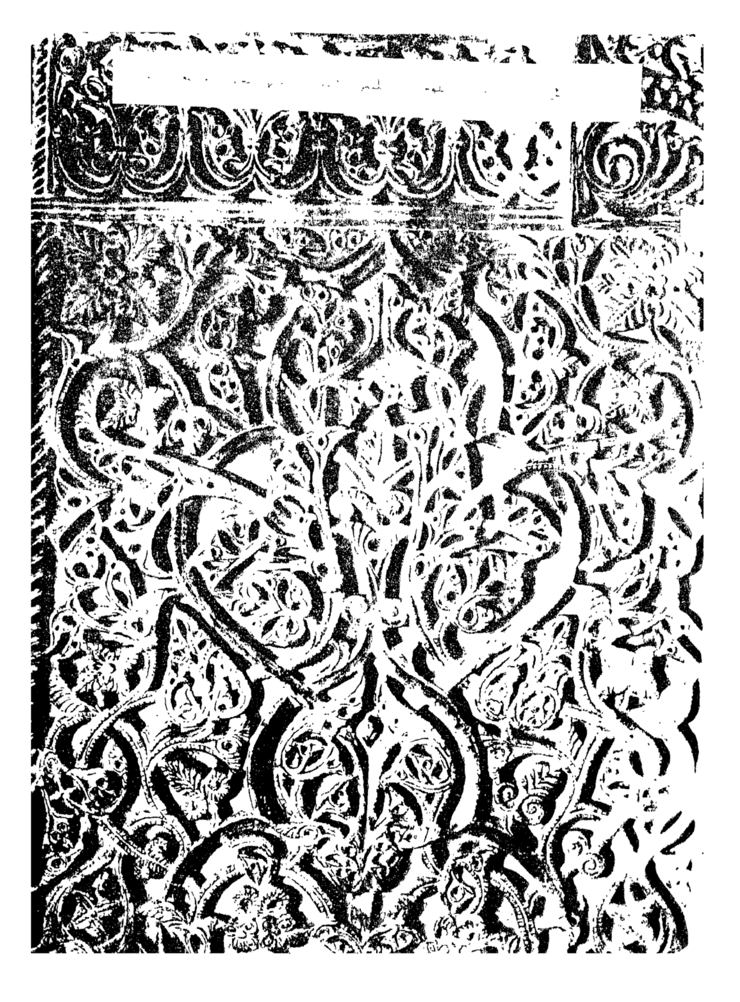
شكل [illegible] – قاعدة من الرخام الأسود [illegible]

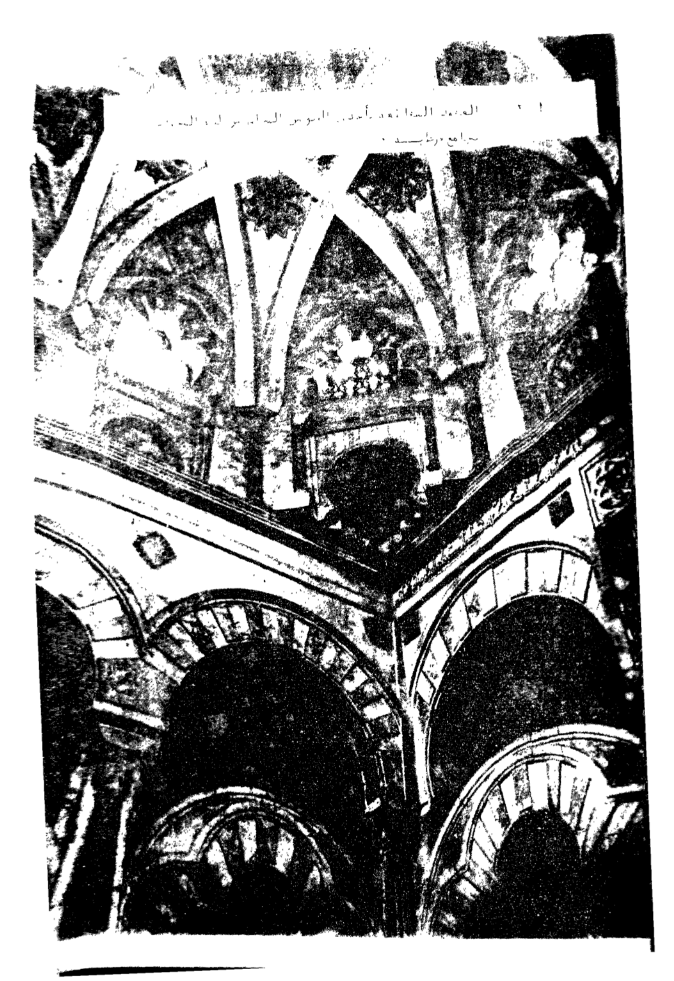






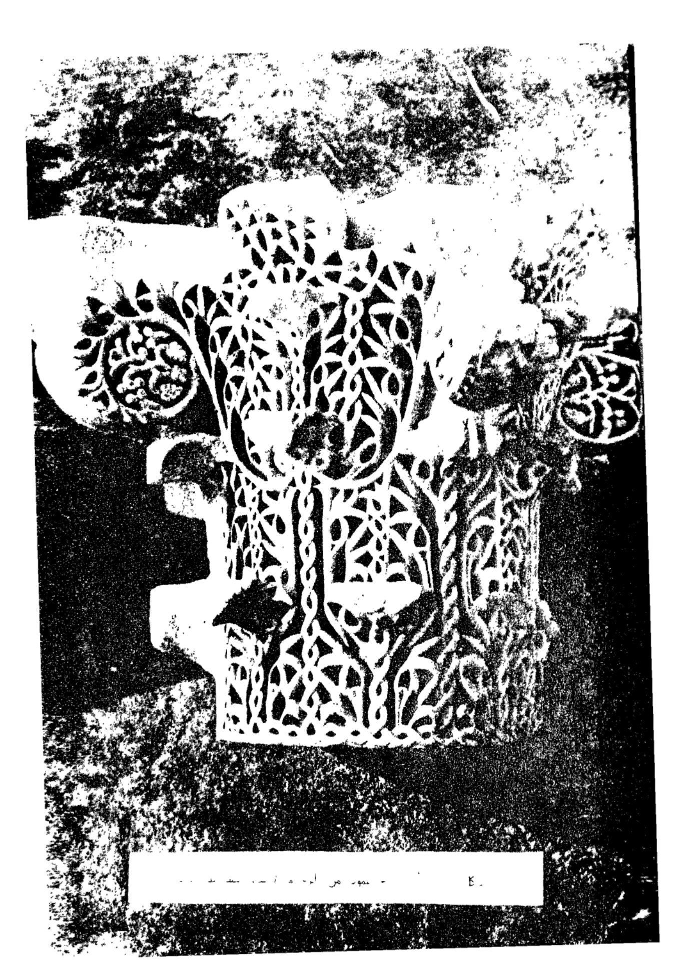
[illegible] على [illegible] الوادي الكبير .



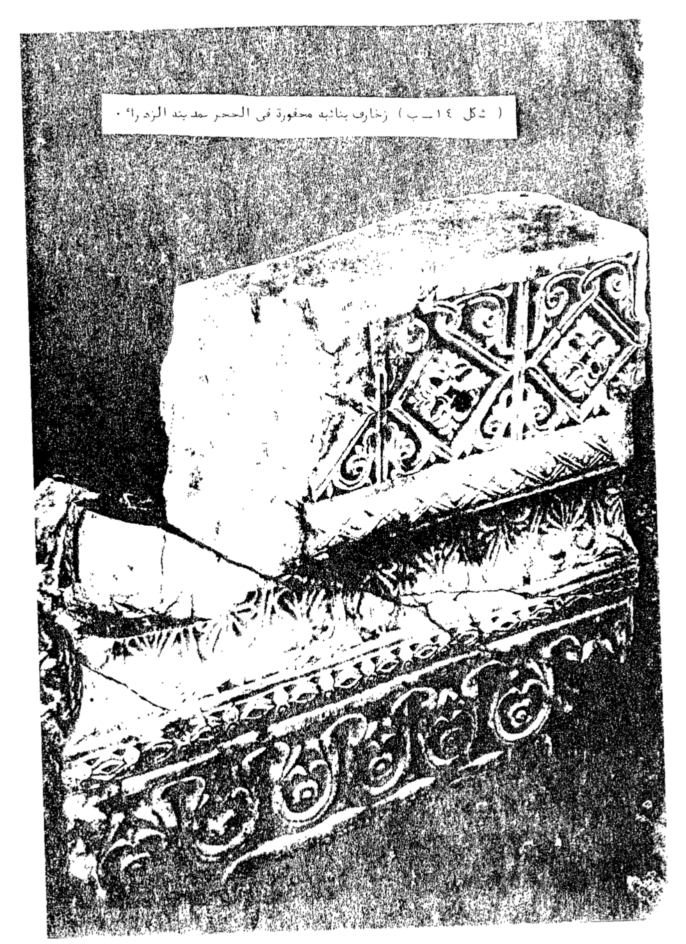


٢ — العقود المتقاطعة أحد الأسس المعمارية [illegible]
جامع قرطبة .

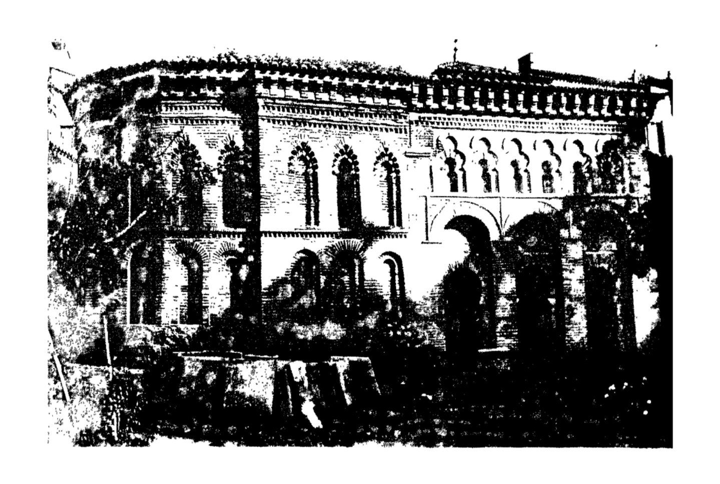




٤ -

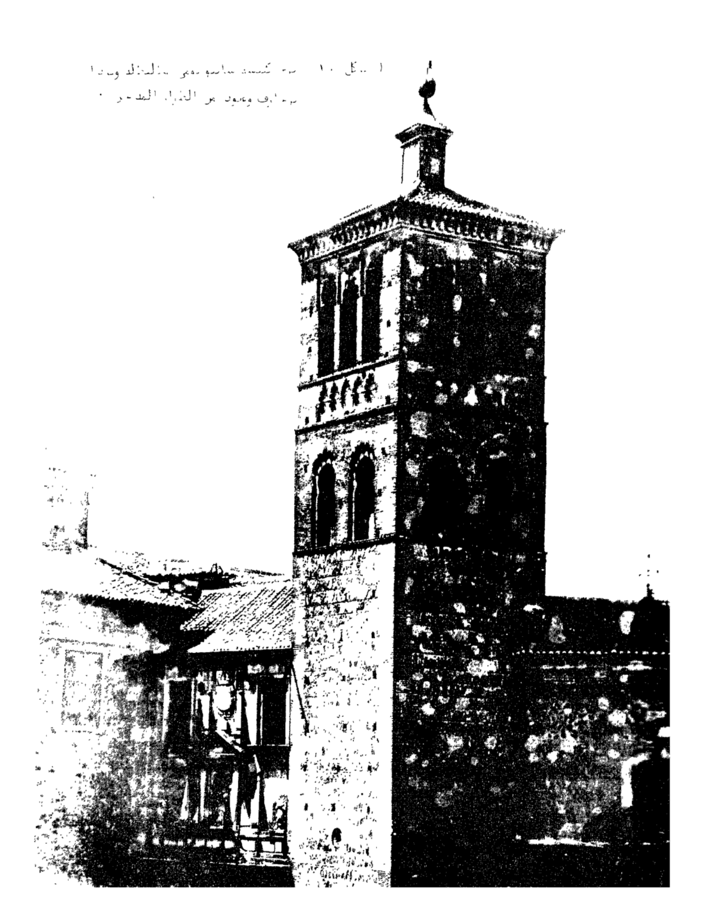


(شكل ١٤ ــ ب) زخارف بنائية محفورة في الحجر بمدينة الزهراء .



(شكل ١٥ : مسجد الباب المردوم بطليطلة .



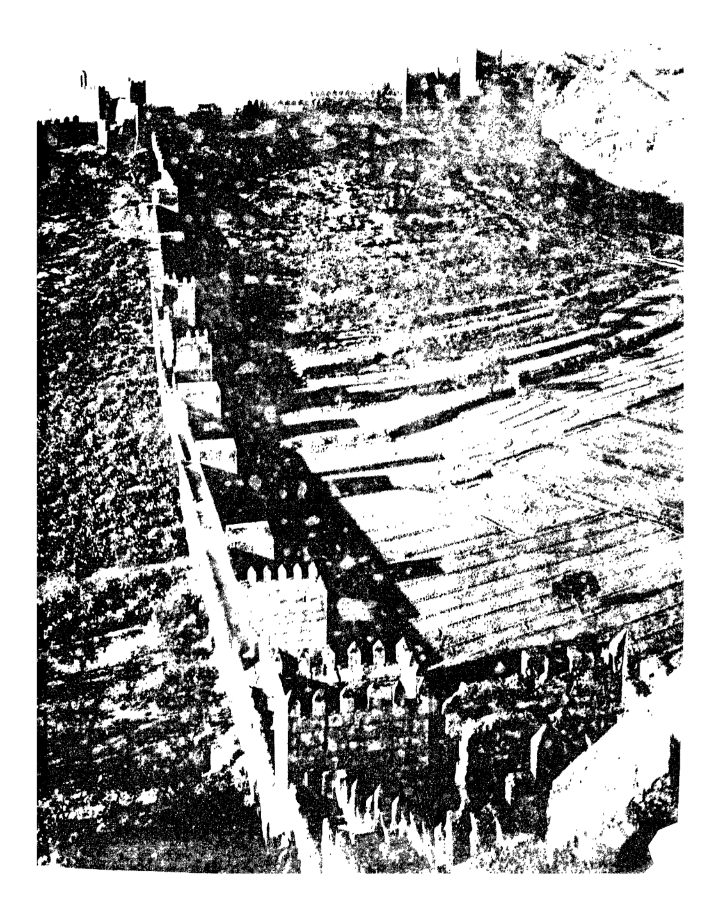


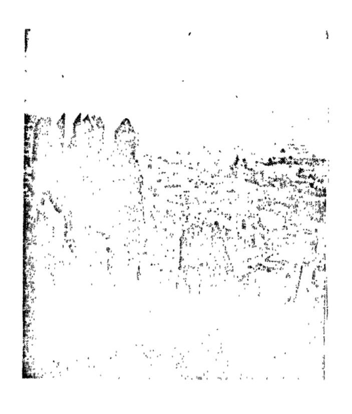
الشكل ١٠ : برج كنيسة سانتو تومي بطليطلة وبدا
بعقود وعقود من الطراز المدجن .

شكل ١٨ : برج مدجن باحدى كنائس طليطلة من القرن الثامن الهجري .

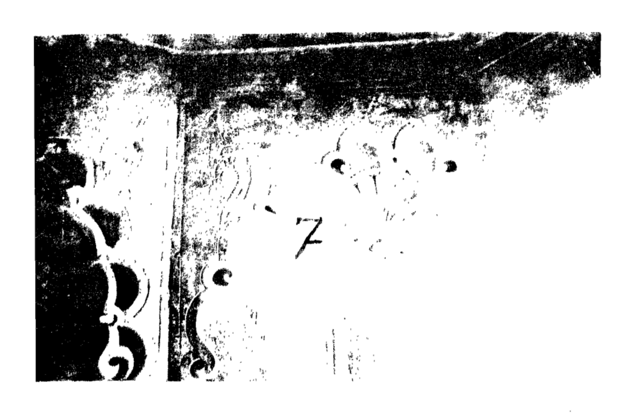








(شكل ٢١) بعض أسوار قصبة المرية •



شكل ١٢ : [illegible]



شكل ٢٣ : [illegible]



(شكل ٢٣ ـ ب) قصبة المرية .



(شكل ٢٣ ـ ج) منظر عام لأسوار قصبة المرية .



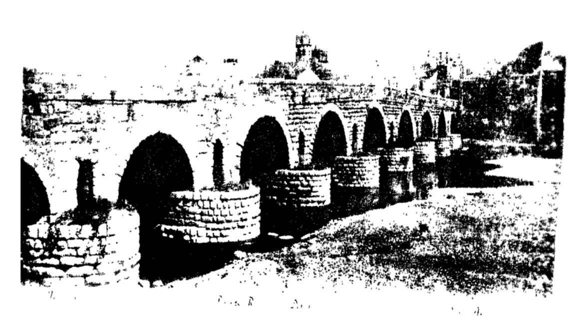
[illegible]



[illegible]



([illegible] ٢) بسيط عام .



(شكل ٢ ـ أ) القنطرة الرومانية بطارنة .



[illegible]



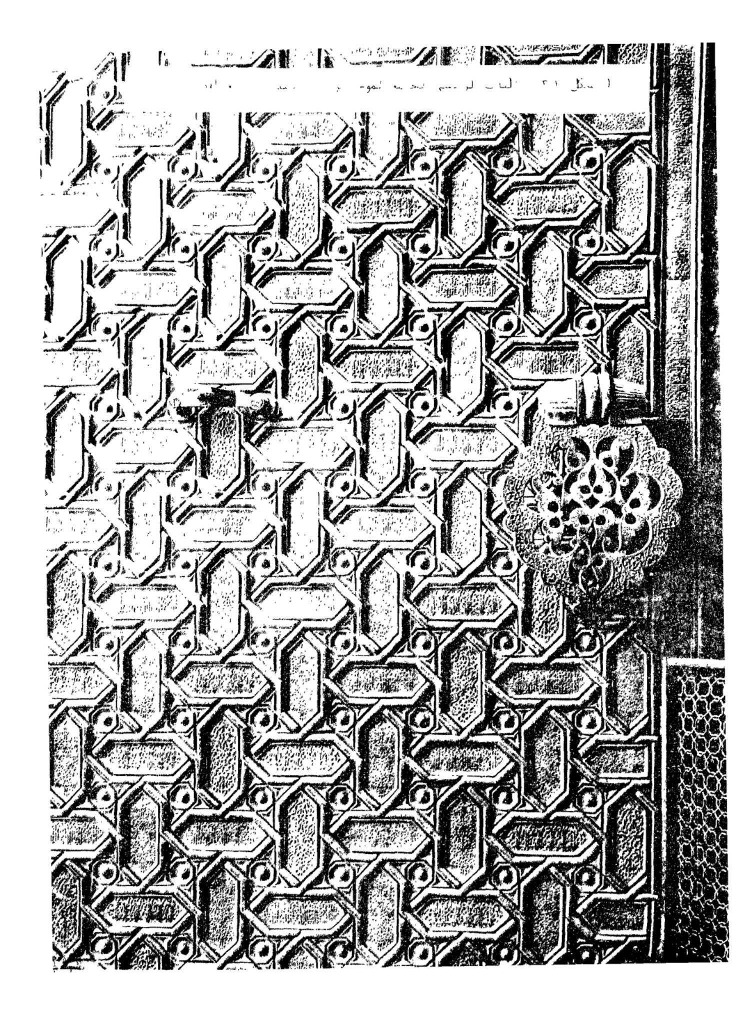
(شكل ٢٨ : حصن [illegible])



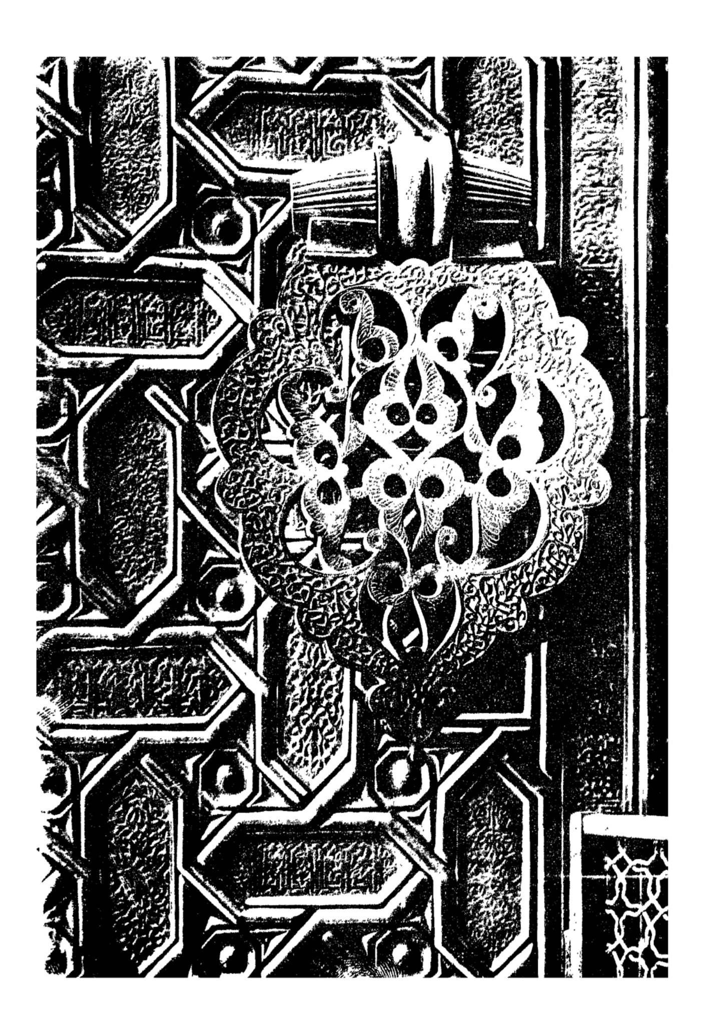
(شكل ٢٩) الأسوار الخارجية لحصن صدوقة بمرسية .

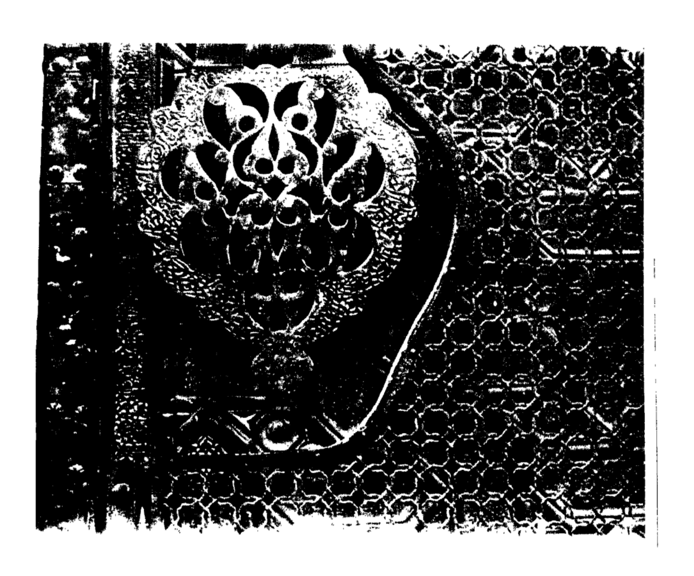


(شكل ٣٠) الباب الرئيسي لجامع الموحدين بإشبيلية (جامع القصبة الكبير) .

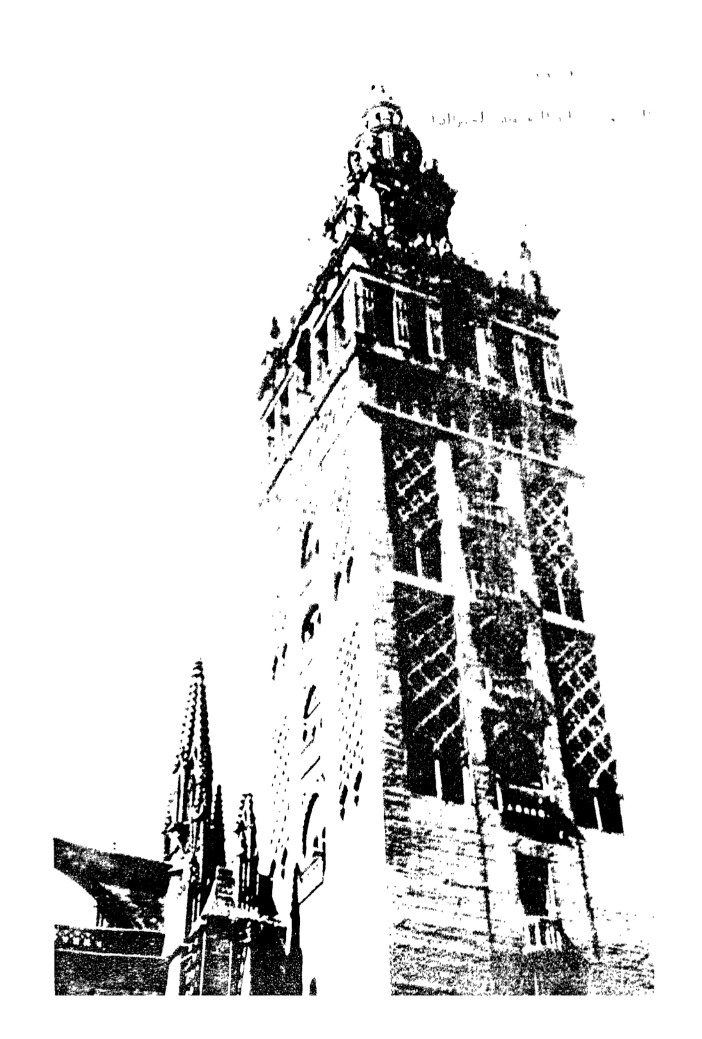


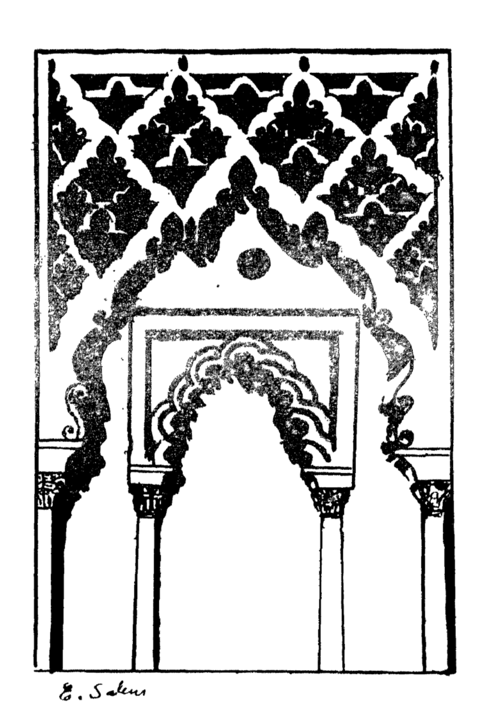
الشكل ٣١



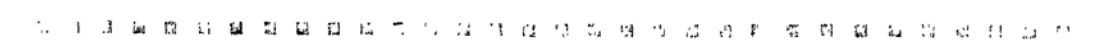


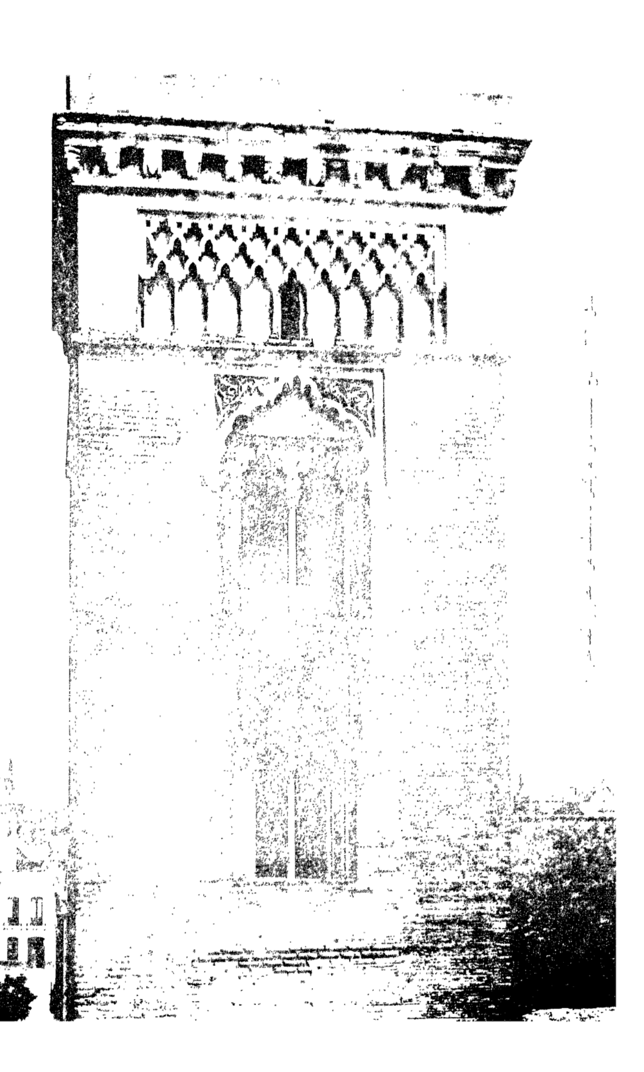
اللوحة ٣٢ ـ ب [illegible] زخرفية لأحد مصراعي باب [illegible] .





(شكل ١٤ [illegible]





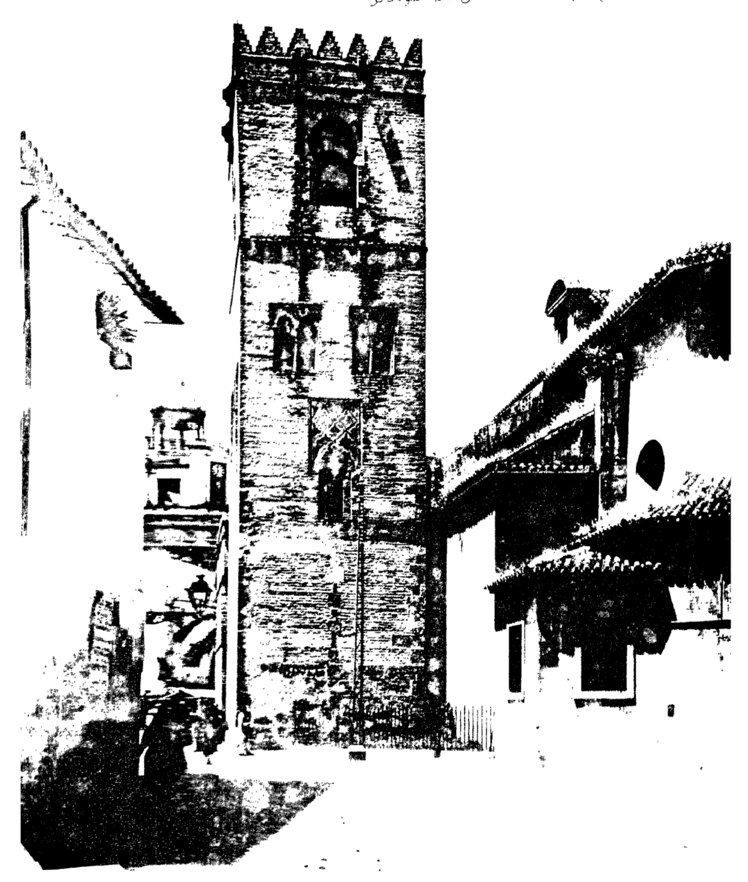


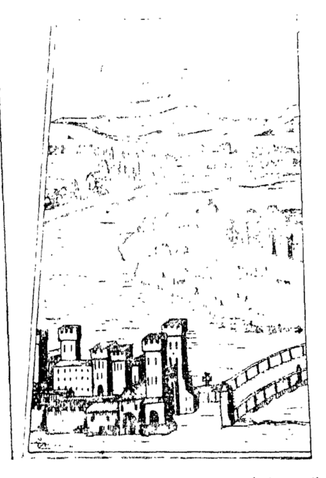


(شكل ٣٠)
(امبوم سانكورم من الباب الجديد با شبيلية)

(شكل ٣٩ ـ أ) برج كنيسة سانتا كاتالينا باشبيلية

(أس البرج أنها مئذنة مسجد من عصر الموحدين)

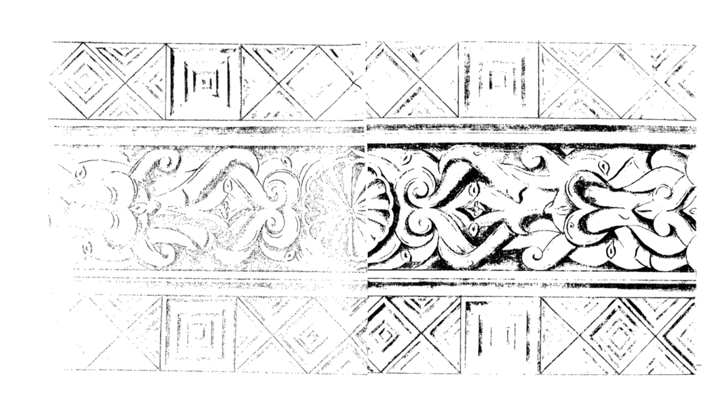


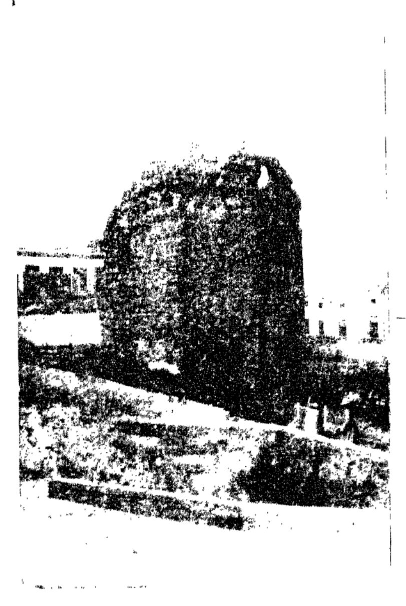


(شكل ٤٠) لوحة تمثل حصن طريانة من اشبيلية قبيل سقوطها [illegible]
عن كتاب وضع في القرن الخامس عشر



[illegible] أبو يعقوب [illegible]



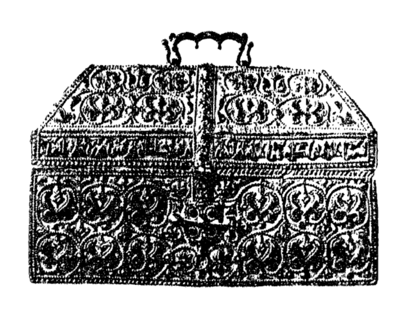


الشكل ٢ : برج أسوار مدينة [illegible]



(شكل ٤٤ [illegible]





الشكل ٥٤ [illegible] مكسو [illegible] من [illegible]